وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة)

العلامة الشيخ مبارك بن محمد الميلي الجزائري

قسم التاريخ والجغرافيا

العلاقات الداخلية والخارجية للحركات الباطنية في المشرق الإسلامي خلال القرنين (05-06هـ/11-12م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الوسيط.

إعداد الطالب: بغداد سحيري **إشراف الأستاذ الدكتور: الحاج عيفة**

أمام اللجنة المكونة من:

خالد كبير علال	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة)	رئيسا
الحاج عيفة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر2 (أبو القاسم سعد الله)	مشرفا ومقررا
مريم بوخاوش	أستاذ محاضر –أ–	المدرسة العليا للأساتذة (بوزريعة)	عضوا مناقشا
نور الدين موهوبي	أستاذ محاضر –أ–	جامعة يحي فارس (المدية)	عضوا مناقشا
عبد القادر بوعقادة	أستاذ محاضر –أ–	جامعة علي لونيسي (البليدة2)	عضوا مناقشا
فوزي رمضاني	أستاذ محاضر –أ–	جامعة عمار ثليجي (الأغواط)	عضوا مناقشا

السنة الجامعية (1439-1440هـ/2018-2019م)


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

إن الشكر الأوجب لله سبحانه وتعالى على توفيقه لنا في إنجاز هذا البحث.

ثم الشكر بعد ذلك للأستاذ المشرف الحاج عيفة، الذي ساهم بتوجيهاته وملاحظاته في إخراج البحث على صورته الحالية.

كما أتقدم كذلك بالشكر الجزيل لكل الزملاء الأساتذة في جامعة المدية الذين قدموا لنا السند والعون طيلة مراحل البحث.

وإلى كل من ساندني من قريب أو بعيد أتقد إليكم كذلك بالشكر الجزيل.

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا إلى:

- روح الوالد رحمة الله عليه وأسكنه الفردوس الأعلى.
- الوالدة الكريمة حفظها الله تعالى وأطال عمرها.
- الزوجة الكريمة، أم عبد الله وبلقيس ومرام.
- كل الإخوة والأصدقاء.

المقدمة

كان العالم الإسلامي وحدة متكاملة منذ ظهرت الدولة الإسلامية إلى الوجود على يد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، واستمرت هذه الوحدة طيلة حكم الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وجزء كبير من خلافة عثمان بن عفان، غير أن الأيام الأخيرة لخلافة هذا الأخير، شهدت ظهور بوادر الانشقاق داخل بعض الولايات الإسلامية على غرار مصر والكوفة، واتخذ مُغذُّو هذه الانشقاقات أعذار واهية يتهمون فيها عثمان بن عفان بسوء التسيير، وانتهت بمقتله في الأخير، ليتولى خلافة المسلمين بعده علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

غير أن بعضا من المسلمين استعجلوا بأخذ القصاص من قتلة عثمان، قبل مبايعة علي بن أبي طالب بالخلافة، وأمام إلحاح الموالين له بالمضي قدما فيها، استعر الخلاف بينهما حتى انجرا إلى القتال، ومنذ ذلك التاريخ صار أتباعه يسمون بالشيعة (أي المناصرين)، بينما لم يتسم مخالفوه بأي اسم، ثم خرجت من طائفة الشيعة فرقة ترفض نتائج التحكيم الذي التجأ إليه علي مع مخالفيه، فسموا بالخوارج.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الطائفتان المذكورتان (الشيعة والخوارج)، تعملان على بسط نفوذهما في جسم الدولة الإسلامية، ونتج عن ذلك أن زاغت كل منهما عن المنهج السوي، فكثر فيهم الغلاة، خاصة في طائفة الشيعة، إذ استطاع العديد من طوائفها أن يُكوّنوا لهم سلطانا سياسيا في جسم الدولة الإسلامية، على غرار طائفة الإسماعيلية التي أسست عدة دول في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي.

ازداد نفوذ الطوائف الشيعية موازاة مع الضعف الذي دب في الدولة الإسلامية، وخاصة على عهد العباسيين، فابتداء من القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي، وجدت الخلافة العباسية نفسها عاجزة عن حماية نفسها، ما فسح المجال للطوائف المتواجدة على الساحة آنذاك وهي النصيرية والدروز في بلاد الشام، والمستعلية في مصر، والنزارية في بلاد فارس، لتفرض نفسها وتسعى لتكوين سلطان سياسي لها، وما ساعدهم على تحقيق مآربهم هو انهيار القوة السنية الوحيدة المتواجدة بشمال الشام، ممثلة في دولة السلاجقة، أمام الزحف الصليبي القادم من أوربا، إذ تركت المجال خاويا لهذه الطوائف لتفرض نفسها على الساحة السياسية.

وهو موضوع بحثنا هذا المعنون ب: **العلاقات الداخلية والخارجية للحركات الباطنية في المشرق الإسلامي خلال القرنين (05-06هـ/11-12م)**، حيث نحاول من خلاله الإجابة عن الإشكالية التالية:

إلى أي مدى أثرت الحركات الباطنية في تغيير الخارطة السياسية للمشرق الإسلامي خلال القرنين (05-06هـ/11-12م) ؟

وتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية نرتبها كالتالي:

- ما المقصود بالحركات الباطنية ؟ وما هي أماكن تواجدها بالمشرق الإسلامي ؟
- فيم تمثلت استراتيجية هذه الحركات لتضمن بقاءها على الساحة السياسية مع كل من: بعضها البعض، ومع أهل السنة، ومع المسيحيين ؟
- إلى أي مدى أثر التغير السياسي للعالم الإسلامي على بقية المجالات الدينية والاقتصادية والاجتماعية ؟

ورغم أن موضوع الحركات الباطنية قد قدمت فيه دراسات كثيرة، إلا أنها كانت متشابهة وعمومية إلى حد ما، ولم تفرد بدراسة دقيقة وخاصة لنشاطاتها الداخلية والخارجية وما انجر عنها. إلا أننا وجدنا دراسة هي عبارة عن رسالة ماجستير قدمت في جامعة أم القرى سنة 1988، تحت عنوان أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين، من إعداد الطالب يوسف إبراهيم الشيخ عيد الزاملي، ثم طبعت هذه الدراسة في كتاب عدة طبعات، وهي في حقيقة الأمر دراسة قيمة، إلا أنها تختلف عما سنقدمه من حيث أنها تناولت الجانب العسكري فقط للحركات الباطنية، كما أن إطارها الزماني يمتد لأكثر من ثلاث قرون.

بينما نسعى نحن أن تكون دراستنا أوسع من ناحية النشاط الباطني إذ تناولنا الجانب العقائدي والعسكري معا، وهو ما لم يكن في الدراسة السابقة، كما أننا ركزنا على جانب العلاقات الداخلية والخارجية لهذه الحركات بما فيها العلاقة بين الحركات المدروسة نفسها، وهو ما لم يكن في تلك الدراسة، هذا وتوقفنا نحن في دراستنا عند القرن السادس الهجري الموافق للثاني عشر ميلادي، وهي الفترة التي عرفت أوسع نشاط للحركات الباطنية، فاجتهدنا أن تكون فترة

الدراسة أقصر زمنيا وأكثر دقة، والذي نريده منه أيضا هو إظهار كل جوانب التأثير لهذه الحركات على العالم الإسلامي، وليس عرقلة الجهاد فحسب، فتأثيرهم كان كبيرا في كل المجالات، ولأجل كل ذلك قررنا المواصلة في هذا الموضوع لإضافة ما غُفل عنه وإظهار كل جوانب التأثير على العالم الإسلامي آنذاك، حسب الممكن.

نبتغي من وراء هذه الدراسة تحقيق بعض الأهداف الشخصية والعلمية، فعلى الصعيد الشخصي، أرغب في إتمام ما بدأته من دراسة عن الحركات الباطنية، فقد سبق لي وأن قدمت دراسة في الماجستير حول سياسة الفاطميين في مواجهة العدوان الصليبي على الشام ومصر، وأنا أحاول الآن إتمام بقية الطوائف التي تزامنت مع الدولة الفاطمية آنذاك، وكلي أمل في كسب التخصص الدقيق حول تاريخ الحركات الباطنية ونشاطاتها.

وعلى الصعيد العلمي نسعى للتعريف بالحركات الباطنية لكشف حقيقتهم الغائبة عن السواد الأعظم من المسلمين، خاصة مع تطور الترسانة الإعلامية لهذه الحركات اليوم وتحكمهم فيها، إذ استطاعوا في أكثر من مرة أن يصوروا أنفسهم على أنهم حماة الإسلام من الغزو الصليبي، ومع الأسف ذهب أكثرنا ضحايا لذلك، وحسبنا أن ما ابتدعوه من أساليب لتضليل الناس، إلا نسخة مماثلة تماما لما كان يفعله دعاتهم عندما يريدون إدخال أحد ما في معتقدهم، وسنشير إلى ذلك بشيء من التفصيل فيما يتقدم من البحث.

هذا ما شجعني حقيقة على الخوض في هذا الموضوع، وكلي رغبة في تنوير أكبر عدد ممكن من الناس، وخاصة أهل العلم من الطلبة والباحثين بخطر هؤلاء الباطنية، وتصحيح النظرة الخاطئة التي يحملونها عنهم، ونأمل في الأخير من هذه الدراسة، أن تصبح مرجعا يستفيد منه طلبة العلم وأن تضيف لبنة جديدة إلى المكتبة الجزائرية على وجه الخصوص، والعربية عموما.

وليظهر هذا العمل في أحسن صورة رسمنا له خطة تشمل كل جوانبه، فقسمناه إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، إذ عنونا الفصل الأول بالتعريف بالحركات الباطنية، وقسمناه إلى خمسة مباحث، جعلنا أولها بعنوان ضبط المصطلحات والمفاهيم، وفيه قمنا بتعريف بعض المصطلحات التي لها علاقة بموضوع البحث، وارتأينا أن نجعلها في مبحث مستقل لأهميتها واتساعها، ثم عنونا المبحث الثاني بالتعريف بحركة المستعلية، مبرزين أصولها وعقيدتها وتوزيعها الجغرافي، ونفس الأمر

طبقناه على بقية الحركات وهي النزارية والدروز والنصيرية، فجعلنا كل واحدة منهم في مبحث مستقل، مع اعتماد نفس عناصر حركة المستعلية.

بينما عنونا الفصل الثاني بعلاقة الحركات الباطنية ببعضهم، وهو الآخر قسمناه إلى خمس مباحث، فجعلنا المبحث الأول بعنوان علاقة الفاطميين الداخلية، وتعمدنا ذكر مصطلح الفاطميين بدلا من المستعلية لأن الفترة التي يتناولها هذا المبحث كانت سابقة لظهور طائفة المستعلية، غير أنها ضرورية في البحث لأنها تمثل تمهيدا لما سيحدث لهذه الطائفة فيما بعد، كما أنها تدخل أيضا الإطار الزماني لفترة الدراسة، ثم عنونا المبحث الثاني بالعلاقات بين النزارية والمستعلية، وركزنا فيه على العلاقات بين الطرفين على الصعيدين العقائدي والعسكري، مع الإشارة إلى كل مراحل التوافق والتصادم بين الطرفين عبر تاريخهما.

أما المبحث الثالث فقد عنوناه بعلاقة المستعلية بالدروز والنصيريين، وهو الآخر شمل الجوانب العقائدية والعسكرية بين الأطراف الثلاث، وللإشارة فإننا جمعنا طائفتي الدروز والنصيرية في جزء واحد لقلة المعلومات عنهم مقارنة بالمستعلية من جهة، وحفاظا على تناسق البحث وتوازنه من جهة أخرى، ووضعنا للمبحث الرابع عنوان علاقة النزارية بالدروز والنصيرية، وتتبعنا فيه نفس عناوين المبحث الثالث تقريبا، فركزنا على جوانب العقائد والجوانب العسكرية، وما انجر عنها من توافق وتصادم طيلة حياة هذه الأطراف.

بينما جاء آخر المباحث لهذا الفصل بعنوان علاقة الدروز بالنصيرية، تناولنا فيه أهم العلاقات بين الطرفين، مبرزين أوجه التشابه والاختلاف بين العقيدتين، بينما لم نجد للطرفين علاقات عسكرية، فالطائفتان ضعيفتان كما ذكرنا سابقا، ولم يجرؤ أحدهما على مناوشة الآخر، وحسبنا أننا اجتهدنا قدر المستطاع للبحث عن مواطن التصادم العسكري، إلا أننا لم نعثر عليها.

وفيما يخص الفصل الثالث فقد عنوناه بعلاقة الحركات الباطنية بأهل السنة، وقسمناه إلى أربع مباحث، جعلنا فيه مبحثين لعلاقة المستعلية بأهل السنة، أوله قبيل الحروب الصليبية، والثاني أثناء الحروب الصليبية، تناولنا في المبحث الأول علاقة الفاطميين بأهل السنة على الصعيدين العقائدي والعسكري وبعضا من الجوانب الأخرى المتعلقة بالاقتصاد وما إلى ذلك، بينما ذكرنا في

المبحث الثاني علاقة الفاطميين (المستعلية) بأهل السنة، وقد شملت الجوانب العسكرية والسياسية في غالبها لأنها تزامنت مع بداية الاحتلال الصليبي لأرض الشام.

أما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه علاقة النزارية بأهل السنة، وكانت عسكرية في أغلبها بينما لم نذكر الجانب العقائدي لأنه مماثل تماما لما تناولناه في المبحث السابق لما تكلمنا عن الفاطميين، وغايتنا في ذلك تجنب التكرار لا أكثر، فعرجنا على أهم العلاقات بين الطرفين في كل من بلاد فارس وأرض الشام، وما تركته من تأثير على مجتمع الإسلامي هناك.

ثم جعلنا المبحث الرابع لعلاقة كل من الدروز والنصيريين بأهل السنة، وكانت هي الأخرى على الصعيدين العقائدي والعسكري، غير أنها كانت في الجانب العقائدي أكثر من العسكري، إذ لم يكن بمقدور الطائفتين الصمود أمام القوة السنية، ولذلك اجتهدوا في حفظ أنفسهم الهلاك العسكري الوشيك.

وعلى نفس المنوال اعتمدنا الفصل الرابع المعنون بعلاقة الحركات الباطنية بالعالم المسيحي، فقسمناه هو الآخر إلى أربع مباحث، خصصنا المبحث الأول لعلاقة الفاطميين بالعالم المسيحي قبيل الحروب الصليبية، ثم جعلنا المبحث الثاني لعلاقة الفاطميين بالعالم المسيحي أثناء الحروب الصليبية، وهو أطول مبحث في الفصل لاحتوائه على جل الصراعات العسكرية التي جرت بين الطرفين طيلة حياة الدولة الفاطمية، وأما ثالث المباحث فعنوناه بعلاقة النزارية بالعالم المسيحي، وقد كانت عسكرية محضة، فطيلة تجاور الطرفين مع بعض ولد احتكاكا شبه دائم من أجل المصالح، وانجر على ذلك حدوث بعض المناوشات والتي كانت في أغلبها عمليات تصفية من جانب النزارية، وفي مقابلها كان الصليبيون يغيرون بشكل مستمر على معاقل النزارية في بلاد الشام، إما لتأديبهم أو لتوسيع مناطق النفوذ.

والمبحث الرابع أفردناه لعلاقة كل من الدروز والنصيرية بالعالم المسيحي، وقد كانت على جانبين أحدهما عقائدي والآخر عسكري، وعلى غير العادة وجدنا احتكاكا كبيرا بين الأطراف الثلاث على الصعيد العقائدي، بينما لم يكن للاحتكاك العسكري بينهم كبير أثر وخاصة ما بين النصيريين والعالم المسيحي.

أما الفصل الخامس فجعلنا له عنوان أثر الحركات الباطنية على العالم الإسلامي، وأدرجنا ضمنه مجموعة من المباحث، عنونا أوله بفساد المعتقد، حيث أثرت هذه الحركات على المعتقد الصحيح وغيرته في كل مكان وصلت إليه، ثم جعلنا المبحث الثاني تحت عنوان تعطيل عملية الجهاد الإسلامي، فأظهرنا أهم الأعمال التي ارتكبوها في حق من حملوا راية الجهاد الإسلامي، ثم جعلنا المبحث الثالث بعنوان ضياع مدن العالم الإسلامي، وهو في حقيقة الأمر نتاج ما قامت به هذه الحركات بعد أن تحالفت مع غير المسلمين ضدهم، فكان من نتيجة ذلك أن ضاعت هذه المدن لصالح الصليبيين.

وختمنا بخاتمة هي عبارة عن مجموعة من الاستنتاجات التي خرجنا بها في بحثنا هذا، مع تقديم بعض التوصيات التي نرى أنه من الضروري الوقوف عندها.

عرض لأهم مصادر البحث

اعتمدنا في إنجاز هذا البحث على مجموعة متنوعة من المصادر، حسب ما اقتضته طبيعة البحث، فمواضيعه متشعبة كثيرا، وفيه طوائف عدة، ولكل طائفة مصادرها، فضلا عن المصادر السنية والصليبية، ولذلك يمكننا أن نقسم هذه المصادر إلى:

أ- مصادر شيعية

ب- مصادر سنية

ت- مصادر صليبية

أ- المصادر الشيعية

اعتمدنا على مجموعة من المصادر الشيعية لأن الموضوع أساسا يتناول هذه الطوائف، وهي مختلفة عن بعضها البعض، إذ نجد لكل طائفة مصادرها التي استندت إليها في كتابة عقائدها ونشاطاتها، غير أننا لم نعثر على مصادر النزارية رغم نشاطها الطويل، ولا ندري سبب قلتها، ومن هذه المصادر نذكر:

- كتاب **دعائم الإسلام** للقاضي النعمان بن حيون المغربي (ت 363هـ/974م)، وهو من المصادر القديمة في الفقه الإسماعيلي، ألف بناء على رغبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، اعتمدناه في شرح بعض من تعاليم العقيدة الإسماعيلية.
- كما اعتمدنا أيضا على كتاب **السجلات المستنصرية**، وهو عبارة عن وثائق صدرت باسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (ت 487هـ/1094م)، وهي مجموعة تضم 66 وثيقة أو سجلا أصدرها ديوان الإنشاء الفاطمي باسم المستنصر بالله في الفترة من (445هـ/1053م إلى غاية 487هـ/1094م)، اعتمدنا هذا المصدر في التأريخ لعلاقة الفاطميين بالصليحيين في اليمن خلال فترة المستنصر بالله الفاطمي.
- **كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار** ألفه الداعي إدريس عماد الدين بن الحسن (ت 872هـ/1468م)، وهو أشمل عمل يقع في سبع مجلدات في تاريخ الإسماعيليين منذ نشأتهم وإلى غاية النصف الثاني من القرن السادس هجري الثاني عشر للميلاد، اعتمدنا على الجزئين السادس والسابع منه، وهو يتناول تاريخ الدولة الفاطمية منذ نشأتها إلى نهايتها، ويعد هذا الكتاب أحد أهم المصادر الشيعية التي تناولت تاريخ الإسماعيليين عموما، وتاريخ الفاطميين على وجه الخصوص.

وفيما يخص المصادر المتعلقة بطائفة الدروز، فإننا اعتمدنا على ما توافر لدينا من مصادر، وهي على قلة لأنها غير متاحة لعامة الناس في ظل اعتماد أصحابها على عقيدة السر والكتمان، لكن بعضها خرج إلى العلن وهي متداولة في كثير من المكتبات ومتاحة لمن أراد الإطلاع عليها، ومنها:

- **رسائل الحكمة**، وهي عبارة عن مجموعة من الرسائل ألفها أشخاص عدة وهم حمزة بن علي، وإسماعيل التميمي، وبهاء الدين السموقي، وهم الأوائل الذين هندسوا ونظروا لهذه الطائفة، وتشتمل هذه الرسائل على أهم نشاطات الدروز منذ نشأة مذهبهم وإلى زمن تواجد هؤلاء المنظرين، كما أنها تعد أول مصدر فقهي لهذه الطائفة، اعتمدنا هذا المصدر لأنه أول مصادرهم، ومنه استخرجنا الكثير من نشاطات الدروز على كافة الأصعدة، ولأهميته، لا نكاد نجد باحثا يكتب عنهم إلا ويعتمده.

- **مجموعة رسائل الكرماني**، وهي أيضا من المصادر المهمة في تاريخ الطائفة الدرزية، لأنها ظهرت في الأيام الأولى لظهور هذه الطائفة، إذ يعد مؤلفها المدعو حميد الدين الكرماني (ت 411هـ/1020م) أحد منظري الطائفة، وهي تتكون من ثلاث عشرة رسالة نسبت إحدى عشر منها إلى الكرماني بينما وقع الشك في الأخيرتين غير أن الدكتور مصطفى غالب، يؤكد أنها من تأليفه، وهذه الرسائل شملت مناحي العقيدة، والفقه الدرزي، كما أنها احتوت أيضا على بعض من نشاطات الدروز عند أول ظهور لهم ببلاد الشام، اعتمدناها في هذا البحث عند التعريف بطائفة الدروز خلال الفصل الأول، كما اعتمدناها أيضا في الفصل الثاني في سياق حديثنا عن العلاقات الفاطمية الدرزية.

تجدر الإشارة إلى أن المصادر الدرزية الآنفة الذكر، تختص في أغلبها بالجانب العقائدي، وما ينجر عنه من نشاطات اجتماعية، بينما لم تتناول الجانبين العسكري والسياسي، وسبب ذلك واضح، فمؤلفو هذه الرسائل هم أول من أسس لهذه الطائفة كما ذكرنا سابقا، وقد كانت في أيامها الأولى تسعى للحفاظ على حياتها واستمرارية وجودها، ولم يكن لها سلطان سياسي أو عسكري يحميها، ولذلك كانت تتجنب أية صدامات عسكرية، وبالتالي لم تكن لها أية نشاطات عسكرية، وهذا هو سبب عدم ورود النشاطات العسكرية والسياسية بشكل كبير في تاريخ هذه الطائفة.

غير أنه وبمرور الزمن جاء بعض المؤرخين من الدروز، وهم على عصر متأخر جدا، وتناولوا تاريخ طائفتهم بالمجمل، بما فيها الجوانب السياسية والعسكرية، ومن هؤلاء المؤرخين نذكر:

- طنوس الشدياق، صاحب كتاب **أخبار الأعيان في جبل لبنان**، وهو من أهم المصادر الدرزية التي تناولت تاريخهم، رغم حداثته، إذ تنتهي دراسته في حدود منتصف القرن التاسع عشر، اعتمدنا عليه في التأريخ للحوادث العسكرية الدرزية، وللحقيقة فإننا لم نتعرف على نشاطهم العسكري، إلا عن طريقه، إذ أنه مرت علينا العديد من الحوادث عن أسر وشخصيات درزية، وأدرجناها ضمن بحثنا لا على أساس أنها درزية، وإنما على أسس أخرى، لنكتشف بعد اطلاعنا على هذا المصدر أنها من أصول درزية، فكان بحق أهم مصدر اعتمدناه للكشف عن النشاط العسكري والسياسي لهذه الطائفة.

- حنا أبي راشد الذي ألف كتابا بعنوان **جبل الدروز**، وهو كتاب تناول تاريخ الطائفة الدرزية عبر تاريخها، وصولا إلى القرن العشرين، ورغم أنه مصدر حديث، إلا أنه يعد من أهم المصادر الدرزية، لأنه يتناول تاريخهم على طريقتهم، واعتمادا على مصادر هي في حقيقة الأمر غير متاحة لعامة الناس، اعتمدناه لأجل سد الفراغ في الجوانب المهملة في باقي المصادر المذكورة سابقا، غير أنه لم يكن وافيا لما نريده عنهم، لأنه يهتم أكثر بالفترة الحديثة، ويركز على النشاط الحربي ضد الاستعمار الأوربي الحديث، لكنه يبقى مصدرا مهما في تاريخ الدروز.

أما عن طائفة النصيرية فإننا اعتمدنا على مجموعة من مصادرها، منها ما كان على العهد الأول لنشأتها، ومنها ما جاء متأخرا، وهي بذلك تشبه إلى حد ما طائفة الدروز، بحيث اهتم مؤرخوها الأوائل بالجانب العقائدي فقط، ثم اهتم المتأخرون ببعض من جوانب الحياة العامة لهم، ومن هذه المصادر نذكر:

- **الهفت الشريف**، المنسوب زورا وبهتانا لجعفر الصادق، وهو في حقيقة الأمر من تأليف المفضل بن عمر الجعفي، وهو أهم مصادر الطائفة النصيرية، لعدة اعتبارات، فأولها هو أنه يعد الأقدم في طائفة المصادر تاريخيا، وثانيا لأنه ينسب إلى جعفر الصادق نفسه، وهذا في حقيقة الأمر مبالغ فيه، لأن ما ورد بداخله لا يمت بصلة لمكارم وأخلاق آل البيت، فما عرف عنهم أنه على منهج النبي صلى اله عليه وسلم السوي، بينما نجد في هذا الكتاب خرافات وأساطير لا علاقة لها بالإسلام، وعلى أية حال يبقى هذا الكتاب أحد أهم مصادر الطائفة النصيرية، لأنه يحوي كل معتقداتها، وبعضا من تاريخها الذي ينسبونه إلى غابر الزمن، وهو على غير ذلك بالاستناد إلى الحقائق التاريخية.
- **ديوان المكزون السنجاري**، وهو عبارة عن مجموعة شعرية وضعها المدعو المكزون السنجاري، وهو أحد دعاة طائفة النصيرية، وقادتها العسكريين في القرن السادس الهجري، يعد هذا الكتاب رغم أدبيته أحد أهم المصادر النصيرية، لأنه يتناول عقيدتهم في قالب شعري، وقد ألم بكل جوانبها، فنظر لها أحسن تنظير، وأصبح مرجعا هاما عند النصيريين أنفسهم، اعتمدناه في التأريخ لنشأة الطائفة النصيرية، ولعلاقاتها الخارجية ببعض الطوائف المجاورة.

- **الباكورة السليمانية في تاريخ الطائفة النصيرية (لسليمان الأدني)**، وهو من أوثق المصادر النصيرية، فصاحبه كان على مذهب النصيرية، وعاش بينهم ردحا من الزمن حتى تلقى كل التعاليم المتعلقة بهذه الطائفة، ثم لما علم بزيغها ارتد عنها، وهاجر إلى أمريكا، وألف كتابه هذا ليفضح كذبها وضلالها، وهو ما عرضه للتصفية الجسدية، اعتمدنا هذا المصدر لأنه تناول هذه الطائفة بمنظور مختلف تماما عن المصادر الأخرى، إذ لم يكن مدافعا عنها كما فعل سابقوه، فجاء بحقائق مذهلة لم تذكر عنهم من قبل، حتى أن بعضا من المؤرخين اتهموه في بداية الأمر بالكذب، لكنهم فوجئوا فيما بعد بصحة ما قاله بعدما قارنوا كلامه ببعض المصادر الأخرى، واتضح لهم صدقه، ولأجل كل ذلك اعتمدنا هذا المصدر، وأعطيناه الأهمية البالغة طيلة حديثنا عن هذه الطائفة وفي كل جوانب حياتها.
- **تاريخ العلويين (لمحمد أمين غالب الطويل)**، وهو مصدر نصيري متأخر، يتناول تاريخ الطائفة عبر تاريخها وإلى غاية العصر الحديث، وهو من أهم المصادر التي اعتمدناها في الكشف عن نشاطات النصيريين، غير أن ما يعاب عليه هو أنه يتناولها من منظور نصيري بحت، بحيث وجدناه يذكر بعض الحوادث المغلوطة، ويدافع على صحتها وهي واضحة السقم لكل من له بعد نظر.

ب- المصادر السنية

قسمنا المصادر السنة هي الأخرى إلى عدة مجموعات، اختصت كل مجموعة منها بجانب معين من البحث، فهناك المصادر المتعلقة بالعقيدة والفرق، وهناك مصادر متعلقة بالتاريخ العام، وأخرى جعلناها للتعريف بملحقات البحث كالشخصيات والمواقع الجغرافية، إضافة إلى بعض من مصادر الحديث النبوي التي اعتمدناها لأجل التأكد من بعض الأحاديث الواردة في موضوع الدراسة، وفيما يلي سنقدم نماذج عن كل صنف من هذه المصادر:

- **الفرق بين الفرق** (لأبي منصور عبد القادر بن طاهر البغدادي ت429هـ/1037م)، يعد مصدرا هاما من المصادر التي تناولت الفرق الإسلامية ومعتقداتها وأهم أنشطتها، وركز فيه جل اهتمامه عن الباطنية رغم ما تناوله إذ حذر منهم، ومن فساد معتقدهم، ورافقه في ذلك

بالكشف عن بعض حيلهم في الدعوة لمذهبهم، اعتمدنا عليه للتعريف بالحركات الباطنية وأهم معتقداتهم وبعضا من نشاطهم الاجتماعي.

- **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة** (لأبي عبد الله محمد بن مالك المعافري المتوفى أواسط القرن الخامس الهجري)، ويعد هذا الكتاب من أمهات المصادر السنية التي تناولت تاريخ الحركات الباطنية في الإسلام، وتكمن أهميته في أن مؤلفه كان قد عاشر الصليحيين في اليمن خلال القرن الخامس الهجري الذين كانوا على مذهب الإسماعيلية، ولم يظهر نفسه على حقيقته، بل ادعى أنه منهم فعرف منهم الكثير من الحقائق، ثم دونها في كتابه هذا، اعتمدناه هو الآخر في التعريف بالحركات الباطنية وفي الكشف عن معتقداتهم.
- **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية** (لأبي حامد الغزالي ت 505هـ/1111م)، وهو من أقدم الأعمال الجدلية المناوئة للإسماعيليين الفرس، اعتمدنا هذا المصدر في أغلب أطوار البحث، وخاصة ما تعلق بالعقائد الباطنية وحيلهم في الدعوة، وقد كان وافيا وشاملا لما يتعلق بالباطنية، خاصة وأنه كان معاصرا لهم.
- **ذيل تاريخ دمشق** (لابن القلانسي 470-555هـ/1077-1160م)، وهو من المصادر السنية الهامة التي أرخت لحوادث التاريخ الإسلامي زمن الحروب الصليبية، ومعها ركز على نشاطات الباطنية وخاصة طائفتي النزارية والمستعلية، غير أنه ركز على النزارية بشكل أوضح، اعتمدنا عليه من أجل التأريخ للنشاطات العسكرية لهذه الحركات، ويتميز هذا الكتاب عن بقية الكتب في أنه جاء مختصرا لفترة زمنية لا تتجاوز القرنين، كما أنه لم يتقيد بمنطقة واحدة على غرار ابن العديم الذي كتب عن تاريخ حلب فقط في كتابه (زبدة الحلب في تاريخ حلب)، وهو الآخر يعد مصدرا مهما من مصادر البحث لأنه يتناول فترة حساسة في تاريخ العلاقات الدولية آنذاك.
- **الكامل في التاريخ** (لابن الأثير ت 630هـ)، وهو مصدر تاريخي عام، بدأ بتدوين الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة، وصولا إلى زمن المؤلف وهو بداية القرن السابع الهجري، ويعد هذا المصدر من أهم المصادر التي اعتمدناها في التأريخ للحركات الباطنية، إذ ركز على جل نشاطاتهم العسكرية، وخاصة طائفتي النزارية والمستعلية، وهو من أوثق المصادر لكونه أقرب إلى

زمن الحوادث، كما أنه عاصر بعضا منها والتي تزامنت والحروب الصليبية، اعتمدناه خصيصا لأجل هذه الفترة.

- وتضاف إلى قائمة هذه المصادر مجموعة أخرى نذكر بعضا منها الآن على أن نؤجل الباقي إلى قائمة المصادر والمراجع، ومنها مؤلفات شمس الدين الذهبي (673-748هـ)، وهي كتب (**تاريخ الإسلام – دول الإسلام**)، ومؤلفات تقي الدين المقريزي وهي (**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء– المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار– إغاثة الأمة بكشف الغمة**)، وكتاب (**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**) لابن تغري بردي الأتابكي، وكتاب **تاريخ دولة آل سلجوق** (للعماد الأصفهاني)، اعتمدنا هذه المصادر من أجل التأريخ للنشاط الباطني خلال فترة الحروب الصليبية وقبلها بقليل وهي كلها مصادر مهمة من مصادر التاريخ السني.
- وفيما يخص المصادر الجغرافية فإننا اعتمدنا مجموعة يسيرة منها لأجل التعريف بالمواقع المذكورة في البحث، ومنها كتب ياقوت الحموي (**معجم البلدان– المشترك وضعا والمفترق صقعا**)، إضافة إلى كتاب **البلدن** (لليعقوبي)، وكتاب المقدسي (**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**)، وكتاب **الانتصار لواسطة عقد الأمصار** (لابن دقماق)، إضافة إلى مصادر أخرى سيأتي ذكرها فيما يلحق من البحث.
- واعتمدنا في تعريف الشخصيات على مجموعة من المصادر، منها كتاب **وفيات الأعيان** (لابن خلكان (608-681هـ)، وكتاب **سير أعلام النبلاء** لشمس الدين الذهبي (673-748هـ)، إضافة إلى كتابي **الإصابة في تمييز الصحابة، وتهذيب التهذيب** لابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، وكتاب **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** لابن العماد الحنبلي (1032-1089هـ)، وهي في أغلبها مصادر سنية، اعتمدناها لثقتها، ولأنها تتفق في أغلبها في تعريفها للشخصيات.
- وعن كتب الحديث فإننا اعتمدنا على مجموعة منها من أجل إثبات صحة بعض الأحاديث النبوية الواردة في البحث من عدمها، ومن هذه الكتب نذكر كتب الصحاح وهما (**صحيح البخاري**)، (**وصحيح مسلم**)، وهما كما نعلم أوثق كتب الحديث، كما اعتمدنا أيضا على كتاب (**الضعفاء الكبير**) لمؤلفه أبي جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي،

إضافة إلى كتاب (**كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**) لإسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، تضاف إلى هذه القائمة بعض آخر أرجأنا ذكره إلى قائمة المصادر في الأخير.

ت- المصادر الصليبية

ولأن موضوعنا يتناول نشاط الحركات الباطنية خلال القرنين الخامس والسادس هجريين، وهي الفترة التي تزامنت والوجود الصليبي ببلاد الشام، وبالتالي وجود احتكاك كبير بين الحركات الباطنية والصليبيين، فإنه توجب علينا أن نعتمد على مصادر صليبية في البحث، وهي على كثرة، إذ نجد كثيرا من مؤرخي الحروب الصليبية كانوا شهود عيان سايروا الحملة أو عاشوا داخل الإمارات الصليبية وكتبوا عن أهم النشاطات الصليبية ببلاد الإسلام، لكن ما ينبغي أن نشير إليه هو أن هذه المصادر لم تلتزم جانب الحياد في الكتابة، وإنما كتبوا بدافع عاطفي فرافقت كتاباتهم الكثير من الأساطير والخرافات التي فندتها المصادر الإسلامية المعاصرة آنذاك، ومن المصادر الصليبية المعتمدة في هذا البحث نذكر:

- **كتاب الحروب الصليبية** لويليام الصوري (Gullaume de tyr)، وهو مصدر مهم جدا في مصادر الحروب الصليبية، لأنه من أقدمها تاريخيا إذ تناول الفترة الممتدة من (1094-1184م)، ومؤلفه ويليام الصوري يعد أحد أعظم مؤرخي الحروب الصليبية لعدة أسباب فأولها أنها كان معاصرا للفترة التي يكتب عنها فهو مولود سنة (1130م)، كما أنه كان متقنا لعدة لغات كاللاتينية والفرنسية واليونانية والعربية، إضافة إلى حصوله على العديد من الوثائق التاريخية لكونه مقربا من صناع القرار الصليبيين، وإشرافه في مرحلة من المراحل على منصب رئيس ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس، كما تولى منصب سفير لدى إمبراطور بيزنطة إمانويل، وكل ذلك جعل منه مؤرخا متميزا، فجاء بذلك كتابه الحروب الصليبية كأحد أهم مصادر هذه الفترة، اعتمدنا عليه في ذكر الحوادث المتعلقة بالنشاط الصليبي ببلاد الشام، وأهم العلاقات التي ربطت الصليبيين بالحركات الباطنية وخاصة طائفة المستعلية في مصر.

- **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس** لبطرس توديبو، وهو الآخر يعد أحد أهم المصادر الصليبية لعدة اعتبارات، فمؤلفه بطرس توديبو كان هو الآخر مرافقا للحملة الصليبية الأولى على أرض الإسلام، وكان شاهدا على كل أعمال الصليبيين بأرض الإسلام بدءا من بلاد الأناضول، وصولا إلى بيت المقدس، ولذلك توجب علينا اعتماده في بحثنا هذا لأنه هو الآخر تناول تاريخ العلاقات بين الصليبيين وكل الطوائف المنتشرة ببلاد الشام على وجه الخصوص، وبالتالي علاقة الصليبيين مع الحركات الباطنية وخاصة المستعلية.
- **تاريخ الحملة إلى بيت المقدس** لفوشيه الشارتري، هو أيضا مصدر جد هام في تاريخ الحملات الصليبية، وتكمن أهميته في أنه كان قريبا جدا من الحوادث التي سجلها، فمؤلفه كان هو الآخر مرافقا للحملة الصليبية الأولى، وكان من أبرز الداعين إليها، ولذلك قام بتسجيل كل حوادثها بدءا من خروج الحملة من مدينة شارتر بفرنسا إلى غاية استقراره ببيت المقدس، غير أن هذا المؤرخ تميز بالتعصب الشديد لما كان يقوم به الصليبيون في حق المسلمين، لأنه كان رجل دين في الكنيسة، فكان حريصا على أن يعلو الدين المسيحي على حد زعمه على الإسلام، إضافة إلى أنه كان يحن لإعادة بيت المقدس إلى حاضرة النصارى كما كان عليه قبل فتحه من طرف المسلمين.
- **تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس (1095–1120م)** لمؤلفه الألماني (ألبرت فون آخن – Albert von Aachen)، وهو أيضا من المصادر الأولى التي أرخت للحملة الصليبية الأولى، فصاحبه اعتمد في كتابته على ما سمعه من الحجاج الصليبيين العائدين من الشرق الإسلامي، كما أنه اعتمد على كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس لمؤرخ مجهول، ولذلك عُدّ كتابه من أهم المصادر التي أرخت للحرب الصليبية الأولى، وظل هذا الكتاب إلى غاية القرن التاسع عشر من أهم المصادر الصليبية بل وأصدقها على الإطلاق، رغم ما حمله من أساطير وخرافات أضيفت إلى تأريخاته للحملة، فنقل عنه العديد من المؤرخين كويليام الصوري، ولعل أكثر ما تميز به هذا المصدر هو أنه أرخ بتفصيل كثير عن مسير الحملة الصليبية في كل من آسيا الصغرى وشمال سوريا، وهو ما لم يركز عليه الآخرون.

هذه أمثلة عن المصادر التي اعتمدناها في بحثنا هذا، وهي جزء من مجموعة طويلة من المصادر والمراجع التي سيأتي ذكرها في قائمة المصادر والمراجع في آخر البحث.

واجهتنا العديد من الصعوبات في إنجاز هذا البحث، لأن الإطار الزماني والمكاني له واسعين، إذ يتناول مدة قرنين من الزمان، ولنا أن نتخيل ما تحمله هذه المدة من حوادث، كما أن الرقعة الجغرافي التي شغلتها هذه الحركات تمتد من حدود المغرب الإسلامي إلى ما وراء النهر في أرض فارس، ومن أوربا شمالا إلى اليمن وبلاد النوبة جنوبا، وكل ذلك جعل الإلمام بالموضوع صعب للغاية، فعملنا جاهدين على ألا ندع حادثة تتعلق بالموضوع إلا ذكرناها.

تضاف إلى ذلك مشاكل وصعوبات أخرى يتعلق بعضها بقلة المعلومات في بعض الجوانب، إذ عجزنا في كثير من الأحيان أن نجد معلومات متعلقة بنشاط بعض الحركات خاصة حركتي النصيرية والدروز، وكان العجز أكثر وضوحا في نشاطهم العسكري، فعلى الصعيد العقائدي، لم نجد صعوبات في إيجاد المعلومات، لكننا وجدناها في فهمها ومعرفة مقاصدها، إذ استعمل المنظرون لهذه الحركات بعض العقائد القديمة ومزجوها بعقائد أخرى وجعلوها كلها عقيدة موحدة، فلم يعد بإمكاننا فهمها إلا عن طريق بعض المراجع المقربة منهم، لكنها تبقى محدودة في شرحها لأنها هي الأخرى اعتمدت على التخمين أحيانا وعلى الاحتكاك المباشر بهم أو على بعض المرتدين منهم أحيانا أخرى.

وفيما يخص نشاطهم العسكري والسياسي فالمؤرخون لم يهتموا لأمرهم كثيرا، ولذلك وجدنا صعوبات جمة في التأريخ لهم، فاعتمدنا على مصادرهم، لكنها تبقى غير كافية، لأننا قد لا نعرف صحتها من سقمها، فهم يمارسون التقية، وربما يمارسونها في كتابتهم، وكان علينا أن نجتهد في نقدهم ومعرفة صحة ما كتبوه من عدمه.

هذا وتلقينا بعض الصعوبات أيضا في تنسيق الفصول والمباحث، وخاصة في الفصلين الرابع والخامس، اللذين اختلفا عن البقية من حيث عدد الصفحات فالرابع جاء أطول عن البقية إذ فاقت عدد صفحاته السبعين، بينما لم تتجاوز عدد صفحات الفصل الخامس الأربعين، وإلى هنا نستسمح القارئ الكريم على هذا التباين، لأن طبيعة المادة هي من فرضت هذا التقسيم، وقد اجتهدنا قدر الإمكان في أن نقرب حجم الفصول من بعضها، لكننا عجزنا عن ذلك، فتركناها على حالها مراعاة للخطة الموضوعة.

وفي ختام هذا العرض ما يسعني إلا أن أتقدم بشكري الخالص لكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث، وخاصة الأستاذ المشرف (الأستاذ الدكتور: الحاج عيفة)، الذي قدم لنا التوجيهات الدقيقة والنصائح القيمة لإخراج البحث في أحسن صورة، كما نتقدم بالشكر أيضا للزملاء الأساتذة وعمال المكتبة بجامعة المدية وجامعة بوزريعة والمدرسة العليا للأساتذة على مساعدتهم لنا في هذا البحث.

ونرجو أن نكون قد وفقنا ولو باليسير في تأدية ما هو مطلوب منا في هذا البحث، وغايتنا أن يكون لبنة جديدة في صرح البحث العلمي، وخطوة إضافية نحو تطوير إمكانيتنا فيه، كما نرجو أن يكون قدوة لطلبتنا الأعزاء حتى يخوضوا في مثل هكذا مواضيع فإلى حد علمنا لا يزال البحث في المغرب العربي محدودا جدا في هذا الجانب رغم أهميته.

وأستسمح في الأخير السادة أعضاء اللجنة الموقرة أن يتجاوزوا عما سهونا عنه، فقد اجتهدنا في حدود قدرتنا، وما نحن في الأول والأخير إلا في بداية مشوارنا في البحث العلمي، إذ لا بد من الزلل، ولا بد من السهو، والله من وراء القصد.

الطالب: سحيري بغداد

الفصل الأول:

التعريف بالحركات الباطنية

المبحث الأول: ضبط المصطلحات والمفاهيم.

المبحث الثاني: طائفة النصيرية

المبحث الثالث: طائفة الدروز

المبحث الرابع: طائفة المستعلية

المبحث الخامس: طائفة النزارية

قبل الخوض في تاريخ الحركات الباطنية في التاريخ الإسلامي، ارتأينا أن نوضح بعض المفاهيم، لأن لها علاقة مباشرة بالموضوع، كما أن بعضها يعد أصلا لهذه الحركات من خلال منشئها ومعتقدها، ولا نرى أنه من السليم الدخول في التعريف بهم دون الفهم بأصولهم الأولى ومعتقداتهم، ثم نحاول بعد ذلك أن نعرف كل طائفة من هذه الطوائف مستقلة فنذكر أصلها ونشأتها وعقيدتها، لنعرج في الأخير على مناطق تواجدها في العالم الإسلامي، وهو في اعتقادنا أمر ضروري لكي نفهم سير الحوادث التاريخية المتعلقة بها.

المبحث الأول: ضبط المصطلحات والمفاهيم

1- الشيعة

أ- تعريفها

أ-1- لغة

الشيعة هم القوم يجتمعون على الأمور، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع، وجمع الجمع أشياع، ويقال شايعه أي والاه واتبعه، والمشايعة هي المتابعة والمطاوعة، ويقال شيعه أي تابعه وقواه[1].

أ-2- اصطلاحا

وهم الذين شايعوا عليا بن أبي طالب رضي الله عنه[2]، وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية، إما جليا أو خفيا، وقالوا بأن الإمامة لا ينبغي أن تخرج من أولاده من بعده، وإذا حدث وخرجت فذلك

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر (بيروت)، د-س-ن، ج8، ص 188-189. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط6 (1998م)، ص 735.

[2] علي بن أبي طالب: وهو علي بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنه، بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أول الناس إسلاما ولد قبل البعثة بعشر سنين، فربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد معه المشاهد كلها إلا غزو تبوك...بويع بخلافة المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، قتل ليلة 17 من شهر رمضان سنة 40هـ، فكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف. انظر أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية(بيروت)، ط1 (1415هـ/1995م)، ج4، ص ص 464-465-468.

ظلم في حقهم، أو تقية من عند الإمام نفسه، ويرون أن الإمامة لا تخضع للمصلحة العامة، وإنما هي تكليف رباني اختص به أشخاصا معينين[1].

ب- نشأتها

انقسم المسلمون بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه[2]، إلى ثلاث أقسام، قسم تبع عليا بن أبي طالب فسموا بشيعة علي، وقسم تبع معاوية بن أبي سفيان فسموا بشيعة معاوية بن أبي سفيان[3]، وقسم ثالث وهو الأكبر وهم المعتزلون، أي الذين لم يشايعوا عليا ولا معاوية، وضم هذا القسم كبار الصحابة، ومع مرور الأيام صار لفظ شيعة مقتصرا على أنصار علي بن أبي طالب، وأبنائه وأحفاده من بعده، وبمرور الوقت ازداد حماس المؤمنين بعلي وأبنائه وأحفاده كأئمة على المسلمين من حقهم الولاية والريادة والإمامة[4].

ويرى أهل الشيعة أن التشيع عقيدة دينية خالصة، بينما يراها البعض الآخر من المسلمين أنها فكرة سياسية خالصة، وكل له مبرراته في ذلك.

---

[1] أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني: الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا- علي حسن فاعور، دار المعرفة (بيروت)، ط3 (1414هـ/1993م)، ج1، ص 169.

[2] وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي، يجتمع هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف...وهو ذو النورين، واحد العشرة المبشرين بالجنة أسلم في أول الإسلام، وهو أمير المؤمنين بعد عمر بن الخطاب، حيث بويع بالخلافة يوم السبت غرة محرم سنة أربع وعشرين للهجرة، وقتل يوم الجمعة لثماني عشرة أو سبع عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة...أنظر عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم (بيروت)، ط1(1433هـ/2012م)، ص ص 825-829. محمد رضا: عثمان بن عفان ذو النورين ثالث الخلفاء الراشدين، مر: أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط1 (1425هـ/2005م)، ص 17-18.

[3] معاوية بن أبي سفيان: وهو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، أمير المؤمنين، ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن القرشي الأموي المكي، أمه هند بنت عتبة، تولى خلافة المسلمين بعد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو أول خلفاء بني أمية. أنظر شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: محمد أمين العرقسوسي و مأمون صاغرجي، مؤسسة الرسالة، ط2 (1402هـ/1982م)، ج3، ص 118-119.

[4] مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، ط 11 (1416هـ/1996م)، ص 171.

فالذين يقولون بأن التشيع هو عقيدة دينية خالصة، يسوغون لكلامهم بحديث يقولون عنه أنه مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع في غدير خم[1]: ((من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه))[2]، فيرون بأن هذا الحديث هو إقرار من النبي صلى الله عليه وسلم بولاية علي لأمر المسلمين من بعده، غير أن أهل العلم لم يقروا بصحة هذا الحديث رغم أن العديد من المحدثين صححوه، ومن الذين رفضوا صحته ابن تيمية الذي قال عنه: ((حديث الموالاة رواه الترمذي وأحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كنت مولاه فعلي مولاه"، وأما الزيادة، " اللهم وال من والاه وعاد من عاداه "، فهو كذب بلا ريب))[3].

ودعم الشيعة آراءهم بأحقية علي بأحاديث أخرى، وأولوها حسب مفهومهم، ومنها حديث: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))[4]، وهذا الأخير علق عليه العقيلي في كتابه الضعفاء وقال: ((لا يصح في هذا المتن حديث))[5]، وحديث ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى))[6].

موسى))[6].

هذه بعض الأحاديث التي يتخذها الشيعة أدلة على أن التشيع لعلي هو عقيدة خالصة، ومع أن الكثير من أهل الحديث ينكرون هذه الأحاديث بأدلة قاطعة، إلا أن الشيعة يروها صحيحة، ولذلك يقولون بأن ما يعتقدونه صحيحا، وبالتالي فالتشيع لعلي وآله من بعده أمر رباني لا ينبغي أن يحيد عنه مسلم[7].

---

[1] غدير خم: بين مكة والمدينة بينه وبين الجحفة ميلان. أنظر شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر (بيروت)، د-س-ن، ج4، ص 188.

[2] أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، تح: محمد رشاد سالم، ط1 (1406هـ/1986م)، د-د-ن، ج7، ص 319.

[3] ابن تيمية: نفس المصدر السابق، ج7، ص 319.

[4] أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة بن تيمية (القاهرة)، ج11، ص 65-66.

[5] أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي: الضعفاء الكبير، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1، د-س-ن، ج3، ص 150.

[6] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري (كتاب الأحكام)، دار بن رجب، ط1 (1425هـ/2004م)، ص768.

[7] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 172.

وأما الذين يرون في التشيع ظاهرة سياسية، فدليلهم أن رئاسة المسلمين لم يحددها القرآن ولا السنة في بيت معين، وإنما تركها في عموم المسلمين فيمن تتوفر فيه شروط الرئاسة ويرضاه عامة الناس ويبايعونه على أمرهم، وقالوا بأن ولاية علي بن أبي طالب لأمر المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، هو إقرار منهم بأنه الأجدر بها مثلما أقروا بأحقية عثمان قبله وعمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق، ولذلك فإن التشيع علي في واقع الأمر، ما هو إلا ظاهرة سياسية، هدفها هو بقاء علي بن أبي طالب على رئاسة المسلمين، وأن معاوية، إنما كان يختلق المشاكل ليس دفاعا عن خليفة مظلوم، وإنما كان هدفه هو الوصول إلى سدة الحكم، ولذلك فإن الأجدر بحكم المسلمين في رأي هؤلاء المتشيعين هو أن يبقى علي في الحكم خير من معاوية[1].

وأما الذين يقولون بأن التشيع لعلي وآله من بعده هو ظاهرة وجدانية عاطفية، فهم يقولون بأنه من الأجدر أن يتولى رئاسة المسلمين علي بن أبي طالب وأبناؤه من بعده، لأنهم أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وقدا كانوا على قدر من الإجلال والتوقير منه، فليس من العدل إهانتهم وإبعادهم من على مسرح الأحداث، وقد كان جدهم إلى وقت قريب يؤم المسلمين ويسوسهم، في دينهم ودنياهم، ولذلك هم الأولى بالخلافة من غيرهم[2].

ومهما كانت مبررات الداعين إلى التشيع، فإنه كان ولابد عليهم أن يعتقدوا في إمامة المسلمين أنها أمر تكليفي، يحق لكل شخص تتوفر فيه شروط الإمامة من صحة في العقل والبدن وحسن تدبير وعدالة وأمانة، أن يتولى أمر المسلمين ولو كان عبدا حبشيا، فقد ثبت عن الرسول صلى أنه قال: ((اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة))[3]، ولذلك فإننا نرفض فكرة أن الإمامة ينبغي أن تنحصر في بيت معين، رغم أن عليا بن أبي طالب كان جديرا بها، وكذلك ابنه الحسن، إلا أنه ليس من العدل أن نقول بأنها لا تصح في غيرهم من المسلمين، وقد رأينا

---

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 172.

[2] المرجع نفسه.

[3] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري (كتاب الأحكام)، ص 1451.

أمثلة في التاريخ لخلفاء تولوا أمر المسلمين وأحسنوا تدبيرهم على غرار معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن عبد العزيز[1]، وهارون الرشيد[2]... إلخ.

ونتيجة لهذا الخلاف الذي يعد الأكبر والأعنف في تاريخ الإسلام بين المسلمين أنفسهم، فإنه قد فتح المجال واسعا لظهور الطائفية التي كانت نائمة طيلة حكم الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أبو بكر وعمر وعثمان، فظهرت العديد من الطوائف التي تدعي كل منها الأحقية في ولاية المسلمين وإمامتهم، وليس بوسعنا في هذا البحث أن نجمل الحديث عنها لكثرتها، ولكننا سنحاول أن نشير إلى أهم طوائف الشيعة مع التركيز على طوائف موضوع البحث.

ت- تسمياتها

أطلق على فرقة الشيعة عدة تسميات، استنادا إلى بعض الصفات التي تميزت بها، ومنها:

ت-1- الرافضة

وهو مصطلح يطلق على عموم الشيعة، وهو مشتق من الرفض، وكان قد أطلق عليهم لأنهم رفضوا إمامة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب[3]، ويقال إنما سموا بالروافض لكونهم رفضوا الدين، وقيل أيضا إنما تسموا بهذا الاسم ، لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره في أبي بكر، فمنعهم من ذلك، فرفضوه، ولم يبق منهم إلا مائتا فارس فقال لهم زيد: رفضتموني ؟ قالوا: نعم، فبقى عليهم هذا الاسم[4].

---

[1] عمر بن عبد العزيز: وهو الخليفة العادل، خامس الخلفاء الراشدين، أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي، تولى خلافة المسلمين سنة تسع وتسعين للهجرة، وتوفي سنة مئة وواحد للهجرة وعمره أربعون سنة، فكانت خلافته سنتين وستة أشهر كخلافة أبي بكر الصديق. أنظر شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، الملقب بابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار بن كثير (دمشق)، ط1 (1986م)، ج 2، ص 5-6.

[2] هارون الرشيد: وهو أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد اله بن عباس، استخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة... أنظر السيوطي: نفس المصدر السابق، ص 225.

[3] أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية (صيدا- بيروت)، ط1 (1411هـ/1990م)، ج1، ص 89.

[4] فخر الدين الرازي: نفس المصدر السابق، ص 52.

ت-2- الباطنية

أُطلق هذا الاسم على أغلب طوائف الشيعة، وسبب ذلك أنهم قالوا بأن للقرآن ظاهر وباطن، أي أن كل نصوص القرآن لها تفسيرين ظاهر وباطن[1]، فالظاهر هو على نحو ما يفسره كل الناس، بينما الباطن هو تفسير يقتصر عليهم هم فقط، ولذلك فإن من لا يؤمن بالتفسير الباطني لنصوص القرآن فهو آثم، واحتجوا على ذلك بالآية الكريمة ((فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ))[2]، وإن من ينال علم الباطن تسقط عنه كل التكاليف، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ((وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ))[3]، وهدفهم من كل ذلك هو إبطال الشرائع، لأنهم يحرفون التفسير الصحيح للقرآن الكريم، خدمة لأهدافهم الباطلة[4].

وتندرج ضمن هذه الطائفة فرق عدة تتفق كلها في التأويل بالباطن، ومنها القرامطة والإسماعيلية، والنصيرية[5]، وتميزت الباطنية بالغلو في الدين، إذا إن منها، من غالى في شخص الإله، وذكر أن الله تجسد في صور العباد، ومنهم النصيرية والدروز، ومنهم من غالى في شخص الإمام حتى أضفى عليه صفات هي أقرب إلى الألوهية على غرار الفاطميين، وسنشير إلى ذلك في قادم البحث إن شاء الله.

ث- فرق الشيعة

قسم الشهرستاني فرق الشيعة إلى خمس فرق، وهي الكيسانية، والزيدية، والإمامية، والغلاة والإسماعيلية، ونحن بدورنا سنركز على طوائف الإمامية، والغلاة والإسماعيلية، وإن كانت كلها متداخلة

---

[1] أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، تح وتق: عبد الرحمن بدوي، المكتبة العربية (القاهرة)، ط1 (1383هـ/1964م)، ص 11-12. أبو عبد الله محمد بن مالك بن أبي القبائل المعافري: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني (صنعاء)، ط1 (1415هـ/1994م)، ص 21. عبد القاهر البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 211.

[2] سورة الحديد، الآية 13.

[3] سورة الأعراف، الآية 157.

[4] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 11-12. عبد القاهر البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 211.

[5] مصطفى غالب: نفس المرجع السابق، ص 45.

مع بعض لكننا سنحاول أن نشرح كل فرقة منفصلة، لأن الطوائف التي سنتناولها في هذا البحث تنتمي إلى هذه الفرق، على أننا لا نهمل فرقتي الكيسانية والزيدية، لكننا سنذكرهما بإيجاز.

ث-1- الكيسانية

وهي التي تقول بإمامة محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية، نسبة إلى أمه التي تعود في أصولها إلى بني حنيفة، وكان أتباع هذه الفرقة يعتقدون بأحقية محمد بن الحنفية بإمامة المسلمين، لأنه كان يحمل اللواء يوم وقعة الجمل، ويرى البعض أن أخاه الحسن كان قد أوصى له بالإمامة من بعده[1].

أما عن سبب تسمية هذه الفرقة بالكيسانية، فيقال بأنها نسبة إلى كيسان، مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقيل تلميذ للسيد محمد بن الحنفية[2] رضي الله عنه، ويعتقدون فيه أنه أحاط بكل العلوم[3]، ومن أبرز أتباعها هو المختار بن أبي عبيد الثقفي[4]، الذي اشتهر بثورته ضد الأمويين، وقتلة الحسين بن علي كرم الله وجهه[5]، وتتفرع عن فرقة الكيسانية فرق كثيرة، لا يسعنا المجال لذكرها.

ث-2- الزيدية

تنسب هذه الطائفة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يجوزوا الإمامة في غيرهم، غير أنهم

---

[1] أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي: كتاب الملل والنحل، تح وتع: ألبير نصيري نادر، دار المشرق (بيروت)، ط1 (1970م)، ص 47. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 179.

[2] محمد بن الحنفية: هو أبو القاسم، ويقال أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي طالب، وأمه خولة بنت جعفر ابن قيس بن سلمة، من بني حنيفة بن لجيم، وقد كان محمد عالما فاضلا شجاعا، توفي سنة (81هـ/705م). أنظر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ط1(1325هـ)، حيدر آباد الدكن (الهند)، ج9، ص 354.

[3] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ص 170.

[4] المختار بن أبي عبيد الثقفي: وهو المختار بن ابي عبيد بن مسعود بن عمرو، الثقفي، الذي خرج يطلب بثأر الحسين بن علي، وهو الذي جهز الجيش لحرب عبيد الله بن زياد بقيادة الأشتر النخعي، فكانت بينهما موقعة عظيمة، قتل فيها ابن مرجانة عبيد الله بن زياد وكثير من أشراف الشام... قتل في حروراء على يد مصعب بن الزبير سنة (67هـ/691م). أنظر أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع (القاهرة)، د-س-ن، ص 35.

[5] أبو الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، مر: كما حسن مرعي، المكتبة العصرية (صيدا- بيروت)، ط1 (1425هـ/2005م)، ج3، ص 86-87.مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 179.

جوزوا أن تكون في أبناء فاطمة على حد سواء، سواء كانوا من نسل الحسن أو الحسين رضي الله عنهما[1]، وتميزت فرقة الزيدية بالاعتدال إذا ما قورنت بباقي الطوائف الشيعية، فيقولون مثلا أنه تجوز إمامة المفضول في حال وجود الأفضل، فعلي بن أبي طالب هو الأفضل لكنه ترك الإمامة لسابقيه، تطييبا لقلوب الناس وتهدئة لها[2].

ث-3- الإمامية

يقول أتباعها بإمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بتعيين من النبي صلى الله عليه وسلم، نصا ظاهرا، وتعيينا صادقا، من غير تعريض بالوصف، بل إشارة بالعين، وقالوا: بأن تعيين الإمام هو عين الدين، إذ لا يمكن أن تترك الرعية بلا إمام يرعاها ويفك خلافها، ولذلك عين الرسول صلى الله عليه وسلم عليا لتولي أمر الإمامة من بعده لهذه الغاية[3].

وتتفرع الإمامية إلى فرق عديدة، نذكر منها الفرق التي تهمنا في بحثنا، وهي فرق الإثنا عشرية والإسماعيلية، والملاحظ عن هذه الفرق أنها تتسم بالغلو في معتقداتها، حتى أن الكثير من العلماء أخرجوا بعضا من فرقها عن ملة الإسلام لغلوها، وسنرى فيما يتقدم من البحث أسباب ذلك.

ث-3-أ- الإسماعيلية

وهي من الفرق الإمامية، سميت بهذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويقال لهم أيضا السبعية، نسبة إلى ترتيب الإمام الذي هو السابع، في تسلسل أئمة الإمامية[4].

غير أن بعض الروايات ترفض فكرة أن جعفرا الصادق كان قد ولى ابنه إسماعيل من بعده ليكون إمام المسلمين، ولهم في ذلك حججهم، إذ يقول بعضهم بأنه قد تراجع عن تولية إسماعيل لأنه رأى منه سلوكا غير سوي، إذ وجد ثملا في أحد الأيام، فانتهى أبوه إلى أنه لا يصلح للإمامة من

---

[1] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ص 179-180.

[2] المصدر نفسه، ص 180.

[3] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ص 189-190. سعد رستم: الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات (النشأة – التاريخ- العقيدة- التوزيع الجغرافي)، دار الأوائل (دمشق)، ط3 (2005م)، ص 218.

[4] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 11. أبو المظفر الإسفرائيني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تح: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب (بيروت)، ط1 (1403هـ/1983م)، ص 40.

بعده، ويرى الإسماعيلية، أنه ولو كانت هذه الرواية حقيقية، فإنها لا تفسد إمامة إسماعيل لأنه إن كان قد فعل ذلك فلأنه بأمر رباني، فهو معصوم، وكل ما يفعله هو من الوحي الرباني[1].

وهناك روايات تقول بأن إسماعيل مات على عهد أبيه، ولذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل، والعقيدة تقول بانتقال الإمامة في الأعقاب[2]، فلا يصح أن تنتقل إلى موسى الكاظم الذي هو أخو إسماعيل، ودعموا حجتهم تلك، بصغر سن موسى الكاظم مقارنة بابن أخيه محمد بن إسماعيل[3]، وهناك رواية ثالثة تقول بأن إسماعيل بن جعفر الصادق، لم يمت وإنما اختفى، وأظهر أبوه موته خوفا عليه، وكان قد انتقل إلى البصرة[4] وعاش بها، والسبب في اختفائه هو إبعاده عن مطاردة العباسيين للأئمة الطالبيين[5].

والإسماعيلية هذه هي التي تنتمي إليها فرقة كل من المستعلية والنزارية والدروز الذين هم موضوع بحثنا، على أنهم يختلفون في بعض العقائد، وسنعرج على ذلك فيما يتقدم من البحث، وأما فرقة النصيرية وهي التي تنسب إلى الإمامية هي الأخرى، فإنها تختلف عن الطوائف الثلاث السابقة، كونها من الإمامية الإثنا عشرية.

ث-3-ب- الإثنا عشرية

وهي فرقة من فرق الإمامية مثلها مثل الإسماعيلية ، إلا أنها تختلف عن الإسماعيلية في أنها لا تعترف بإمامة إسماعيل كما أشرنا إلى ذلك آنفا، بل تقول بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم، وتواصلت في الأعقاب إلى الإمام الثاني عشر، فيكون بذلك الإمام بعد موسى الكاظم ابنه علي الرضا، ثم محمد التقي (الجواد)، ثم علي بن محمد التقي، ثم ابنه الحسن العسكري

---

[1] أحمد محمد أحمد جلي: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)، شركة الطباعة العربية السعودية، ط1 (1406هـ/1986م)، ص 193-194.

[2] عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 53.

[3] محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية (تاريخها- نظمها- عقائدها)، مكتبة النهضة المصرية، ط1 (1959م)، ص 12.

[4] البصرة: بلد مشهور بأرض العراق، وهي إحدى العراقين، مصرت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل سنة سبع عشرة للهجرة وقيل غير ذلك. أنظر شهاب الدين عبد الله ياقوت الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعا، عالم الكتب، ط2 (1406هـ/1986م)، ص 57.

[5] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج1، ص 181.

الزكي، ثم ابنه محمد القائم (المنتظر)، وهو الذي اختفى في سرداب بسامراء[1]، وهو من سيظهر في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا[2].

وإلى هذه الفرقة تنسب طائفة النصيرية التي هو ضمن موضوع بحثنا، إذ أن طائفة النصيرية تصل بالإمامة إلى محمد القائم بن الحسن العسكري، إلا أنها تختلف عن بقية الإثنا عشرية في بعض الجزئيات على ما سنذكره لاحقا.

---

[1] سامراء: وهي في الأصل سر من رأى، وهي مدينة بين بغداد وتكريت، وبها السرداب الذي تزعم الشيعة أن مهديهم يخرج منه. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ج3، ص 183.

[2] فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مر: علي سامي النشار، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، ط1 (1356هـ/1938م)، ص 56.

المبحث الثاني: طائفة النصيرية

01- تعريفها

هي فرقة من فرق الشيعة الإمامية ظهرت خلال القرن الثالث الهجري، وتُنتسب إلى أبي شعيب محمد بن نصير البصري النميري المتوفى سنة (260هـ/873م)، والذي كان مولى للحسن العسكري الإمام الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الإثنا عشرية، ثم انشق عنها وكوّن هذه الطائفة التي تنسب إليه[1].

02- أصل تسميتها

يكره النصيريون أن يتسموا بهذا الاسم، ويحبون أن يُنادوا بالعلويين، فهم يرون بأن تسميتهم بالنصيرية عنصرية[2]، ويقولون بأن العثمانيين هم من أطلقوا عليهم ذلك الاسم نسبة إلى الجبال التي يسكنونها، تحقيرا لهم[3]، ويرى البعض أن أصل تسمية النصيريين بذلك الاسم، هو ربط بالنصرانية، ولعل مرد ذلك إلى أن النصيريين يتشابهون في كثير من عقائدهم بالنصارى، كما أنهم يتعايشون معهم كما لو أنهم إخوانا لهم[4]، ويشاركونهم أعيادهم ويعظمون بعضها كعيد الفصح والمسيح، ويسمون بعضا من أبنائهم بأسماء نصرانية كيوحنا وهيلانة...[5].

ويذكر محمد أمين غالب الطويل وهو نصيري الأصل، بأن سبب إطلاق مصدر اسم النصيرية، يعود إلى أيام الفتح الإسلامي لبلاد الشام، وكان ذلك عندما طلب أبو عبيدة بن الجراح نجدة من الخليفة، أتاه خالد بن الوليد من العراق، وعمرو بن العاص من مصر، وجاءه مجموعة من العلويين من المدينة، وهم ممن حضروا بيعة غدير خم، وكان عددهم يفوق الأربع مائة وخمسين مجاهدا[6]، سميت هذه النجدة نصيرة، لأنها ساعدت الجيش في تحقيق النصر، ومن ذلك الحين سميت

[1] سليمان الحلبي: طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها، الدار السلفية، ط2 (1404هـ/1984م)، (الكويت)، ص 34-35. تقي شرف الدين: النصيرية دراسة تحليلية، د-د-ن، ص 51.

[2] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 33.

[3] المرجع نفسه، ص 34.

[4] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)، دار الجيل (بيروت)، ط 14 (1416هـ/1996م)، ج 4، ص 253.

[5] المرجع نفسه.

[6] محمد أمين غالب الطويل: تاريخ العلويين، دار الترقي (اللاذقية)، (1343هـ/1924م)، ص 97-98.

المناطق التي ملكت لهذه الطائفة باسمهم فأصبحت جبال النصيرية، ومنذ ذلك الحين صار اسم النصيرية على تلك الأماكن[1].

لكن الأصوب في أصل النصيرية، أنها مشتقة من اسم مؤسسها الأول وهو (أبو شعيب محمد بن نصير النميري الذي ظهر منتصف القرن الثالث الهجري، وكان هذا الأخير من أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية الإثني عشرية، وادعى أنه الباب إلى محمد ابن الإمام الحسن العسكري، أي وكيلا وممثلا له ومرجعا للناس من بعده، ثم ادعى أنه رسول الله ونبي من قبل الله تعالى وأنه أرسله علي بن محمد الرضا، وجحد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه وادعى بعد ذلك الربوبية، وقال بإباحة المحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضا ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل وأنه أحد الشهوات والطيبات[2].

03- نشأتها

ينتسب النصيريون إلى الشيعة الإمامية، وكانت الإمامية قد افترقت بعد موت الإمام الحادي عشر وهو الحسن العسكري إلى فرق عدة، رفضت أغلبها إمامة ابنه المهدي المسمى محمد، معتقدين أن الحسن العسكري لم يخلف ولدا أصلا[3]، بينما هناك ثلاث فرق أخرى من الإمامية صدقت بوجود ولد للحسن العسكري، رغم عدم اتفاقها حول تاريخ مولده هل كان على عهد أبيه أم بعده[4]، ومنها ومنها طائفة الإثنا عشرية، التي رجحت رواية مولد محمد بن الحسن العسكري أثناء حياة أبيه[5]، وكما وكما هو معلوم فإن فرق الشيعة في أغلبها تؤمن بفكرة أن لكل إمام باب[6] يكون واسطة بين الإمام

---

[1] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 36.

[2] الحسن بن موسى النوبختي و سعد بن عبد الله القمي: فرق الشيعة، تحقيق: عبد المنعم الحفني، (دار الرشاد)، ط1 (1412هـ/1992م)، ص 195. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ، تح: محمد إبراهيم ، دار الكتاب العربي (بغداد)، ط1 (1428هـ/2007م)، ج8، 274.

[3] النوبختي: نفس المصدر السابق، ص 102.

[4] المصدر نفسه.

[5] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 37.

[6] الباب: أن يدري الإمام حيث يشاء لا يحجب عنه شيء، لا جبل شاهق، ولا طود متين، ولا بحر عميق، ولا حائط محيط، ألا يكون نصب عينيه حيث شاء أو أراد. أنظر المفضل بن عمر الجعفي: الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق، تح، مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت)، ط2 (1977)، ص 43. أنظر الملحق رقم (01).

وأتباعه، مستندين في ذلك إلى الحديث الذي يقولون بأنه مروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ((من طلب العلم فعليه بالباب وأنا مدينة العلم وعلي بابها))[1]، وهو في حقيقة الأمر حديث مأخوذ عليه من أهل العلم أنه غير صحيح، كما أن تفسير الشيعة له هو تفسير مبالغ فيه.

ولذلك جعلوا لكل إمام باب بزعمهم، وكان آخر الأئمة وهو الحسن العسكري قد اتخذ من أبي شعيب محمد بن نصير البصري النميري بابا له، وظل هذا الأخير على صفته بابا للإمام محمد بن الحسن العسكري، حسب زعم النصيريين[2]، وهو ما لم يتقبله باقي الشيعة الإمامية، ورأوا بأن النصيري لا ينبغي أن يكون بابا لمحمد بن الحسن العسكري الملقب بالمهدي وفي اعتقادنا أنه لم يؤمن به الإمامية لأن المهدي دخل في الغيبة ولذلك لا يمكن أن يكون له باب والأصح أن لا يكون الباب إلا لإمام موجود.

ولما لم يقر الإماميون للنصيري بأن يكون بابا للمهدي، فإنه قرر أن ينفصل عنهم ويؤسس طائفة خاصة به تتبعه وتؤمن بمعتقداته، فتأسست طائفة النصيرية نسبة إلى أبي شعيب محمد بن نصير البصري النميري[3].

اتخذ النصيري من مدينة سامراء منطلقا لدعوته، واستمر على ذلك حتى وفاته سنة (260هـ/874م)، فخلفه شخص آخر على مركز الباب وهو أبو محمد عبد الله بن محمد الحنان الجنبلاني نسبة إلى مقر إقامته وهي منطقة جنبلا[4]، وقد ذكر عنه أنه استحدث طريقة صوفية أسماها الجنبلانية[5]، توفي سنة 278هـ/891م)، وخلفه تلميذه الحسين بن حمدان الخصيبي[6]، وقد عمل هو

---

[1] إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة القدس، (1351هـ). سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 38.

[2] المفضل بن عمر الجعفي: نفس المصدر السابق، ص 20-21. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 322.

[3] ابن أبي الحديد: نفس المصدر السابق، ج8، ص 274-275.سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 38.

[4] جنبلا: وهو بليد بين واسط والكوفة. انظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 168.

[5] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 40.

[6] الحسين بن حمدان الحصيبي: وهو أحد المصنفين في فقه الإمامية، له من التصانيف ((أسماء النبي))- ((أسماء الأئمة والإخوان))- ((المائدة))، وله أشعار في مدح النبي، وذكر عنه أنه خلَّط وصنف في مذهب النصيرية، واحتج لهم، وكان يقول بالحلول والتناسخ. أنظر أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، اعتنى به الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية (بيروت)، ط1 (1423هـ/2002م)، ج3، ص 159.

الآخر على نشر دعوى النصيرية في العراق ثم استقر به المقام في حلب إلى وافته المنية سنة (346هـ/957م)، ويذكر عنه سليمان الحلبي أن قبره معروف إلى اليوم في شمالي حلب، وهو مزار للنصيريين، ويسمى بقبر الشيخ يابراق[1].

وبموت الخصيبي تولى زعامة الطائفة النصيرية عدد من الشخصيات كانت أغلبها ضعيفة لم ترق إلى ما كان عليه أوائلها، ومن هؤلاء نذكر محمد بن علي الجلي الذي تزعم الطائفة في مركزها القوي بحلب، بينما كان المركز الثاني للنصيرية في بغداد الذي يتزعمه علي الجسري ضعيفا لا يؤدي ما هو مطلوب منه، على غرار قرينه في الشام، ولذلك لم يصمد أمام حملات المغول وانتهت دعوة النصيرية في العراق بينما استمرت في بلاد الشام[2] .

وبعد وفاة الخصيبي، تولى على زعامة النصيريين عدد من الرؤساء لكنهم كانوا ضعافا ولم يصلوا إلى ما وصل إليه الخصيبي رغم اجتهاداتهم، ومنهم أبو سعيد الميمون سرور بن قاسم الطبراني المولود في طبرية، وهو من تلاميذ الجلي، تولى رئاسة النصيرية خلفا للخصيبي، لكنه جوبه برد فعل قوي من المسلمين السنة فاضطر إلى نقل مقر الدعوة إلى اللاذقية، وظل هناك إلى توفي سنة (426هـ/1035م)[3].

وبموت هذا الأخير تزعم رئاسة النصيرية عدة شخصيات لكنها كانت في أغلبها ضعيفة لم تستطع مجاراة الأوضاع السياسية هناك، إلى أن تولى زعامة النصيرية الأمير حسن المكزون السنجاري[4]، فاستطاع هذا الأخير بفضل دهائه أن يوحد شتات النصيريين ويجعل منهم قوة في بلاد الشام، إذ استطاع أن يستولي على قلاع عدة في جبال الشام، وبوفاته سنة (638هـ/1241م)[5]، تفرق أمر النصيرية، ولم يعد لهم كبير أثر على الساحة السياسية في بلاد الشام إلى العصر الحالي، فقد تملكوا زمام الأمور في سوريا، وتحكموا في رقاب المسلمين السنة.

---

[1] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 40. محمد أمين غالب الطويل: نفس المرجع السابق، ص 204.

[2] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 40.

[3] المرجع نفسه. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 322-323.

[4] الأمير حسن المكزون السنجاري: وهو أبو محمد الحسن بن يوسف، المعروف بلقبه أكثر من اسمه وهو المكزون السنجاري (583-638هـ/1187-1240م)، وهو أمير يعده العلويون (النصيريون)، من كبار رجالاتهم، كان مقامه بسنجار في العراق... أنظر المكزون السنجاري: أدعية السبعة أيام، تح: رواء جمال علي، د-د-ن، (2013م)، ص 02.

[5] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 42.

4- عقيدتهم

يتكتم النصيريون كثيرا على عقيدتهم ويرون بأنها سر لا ينبغي أن يعرف به غيرهم، ولذلك يجتهدون في حفظها حتى لا تشاع كما أنهم يمنعون أي شخص من تعلمها حتى يتوثقون منه[1]، ومن ذلك أنهم يمنعون النساء من الإطلاع عليها، لأنهم يرون بأن المرأة ضعيفة وقد تفشي أسرار العقيدة[2]، كما أنهم لا يطلعون من الرجال إلا من يفوق الستة عشر عاما، بحيث يكون الفتى قادرا على تحمل أعباء العقيدة وأسرارها[3].

أ- معتقدهم في الله وبداية الخلق

يعتقد النصيريون أن عليا بن أبي طالب هو الله، وهم بذلك يشبهون السبئية الذين سبقوا بقول ذلك، ويرون بأن روح الله حلت في جسم علي كرم الله وجهه، كما حلت قبله في أشخاص قبله كهابيل وشيث وسام وإسماعيل وتسمى هذه العقيدة بالحلول[4]، ويقولون بأن الله اتخذ له نطقاء وهم المعروفون بالرسل والأنبياء، كآدم ونوح وإبراهيم...، ليبلغون الناس رسالاته الربانية[5] .

وللنصيرية سر يتكون من ثلاثة أحرف يقدسونه، وهو (ع م س)، ويقصدون بهذا السر أشخاصا معينين، أسماؤهم تبتدئ بهذه الأحرف فالأول وهو حرف العين ويقصدون به علي بن أبي طالب ويسمونه "المعنى"، وهو الغيب المطلق أي "الله"، بينما الحرف الثاني وهو الميم، فيقصدون به محمدا وهو "الاسم" وهو صورة المعنى في الظاهر، وأما الثالث وهو حرف السين فيقصدون به سلمان الفارسي ويسمونه "الباب"[6]، ويمثل عندهم الطريق الذي يوصل للمعنى[7].

---

[1] محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري الملقب بابن الأكفاني: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في العلوم، تح: عبد المنعم محمد عمر، دار الفكر العربي (القاهرة)، د-س-ن، ص 143.مصطفى الشكعة: المرجع السابق، ص 346.

[2] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 43-44.

[3] سليمان أفندي الأدني: الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية، ب-د-ن، ص 02.

[4] ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: عبد الرحمن خليفة، ط1 (1348هـ)، دار محمد علي صبيح (القاهرة)، ج04، ص 143. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج13، ص 249.
مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 333.

[5] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 46.

[6] سليمان أفندي الأدني: نفس المصدر السابق، ص 18.

[7] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 332.

كما أن منهم من يقول بأن محمدا صلى الله عليه وسلم مختص بالظاهر، بينما يختص علي بن أبي طالب بالباطن، وأن محمدا مختص بحرب المشركين بينما علي مختص بحرب المنافقين، لأنه هو من يعرف صفاتهم الباطنة[1]، فحسب رأيهم يكون علي بن أبي طالب، إماما في الظاهر، فهو يأكل ويشرب ويلد ويولد، بحيث تتسم فيه صور البشرية على أساس أنه بشر، بينما هو في الباطن إلها، لا يأكل ولا يشرب، ولم يلد ولم يولد، وأن كلا من الحسن والحسين هما ابنا علي في الظاهر وليس في واقع الحال أبناؤه في الباطن، وتبقى هذه تفسيراتهم لا يطلعون عليها أحدا[2].

ويقولون أيضا بأن علي بن أبي طالب خلق محمدا صلى الله عليه وسلم، وأن محمدا خلق سلمان الفارسي[3]، وأن سلمان خلق الأيتام الخمسة الذين يتحكمون في مقاليد السماوات والأرض[4] والأرض[4] وهم:

المقداد[5]: وهو رب الناس وخالقهم الموكل بالرعود والصواعق والزلازل.

أبو الدر[6]: وهو الموكل بحركة الكواكب والنجوم.

---

[1] الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص 204. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 332.

[2] أبو موسى الحريري: العلويون النصيريون (بحث في العقيدة والتاريخ)، دار لأجل المعرفة (ديار عقل-بيروت)، ط1 (1400هـ/1980م)، ص 121.

[3] سلمان الفارسي: أبو عبد الله بن الإسلام، سابق الفرس إلى الإسلام، أصله من أصبهان، وقيل من رامهرز، أسلم عند أول قدوم للرسول صلى اله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، صحب النبي وخدمه وحدث عنه، ويقال أنه عاش مائتين وخمسين سنة، واختلف في سنة وفاته، بين (34-37هـ)... أنظر شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج1، ص 505. ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ج4، ص 138-139.

[4] سليمان أفندي الأدني: نفس المصدر السابق، ص 18. سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 47.

[5] المقداد:وهو عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود البهراني الكندي أبو الأسود الزهري، ويقال أبو عمرو، ويقال أبو معبد المعروف بالمقداد بن الأسود... أسلم قديما وشهد بدرا والمشاهد، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، والكثير من الصحابة... مات سنة (33هـ/656م)... أنظر: ابن حجر العسقلاني: نفس المصدر السابق، ج10، ص 285-286.

[6] أبو الدر: وهو جندب بن جنادة الغفاري، وقيل جندب بن سكن، وقيل بُرير بن جنادة وقيل بُرير بن عبد الله، احد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب رسول الله صلى اله عليه وسلم، قيل أنه خامس خمسة في الإسلام، لازم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته على المدينة، وجاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وقد كان رأسا في الزهد، والصدق والعلم والعمل، قوالا بالحق، شهد فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب، توفي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. أنظر: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 46-78.

عبد الله بن رواحة الأنصاري[1]: وهو الموكل بالرياح وقبض أرواح البشر.
عثمان بن مظعون[2]: وهو الموكل بالمعدة وأمراض الجسم.
قنبر بن كادان[3]: وهو الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام[4].

ويحرف غلاة النصيرية القرآن الكريم بما يتلاءم ونزواتهم، فلهم سور خاصة بهم، ليست كسور قرآننا الحنيف، وإن كانت بعض سورهم المحرفة تبتدئ صحيحة ثم تضاف إليها كلمات من صنيعهم، تمجد وتبجل دينهم ومعبوديهم من الأئمة والدعاة، وقد ذكر عنهم سليمان الأدني خمسة عشر سورة في كتابه الباكورة السليمانية، كلها محرفة من صنعهم، سنشير إلى بعض منها في ملاحق البحث، ومن هذه السور نذكر "سورة الأول" والتي تبتدئ ب: ((قد أفلح من أصبح بولاية الأجلح استفتح بأبي عبد استفتحت بأول إجابتي بحب قدس معنوية أمير النحل علي بن أبي طالب المكنى بأبي حيدرة...))[5].

إضافة إلى سور أخرى أعرضنا عن ذكرها تجنبا للإطالة، لكننا سنور واحدة منهم على سبيل الإيضاح، فمثلا يقولون في "سورة تقديسة أبي سعيد": ((أسألك يا مالك الملك يا أمير النحل يا علي يا وهاب يا أزل يا تواب يا داحي الباب أسألك بالخمسة المصطفية والستة المتجلية بالسبعة الكواكب الدرية وبالثمانية حمالة العرش...بأن تجعل قلوبنا وجوارحنا ثابتة على معرفتك الزكية وخلصنا من هذه الهياكل الناسوتية ولبسنا القمصان النورانية بين الكواكب السماوية نذكر حضرة شيخنا وسيدنا الأجل الأكبر الشاب التقي السيد أبي سعيد الميمون بن قاسم الطبراني العارف معرفة الله

---

[1] عبد الله بن رواحة الأنصاري: هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا محمد، وقيل أبو رواحة، كان ممن شهد بدر وكل المشاهد الأخرى مع الرسول صلى الله عليه وسلمك إلا الفتح فإنه قتل قبله، وهو خال النعمان بن بشير، وهو شاعر أيضا يذود عن النبي بشعره، استشهد يوم مؤتة شهر جمادى سنة (8هـ/630م). أنظر عز الدين بن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج3، ص ص 130-131-134.

[2] عثمان بن مظعون: وهو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح الجمحي، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا، هاجر هو وابنه السائب الهجرة الأولى إلى الحبشة، شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم توفي بعدها في السنة الثانية للهجرة (2هـ/623م). أنظر ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج4، ص 381-382.

[3] قنبر بن كادان: وهو مولى علي بن أبي طالب... أنظر: ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج6، ص 399.

[4] سليمان الأدني: نفس المصدر السابق، ص 18-19. سعد رستم: نفس المرجع السابق، ص 273.

[5] سليمان الأدني: نفس المصدر السابق، ص 8-9.

المكف عما حرم الذي أخذ حقه بيده من قفا أبي دهيبة وعلى أبي دهيبة لعنة الله وعلى أبي سعيد السلام ورحمة الله سر أبي سعيد الشاب التقي الحر الميمون بن قاسم الطبراني سره أسعده الله[1].

ويفسرون هذه السورة كالتالي: أما الخمسة المصطفية فهي فروض الصلوات، فالفرض الأول صلاة الظهر لمحمد، والفرض الثاني هو لصلاة العصر لفاطر (فاطمة)، والفرض الثالث لصلاة المغرب للحسن بن علي بن أبي طالب، وأما الفرض الرابع فهو لصلاة العشاء وهو للحسين بن علي، والفرض الخامس هو لصلاة الصبح وهو لمحسن سر الخفي حسب اعتقادهم، ويقولون بأن من لا يعرف هؤلاء الأشخاص وأوقاتهم فصلاته باطلة، ويفسرون الستة المتجلية بأنهم سلمان والأيتام الخمسة[2].

والملاحظ على هذه السور، أنها غير سليمة لغة ولا مفهوما، كما أن تفسيراتها تظهر لكل ذي بصيرة أنها من نسج أفكارهم، ولعل هذا كان سببا في عزوف الناس على قبول مذهبهم.

هذا ويعمد النصيرية إلى اتخاذ المسبة في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأبي بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم...[3]، معتقدا سليما بل ومن الضروري أن يفعل الرجل منهم ذلك حتى يكون إيمانه كاملا وصحيحا، ويقولون فيهم كلاما بليغا، فيصفونهم بأقبح الأوصاف والنعوت، وقد جاء في كتاب الباكورة السليمانية ما يؤكد هذا الكلام: ((... روى الخبر عن أبو شعيب محمد بن نصير العبدي البكري النميري[4] أنه قال: من أراد النجاة من حر النيران فليقل اللهم الْعن فئة أسست الظلم والطغيان الذين هم التسعة رهط المفسدين الذين أفسدوا وما أصلحوا بالدين الذين هم إلى جهنم سائرين وإليها صالين أولهم أبو بكر اللعين وعمر بن الخطاب الضد الأثيم وعثمان بن عفان الشيطان الرجيم وطلحة وسعد وسعيد وخالد بن الوليد صاحب العامود الحديد ومعاوية وابنه يزيد والحجاج بن يوسف السقفي النكيد وعبد الملك بن مروان البليد وهارون الرشيد...))[5].

---

[1] المصدر نفسه، ص 11-12.

[2] نفسه، ص 13.

[3] ابن حزم الظاهري: نفس المصدر السابق، ص 143.

[4] النصيري: وهو الذي تنسب إليه طائفة النصيرية، وكنا قد أشرنا إليه في معرض حديثنا عن نشأة طائفة النصيرية.

[5] سليمان الأدني: نفس المصدر السابق، ص 44.

ويعظمون ويقدرون عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويعتبرونه أفضل الناس لأنه خلص اللاهوت من الناسوت بقتله، وبذلك تخلص اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره، ويخطئون من يلعنه[1]، ويعتقد النصيرية أيضا أن الخمر نور لأنه مخلوق شجرة النور وهي العنب، ولذلك يعظمونه كثيرا، ويعظمون كل ما يتعلق بشجرة العنب، ويتعوذون من كل ما يسيء إليها[2].

ب- العبادة عند النصيريين

ويؤدي النصيريون عباداتهم الدينية بشكل مختلف تماما عما يؤديه المسلمون السنة والشيعة، فمثلا عدد الصلوات عندهم هي خمس صلوات في اليوم مثلما هي عند بقية المسلمين، لكن تأديتها تختلف تماما عما هو مألوف عندنا، فالصلاة الأولى عندهم في اليوم هي صلاة الظهر، وتتكون من ثماني ركعات، تليها صلاة العصر بأربع ركعات، أما المغرب فعدد ركعاته فهي خمس ركعات، ثم العشاء بأربع ركعات وبعده الفجر بركعتين، والملفت في صلاتهم هو أنهم لا يسجدون فيها، ولا يركعون إلا في بعضها، كما أنهم لا يؤمنون بصلاة الجمعة ويعتبرونها عملا مرهقا للفرد المسلم، ويرون بأن الصلاة لا تتطلب الطهارة، بل تجوز الصلاة عندهم على أية حالة يكون عليها الفرد المسلم[3].

والزكاة عند النصيريين هي تقديم أموال في شكل ضريبة لشيوخهم، مقدارها خمس ما يملكه كل فرد من أفراد الطائفة من عروض التجارة والمواشي والمحاصيل الزراعية وحتى مهور بناتهم، أما الصيام عندهم فهو الامتناع عن معاشرة النساء طوال شهر رمضان، وهو يختلف تمام الاختلاف عما هو سائد عندنا ، ويعتبرون الحج الذي نؤديه نحن المسلمون مظهرا من مظاهر الكفر، بحيث يرونه عبادة أصنام، فهو بذلك ليس ركنا من أركان الإسلام[4].

---

[1] القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج13، ص 250. ابن حزم: نفس المصدر السابق، ص 143.

[2] القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج13 ص 250. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ج2، ص 442. محمد أحمد الخطيب: عقيدة الدروز (عرض ونقد)، رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض)، إشراف الأستاذ زيد بن عبد العزيز الفياض، د-س-ن، ص 369.

[3] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص57-58. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ج2، ص 487.

[4] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص65-66.

ت- أعيادهم

يحتفل النصيريون بأعياد كثيرة هي خليط بين الإسلامية والنصرانية وكذا الفارسية، ومن أعيدهم نذكر عيد الميلاد، ويقدمون فيه النبيذ، كما يحتفلون بعيد البربارة، والغطاس، والشعانين والعنصرة، ومريم المجدالية وهي كلها أعياد نصرانية، كما يحتفلون بأعياد فارسية كعيد المهرجان وعيد النيروز، وأما الأعياد الإسلامية فهم يحتفون بها أيضا، كعيد الأضحى، وعيد الغدير الأول والثاني[1]، كما يحتفلون أيضا بعيد الفراش[2]، وقد ذكرها المكزون السنجاري في أحد أشعاره، ووضح أن أعياد النصيرية هي خليط من الفارسية والإسلامية والنصرانية فيقول:

فجماعة الأعياد عندي تسعة وثلاثة للمرء في حسبانه
منها ثمانية أتت عـــــــربية نقلا يقوم الحق في برهانه
والفارسية أربع مبثوثـــــــة لمحقق النقل في ديـــــوانه
يأتي بذكر المهرجان وإنـــــه عيد يقوم الوقت في ميزانه
من بعده الميلاد وهو مشرف فتغنم اللذات في إحسانه[3]

إن المتأمل في هذه الأعياد يتضح له بيسر أن هذه الطائفة ليس لها مذهب صحيح تتبعه، فلا هي على الإسلام الصحيح ولا هي على النصرانية ولا هي على الفارسية، وإنما اختلقوا هذا المعتقد للتضليل، كما أن الإسلام الصحيح يكبح رغباتهم الفاسدة من الانتشار فيعملون على اتخاذ الإسلام غطاء حتى لا يفر الناس منهم، وفي مقابل ذلك يقومون بما تمليه عليهم نفوسهم الفاسدة.

ث- مراحل الدعوة النصيرية

ويتتبع النصيريون في دعوتهم عدة مراحل، منتهجين نفس أساليب إخوانهم من الحركات الباطنية وخاصة الإسماعيلية، ورغم أن النصيريين يسمون مراحل دعوتهم بتسميات خاصة بهم إلا أن

---

[1] عيد الغدير: وهما عيدان يحتفل بهما النصيريون أما الأول فيكون في الثامن عشر من ذي الحجة، بينما الثاني يكون في التاسع من ربيع الأول. أنظر مصطفى الشكعة، نفس المرجع السابق، ص 333.

[2] عيد الفراش: وهو العيد المنسوب إلى ليلة مبيت علي بن أبي طالب في مكان الرسول صلى الله عليه وسلم، يوم أن هم به كفار قريش لقتله، فاتخذ الشيعة هذا اليوم عيدا يحتفلون به ومنهم النصيرية. أنظر مصطفى الشكعة، نفس المرجع السابق، ص 333 (بتصرف).

[3] منتجب الدين العاني: نفس المصدر السابق، ص ص 95-100.

المتتبع لسيرورتها يظهر له وجه التشابه مع مراحل الدعوة لدى الحركات الأخرى، وتبتدئ مراحل الدعوة النصيرية ب:

المرحلة الأولى (الجهال)

أطلقوا عليها هذا الاسم لأن الدعوة تلقن إلى شخص جديد يكون جاهلا تما بأسرار العقيدة النصيرية، وتتم هذه المرحلة بجس نبض المتلقي، بحيث يحاولون معرفة إن كان يصلح لأن يعتمد عليه أم لا، ولا تتم هذه المرحلة إلا بإشراف من أحد الشيوخ الذي يتابع الجاهل مدة سنة أو أكثر، ثم يقدم حوله تقريرا إن كان يصلح لأن يرتقي إلى المرحلة التالية أم لا، وإن كان تقرير الشيخ بالقبول، ينتقل الجاهل إلى المرحلة التالية[1].

المرحلة الثانية (السماع)

يتدرج المستمع في هذه المرحلة، بحيث يطلع على أسرار العقيدة النصيرية التي لم يكن على علم بها في مرحلة الجهال، وعندما يرى شيوخ الدعوة انه صار بإمكانه أن يرتقي أكثر، يعقدون مجمعا خاصا، ويمتحنونه في أسرار المذهب، وغالبا ما يتوج بالانتقال إلى المرحلة الموالية[2].

المرحلة الثالثة (الشيخ أو صاحب العهد)

بعد أن يجتاز المستمع مرحلته الثانية، وهي مرحلة الشيخ أو ولي العهد، وتكون هذه المرحلة بحضور شاهدين يشهدان بأن المتلقي مستعد لتلقي أسرار الدعوة والمحافظة عليها وأنه قادر على تولي أمور الدعوة ويتحمل مسؤوليته في ذلك، فإن فعلوا ذلك يقوم المتلقي بأداء يمين على ذلك، ويصبح عندها شيخا من شيوخ الطائفة[3].

ورغم أن مراحل الدعوة النصيرية تبدو من خلال ما أورده سليمان الحلبي مختصرة في مراحل ثلاث، إلا أننا نعتقد أن هناك مراحل أخرى لم يذكرها هذا الأخير تجنبا للإطالة، لكنه رغم ذلك ترك إشارات إلى أن هناك مراحل أخرى لم يذكرها، ومنها أنه أشار إلى مرحلة التعليق[4]، التي قال أنها تأتي ضمن مرحلة الجهال، وبذلك تصبح فرضية أن النصيرية تعتمد نفس أسلوب الحركات الباطنية الأخرى

---

[1] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 45.

[2] نفسه، ص 46.

[3] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 46.

[4] نفسه، ص 45.

في الدعوة إلى مذهبها، ويوافق مصطفى الشكعة هذا الرأي، وهو يتناولهم في معرض حديثه عن رتبهم ومشايخهم فيقول: ((وفريق الغلاة منهم يقسمون مشايخهم إلى رتب ودرجات وهم في ذلك يشبهون الإسماعيلية إلى حد ما))[1].

ج- مراتب شيوخهم

ذكرنا سابقا أن النصيرية يقسمون مشايخهم إلى رتب ودرجات، بحيث تعتلي أولى رتبهم مرتبة الشيخ، ثم تليه مرتبة النقيب، بينما تتذيل المراتب مرتبة النجيب[2]، وتقدر سلطة كل مرتبة حسب درجة العلم التي يحملها صاحبها، وكان ذلك على أول العهد من ظهور الديانة النصيرية، لكن وبمرور الوقت فقدت هذه الدرجات أهميتها ولم يعد يقدر للدرجة كما يقدر للشخصية التي تحملها، إذ كثيرا ما تفوّق صاحب الدرجة الأدنى على الدرجة الأعلى، لأنه أقوى شخصية منه[3]، وقد كان هذا الترتيب على عهد الخصيبي، لكنه تغير بتولي المكزون السنجاري مشيخة النصيرية[4]، فجعل رتب الشيوخ تسعة وهي:

01- الأصل، أي المعنى أو الأزل أو الباري أو الحق الأول...
02- الفرع أي الحجاب الأول أو الأبد أو العقل أو خالق الباب.
03- الثمر أي الباب أو السرمد أو مختص الأيتام.
04- اليتيم.
05- النقيب.
06- النجيب.
07- المختص.
08- المخلص.
09- الممتحن[5].

---

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 344.
[2] سليمان الأدني: نفس المصدر السابق، ص 36.
[3] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 344.
[4] المرجع نفسه.
[5] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 345.

كان هذا ما جمعناه عن طائفة النصيرية وفي حقيقة الأمر هناك كلام كثير عن هذه الفرقة وعقيدتها وتنظيماتها، والتي تبدو لنا أنها لا تمت للإسلام بصلة ما دامت تؤله البشر وتضفي على الأئمة صفات قدسية ترفعهم إلى مصاف الربوبية، كما أنها تكفر كبار الصحابة ممن شهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بحسن الإسلام وبشر بعضا منهم بالجنة.

لكن في مقابل ذلك يشير الدكتور مصطفى الشكعة إلى أنه لا ينبغي أن نطلق على طائفة النصيرية هذا الاسم وإنما ينبغي أن نسميهم بالعلويين، وحجته في ذلك أن النصيريين هم قلة قليلة من الناس وهم من غلاة المتشيعة، فلا يصح أن يتسمى بهم جزء كبير من الشيعة المعتدلين، وإنما الأصح أن نقول عنهم علويون على أننا نقر بأن العلويين الأوائل الذين هم النصيريون هم من الغلاة بينما العلويون المتأخرون هم معتدلون[1]، وإن كان في كلام الشكعة ما هو مقبول نسبيا على أساس أن الأوائل كانوا من الغلاة حقيقة، إلا أن في المتأخرين كذلك غلاة لكنهم قلة، والشاهد في ذلك ما قاله سليمان الأدني الذي عاش بينهم في وقت متأخر إذ يذكر أنه مولود سنة (1250هـ/1834م)، بمدينة أنطاكية النصيرية، فيقول هذا الأخير أنه عاش بينهم وقد أطلعوه على أسرار مذهبهم، لكنه هرب فيما بعد منهم وكتب كتابه الباكورة السليمانية ليكشف فيه حقيقة النصيرية للعالم[2].

ورغم أن سليمان الأدني كان قد ولد نصيريا وعاش بين النصيرية وتعرف على مذهبها، إلا أن ما كتبه عنهم لم يلق القبول عند الشكعة واعتقد فيه في بداية الأمر أنه متحامل على العلويين فقط كونه متقلب المزاج والتدين، لكن الشكعة اقتنع في الأخير بما كتبه الأدني عندما وقع على موافقات كثيرة بين ما أورده الأدني وما هو موجود في ديوان المنتجب العاني الذي يعد أحد المصادر الأولى في التأريخ النصيري، فصدق الشكعة أخيرا أن ما قاله الأدني عن النصيرية صحيحا[3]، وقال في هذا الشأن: ((نقول إننا أوشكنا أن نرفض كل ما جاء في كتاب الباكورة السليمانية –وما جاء فيه مفزع وخطير– لولا أننا رأينا اتفاقا ومطابقة في الكثير الذي أورده مع آراء محمد بن الحسن العاني الخديجي

---

[1] المرجع نفسه، 349.

[2] سليمان الأدني: نفس المصدر السابق، ص 02.

[3] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 339.

المشهور باسم المنتجب العاني المتوفي حوالي سنة (400هـ/1009م)، والمنتجب العاني واحد من أعلام المذهب العلوي وشعرائه))[1].

ونحن بدورنا قد ذكرنا هذا الكلام إنصافا للتاريخ وإحقاقا للحق، إذ كان لا بد أن ننور القارئ بحقيقة النصيرية، وأن فيها الغلاة وفيها المعتدلون، رغم أننا ركزنا على الغلاة ليس من قبيل التحامل، وإنما لأنهم موضوع الدراسة بحكم التوافق الزماني مع الإطار الزماني للدراسة، فما لاحظناه عن العلوية المعتدلة أنها لم تظهر إلا مؤخرا، بينما ظهرت النصيرية مبكرا منذ القرن الثالث الهجري، وهي الفترة المعدة للدراسة.

5- توزيعها الجغرافي[2]

توطن النصيريون كغيرهم من الفرق الباطنية في داخل جسم العالم الإسلامي، لكنهم تركزوا ببلاد الشام أكثر من بقية البلدان، ومن المناطق التي لجأوا إليها واستولوا عليها نذكر: الموصل وديار بكر[3]، وحلب والعواصم[4] أي طرسوس[5]، وآدنة ومصيصة[6]، وإياس وهرونية، وبياس[7]، وجهات أنطاكية وجبلة[8] مع اللاذقية وبانياس وطرطوس، وطرابلس وجهات حماه وحمص وصور وساحل إقليم البلاد السورية حتى القدس[9].

---

[1] نفسه.

[2] أنظر الخريطة رقم 01.

[3] ديار بكر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق، قصبتها الموصل وحران وبها دجلة والفرات. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد. ص 268. ياقوت الحموي: معجم البلدان: نفس المصدر السابق، ج 2، ص 494.

[4] العواصم: هي حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبتها أنطاكية. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 165.

[5] طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 28.

[6] مصيصة: مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 144-145.القزويني: نفس المصدر السابق، ص 564.

[7] بياس: مدينة صغيرة شرقي أنطاكية وغربي المصيصة وهي بينهما قريبة من البحر. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 517.

[8] جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. أنظر ياقوت الحموي: المشترك، ص95.

[9] محمد غالب الطويل: تاريخ العلويين، ص 288. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج4، ص265. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج2، ص 497-498.

المبحث الثالث: طائفة الدروز

01- تعريفها

الدروز فرقة إسماعيلية اتسمت بطابع الباطنية حيث أخفوا عقيدتهم عن غيرهم من الفرق الإسلامية، وقد نشأوا في إبان العصر الفاطمي، وظلوا منطوين على أنفسهم، حريصين على سرية عقيدتهم حتى لا تذاع بين عامة الناس[1]، وهم يدّعون ألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي[2]، ويسمون أنفسهم بالموحدين[3]، وهو الاسم الذي عرفوا به في كتبهم المقدسة[4].

هذا وقد وقع الخلاف في لفظة دُرزي هل هي بضم الدال وسكون الراء، أم دَرَزي بفتح الدال والراء، وذلك بالنظر إلى اسم الشخصين اللذين نسبت إليهما هذه الفرقة، فأولهما وهو محمد بن إسماعيل الدَّرَزي بفتح الدال والراء، وهو المعروف بنشتكين الدَّرَزي، وقد تعرض للقتل على يد الدروز، وكان هذا الأخير قد دعا لتأليه الحاكم بأمر الله وعمل على نشر هذه الدعوة في وادي التيم ببلاد الشام، وله ميول يهودية مجوسية، أما الشخص الآخر، فيدعى أبو منصور أنوشتكين الدُّرْزي، وقد كان هذا الأخير قائدا عند الحاكم بأمر الله، والدروز يقولون بأنهم ينتسبون إليه هو وليس للأول[5]، ولذلك يجله الدروز ويبجلونه، بينما يلعنون الأول[6].

لاحظنا الخلاف الذي جرى حول تسمية الدروز بذلك الاسم، هل هي نسبة إلى نشتكين الدَّرَزي، أم إلى أنوشتكين الدُّرْزي، ورأينا كيف أن الدروز يكرهون نشتكين ويقولون أنهم ينتسبون إلى

---

[1] مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص 259. حنا أبي راشد: جبل الدروز، مكتبة زيدان العمومية، ط01 (1925)، ص 41. محمد كامل حسين: طائفة الدروز (تاريخها وعقائدها)، دار المعارف، ط1، 1962،، ص 3.

[2] الحاكم بأمر الله: هو أبو علي منصور بن العزيز بالله أبي المنصور نزار بن المعز لدين لله أبي تميم معد، ولد بالقاهرة ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة... تولى الخلافة بعد وفاة أبيه يوم الثلاثاء ثماني عشرة رمضان سنة ست وثمانين للهجرة...اختفى عن الأنظار سنة أربع مائة وإحدى عشر للهجرة، بجبل المقطم، لليلتين بقيتا من شوال، والراجح أن أخته ست الملك هي من دبرت قتله لأنه اتهمها بالفجور... أنظر تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج 2، ص ص 3-115-116.

[3] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 260. ماكس أوبنهايم: الدروز، تر: محمود كبيبو، دار الوراق، ط04، (لندن)، ص 54.

[4] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 8.

[5] سليم أبو إسماعيل: الدروز (وجودهم، مذهبهم، توطنهم)، د- د-ن، ص 67- 68.

[6] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 260.

أنوشتكين القائد العسكري، فهل ما يقولونه صحيحا في نسبتهم إلى ذلك الشخص؟، ولمعرفة ذلك توجب علينا أن نقدم عرضا عن أهم مراحل الدعوة الدرزية ليتبين لنا في الأخير حقيقة الأمر.

2- نشأتها

تعود بداية الدعوة الدرزية إلى بداية القرن الخامس الهجري، حيث قام أحد دعاتها وهو المدعو حمزة بن أحمد الزوزني[1]، بزيارة مصر سنة (405هـ/1014م)، وهناك بدأ ينشر فكرة أن الحاكم بأمر الله إله تجسد في صورة بشرية، بحيث انتقلت روح الله تعالى إلى آدم عليه السلام، ثم إلى علي بن أبي طالب وبعده إلى الحاكم بأمر الله، وبالتالي فإن الحاكم هو الصورة الناسوتية لله عز وجل[2].

ولكي يضفي حمزة على دعوته نوعا من الشرعية والحقيقة، فإنه تواصل مع مجموعة من الدعاة الآخرين الذين يوافقونه على فكرته هذه، ومنهم حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدَّرَزي وكان الأخرم من أكثر الأشخاص تحمسا لفكرة تأليه الحاكم بأمر الله، حتى أنه نال حضوة عند الخليفة نفسه فقربه إليه وخلع عليه وهو ما جعله يجهر بدعوى الألوهية أمام العامة، في جامع عمرو بن العاص بالقاهرة، بحيث سلموا إلى القاضي فتوى مبتدؤها باسم الحاكم الرحمن الرحيم، وهو ما أثار حفيظة المسلمين وخاصة السنة منهم، فثاروا عليه وقتلوه وقتلوا معه مجموعة أخرى من أتباعه[3].

بعد مقتل الأخرم تولى دعوة التأليه خلفه المدعو محمد بن إسماعيل الدَّرَزي، فوفد على مصر بعد ثلاث سنوات من إعلان الدعوة الأولى وكان ذلك سنة (408هـ/1017م) فقربه الحاكم وفوض الأمور إليه، حتى أنه ارتقى إلى أعلى المراتب، ولم يكن لأي شخص أن يقضي حاجة له عند الخليفة إلا عن طريقه، ويبدو أن الحاكم بأمر الله قد تعمد ذلك من أجل الرفع من قيمة هذا الشخص عند عوام الناس وبالتالي إيمانهم بفكرة التأليه[4].

---

[1] حمزة بن علي الزوزني: هو أبو الفضل حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، وعرف باللباد ربما لأنه كان يصنع اللباد في بداية أمره، واشتهر بالزوزوني نسبة إلى مقاطعة زوزون بفار، ولد سنة (375هـ/985م)، وتخرج من جامعة نيسابور عاصمة خراسان... أنظر: نسيب أسعد الأسعد: كشف الستار (بحث موثق في مذهب التوحيد)، دار رسلان، ط01 (2010م)، دمشق، ص 167.

[2] حنا أبي راشد: نفس المرجع السابق، ص 34. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع السابق، ج4، ص259-260. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 273.

[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 283. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 75. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 273.

[4] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، 184.

ثم اتصل محمد بن إسماعيل الدَّرَزي بحمزة بن علي الزوزني، واتفقا معا على رسم خطة يسيرا عليها في دعوتهما، ثم تلقب الدَّرَزي بسند الهادي، والهادي هو حمزة، وبالتالي فمقصوده من هذا اللقب أن يكون سند ومساعد حمزة في أعماله[1].

بعد أن تمكن الدَّرَزي من التقرب من الحاكم بدأ يقنعه بفكرة أنه إله، وربما كان الحاكم قد اقتنع بهذه الفكرة لكنه خشي أن يجهر بها خاصة وأنه دخيلة على المجتمع الإسلامي بما فيها الفاطميون أنفسهم، لكن الدَّرَزي أعلنها صريحة بالجامع الأزهر بالقاهرة، وهو ما ثار عليه الناس حتى أنهم سعوا للتخلص منه، فأعلن الحاكم البراءة منه ومن دعوته، غير أنه يسر له أمر الهروب إلى خارج مصر، وهو ما يشكك في نية الحاكم بأنه كان يوافق الدرزي مبدئيا، وهناك من يقول بأن الحاكم بأمر الله هو من أشار على الدرزي بالمسير إلى وادي التيم ببلاد الشام ونشر الدعوة الدرزية هناك[2].

تبين لنا الآن أن نسبة الدروز هي نسبة مذهبية لا عسكرية كما يقول في ذلك الدرزي سليم أبو إسماعيل في كتابه الدروز[3]، فقد اكتشفنا أن عقيدة الدروز القائمة على تأليه الخليفة الحاكم بأمر الله توافق تماما ما جاء به نشتكين الدَّرَزي، فقد كان يدعو إلى تأليه الحاكم بأمر الله، بينما كان الآخر وهو أنوشتكين الدرزي قائدا عسكريا في جيش الحاكم لا أكثر، ويبدو أن كره الدروز لنشتكين هو دعاية فقط، لأن عامة الناس يكرهون في الدروز تأليههم للحاكم بأمر الله، وحتى يتقربوا من العامة أعلنوا كرههم للدرزي، حتى أنهم أشاعوا بين الناس أنهم قد قتلوه لأنه يؤله الحاكم بأمر الله[4].

3- عقيدة الدروز

ينبثق مذهب الدروز من مذهب الإسماعيلية، على غرار المستعلية والنزارية، غير أن الدروز يختلفون عنهما، في أنهم ابتدعوا أمورا في الدين جديدة، ومن ذلك أنهم يعتقدون أن:

أ- تأليه الحاكم بأمر الله

يعتقد الدروز أن الخليفة الفاطمي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الملقب بالحاكم بأمر الله، الذي تولى خلافة الفاطميين في شهر رمضان سنة (386هـ/996م)، بأنه هو الصورة

---

[1] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 73. أحمد جلي: نفس المرجع السابق، ص 263.

[2] ماكس أوبنهايم: نفس المرجع السابق، ص 45. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 77. يوسف إبراهيم الشيخ: نفس المرجع السابق، ص93. أنظر خريطة رقم (02).

[3] سليم أبو إسماعيل: نفس المرجع السابق، ص 64.

[4] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 260.

الناسوتية للألوهية[1]، ويقولون عنه أنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، وكل الدروز أو الموحدين كما يلقبون أنفسهم، مفروض عليهم أن يؤمنوا بهذا الاعتقاد إيمانا قطعيا، وأن يؤمن كل درزي أن نفسه وماله وولده هو لمولاه الحاكم بأمر الله، كما يتوجب على الموحد أن يقر بأنه لا إله في السماء إلى الحاكم بأمر الله، ولا إمام في الأرض إلا هو [2].

وقد جاء في أحد رسائلهم وهي الرسالة الموسومة ب ((البلاغ والنهاية في التوحيد إلى كافة الموحدين المتبرئين من التلحيد))، توصيف لشخص الحاكم بأنه ((توكلت على مولانا عالّ كل العلل ومبدع القديم والأزل، وناسخ الشرائع والملل، وتعالى عن مقالات السفل...))[3]، كما يصفونه أيضا في رسالة سبب الأسباب أنه ((توكلت على ملانا البار العلام، العلي الأعلى حاكم الحكام، من لا يدخل في الخواطر والأوهام، جل ذكره عن وصف الواصفين، وإدراك الأنام...))[4].

كان هذا معتقد الدروز في الله، وهو كما رأينا معتقد فاسد، لا يصح أن يكون لطائفة تدعي أنها مسلمة، أن تؤمن به إذ ليس من المعقول أن يرفع العباد من درجة العبودية لله عز وجل إلى مصاف الألوهية.

ب- التناسخ والتقمص والحلول

ومن معتقدات الدروز أيضا هو قولهم بالتناسخ والتقمص والحلول، وهم بذلك يشبهون النصيريين الذين يقولون بالحلول، غير أنهم لا يؤمنون بالتناسخ كالذي يقول به النصيريون[5]، وسنشير إلى ذلك في حديثنا عن علاقة الطائفتين ببعضهما البعض، فيقول الدروز أن البشر الذين يموتون، لا تموت أنفسهم وإنما أجسامهم أي الأقمصة فقط، بينما تنتقل أرواحهم إلى أناس آخرين وهو ما يعرف بالتقمص، وبذلك فإن عدد سكان الأرض هم في ثبات لا يزيدون ولا ينقصون[6].

وقد أوردوا ذلك صريحا في أحد رسائلهم وهي الموسومة برسالة (من دون قائم الزمان والهادي

[1] عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ص 508.

[2] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 43. مصطفى الشكعة، نفس المرجع السابق، ص 270. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 508.

[3] حمزة بن علي- إسماعيل التميمي- بهاء الدين السموقي: رسائل الحكمة، دار لأجل المعرفة، ديار عقل (بيروت)، ط5، ج1، ص 73.

[4] المصدر نفسه، ص 146.

[5] عبد الله النجار: مذهب الدروز والتوحيد، دار المعارف (مصر)، ط1 (1965)، ص 62.

[6] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 509.

إلى طاعة الرحمن) ما يلي : ((أليس قد صح عند كل ذي عقل ومعرفة بالحقيقة والفضل، أن هذه الأشخاص أعني عالم السواد الأعظم لم يتناقصوا ولم يتزايدوا، بل هي أشخاص معدودة من أول الأدوار إلى انقضاء العالم والرجوع إلى دار القرار))[1] .

وهنا يبدو التناقض في كلام الدروز واضحا، لأنه ليس من العقل أن يكون عدد سكان الأرض منذ بدء خلق آدم وإلى اليوم على نفس العدد، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى تفكير، فعدد الناس يتزايدون بوضوح ولا مجال لقبول رأي الدروز في هذه المسألة.

ويقولون في الثواب والعقاب الذي تناله الأنفس على أعمالها الدنيوية، أن النفس التي تعمل السيئات، تتدنى في الدرجات بما يشبه المسخ عند النصيريين، لكنها تتدنى فقط في الأنفس البشرية، بحيث تنتقل نفس الإنسان من درجة علمية عالية إلى درجة أدنى منها، وأما الثواب، فيكون بارتفاع الأجساد في الدرجة العلمية، إلى أن تصل إلى أعلى المراتب[2].

والدروز لا يقبلون أي شخص أن يدخل في مذهبهم، لأن يعتقدون أن ما ولد على مذهب التوحيد فقط من يكون موحدا، ولذلك فإن من يرتدد منهم أيضا عن مذهبهم، لا يرونه خارجا عن مذهبهم بل يعود إليه بعد موته، ولكن في جسد شخص آخر[3].

ويرى محمد كامل حسين، أن الدروز قد اشتقوا مذهبهم من بعض الديانات القديمة، فمثلا عندما يقولون بالحلول، الذي يشبه التقمص، ويختلف عنه فقط في أن النفس تحل في جسد آخر بكامل صفاتها، على عكس التقمص الذي قد لا تحمل فيه النفس أيا من صفاتها القديمة إلى الجسم الجديد، وهذه النظرية موجودة في ديانات البوذية، والهندوسية، فقد ظهر بوذا حسب معتقد البوذيين في صور مختلفة لبشر وحيوانات عدة مرات، كما ظهر شيفا في الديانة الهندوسية على هيئات متعددة، وهذا تماما ما ينطبق على معتقد الدروز الذي يقول بانتقال الأرواح من جسم إلى آخر[4].

ت- حدود الدين عند الدروز

يشتبه الدروز مع الإسماعيليين في أن حدود الدين خمسة، غير أنهم يختلفون عنهم في كون أن الحدود الروحانية (العلوية) هي نفسها الحدود الجسمانية، وهو عكس ما يقوله الإسماعيليون الذين

---

[1] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 535.

[2] مصطفى غالب: الحركات الباطنية في الإسلام، دار الأندلس (بيروت)، د-س-ن، ص 263.

[3] سامي نسيم مكارم: أضواء على مسلك التوحيد، تق: كمال جنبلاط، دار التقدمية، ط3، (2010)، ص 121-122.

[4] محمد كامل حسين: طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، دار المعارف (مصر)، ط1 (1962)، ص 109.

يعتقدون بأن الحدود العلوية تمثلها الحدود الجسمانية، وعليه فإن حدود الدين عند الدروز هي:

01- العقل الكلي: وهو نفسه الإرادة، وهو القلم، وهو القضاء، وهو الإمام الأعظم حمزة بن علي بن أحمد الدرزي، هادي المستجيبين، وهو قائم الزمان، وهو آدم الحقيقي في الدور الحالي[1].

02- النفس الكلية: وهو ذو مصة، أي يمتص العلم من الإمام الأعظم، وهو بمثابة النبي إدريس وهو إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي[2].

03- الكلمة: وهو سفير القدرة، والشيخ الرضي، وعماد المستجيبين، وهو أبو عبد الله محمد بن وهب القرشي.

04- الجناح الأيمن: وهو السابق، وهو نظام المستجيبين وعز الموحدين، وهو أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري.

05- الجناح الأيسر: وهو التالي، والشيخ المقتنى، ولسان المؤمنين، وسند الموحدين، وهو بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد السموقي المشهور بالضيف[3].

وبهاء الدين له ثلاث حدود، هم:

01- الجد: وهو أيوب بن علي.

02- الفتح: وهو رفاعة بن عبد الوارث.

03- الخيال: وهو محسن بن علي.

وحدود الإمامة والتوحيد سبعون درجة وهي:

1- النفس الكلية: وله اثنا عشر حجة في الجزائر وسبعة دعاة في الأقاليم[4].

2- الكلمة: وله اثنا عشر حجة، وسبعة دعاة.

3- الجناح الأيمن (السابق)، وله اثنا عشر حجة.

---

[1] مجهول: النقط والدوائر، تح: كريستيان فريدرخ سيبلد، دار الوراق، ط1 (2012م)، ص 141. حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 240-241.

[2] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 240-241. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 113. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 509.

[3] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 113. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 510.

[4] مجهول: النقط والدوائر، ص 148.

4- الجناح الأيسر (التالي) وله اثنا عشر حجة.

5- الداعي المطلق، وله مأذون ومُكالبان[1].

ويصبح المجموع سبعين، وهو تأويل الآية: ((ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ))[2].

وكغيرهم من الحركات الباطنية نجدهم يحرفون تفسير القرآن الكريم، بما يتماشى وأهوائهم، فمثلا يفسرون البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) أنها: (تسعة عشر حرف إشارة إلى حدود حمزة تسعة عشر رجلاً ، فلذلك عندما يكتبون (بسم الله الرحمن الرحيم) يلحقونها بقولهم: حدود عبده (الإمام)، فعندهم (بسم الله) سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة، و(الرحمن الرحيم) اثنا عشر حرفا دليل على اثني عشر دعاة الجزائر[3]. أنظر الملحق رقم (02).

ث- الفرائض التوحيدية عند الدروز

وللدروز سبع خصال توحيدية هي:

1- سدق (صدق) اللسان، ويلاحظ على الدروز أنهم ينطقون الصاد سينا، ليس جهلا وإنما لغاية في أنفسهم، فهم يقولون بأن حرف السين يساوي بلغة الأرقام العدد ستون، والدال يعادلها الرقم أربعة، والقاف يعادلها الرقم مئة، وتفسير كل ذلك هو أن الإمام له تسع وتسعون رقما، وهم الدعاة، وهو ما يمثل أسماء الله الحسنى، أما الجناحان الأيمن والأيسر فلكل واحد منهما رقم ثلاثين أي ستون داعيا، ويبقى الرقم أربعة وهو يمثل عدد الحدود وهم ذو مصة والكلمة والجناح الأيمن والجناح الأيسر، ويبقى حد واحد وهو دليل التوحيد، وهو حمزة بن علي بن أحمد[4].

2- حفظ الإخوان.

3- ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان.

---

[1] مصطفى غالب: نفس المرجع السابق، ص 262-263. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 114. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 510.

[2] سورة الحاقة: الآية 32. مجهول: النقط والدوائر، ص 150.

[3] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 153. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 115.

[4] محمد كامل حسين: المرجع نفسه، ص 115-116.

4- البراءة من الأبالسة والطغيان، أي من الأنبياء السابقين ومن الأديان والشرائع السابقة.

5- التوحيد للمولى في كل عصر وزمان ودهر واوان.

6- الرضا بفعله كيفما كان.

7- التسليم لأمره في السر والحدثان[1].

ج- عقيدتهم في اليوم الآخر والثواب والعقاب

يعتقد الدروز في يوم القيامة والثواب والعقاب، اعتقادا مخالفا تماما لما جاء به القرآن وما نؤمن به نحن المسلمون السنة، إذ يقولون بأن الأرواح لا تموت لتوقظ وتبعث، بل إن يوم الحساب في رأيهم هو نهاية مراحل الأرواح وتطويرها[2]، وفي هذا اليوم يظهر التوحيد منتصرا على باقي العقائد، وفيه أيضا يظهر المعبود (الحاكم بأمر الله)، في الصورة البشرية، ويكون ذلك في شهر جمادى أو رجب، ويكون لهذا الظهور أمارات وهي: هو عندما يتسلط المسيحيون واليهود على البلاد ، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة ، ويتملك شخص من ذرية الإمامة يعمل ضد شعبه وأمته ، ويضع نفسه تحت سلطان المخادعين ، ويتملك اليهود بيت المقدس...[3].

ويكون مكان ظهر المعبود في أرض الصين ويتجمع حوله القوم الكرام (يأجوج ومأجوج)، ويكونون عددا كبيرا مقسومون على خمسة فرق، يترأس كل فرقة حد من حدود الموحدين، ويدخلون مكة، وفي اليوم الموالي لدخولهم يظهر المعبود (الحاكم) على الركن اليماني من الكعبة، ويتهدد الناس في سيف مذهب، يدفعه إلى حمزة فيقتل فيه الكلب والخنزير (الناطق والأساس)، ثم يدفع حمزة السيف إلى محمد(الكلمة)، الذي هو أحد الحدود الخمسة، وحينئذ يهدمون الكعبة ويفتكون بالمسلمين والنصارى في الأرض ويستولون عليها إلى الأبد، ومن بقي يكون عندهم في الذل والهوان[4] .

وتصير الناس إلى أربعة فرق :

أولا: الموحدون ، وهم عقال الدروز، وهم الوزراء والحكام والسلاطين .

ثانيا: أهل الظاهر، وهم المسلمون واليهود[5] .

---

[1] المرجع نفسه، ص122. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 511.

[2] عبد الله النجار : نفس المرجع السابق، ص 81.

[3] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 124.

[4] المرجع نفسه، ص 125.

[5] نفسه.

ثالثا : أهل الباطن ، وهم النصارى والشيعة .

رابعا : المرتدون ، وهم جهال الدروز .

وعن جزاء البشر في هذا اليوم والذي يكون إما ثوابا أو عقابا، فيعتقد الدروز أن النفس التي تعاقب، تكون بانتقالها من درجة علية في الدين إلى درجة أقل منها مع ضنك في الحياة، بينما تجازى النفس المحسنة بارتفاعها في درجات الدين والعلوم، إلى أن تصل إلى درجة المكاسر[1] .

4- توزيعها الجغرافي[2]:

ينتشر الدروز في أماكن عديدة من العالم اليوم، وكانوا خلال القرون الأولى لظهور طائفتهم يتمركزون في بلاد الشام فقط، حيث استقروا في بادئ الأمر في وادي التيم[3]، واتخذوا من جبل حرمون منطلقا لنشر دعوتهم ببلاد الشام[4]، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ثم توسعوا شيئا فشيئا إلى الأماكن المجاورة وهم الآن منتشرون في لبنان في الشوف[5]، المتن، الجنوب، كسروان، عبيَّة، الشويفات وبعقلين[6]، وفي سوريا[7] موجودون في السويداء[8] وقنسرين وجرمانا[9]، وفي قرى أنطاكية[10] بلواء الإسكندرونة[11]، وفي فلسطين موجودون في صفد[12] وعكا والكرمل[13] وطبرية[14].

[1] محمد كامل حسين: المرجع نفسه، ص 125.

[2] أنظر الخريطة رقم (02).

[3] زيد بن عبد العزيز الفياض: حقيقة الدروز، دار الألوكة للنشر (الرياض)، ط2 (1437هـ)، ص 39.

[4] ماكس أوبنهايم: نفس المصدر السابق، ص 45. سامي مكارم: نفس المرجع السابق، ص 141.

[5] يوسف إبراهيم الشيخ عيد: المرجع السابق، ص 123.

[6] صالح بن يحي: تاريخ بيروت وأخبار الأئمة البحتريين من بني الغرب، تع: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية (بيروت)، ط2 (1927م)، ص 48-49. ماكس أوبنهايم: نفس المصدر السابق، ص 18.

[7] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 07.

[8] السويداء : وهي قرية بحوران بنواحي دمشق. أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 3، ص 286.

[9] جرمانا: وهي في نواحي غوطة دمشق. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 129.

[10] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 07.

[11] الإسكندرونة: وهي مدينة في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام. الحموي: المصدر السابق، ج 1، ص 182.

[12] صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. الحموي: المصدر السابق، ج 4، ص 412.

[13] الكرمل: بالكسر ثم السكون وكسر الميم ولام، وهو حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل بحر الشام، وكرمل كذلك قرية في آخر حدود الخليل من ناحية فلسطين. الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 456.

[14] ماكس أوبنهايم: نفس المصدر السابق، ص 54.

ويذكر محمد كامل حسين أن هناك من طائفة الدروز من يسكنون ببلاد المغرب جنوب تلمسان، وذكر اسم قبيلة بني عيس، غير أن من يجاورهم لا يعرفون ذلك[1]، وهذا القول لا نجد له تدعيما من مصادر أخرى، كما أننا لم نسمع عن تصرفات أو نشاطات مشابهة هناك لعقائد الدروز، لكن ذلك الاحتمال يبقى واردا بوجود هذه الطائفة هناك طالما لا توجد كتابات ترد بالدليل على قول محمد كامل حسين.

ويذكر الرحالة الألماني ماكس أوبنهايم أن الدروز لهم وجود في بلاد المغرب، وهم بالضبط في جزيرة جربة[2] التونسية[3]، لكنه هو الآخر يقع في الخطأ عندما يقول بأن هؤلاء هم من الخوارج، وذلك وذلك بقوله: ((...فالمسلمون في اليابسة يطلقون على سكان الجزيرة اسم الخوارج، وهو اسم يطلق على الدروز أيضا...))[4]، ونحن نعلم أن الدروز هم من الشيعة الإسماعيلية، ثم إنه يركز بقوله أن المسلمين السنة يسمون كل من يخالفهم من الشيعة والخوارج بالكفار، وهذا خطأ وقع فيه هذا الأخير في التسمية، مع العلم أن هناك من المعلومات الحالية التي تؤكد وجود الدروز حقيقة في جنوب تونس، لكنهم ليسو هم الخوارج لأن الخوارج كذلك موجودون في جنوب تونس، وهم على مذهب مغاير تماما للتشيع.

ويقول عنهم أيضا أنهم موجودون كذلك بالهند، حيث يقول: ((ومن المؤكد أن الخوجة والبهرة في الهند أقرباء لهم))[5]، وهؤلاء الخوجة يقول عنهم أوبنهايم أنهم يتفقون إلى حد كبير مع الدروز، كما أنهم كثيرا ما يحجون إلى قبائل نجران في اليمن لكي يمجدوا الداعي الحاكم هناك الذي يعتبر تجسيدا للإله من نوع خاص يتجدد دوما وأبدا في خلفائه[6].

---

[1] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 07.

[2] جربة: وهي جزيرة في المغرب من ناحية إفريقية قرب قابس. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 118.

[3] ماكس أوبنهايم: نفس المرجع السابق، ص 52.

[4] ماكس أوبنهايم: المرجع السابق، ص 52.

[5] المصدر نفسه.

[6] المصدر نفسه.

المبحث الرابع: طائفة المستعلية

1- تعريفها

وهي إحدى الفرق الباطنية التي تعود أصولها إلى الإسماعيلية، فهي جزء من الدولة الفاطمية، أو هي استمرار لها، غير أنها تميزت عن الدولة الفاطمية فقط بانتسابها إلى المستعلي، الذي تولى الخلافة في مصر خلفا لوالده المستنصر بالله[1]، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى أتباعها الذين أيدوا إمامة المستعلي بدلا من أخيه نزار الذي رأى نفسه أحق بها من أخيه الصغير[2].

2- نشأتها

كان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله قد كتب نص ولاية العهد لمن سيخلفه بعد وفاته لابنه الأكبر نزار، غير أن وزيره الأفضل بن بدر الجمالي[3] تدخل في الموضوع، وأبطأ في تنفيذ نص الولاية إلى ما بعد وفاة الخليفة، ولما توفي قام بتغيير ولاية العهد من الابن الأكبر وهو نزار إلى الابن الأصغر وهو أبو القاسم أحمد المستعلي[4]، وكان ذلك لعدة أسباب أهمها:

- الخلاف الذي كان بين كل من الوزير الأفضل بن بد الجمالي، ونزار، فقد ذكرت المصادر أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي كان قد دخل ذات يوم من راكبا فرسه في أحد دهاليز القصر

[1] أبو العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، ط1 (1340هـ/1922م)، ج13، ص 136-137. محمد بن أحمد بن إياس الحفني: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، دار الباز (مكة المكرمة)، د-س-ن، ج01، ص 220. عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوّض، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1419هـ/1998م)، ج3، ص 571. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 244.

[2] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال، وزارة الأوقاف المصرية، ط2 (1416هـ/1996م)، ج3، ص 11.

[3] الأفضل بن بدر الجمالي: وهو السيد الأجل الأفضل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه ابن السيد الأجل أمير الجيوش بدر المستنصري، تولى الوزارة بعد مرض والده شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وأربع مئة...أنظر: ابن الصيرفي أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب: الإشارة لمن نال الوزارة، تح و تع: عبد الله مخلص، خزانة الكتب الخالدية (بيت المقدس)، د-س-ن، ص 57-58.

[4] أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي: تاريخ الفارقي، تح: بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني (بيروت) ط2 (1974م)، ص 267.

والتقى بنزار، فسبه هذا الأخير بقوله انزل يا أرمني يا نجس[1]، ومنذ ذلك التاريخ صار كل منهما يكره الآخر، وينتظر فيه الفرصة للانتقام منه، إلى أن جاءت الفرصة لصالح الوزير الأفضل، فقام بتغيير نص ولاية العهد من عند نزار إلى المستعلي، وتذكر المصادر أيضا أنه أظهر منه تخوفا كبيرا، وخشي أن ينتقم منه إن هو وصل إلى كرسي الخلافة، ولذلك بادر إلى قص أجنحته ما دامت السلطة بيده، فضغط على رجالات القصر ليقبلوا بخلافة المستعلي بدلا من نزار[2].

- صغر سن المستعلي، فقد كان الوزير الأفضل قد تحكم في زمام الأمور طول فترة وزارته للمستنصر، ولذلك يكون قد عز عليه أن يدع نفوذه يخبو من قصر الخلافة، فعمد إلى تولية المستعلي حتى يسهل عليه التحكم به، فقد كان هذا الأخير حدث السن، ولا يمكن هان يتحكم في زمام السلطة، ولذلك من الضروري أن يتولى الوزير أمر السلطة نيابة عن الخليفة الصغير[3].
- القرابة التي تربط الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بالخليفة المستعلي، فالأخير هو صهر الوزير (زوج ست الملك ابنة بدر الجمالي)[4]، ولذلك فإن أمر التحكم به يسير خاصة وأنه قد أسدى له خدمة لم يكن ليحلم بها، إذا منحه كرسي الخلافة الذي ليس من حقه، حسب عقيدة الإسماعيلية التي تقول بأن ولاية العهد تكون في الابن الأكبر، ولذلك سيكون من السهل على الأفضل أن يتحكم بالمستعلي.
- ونتيجة لكل ذلك أعلن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بمجرد الانتهاء من مراسيم دفن المستنصر بالله، البيعة لابنه الأصغر أحمد ولقبه بالمستعلي، وكان ذلك يوم (18 ذي الحجة 487هـ/1094م)[5]، ثم أجبر رجال الدولة بأن يبايعوا فبايعوه، وصار بذلك خليفة لمصر رغم حداثة سنه، بدلا من صاحب الحق الشرعي في الخلافة وهو أخوه الأكبر نزار.

---

[1] تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب الملقب بابن ميسر: أخبار مصر، تح: أيمن سيد فؤاد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د-س-ن، ص 60.القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج13، ص 136-137.

[2] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 60. المقريزي: نفس المصدر السابق، ص 11.

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 389.

[4] المقريزي: نفس المصدر السابق، ص 85.

[5] جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تق: محمد حسين جمال الدين، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1413هـ/1992م)، ج5، ص 141. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 389.

لم يلق هذا التصرف قبولا لدى نزار وأتباعه، فتمردوا على الحكم الجديد، واتخذوا من الإسكندرية مقرا لهم، وكان الذي يساند نزارا آنذاك هو حاكم الإسكندرية أفتكين التركي، وحدثت نتيجة لذلك مناوشات بين الطرفين، أتباع نزار تحت زعامته هو بنفسه، وأتباع المستعلي الذين تزعمهم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي نفسه، وبعد صراع دام حوالي العشرة أشهر طلب حاكم الإسكندرية الأمان لنفسه ولأهل المدينة فأعطاهم الأفضل ذلك، وبعد أن تسلم المدينة قبض على أفتكين ونزار، فابتنى على نزار جدارا وجعله بداخله إلى أن توفي، ثم قتل أفتكين، وصفا الجو للمستعلي ليحكم مصر[1]، ويصبح خليفة لها.

ورغم أن نزار قد انتهى من الساحة السياسية في مصر، إلا أن أتباعه والمؤمنون بإمامته ظلوا يعتقدون بأحقيته، ولو أنه مات، فتسموا بالنزارية، بينما تسمى أتباع المستعلي بالمستعلية والتي هي موضوعنا الآن، وإن كانت كل من النزارية والمستعلية من مصدر واحد إلا أنهما صارتا طائفتين مختلفتين تدعو كل واحدة منهما لإمام معين، وتعمل على نشر الدعوة له، في أماكن متباعدة فكانت المستعلية تدعو لإمامها في مصر وأرض الحجاز واليمن وأجزاء من بلاد الشام، بينما كانت النزارية تدعو لإمامها في أرض فارس وأجزاء من أرض الشام أيضا[2].

استمر المستعلي يحكم مصر منذ (487هـ/1094م) إلى غاية (495هـ/1101م)، ولم يكن للخليفة المستعلي فيها من الحكم إلى الاسم، فقد كانت السلطة كلها بيد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي[3]، وفي عهده ظهر الصليبيون في البلاد الإسلامية، واستولوا على أجزاء واسعة من بلاد الشام وبيت المقدس التابعة للفاطميين سنة (492هـ/1098م)[4]، ((وفي أيامه وهنت الدولة

[1] أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)، تح: دوروتيا كراغوسكي، (1413هـ/1992م)، د-د-ن، ج6، ص 447. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل (بيروت)، ط14 (1416هـ/1996م)، ج4، ص 171.

[2] أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، د-س-ن، ج1، ص 179.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط11 (1417هـ/1996م)، ج15، ص 196. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج1، ص 179. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 145.

[4] أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط4 (1423هـ/2004م)، ج9، ص 19.

العبيدية، واختلت قواعدها، وانقطعت الدعوة لهم من أكثر مدائن الشام، واستولى عليها الفرنج وغيرهم من الغز))[1].

ثم تولى خلافة مصر بعد المستعلي ابنه الآمر بأحكام الله أبو علي منصور[2]، وقد كان هو الآخر فتى صغيرا حدث السن، حجر عليه الوزير الأفضل كما فعل بأبيه من قبل، وفي عهده استولى الصليبيون على ما تبقى من أرض الشام، ويقال بأن الآمر تآمر على قتل وزيره الأفضل لما رأى فيه من تضييق عليه، وكان ذلك سنة (515هـ/1121م)، وفي سنة (524هـ/1130م)، قتل الآمر على يد جماعة من الباطنية[3]، وفي عهده تدهورت أوضاع مصر واضطربت أحوالها[4].

ولأن الآمر لم يخلف بعده ابنا ذكرا يوصي عليه بالإمامة من بعده، فقد فتح موته الباب للفوضى، إذ انه كان لابد وأن يجد القائمون على السلطة في مصر خليفة جديدا لهم، فوقع التعيين على ابن عمه الحافظ عبد المجيد، فبويع بولاية العهد في انتظار ما ستنجبه زوجة الآمر إن كان ولدا سيصير خليفة أبيه، وإن كان بنتا انتقلت الخلافة إلى ابن عمه آليا، ولما وضعت زوج الآمر بنتا، آلت الخلافة إلى الحافظ عبد المجيد فصار هو إمام المستعلية[5].

والواقع أن الصليحيين في اليمن لم يرضوا بخلافة الحافظ لدين الله ورأوا بأن مآل الخلافة إلى ابن عم الخليفة الآمر، هو خروج عن تعاليم العقيدة القائلة بوجوب بقاء الإمامة في الأعقاب، ولذلك رفضوا أن تنتقل الخلافة من الآمر إلى ابن عمه الحافظ، ولكن كان عليهم أن يعرفوا إمامهم ويتبعونه، فابتدعوا قصة الطيب بن الآمر الذي قالوا عنه بأنه كان في بطن أمه لما توفي أبوه، وقد أخفوا أمره

---

[1] الذهبي: نفس المصدر السابق، ج15، ص 196.

[2] المصدر نفسه ج15، ص 197. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 328. ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 180.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 664. عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مر: سهيل زكار، دار الفكر (بيروت)، ط1 (1421هـ/2001م)، ج4، ص 91.

[4] محمد بن أحمد بن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، مكتبة دار الباز (مكة المكرمة)، ج1، ص 221. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 496. الذهبي: نفس المصدر السابق، ج15، ص 199.

[5] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج3، ص 236-237. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، 664. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 91.

خشية أن يقتل، فلما ولد أرسله أحد الدعاة إلى الملكة الصليحية أروى، فتكفلت به وأعطت لنفسها لقب " كفيلة الإمام المستور"، ومنذ ذلك الحين انفصل الصليحيون في اليمن عن إسماعيلية مصر[1].

وفي سنة (544هـ/1150م) توفي الحافظ لدين الله، وخلفه ابنه الظافر بأمر الله[2]، وكان هذا الأخير عمره سبع عشرة سنة، ولم يكن مهتما بأمور السياسة والحكم حتى أن سلطان الفاطميين ضاع من أغلب بلاد الشام والحجاز والمغرب[3]، ثم إنه قتل على يد وزيره عباس وابنه بعد أن اتهم بالشذوذ في حق ابن الوزير عباس، فعمدوا إلى قتله لتحسين صورتهم أمام الناس، وكان ذلك سنة (549هـ/1154م)، وتولى الخلافة بعده ابنه عيسى، وتلقب بالفائز[4].

لقد ترك مقتل الظافر أثارا سلبية في المجتمع المصري وخاصة قصر الخلافة، إذ أن العامة شكت في قضية موت الظافر، ولم يصدقوا قصة انقلاب مركبه، فألحوا على الوزير عباس حتى عرفوا الحقيقة، ولذلك ثاروا عليه بمعية والي الصعيد الأرمني الصالح بن رزيك، ولما شعر عباس بالخطر فر قاصدا بلاد الشام، لكنه قبض عليه من طرف الفرنج وأرسلوه إلى القاهرة بناء على طلب أخت الظافر، فقتل بعد أن عذب ثم أحرقت عظامه[5].

وبعد الفائز تولى إمامة المصريين ابن عمه العاضد لدين الله سنة (555هـ/1155م)، وكان هو الآخر طفلا حدث السن لم يتجاوز يوم خلافته الحادي عشر من العمر، وفي عهده ضعفت الدولة الفاطمية وصارت مهددة من الصليبيين أكثر من أي وقت مضى، وسبب ذلك هو الصراع

---

[1] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 50.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 141-142. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج15، ص 202. إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي المشهور بابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، مر: أحمد السيد دراج، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي (جامعة أم القرى)، د-س-ن، ص 214- 215.

[3] الذهبي: نفس المصدر السابق، ج15، ص 202-203. ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 237.

[4] ابن إياس: نفس المصدر السابق، ج1، ص228. شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الملقب بابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير (دمشق)، ط1 (1406هـ/1986م)، ج 6، 251-252. نفس المصدر السابق، ج4، ص152. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، 296.

[5] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج3، ص 492-493. الذهبي: نفس المصدر السابق، ج15، ص202-203. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 31. ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر السابق، ج 4، ص 153.

الدائر بين الوزراء خاصة بين ضرغام وشاور[1]، ونتيجة لذلك تدخلت القوة الإسلامية السنية المتمثلة في القوة النورية، وانتهت بزوال الدولة الفاطمية سنة (567هـ/1167م)[2].

3- عقيدة المستعلية

أشرنا قبل قليل إلى أن المستعلية هي جزء من الإسماعيلية، ولذلك كانت عقيدتها عقيدة الإسماعيلية مثلها مثل إخوانهم النزارية غير أنه هناك بعض الخلافات الجزئية بينهما، سنشير إليها فيما بعد عندما نتعرض لعقيدة النزارية، والآن سنعرج على عقيدة المستعلية بشيء من الإيجاز:

أ- عقيدتهم في التوحيد

يقول الإسماعيليون بالوحدانية ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، هذا على الظاهر لكنهم يعتقدون في هذا التوحيد أمورا أخرى باطنا، ولذلك تسموا بالباطنية، ويقولون بأن القرآن يفسر ظاهريا مثلما يفسره أهل السنة، لكنهم لا يقرون بتفسيره الظاهري، وإنما يقولون بأن التفسير الصحيح هو الباطن، ويقولون أيضا بأن من لا يؤمن بالظاهر والباطن معا فهو خارج عن المذهب ويرمونه بالكفر[3].

هذا وينكر الإسماعيلية صفات الله تعالى، لأنهم يقولون بأن الله تعالى، هو فوق إدراك العقل، ولا يمكن أن يوصف بوصف دنيوي[4]، فهم لا يقولون أنه موجود ولا يقولون أنه موجود، ولا يقولون أنه عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، فهم بذلك لا يقولون بالإثبات المطلق ولا النفي المطلق، فهو إله المتقابلين وخالق المتخاصمين، والحاكم بين المتضادين، وهو ليس بالقديم وليس بالمحدث، لأن القديم أمره وكلمته، والحديث خلقه وفطرته[5].

ويقول الإسماعيلية أيضا أن الله لم يخلق العالم خلقا مباشرا، وإنما أبدع العقل الكلي الذي هو محل كل الصفات الإلهية، فهو بمثابة إله في الظاهر، واستدلوا على ذلك بمقاصد العبادات إلى من

---

[1] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج3، ص 110. ابن دقماق: نفس المصدر السابق، ص 217.

[2] جمال الدين محمد بن سالم بن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال وآخرون، د-د-ن، ج1، ص 201.

[3] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية (تاريخها- نظمها- عقائدها)، دار النهضة المصرية، ط1 (1959م)، ص 148. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 250.

[4] إحسان إلهي ظهير: الإسماعيلية، تق: سيد بن حسين العفّاني، دار بن حزم (القاهرة)، ط1 (1429هـ/2008م)، ص 275.

[5] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج1، ص 229. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 250.

تؤدى؟، فهم يقولون عن الصلاة أنها لا يمكن إلا أن تؤدى لجسم ملموس في الواقع، حتى يتلذذ الناس حلاوتها ويؤمنون بأنهم يؤدونها لكائن موجود فعلا، فلا تصح أن تكون العبادة لكائن غير ملموس وهو الله في العالم الغيبي، وعليه فالصلاة تؤدى للعقل الكلي، الذي أطلقوا عليه أيضا اسم الحجاب أو المحل أو الصلة[1].

ولكي يبلغ الإنسان السعادة ينبغي عليه أن يُحصّل العلم، ولن يستطيع ذلك إلا إذا حل العقل الكلي في إنسان بشري وهو النبي ثم الأئمة الذين يخلفونه، وعندها يصير هذا العقل الحالّ ناطقا، والنفس الحالّة تسمى أساسا، فيصبح إذا النبي هو الناطق وهو الذي يبلغ كلام الله، بينما يصبح الأساس هو الإمام الذي يفسر كلام الله، معتمدا على التأويل، ومنه قالوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الناطق بينما علي بن أبي طالب هو الأساس[2].

ولعل مقصود الإسماعيلية من هذا التأويل في ذات الله وذات الإمام، هو إضفاء صفات القداسة على الإمام وإن جعلوه في مرتبة أدنى من الله والنبي ليس سوى تدليسا وتقية على فساد ما يقولون، وإلا فكيف يجعلون الإمام معصوما من الأخطاء، وكيف يجعلون منه ممثولا لله سبحانه وتعالى في الأرض وهو يحمل نفس الصفات الإلهية، ولذلك نراهم يسمون الأئمة بالصفات الإلهية لاعتقادهم الكمال فيهم[3].

ودليل ما نقول جاء على لسان أحد شعرائهم وهو ابن هانئ الأندلسي الذي قال في المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار[4]

وقول الأمير تميم بن المعز الذي امتدح أخاه الخليفة الفاطمي العزيز بقوله:

ما أنت دون ملوك العالمين سوى   روح من القدس في جسم من البشر

نور لطيف تناهى منك جـوهره   تناهيا جاز حد الشمس والـقمر

---

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 251.

[2] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص ص 158-159-160. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 251.

[3] Habib feki, les idees religieuses et philosophiques de l'ismaelisme Fatimid (organisation et doctrine), publications de L'uneversite de Tunis, (1978), p 199-200. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 251.

[4] ابن هانئ الأندلسي: ديوان ابن هانئ الأندلسي، دار بيروت (بيروت)، ط1 (1400هـ/1980م)، ص 146.

معنى من العلة الأولى التي سبقت   خلق الهيولى وبسط الأرض والمــدر[1]

ولذلك فالإسماعيلية يقولون عن الإمام أنه بشر في الظاهر يتصرف كما يتصرف كامل الناس، بينما هو في الباطن "وجه الله"، وهو "يد الله"، وهو "جنب الله"، وأكثر من ذلك قالوا عنه بأنه هو من يحاسب الناس يوم القيامة فيُدخِل من شاء إلى الجنة ومن شاء إلى النار، وهو "الصراط المستقيم"، وهو "الذكر الحكيم"[2].

ويقول الإسماعيلية بأنه يجب أن يكون هناك إمام منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ويكون التعيين من الإمام الحالي على من يخلفه من أبنائه، غير أن هذا التقليد لم يؤخذ به دائما، وحدث أن تغير نص الإمامة في حياة الإمام لواحد آخر من أبنائه لأسباب عدة، فمثلا نص المعز لدين الله الفاطمي على خليفته من أبنائه وهو عبد الله، لكنه غيّرها إلى ابنه الثاني وهو العزيز بسبب وفاة الأول، وجرى الأمر مشابها في عهد المستنصر عندما نص على خليفته من أبنائه وهو ابنه الأكبر نزار، فتدخل الوزير آنذاك الأفضل بن بدر الجمالي وغيّر ولاية العهد لابن المستنصر الأصغر وهو المستعلي بالله[3].

ويقول الإسماعيلية أن الأرض لا ينبغي أن تخلو أبدا من إمام، ويكون هذا الإمام إما ظاهرا مكشوفا، أو باطنا مستورا، وإذا كان مستورا، ينبغي أن يظهر دعاته[4]، ويشترطون على كل مريدي الإسماعيلية أن يكونوا عارفين بإمامهم، وإلا فهم في عداد الجاهلية[5].

ب- تفسيرهم للقرآن الكريم

وكعادة الباطنية، يحرف الإسماعيلية تفسير القرآن الكريم، ويعطونه تفسيرات حسب أهوائهم فيقولون مثلا أن آدم ليس هو أول الخلق وأن حواء ليست زوجته، وإنما عاش قبله قوم آخرون، وكان لآدم "حجة" رمز إليها القرآن بحواء، فحواء هي إذا ليست امرأة وهي ليست زوجته، بل هي أقرب

---

[1] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 159-160.

[2] أحمد بن إبراهيم النيسابوري: إثبات الإمامة، تح وتق: مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت)، ط1 (1996م/1416هـ)، ص 8.ر. شتروطمان: أربعة كتب إسماعيلية (لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من له الحل والعقد)، دار التكوين (دمشق)، ط1 (2006م)، ص 12-13.مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 253.

[3] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 149-150.

[4] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج1، ص 229.

[5] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 253.

دعاته إليه، وقد كانت هي وآدم ينعمان في دعوة الإمام الذي عاش قبلهما، ودعوة الإمام يقصدون بها الجنة، ولما أراد آدم أن يرتقي إلى درجة أعلى مما هو فيها، أخرجه الإمام من الجنة[1]، وهناك تفاسير كثيرة أعرضنا عن ذكرها تجنبا للإطالة.

كانت هذه بعض من عقائد الإسماعيلية، وهي في حقيقة الأمر جزء يسير جدا فقط، أردنا أن ننبه إليها القارئ، خاصة وأنها عقائد مغالية لا تمت للإسلام بصلة، ولا يعرف حقيقتها إلا الراسخون في العلم، فقد يصدق البعض من العوام ما يرمي إليه الباطنية، لأنهم يؤدون الكثير من العبادات على نحو ما يؤديه المسلمون السنة، ويفسرون القرآن ظاهريا أيضا على نحو ما يفسره أهل السنة، لكنهم في الباطن يخفون خبيئة معتقدهم الفاسد، ونواياهم السيئة، ولذلك توجب علينا التذكير بهذه العقائد مع الإحالة إلى مصادر الموضوع لمن أراد الاستزادة.

وكما أن العقيدة الإسماعيلية تتسم بالغموض والسرية، فإن القائمين عليها قد جعلوا من هذه السرية مبدءاً يقفون عليه، وليس من اليسير على أي شخص أن يتبع هذا المذهب ويصبح إسماعيليا، ولذلك اتخذ الإسماعيليون جهازا خاصا بتنظيم الدعوة ويقضي هذا الجهاز باستدراج الضحية واستغلاله شيئا فشيئا حتى يصير إسماعيليا، فكيف يتم ذلك ؟.

ت- مراحل الدعوة الإسماعيلية

كل ما نعرفه عن مراحل الدعوة الإسماعيلية هو مستمد من كتابي فضائح الباطنية لأبي حامد الغزالي[2]، وقد كتبه هذا الأخير بناء على ما جربه وعايشه من ممارسات إسماعيلية، وإن كان قد سمى هذه الدعوة بالباطنية، إمعانا في إظهار حقيقتهم المبنية على التأويل الباطني للنصوص الدينية، وكتاب الفرق بين الفرق للبغدادي، فكانت أولى هذه المراحل هي:

أولا- الرزق والتفرس

ويشترط في الداعي أن يكون عارفا بطبائع الناس، إذ ينبغي عليه أن يتقرب من الشخص المعني، ومعرفة طبعه فإن كان هذا الشخص يميل إلى الزهد والتقشف والتقوى دعاه إلى الطاعة والانقياد، وحذره من إتباع ملذات الدنيا، وعلى العكس إن رأى في الشخص ميولا إلى ملذات الدنيا

[1] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 167.

[2] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 21. أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 222.

دعاه إلى تحرير النفس وإعطائها ما تبتغيه، وفي مقابل ذلك يُسفِّه له الدين وضوابط الشرع وموانعه، وكل الغرض من ذلك هو التقرب من الشخص لنيل قلبه وضمان قربه منه[1].

ثانيا– التأنيس

وهو من الأنس بمعنى بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين والمستجيبين، إذ يعمل الداعي على التقرب من المستجيب ومحاولة المبيت عنده، وفي أثناء ذلك يجتهد الداعي في استلطاف المستجيب من خلال قراءة القرآن وإلقاء مواعظ بأسلوب بليغ، وقد يعمد الداعي إلى الصلاة في الليل خفية، وإذا رآه صاحب البيت يعود لنومه، وكل ذلك من ورائه التلبيس على المستجيب بحيث يعتقد في الداعي حسن المعتقد فيقترب أكثر منه ويميل إليه[2].

ثالثا: التشكيك

ويكون ذلك من خلال تشكيك المستجيب في دينه ومعتقده، بحيث يعمل الداعي على إثارة بعض الأسئلة الصعبة والتي لا يمكن للمستجيب العادي أن يفقههن فمثلا، يشككه في معنى حروف أولى السور مثل ألر وكهيعص حم وعسق، كما يشككه في بعض أحكام الشرع مثلا لماذا تقضي الحائض الصوم دون الصلاة ؟ ولماذا يجب الاغتسال من المني الطاهر ولا يجب من البول النجس ؟ ويشككه في أخبار القرآن فيقول: ما بال أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة؟ ويوحي الداعي إلى المستجيب أنه يعرف الإجابات على هذه الأسئلة دون أن يفصح له عنها فيظل المستجيب يلح في معرفة الإجابة وينتقل بذلك إلى حيلة التعليق، وهي أشد خطرا مما سبقها[3].

رابعا– التعليق

وهي ترك المستجيب بعد تشكيكه في عقيدته معلقا ومتشوقا لمعرفة المذهب الإسماعيلي، ويستعجل في معرفة ذلك، لكن الداعي يشوقه أكثر بأن يمنعه من التعرف على خبايا الإسماعيلية، وكل ذلك من أجل إبعاده أكثر عن معتقده الذي كان عليه، ولما يتيقن الداعي من أن هذا الشخص قد صار مهيئا لمعرفة السر، يأخذ عليه العهود والمواثيق من أجل كتمانه، فإن وافق يكون قد تهيأ للمرحلة القادمة[4].

---

[1] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 21-22. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225.

[2] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 24. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225.

[3] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 25-26. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225.

[4] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 26. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225.

خامسا– الربط

وتكون هذه المرحلة بأخذ العهود على المستجيب على أن لا يخالف معتقده الجديد، ويقرأ عليه الداعي نص العهد، فإن رضي بذلك يقول له قل نعم، فيقول نعم، وينتقل بذلك إلى المرحلة الموالية[1].

سادسا– التدليس

وهو أن الداعي يدلس على المستجيب بعد أن يأخذ عليه العهود والمواثيق بحفظ الأسرار المودعة فيه، فيقول له، بأن فلانا وفلانا يعتقدون هذا المذهب سرا، وغالبا ما يذكر له أشخاصا لهم منزلة رفيعة عند العامة، لكنهم بعيدون عن المستجيب جغرافيا، والغاية من ذلك أن يغر المستجيب بحيث يعتقد بأن الدين الذي يعتقده أولئك الأشخاص إنما هو الصحيح، ولأنهم بعيدون عليه لا يمكنه أن يتواصل معهم ليعرف إن كانوا حقيقة على ذلك المذهب أولا[2] .

سابعا– التلبيس

وفي هذه المرحلة يقوم الداعي بتعريف المستجيب ببعض عقائد المذهب والتي تكون مقبولة ظاهريا له ولعامة الناس، لكن تفسيرها يكون باطنيا بحيث لا يطلعه على تفسيرها الصحيح بل يعمل على إعطائه تفسيرا خاطئا لها، فتلتبس الحقيقة على المستجيب، ويعتقد أن التفسير الذي أعطاه الداعي إياه هو الصحيح بل ويجزم بأنه بصحته، فينتقل بعدها إلى المرحلة الأخيرة في الدعوة[3].

ثامنا– الخلع والسلخ

وهما متفقتان ويقصد بهما إقصاء المستجيب عن مذهب أهل السنة نهائيا فالخلع يختص بالعمل فإذا وصلوا بالمستجيب إلى ترك حدود الشرع وتكاليفه يقولون وصلت إلى درجة الخلع، أما السلخ فيختص بالاعتقاد الذي هو خلع الدين. فإذا انتزعوا ذلك من قلبه دعوا ذلك سلخا وسميت هذه الرتبة البلاغ الأكبر[4].

كانت هذه حيل الباطنية في استدراج العامة من الناس إلى مذهبهم، وهي في واقع الأمر حيل ماكرة لا يشعر بهدفها إلا من له علم بالعقيدة، ولذلك كثيرا ما راح ضحية لهذه الحيل بعض العوام

[1] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 28. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225.

[2] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 29–30. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225.

[3] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص30.

[4] الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 21–32. البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 225. المقريزي: الخطط، ج02، ص 97-107.

من الناس، كانوا يعتقدون في الدعاة أنهم أناس عاديون لكنهم وقعوا ضحايا لهم، فانسلخوا من عقيدة الإسلام دون أن يشعروا، وربما كان السبب في ذيوع هذه العقيدة وانتشارها، هو غياب النشاط الدعوي السني، وكذا عدم وجود قوة إسلامية سنية تذود عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وكان من نتيجة كل ذلك أن تضعضع العالم الإسلامي وصار أشتاتا مشتتة بين عقائد كثيرة كل منها تدعي لنفسها الصحة والكمال.

4- توزيعها الجغرافي

أما عن مناطق نفوذ الباطنية المستعلية فإنها كانت تتمركز بصفة مستمرة في مصر واليمن وأحيانا في جنوب بلاد الشام والحجاز[1].

المبحث الخامس: طائفة النزارية (الحشاشون)

01- تعريفها

تنسب النزارية إلى نزار بن المستنصر بالله الخليفة الفاطمي، وهي إحدى الحركات الباطنية التي ظهرت في أواخر القرن الخامس الهجري، بعد انقسام الدعوة الإسماعيلية في مصر إلى قسمين مختلفين

[1] أنظر خريطة رقم 03.

كما أشرنا إليه آنفا، وكان أتباعها قد رأوا بأن الحق معهم في أن خليفة المسلمين هو الابن الأكبر (نزار)، الذي نص عليه والده قبل موته[1].

02- نشأتها

نشأت هذه الفرقة بالتزامن مع فرقة المستعلية، لأن كل منهما كان يرى نفسه الأحق بالخلافة، ولذلك لما تيقن نزار بأن أخاه الأصغر قد جلس حقا على كرسي العرش ثار عليه، وجرت بين الطرفين معارك دامت ما يقارب العشرة أشهر[2]، كما أسلفنا ذكره في حديثنا عن فرقة المستعلية، وانتهت هذه الحرب بانهزام نزار وأتباعه في الإسكندرية[3]، ثم قبض عليه من طرف الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وقتله صبرا داخل جدار بني عليه[4].

غير أتباع نزار لم يتوقفوا عن الدعوة له، وكان من هؤلاء الأتباع رجل يدعى الحسن بن الصباح[5]، وكان هذا الأخير قد زار مصر حاجا في عهد المستنصر بالله الفاطمي على عادة ما يقوم به الدعاة، بحيث يحجون إلى خليفتهم باطنا وليس الحج كما هو معروف ظاهريا إلى البقاع المقدسة، والتقى الخليفة المستنصر فسأله عمن سيكون إمامه من بعده، فقال له المستنصر: ابني نزار[6]، فترسخ

---

[1] ابن أيبك الدواداري: نفس المصدر السابق، ج6، ص 447. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 59-60. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع السابق، ج4، ص 171.

[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 391.

[3] أبو يعلى بن أسد بن علي بن محمد التميمي المعروف بابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان دمشق، ط01 1403هـ/1983م، ص 210-211. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، 143.

[4] ابن أيبك الدواداري: نفس المصدر السابق، ج6، ص 447. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 63. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع السابق، ج4، ص 171.

[5] الحسن بن الصباح: يلقب بالكيا، صاحب الدعوة النزارية، وجد أصحاب آلموت، كان من كبار الزنادقة ودهاة العالم، وأصله من مرو، وقد أكثر من التطواف ما بين مصر إلى بلد كاشغر يغوي الخلق، ويضل الجهلة، وكان قوي المشاركة في الفلسفة والهندسة، كثير المكر والحيل. أنظر ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، ج3، ص 59. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، مر: نعيم زرزور، دار صادر (بيروت)، ط1 (1359هـ)، ج9، ص 121-122. تقي الدين المقريزي: المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط1 (1411هـ/1991م)، ج3، ص 327.

[6] أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1407هـ/1987م، ج10، ص 237.

في ذهن ابن الصباح أن خليفة المسلمين بعد المستنصر هو ابنه الأكبر نزار، ولذلك لما عرف ما قام به الوزير الأفضل بن بدر الجمالي احتج عليه بشدة، ورأى بأن قام به هو تعد على العقيدة الإسماعيلية فقرر العودة إلى أرض فارس ليدعو إلى نزار[1].

أ- الدعوة في بلاد فارس

يبدو أن اختيار ابن الصباح لبلاد فارس من اجل استئناف الدعوة النزارية هناك كان مدروسا وذلك لأسباب عدة لعل أهمها، هو أنها بعيدة عن مراكز المراقبة سواء العباسية أو الفاطمية، كما أنها تتميز بوعورة تضاريسها وهو ما يسهل له التحرك بين جبالها دون اكتشاف أمره.

ولعل ما يسر لابن الصباح أن يؤسس دولته في بلاد فارس بتلك السهولة هو ذكاؤه وقوة شخصيته، فقد كون مجموعة كبيرة من الدعاة أوكل إليهم مهمة الدعوة للإسماعيلية النزارية، في كل بقاع العالم الإسلامي مهما كانت الظروف، إضافة إلى ذلك فقد ساعده الموقع الجغرافي الممتاز لقلعة آلموت[2]، التي استولى عليها بذكائه، فهي منيعة على أقوى الجيوش لارتفاعها في الجبل وإحاطتها بالأودية من أغلب جهاتها.

إضافة إلى تضعضع حالة العالم الإسلامي الذي كان يتحكم به السلاجقة في تلك الأماكن، فقد صادف ظهور ابن الصباح موت السلطان السلجوقي ملكشاه، وكان هذا الأخير قوي الشخصية وله سلطان واسع على بلاد فارس، وبموته انقسمت المملكة إلى أقسام متناحرة بين أبنائه، فجاء ذلك الانقسام في صالح ابن الصباح الذي استغل انهماك الورثة في توطيد حكمهم، وأسس هو مقر دولته وبدأ يتوسع أكثر وأكثر في جسم العالم الإسلامي[3].

---

[1] جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط01، 1413هـ/1992م، ج05، ص 142. تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج03، ص 11-12.

[2] آلموت: قلعة حصينة من ناحية روزبار بين قزوين وبحر الخزر على قمة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها، وهي كرسي ملك الإسماعيلية، قيل أن بعض ملوك الديلم أرسل عقابا للصيد فتبعه حتى وصل موضع هذه القلعة فوجده موضعا حصينا فأمر ببناء قلعة عليه وسماها إله آموت أي تعليم العقاب بلسان الديلم، ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لأنها بنيت في سنة ست وأربعين وأربعمائة وهي: م و ت. أنظر زكريا بن محمد محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت)، ص 301. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 316.

[3] شمس الدين الذهبي: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1405هـ/1985م)، ج2، ص 369.

استطاع ابن الصباح أن يتملك قلاعا عديدة في وقت قصير مستغلا ذكاءه، ومن أهم هذه القلاع قلعة آلموت الشهيرة، التي استولى عليها سنة (483هـ/1090م)[1]، ومنها كان يرسل دعاته إلى باقي الأقاليم، حتى أنه استطاع أن ينشر الدعوة النزارية في أغلب بلاد فارس في ظرف وجيز[2]، فتملك على سبيل المثال لا الحصر قلاع كل من رودبارد[3]وقوهستان[4]، والطالقان[5] وغيرها[6]، ومنها كان يوجه دعاته نحو البلاد الإسلامية من أجل التوسيع من رقعة الباطنية [7].

ولم يلبث بعدها أن توفي ابن الصباح بتاريخ 06 ربيع الثاني (518هـ/1142م)، وصارت الأمور كما رتبها هو قبيل وفاته إلى الكيا بزرك أميد، ويبدو أن هذا الأخير لم يكن محظوظا على غرار سلفه بحيث استغل السلاجقة وفاة الحسن بن الصباح، وأعلنوا حربهم على النزارية في بلاد فارس، وقد أثر ذلك على قوة الإسماعيلية فتراجع نفوذها في عديد من المناطق، وكثرت الثورات الداخلية في معاقل النزارية كثورة أهل آمد[8] على من عندهم من الإسماعيلية، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل، فضعف أمرهم بعد هذه الواقعة[9].

---

[1] الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي المعروف بأبي الفدا: المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم محمد عزب وآخرون، ط01، دار المعارف القاهرة، ب-س-ن، ج02، ص 200. الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ص 203. كي ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ط2، (1405هـ/ 1985م)، ص 256.

[2] ابن الأثير : نفس المصدر السابق، ج10، ص 317، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص 70.

[3] رودبارد: ناحية من طسوح أصبهان تشتمل على قرى كثيرة. أنظرياقوت الحموي: معجم البلدان، ج03، ص 77.

[4] قوهستان: تعريب كوهستان ، بمعنى موضع الجبال، وأكثر بلاد العجم لا يخلو من موضع يقال له قوهستان، وأما المشهور بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحي هراة ثم يمتد من الجبال طولا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان في الجبال كلها تسمى بهذا الاسم وهي جميعها في بلاد الملاحدة من بني الحسن بن الصباح. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج04، ص 416.

[5] الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج04، ص 6 -7.

[6] القلقشندي: صبح الأعشى، ج01، ص 130. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص 71.، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص 367.

[7] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص 367.

[8] آمد: مدينة قديمة حصينة مبنية بالحجارة السود وهي أعظم مدن ديار بكر من بلاد الجزيرة، ونهر دجلة محيط بها من جميع جوانبها إلا من جهة واحدة على شكل هلال. الحموي: معجم البلدان ج01، ص 56. القزويني: المصدر السابق، ص 491.

[9] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 625. الذهبي: دول الإسلام، ج 2، ص 44.

لم تعرف الدعوة الإسماعيلية بعد حكم ابن الصباح قوة حتى تولى أمرها الحسن الثاني وهو حفيد الكيا بزرك أميد وكان ذلك سنة (557هـ/1183م)، وفي عهده عادت الدعوة الإسماعيلية النزارية إلى قوتها، فقد عمل هذا الأخير على إحداث تغييرات وإصلاحات في الدعوة، ونجح في ذلك، إذ استطاع أن يستقطب عددا كبيرا من الأتباع، حتى اعتقد بعضهم أنه هو الإمام المنتظر[1].

واستطاع بعدها الحسن الثاني أن يقنع الناس بأنه من ولد نزار بن المستنصر الفاطمي، ويبدو أنه قد أثر في عقول أتباعه بفلسفته القوية، فقد كان يضع على أتباعه التكاليف الدينية التي جاء بها الإسلام الصحيح واستدل على ذلك بالحديث النبوي: ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته))[2]، فكان يقول لهم بأنه هو من يتحمل عنهم العذاب يوم القيامة، فوافقه أتباعه وصاروا يؤمنون بكل ما يطرحه عليهم من أفكار مهما بلغت درجتها من الخرافية[3].

واستمرت الإسماعيلية النزارية في بلاد فارس على ضلالها طيلة وجودها، إلى أن اجتاحتها القوات المغولية التي دمرت كل ما وجدته في طريقها، فأنهت بذلك الوجود النزاري ببلاد فارس وقتل ركن الدين خورشاه آخر الأئمة الإسماعيلية النزارية هناك سنة (654هـ/1256م)[4].

ب- في بلاد الشام

ولم يتوقف ابن الصباح عند حد نشر الدعوة في بلاد فارس فحسب، ولذلك اجتهد في نشرها في بلاد الشام لأنها الأقرب من مركز الدعوة الإسماعيلية في مصر، كما أنها أقرب من الدعوة السنية ببغداد، ولعل اختياره لبلاد الشام، كان مدروسا فبلاد الشام كانت في تلك الفترة تعاني من

---

[1] عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين (بيروت)، 1997، ج 2، ص 343.

[2] أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار بن رجب، ط01 (1424هـ/2004م)، ص 160.، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري: صحيح مسلم، راجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط01(1424هـ/2004م)، ص 213.

[3] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ص 81-83. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ج03، ص 345.

[4] علاء الدين عطا ملك الجويني: تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي)، تر: محمد السعيد جمال الدين، تح: محمد بن عبد الوهاب القزويني، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (القاهرة)، ط1 (2015م)، ج3، ص 239-240. محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران (بحث في تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة)، الدار الثقافية للنشر(بيروت)، ط1 (1419هـ/1999م)، ص 121. محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، دار النفائس (بيروت)، ط1 (1435هـ/2014م)، ص 263.

الانقسامات المذهبية، فقد كان بها طوائف عدة، مثل النصيرية والدروز في أواسط بلاد الشام، والمستعلية في جنوبه، والمسلمون السنة في شماله، وكل هذه الطوائف جعلت الشام مثارا للخلافات وأي نشاط مذهبي جديد يدخله، إلا ويجد له أتباعا هناك، فكان اختيار ابن الصباح له لهذا السبب.

ولذلك أرسل ابن الصباح أول داعية إلى بلاد الشام سنة (499هـ/1105م)، وهو المنجم الحكيم وأبو طاهر الصائغ، واستطاع هذا الأخير أن يتملك حصن أفامية[1]، وجعله منطلقا لدعوته[2]، ثم خلفه في الدعوة رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي الذي استمر على سياسة سلفه هو الآخر، فعمل على نشر دعوته بكل الأساليب، ثم خلفه بهرام، وهو الآخر عمل على نشر الدعوة في عدد من الحصون والقلاع ببلاد الشام، حتى أنه وصل إلى دمشق نفسها، لكنه لم يدم طويلا حتى قتل على يد الضحاك بن جندل[3]، الذي انتقم منه لمقتل أخيه على أيديهم[4].

وبعد مقتل بهرام تولى أمر النزارية ببلاد الشام صديقه إسماعيل العجمي، وعمل هذا الأخير على إعادة ترتيب أمور الدعوة هناك، وساعده في ذلك وزير تاج الملوك المزدقاني، فعظم شأنه، وصار حكم الباطنية بدمشق يفوق حكم تاج الملوك صاحبها[5]، لكن تاج الملوك تخوف من النفوذ النزاري ورأى فيه خطرا على دولته فقرر استئصالهم، وبدأ في تصفيتهم، فأحدث فيهم مقتلة عظيمة، بما فيهم وزيره المزدقاني[6]، ونتيجة لذلك هرب إسماعيل زعيم النزارية من بانياس وسلمها للفرنج خوفا من غائلة تاج الملوك الذي فتك بإخوانه سنة (524هـ/1130م)[7].

ازدهرت النزارية ببلاد الشام بعد أن تولى زعامتها سنان راشد الدين سنة (564هـ/1169م)، فقد اشتهر هذا الأخير بالحكمة والصرامة وقوة الحجة والإقناع، وفي عهده ازداد نشاط النزارية،

---

[1] أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 227.

[2] الذهبي: دول الإسلام ج2، ص 38.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 352. ابن الأثير: نفس المصدر السابق: ج10، ص 656.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 352-353.ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 656.

[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 656. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 2. القلقشندي: نفس المصدر السابق: ج01، ص 121-122.

[6] عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: البداية والنهاية، مكتبة الصفا (القاهرة)، ط1 (1423هـ/2003م)، ج12، ص 171. ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 66.

[7] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ص 657. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 355-356.

فاستولوا على قلاع جديدة، كما أنهم استطاعوا الوصول على أقوى الشخصيات، وقتلوا عددا منها، ومنهم من تعرض لتهديد مباشر كمحاولات اغتيال فاشلة مثلما حدث مع صلاح الدين الأيوبي[1].

3- **عقيدة النزارية**

كنا قد أشرنا سابقا إلى أن عقيدة النزارية لا تختلف عن عقيدة المستعلية كثيرا، لكونهما من مصدر واحد وهو الإسماعيلية، فكل منهما يقدس الإمام ويضفي عليه صفات الكمال إلى درجة الألوهية، كما يعتقدان بالباطنية في كل تفاسيرهم، ويؤولون نصوص القرآن على نحو ما تمليه عليهم عقيدتهم، ويكفّرون من لا يقول بالباطن[2].

ولا يسعنا الآن نعيد ما ذكرناه عن عقيدة الإسماعيلية التي يشترك فيها كل من النزارية والمستعلية، فقد ذكرنا ذلك في حديثنا عن المستعلية، لكننا سنحاول أن نعرج على أهم نقاط الاختلاف بين العقيدتين، والتي هي في حقيقة الأمر ليست اختلافات كبيرة كونهما من أصل واحد.

تختلف كل من النزارية والمستعلية في شخص الإمام الذي يخلف المستنصر بالله، فبينما يرى المستعلية أن الإمام هو الابن الأصغر وهو أحمد الملقب بالمستعلي بالله والذي نسبت إليه طائفتهم، يرى النزارية أن الإمام هو الابن الأكبر الذي نص عليه أبوه المستنصر وهو نزار، وأن كل من يرفض إمامة نزار هو آثم[3]، ونتيجة لذلك عمل ابن الصباح على نشر الدعوة لنزار ببلاد فارس متخذا السرية السرية في دعوته تحت مسمى الدعوة للإمام المستور، واحتكر هو ومن تبعه من الدعاة مصدر العرفان بحقيقة الإمام والعقيدة النزارية[4].

كما أنهما يختلفان جزئيا في كون المستعلية يفسرون كل شيء ظاهرا وباطنا كما وضحناه، بينما لا يؤمن النزارية إلا بالتفسير الباطني، وهم يمجدون الأئمة إلى درجة الغلو، ويرون أن كل الفضائل التي وردت في القرآن الكريم المقصود منها هو الإمام، فمثلا قالوا أن القرآن الكريم هو

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 415- 419. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 56-57. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج5، ص 300.

[2] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 148. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 250.

[3] القلقشندي: صبح الأعشى، ج13، ص 244.

[4] برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص 77.حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع السابق، ج04، ص 271.

الإمام، وأن الأهلة هم الأئمة، والشمس هي الإمام، والقمر أيضا، والسماء والعرش هما الدعوة، والجبال هم الدعاة، والملائكة أيضا، وأن الأصنام والطاغوت والشياطين هم كل من عادى الأئمة[1].

وللنزارية نفس مراتب الدعوة التي عند إخوانهم المستعلية فهم يعتمدون أساليب المكر والخداع لاستقطاب الأتباع، معتمدين على الحيل التي ذكرناها آنفا[2] وهي، الرزق والتفرس، ثم التأنيس وبعدها التشكيك، تليها حيلة التعليق، وبعدها الربط، ثم التدليس والتلبيس، وتنتهي حيلهم بالخلع والسلخ التي تكون بسلخ الرجل من دينه وإدخاله في المعتقد الباطني بصفة نهائية[3].

والواقع أن هذه الحيل هي أساليب ماكرة جدا لا يشعر بكنهها إلا من هو راسخ في العلم لأن الدعاة الباطنية يعتمدون أسلوب المراوغة في حق الضحية، بحيث يظهرون له أنهم على المعتقد الصحيح ويمارسون أمامه كل العبادات كما لو أنهم مسلمون سنة، ويعملون أحيانا على التلبيس عليه، من خلال الاجتهاد في التعبد بعيدا عن بصره، وهم في واقع الأمر يفعلون ذلك وهم على علم بأنه يراهم، لأنهم يريدونه أن ينخدع بهم، فيقع في مؤامرتهم، ويضيع بين حيلهم، حتى يصبح على معتقدهم وهو لا يشعر.

ولعل ما تميز به النزارية عن إخوانهم المستعلية أنهم رتبوا دعاتهم ترتيبا تصاعديا، مراعين فيه الدرجة العلمية وقوة الشخصية للرجل، وهي في حقيقة الأمر ترتيبات مستحدثة أملتها عليهم الظروف، إذ كان لا بد لهم أن يبتكروا أساليب جديدة من أجل التعايش مع الواقع آنذاك، ولمجاراة القوى العسكرية الكبيرة المجاورة لهم كالسلاجقة، والخلافة العباسية، وحتى الفاطميين، ورغم أن أغلب المؤرخين لم يشيروا إلى هذه الترتيبات إلا أنهم لمحوا إلى وجودها ضمنيا، فتحدثوا كثيرا عن مرتبة الشيخ ومرتبة الدعاة، والفدائيين، لكنهم لم يشيروا إلى باقي المراتب التي سنذكرها الآن، وللتذكير فإن هذه المراتب قد ذكرها سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه الحركة الصليبية، وهو أول المراجع العربية التي أشارت إلى هذا الترتيب حسب اعتقادنا.

4- مراتب الدعوة النزارية

المرتبة الأولى: مرتبة شيخ الجبل

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 257.

[2] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 21. أبو منصور عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 222.

[3] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، 21. عبد القاهر البغدادي: نفس المصدر السابق، ص 222.

وعدد أفرادها سبعة، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة، فكان الحسن بن الصباح يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة، كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل وكان هو من يعين الدعاة ويعزلهم، وكان سلطانه يشمل كافة الإسماعيلية في كل مكان، جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين في الإخلاص للمذهب الإسماعيلي[1].

المرتبة الثانية: مرتبة كبار الدعاة

ولا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق فيهم الحسن بن الصباح ثقة تامة لأنه قسم العالم أقساما ثلاثة: جعل عل رأس كل قطر أو بحر واحد من هؤلاء الدعاة الثلاثة وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب على أنه لم يترك لهم شيئا من الحرية بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر، ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار الكيا بزرك أميد، والحسين القيني، وأبو طاهر[2].

المرتبة الثالثة: مرتبة الدعاة

وهم كثر ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة في آلموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة، وقد اشترط ابن الصباح في الداعي أن يكون بارعا في التشكيك والتلبيس ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم، وقد كون هؤلاء الدرجات العليا، وكانوا على علم بعقائد وأغراض وسياسة هذا النظام.

المرتبة الرابعة: مرتبة الرفاق

وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام يتولون تثقيف الدعاة وأعدادهم لمهمتهم ويتفانون في المحافظة على المذهب متسلحين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة[3].

المرتبة الخامسة: الفداوية أو الفدائيون

وهم عبارة عن آلات قتل فتاكة، استعملهم الحسن بن الصباح في التخلص من كل من يراه يضر بدعوته أو مصالحه، ولا يشترط في الفدائي أن يكون عارفا بالمذهب الإسماعيلي، لكن يشترط فيه أن يكون طيعا لسيده طاعة عمياء، وينفذ كل ما يؤمر به ولو كان على حساب حياته، كما يشترط فيه أن يكون صبورا وعارفا بلغة العدو المبعوث إليه وبعقيدته إن اقتضى الأمر كذلك، وكانوا يتلقون

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية(صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى)، ط01 (1971)، مكتبة الأنجلو مصرية (القاهرة)، ج01، ص 551. يوسف إبراهيم الشيخ عيد: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، دار المعالي (عمان –الأردن)، ط1 (1419هـ/1998م)، ص 50-51.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور، نفس المرجع السابق، ص 551.

[3] نفسه، ص 552. يوسف إبراهيم الشيخ عيد، نفس المرجع السابق، ص52.

الأوامر والمهمات السرية الخطيرة من مركز الإمام أو مقر نائبه في قطره مباشرة[1]، وكانوا على ثلاث درجات:

أولا: الرفاق أو المقدمون: وهم قادة الجيش والفداوية، الذين يشرفون على تدريبهم ويسهرون على تنفيذ المهمات العسكرية وغير العسكرية.

ثانيا: مرتبة الفدائيين: وهم الذين ينتقون بدقة من العناصر المخلصة المعروفة بالتضحية والإقدام والشجاعة النادرة ، والجرأة الخارقة، فيكلفون بالتضحيات الجسدية وبتنفيذ أوامر الإمام أو نائبه.

ثالثا: المستجيبون: وهم الذين يدخلون مدارس الفدائية من سن مبكرة ويتلقون التدريب والتعليم على أيدي كبار المتقدمين ويسهر على تدريبهم وتعليمهم الإمام بنفسه أو نائبه (الشيخ)[2].

المرتبة السادسة: اللاصقون

وهم ينتسبون إلى الدعوة ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفداوية إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعلموا في فهم أصول المذهب[3].

المرتبة السابعة: المستجيبون

وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي، إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس وبث الذعر في نفوسهم[4].

ويظهر من كل ما سبق أن فئة الفدائيين هي الفئة الأكثر قوة وهي عماد الدعوة النزارية فقد اعتمد ابن الصباح على الفتك بكل من يقف في طريقه من خلالهم ولو كان ذلك في أقاصي البلاد، واشترط في الفدائي أن يكون من الشباب ما بين الثانية عشرة والعشرين سنة حتى يستطيع تنفيذ مهمته دون أن يشعر به، ويستطيع أن يدخل في حاشية عدوه بسهولة تامة[5].

ويروي الرحالة البندقي ماركوبولو أن شيخ الجبل الحسن بن الصباح، قد استعمل الحيلة والدهاء من أجل التلبيس على رعاياه وخاصة الفدائيين منهم، إذ أنشأ في واد محصور بين جبلين

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: نفس المرجع السابق، ص 551.

[2] المرجع نفسه، ص 552. يوسف إبراهيم الشيخ عيد: نفس المرجع السابق، ص 53.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور: نفس المرجع السابق، ص 552.

[4] المرجع نفسه، ص 562-563.

[5] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 73-74.

شامخين بستانا فاخرا جمع فيه أشهى الثمرات وأعطر النباتات وشيد فيه قصورا متنوعة الأحجام والأشكال، زينت بزخارف من ذهب وملئت حجراتها بالصور الزاهية وبالأثاث المكسو بأفخم الدمقس والإستبرق واستخدمت أنابيب صغيرة صممت في هذه المباني وبواسطتها كانت أنهار من خمر ولبن وعسل وماء فرات تشاهد وتفيض في كل اتجاه، وكانت تسكن هذه القصور حوريات رشيقات جميلات دربن حتى أتقن جميع فنون الغناء واللعب على جميع أنواع الآلات الموسيقية والرقص، كما أتقن بوجه خاص أفانين الغزل والإغراء والدلال، وكن يشاهدن دوما وقد ارتدين أثمن الثياب وهن يتلاعبن ويسلين أنفسهن في الحديقة وما حوت من جواسق وسرادقات، وجرت عادة شيخ الجبل الحسن بن الصباح بالتحدث إلى الفداوية يوميا في موضوع الجنة التي بشر بها النبي صلى الله عليه وسلم، وعن قدرته هو على الإنعام بالدخول إليها للمقربين وبعد حديث طويل يتم التشويق إلى الجنة وزعيمها يأمر الحسن بن الصباح بإعطاء الأفيون (الحشيش) لعشرة أو اثني عشرة من هؤلاء الشبان الفداوية فإذا صرعهم النوم فأصبحوا نصف موتى أمر بحملهم إلى الأجنحة العديدة للقصور المتناثرة في البستان فإذا استيقظوا من حالة التخدير صعقت حواسهم بما يرونه من أشياء ووجد كل واحد منهم نفسه محاطا بجواري فاتنات يغنين له ويلعبن بالآلات الموسيقية ويستهوين لبه وحواسه بأفتن أنواع المداعبة والعناق، ويقدمن إليه أشهى اللحوم وأفخر الخمور، ولا يزلن به حتى يسكر حتى يعتقد تمام أنه في الفردوس، فإذا انقضت بهم على تلك الحالة أربعة أيام أو خمسة دفعوا بهم ثانية إلى حالة من النعاس وحملوا إلى خارج البستان، وعندما يدخلون إلى حضرة شيخ الجبل يسألهم أين كانوا: فيجيبون: في الفردوس بفضل عطف سموكم، عندئذ يقول الرئيس مخاطبا لهم، لقد وعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان وعده حقا بأن الجنة يرثها عباد الله الصالحون الذين يدافعون عن مولاهم، وإذا أظهرتم إخلاصا في طاعة أوامري فإن ذلك المصير السعيد في انتظاركم، حتى إذا سرت فيهم الحماسة بأقوال من هذا النوع كان كل فرد فيهم يعد نفسه سعيدا حتى يتلقى أوامر سيده ويبدي توقه إلى لقاء الموت في خدمته[1].

5- توزيعها الجغرافي

[1] ماركوبولو: رحلات ماركوبولو (الينابيع)، ترجمة إلى الانجليزية: ويليام مراسدن، ترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط02 (1995م)، ج1، ص ص 89-90-91-92..

أ- في بلاد فارس[1]

استولى النزارية ببلاد فارس على قلاع وحصون عدة، وكانت أولاها هي قلعة يقال لها الرودبارد في ناحية الديلم، اشتراها الحسن بن الصباح مقابل ألف ومائتي دينار من طرف صاحبها الذي كان عاملا للسلاجقة، ثم استولوا على قلعة أصبهان التي ابتناها السلطان ملكشاه، وتذكر المصادر أن السلطان كان في رحلة صيد ومعه رومي وهرب منه كلب الصيد إلى موضع القلعة، فلما رآها ذلك الرومي قال له لو أن عندنا مكانا مثل هذا لابتنينا به قلعة، فأخذ السلطان برأيه، وبنى بها القلعة المذكورة، لكن الباطنية استولوا عليها، ومنها أكثروا الفساد في ربوع الدولة الإسلامية، فصار الناس يتعوذون منه، بقولهم إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر، لابد وان يكون خاتمة أمرها شر[2].

واستولى الباطنية أيضا على قلعة آلموت سنة (483هـ/1090م)[3]، ثم قرية طبس[4] وأجزاء من قوهستان، مدن أخرى كخور[5] وخوسف وزون[6] وقاين[7] وتون[8] وما جاورها[9]، كما استولوا أيضا على

قلعة وسنمكوه وهي بقرب آبهر[10] سنة (484هـ/1091م)، ثم قلعة خالنجان[11] وقلعة أستوناوند[12]، وهي بين الري وآمل[1]، ومنها قلعة آردهن[2]، ثم قلعة كروكوه[3].

---

[1] أنظر خريطة رقم 04.

[2] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 167. أبو الفدا: المختصر، ج2، ص 214.

[3] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 200. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 120.

[4] طبس: مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4، ص 20.

[5] خور: الخور هو الخليج يند من البحر وهو من أرض فارس، أنظر ياقوت الحموي: المشترك وضعا، ص 162.

[6] زوزن: كورة واسعة بين نيسابور وأصبهان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 158.

[7] قاين: بلد قريب من طبس بين نيسابور وأصبهان. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 4، ص 301.

[8] تون: مدينة من ناحية قوهستان قرب قاين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 62.

[9] ابن الأثير: الكامل، ج10 ص 318. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 214. برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ص 59-60.

[10] أبهر: بليدة من نواحي أصبهان. ياقوت الحموي: المشترك، ص 11.

[11] خلنجان: مدينة بأصبهان، كان بها قلعة قديمة حصينة ملكها الباطنية وخربها السلطان محمد سنة 570هـ. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج 2، ص341.

[12] أستوناوند: اسم قلعة مشهورة بدنباوند من أعمال الري. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 176.

ويضاف إلى مجموع قلاع النزارية ببلاد فارس أيضا قلاع كل من الناظر بخوزستان وقلعة الطنبور وقلعة خلادخان وهي ما بين فارس وخوزستان[4]، كما استولوا أيضا على قلعة شاه دز[5] سنة (487هـ/1094م)[6]، ثم استولوا على قلعة لمسر وهي تقع في منطقة الروبارد[7]، إضافة إلى قلعة ميمون دز التي جعلها ركن الدين خورشاه آخر حكام النزارية حصنا له[8] ، كما استولوا أيضا على قلاع كل من طريثيث[9] في قوهستان وقلعة طرز قرب بيهق[10] .

يتضح لنا مما سبق أن النزارية كانت لهم سلطة كبيرة في بلاد فارس كانت كبيرة، فقد سيطر حكام النزارية على أغلب قلاع فارس، وامتدت حدود دولتهم في وقت وجيز من بحر قزوين شمالا إلى أصفهان وطبس جنوبا، ومن جبال الطالقان شرقا إلى حدود أذربيجان مع الري غربا، وهذا ما يسر لهم التحرك بسهولة في المناطق المجاورة لهم، كما سمح لهم هذا التوسع الجغرافي بكسب مزيد من الأتباع، إذ كانت أغلب ساكنة المناطق الخاضعة لهم على مذهب الباطنية.

ب- في بلاد الشام[11]

---

[1] آمل: اسم لأكبر مدينة بطبرستان وهي مشهورة. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 57. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص 292.

[2] أردهن: قلعة حصينة حصينة من أعمال الري بين دنباوند وطبرستان بينها وبين الري مسيرة ثلاثة أيام. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 149.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 318-319.، أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 214. برنارد لويس، نفس المرجع السابق، ص 65.

[4] ابن الأثير: المصدر نفسه. أبو الفدا: المصدر نفسه.

[5] شاهدر: قلعة حصينة على جبل أصبهان وكانت معقلا لأحمد بن عطاش مقدم الباطنية، استحدثها السلطان ملكشاه، ومعنى شاهدر قلعة الملك. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج3، ص 316.

[6] عبد المنعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص 96. مصطفى غالب: نفس المصدر السابق: الثائر الحميري، ص 129

[7] الجويني: تاريخ جهنكشاي ص 201. برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 59.

[8] الجويني: نفس المصدر السابق، ص245.

[9] طريثيث: ناحية ذات قرى كثيرة من أعمال نيسابور وطريثيث قصبتها. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 33.

[10] بيهق: أصلها بالفارسية بيهه: وهي ناحية كبيرة، وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة، من نواحي نيسابور. البغدادي : مراصد الاطلاع، ج1، ص 247.

[11] أنظر خريطة رقم (05).

وفي بلاد الشام أيضا استطاع النزارية أن يتملكوا العديد من القلاع والحصون لكنها لم تكن بكثرة القلاع في بلاد فارس، فقد استولى النزارية على أول حصن ببلاد الشام وهو حصن أفامية سنة (499هـ/1105م)[1]، ثم استولوا على حصن بانياس سنة (520هـ/1126م)[2]، ثم اشترى النزارية سنة (527هـ/1133م) حصن القدموس[3]، كما تملكوا أيضا قلعة الكهف[4]، واستولوا على حصن الخريبة[5] سنة (531هـ/1136م) ثم استولوا على قلعة مصياف سنة (535هـ/1141م)[6]، واستولوا واستولوا على قرية الحجيرة سنة (575هـ/1179م)[7]، ويضاف إلى جملة الحصون المذكورة ، حون وقلاع أخرى استولوا عليها بأساليبهم الخاصة ومنها، قلعة المرقب، وقلعة الخوابي[8]، وقلعة صهيون[9]، وقلعة المنيفة[10]، وحصن أبو قبيس[11]، وقلعة الرصافة[12]، وقلعة المهالبة، وقلعة العليقة[13].

ويظهر لنا مما سبق أن النزارية استطاعوا أن يتملكوا أجزاء واسعة في بلاد الشام أيضا على غرار ما تملكوه في بلاد فارس، ولعل ما يسر لهم ذلك هو تردي الأوضاع هناك، وتفرق الكلمة وكثرة المشاحنات بين الأمراء، كل ذلك جعل للنزارية موطئ قدم ببلاد الشام التي كان يفترض أنها بعيدة

[1] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج19، ص 540.

[2] القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 121. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 632-633.

[3] القدموس: قلعة بالقرب من الخوابي. أنظر القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج4، 147.

[4] الكهف: قلعة بالقرب من القدموس على نشر جبل مرتفع عال يرى على بعد. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص 147.

[5] الخريبة: حصن بساحل الشام. أنظر ياقوت الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعا، ص 155.

[6] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 79. ابن القلانسي:المصدر السابق، ص 428.

[7] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 134.

[8] الخوابي: قلعة في جهة الشمال من طرابلس. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 147.

[9] صهيون: قلعة حصينة في طرف جبل وهي من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 436.

[10] المنيفة: قلعة بالقرب من الكهف على نحو ساعة على جبل مرتفع. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 147.

[11] أبو قبيس: قلعة حصينة غربي حلب مقابل شيزر. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 124. ياقوت الحموي: المشترك، ص 11.

[12] الرصافة: قلعة للإسماعيلية من ناحية الخوابي وهي بالقرب من مصياف. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 147. ياقوت الحموي: المشترك، ص 206.

[13] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 125. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان، ج2، ص 245.

نسبيا عن بلاد فارس مركز القيادة النزارية، وسنأتي على شرح كيف استقر النزارية ببلاد الشام في قادم الفصول إن شاء الله.

كان هذا موجز ما قدمناه من تعاريف للحركات الباطنية، والواقع أن تعريفهم يتطلب شرحا وافيا أكثر مما أوردناه، حيث أُلف في الطائفة الواحدة مصنفات عديدة، بالنظر إلى تاريخهم الحافل بالأحداث، وفيما يلي من فصول نسعى لنظهر نشاط كل طائفة من هذه الطوائف على كافة الأصعدة، على نبتدئ بعلاقاتهم مع بعض أولا، ثم مع باقي الملل المجاورة لهم جغرافيا.

الفصل الثاني:

علاقة الحركات الباطنية ببعضهم

المبحث الأول: علاقات الفاطميين الداخلية

المبحث الثاني: علاقة النزارية بالمستعلية

المبحث الثالث: علاقة المستعلية بالدروز والنصيريين

المبحث الرابع: علاقة النزارية بالدروز والنصيرية

في هذا الفصل نحاول أن نوضح أهم العلاقات الباطنية الباطنية أي الحركات الباطنية مع بعضهم، حيث نشرح العلاقات الداخلية بين الفاطميين ومن يتبعهم من إمارات، وكانت أغلبها ببلاد الشام، ثم نعرج على أهم العلاقات السلمية والعدائية بين الطوائف المدروسة، وإن كانت السلمية هي الغالبة على الوضع، بالنظر إلى التقارب الواضح بينهم، كما أن بعضهم يخرج من أصل واحد ونقصد بذلك الفاطميين والدروز والنزارية، وكان السجال العقائدي هو السمة البارزة في هذا الخلاف، أما العدائية فقد كانت موجودة في عديد المرات، لكنها لا تعدو أن تكون خلافا بين الإخوة، إذ كثيرا ما كانوا يتناسوها عند ظهور أي تهديد خارجي، وهو ما سنوضحه بشيء من التفصيل فيما يلي.

المبحث الأول: علاقات الفاطميين الداخلية

01- علاقة الفاطميين بالإمارات الشامية

عمل الفاطميون منذ أن استقروا بمصر سنة (358هـ/969م)، على التوسع شرقا وجنوبا، من أجل توسيع نفوذهم من جهة، والتضييق على الخلافة العباسية تمهيدا للقضاء عليها من جهة أخرى، وكان من نتيجة ذلك أن استولوا على أجزاء واسعة من بلاد الشام، لكن بعض المناطق الأخرى ظلت عصية عليهم، رغم قبولها الانضواء تحت سلطانهم مؤقتا، لكنها كثيرا ما كانت تثور على السلطة الفاطمية كلما سنحت الفرصة لذلك، ومن ذلك ما فعله كل من بني الجراح في فلسطين، وبني مرداس وبني حمدان في حلب، وقد أدت ثوراتهم تلك إلى إخلال الأوضاع داخل البيت الفاطمي في كم من مرة، لكنها انتهت في الأخير بزوال تلك الأنظمة وأفول سلطانهم من على تلك المناطق، وعودتها إلى سلطان الفاطميين ولو مؤقتا، فكيف حدث ذلك ؟

أ- علاقة المستعلية ببني الجراح في فلسطين

كانت فلسطين عند مجيء الفاطميين إلى مصر تخضع لسلطان بني الجراح، وبنو الجراح هم من أصول عربية تعود إلى قبيلة طيء اليمانية، انتشروا ببلاد الشام مع حركة الفتوح الإسلامية، واستوطنوا فلسطين، ثم ما لبثوا أن تحكموا في زمامها واتخذوا مدينة الرملة عاصمة لهم، وازدهرت دولتهم مع استقرار الفاطميين في مصر، إذ أنهم دانوا لها بالولاء في بداية الأمر، وكانت تمدهم بالقوة من أجل تثبيت الأمن في منطقة الشام.

والواقع أن ولاء بني الجراح للفاطميين لم يكن إلا ظرفي، بحيث كانوا يعملون على استغلال أية فرصة تتاح لهم من أجل الاستئثار بفلسطين دون الفاطميين، ومن ذلك أنهم استغلوا فرصة اضطراب

الأوضاع داخل مصر مع تولي الحاكم بأمر الله الخلافة، آملين في تأسيس كيان مستقل هناك، فاستولى مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي[1] على الرملة[2] في عام (388هـ/998م)، ثم سار باتجاه عسقلان[3]، غير أن جيوش الفاطميين تصدت له بزعامة جيش بن صمصامة[4]، وانتزعت منه الرملة ثم طاردته إلى داخل فلسطين إلى أن طلب الأمان، فأعطي له، ثم عين على الرملة[5].

غير أن بني الجراح لم يتوقفوا بعد فشلهم في المرة الأولى، فحاولوا مرة أخرى الاستئثار بفلسطين، وكان ذلك سنة (400هـ/1009م)، بعد أن التجأ إليهم الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المغربي[6] هاربا من الخليفة الحاكم بأمر الله بعد خلاف معه، وأغرى هذا الأخير حسان بن المفرج بن دغفل الطائي بأن يثور على الحاكم بأمر الله ويستأثر بفلسطين ويؤسس بها إمارة، فوافقه بن المفرج، واستولى على الرملة، ثم حاصر حصون الساحل[7].

وفي العام الموالي جدد بنو الجراح محاولاتهم للسيطرة على فلسطين، وبتحريض من الوزير المغربي واستمالوا هذه المرة أمير مكة أبا الفتوح الحسن بن جعفر، وبايعوه بالخلافة، وقبل هذا الأخير طلبهم

---

[1] مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي: حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح بن شبيب بن مسعود بن أسعد بن مرز بن سالم بن سعد بن سميع بن حوط بن معبد بن عيسى بن أفلت بن سلسلة بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثور بن معن الطائي، أمير كبير من آل الجراح، وكان قد لقب من جهة مصر بعدة الدولة ورضيعها... أنظر ابن العديم الصاحب: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح وتق: سهيل زكار، دار الفكر (بيروت)، د-س-ن، ج5، ص 2239.

[2] الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر يوما... أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 69.

[3] عسقلان: وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام... أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 122.

[4] جيش بن صمصامة: وهو جيش بن محمد بن صمصامة، أبو الفتوح، القائد المغربي بن أخت أبي محمود الكتامي، أمير أمراء جيوش المغرب ومصر والشام، وتولى نيابة دمشق غير مرة، وكان ظالما سفاكا للدماء، ظلم الناس فاجتمع الصلحاء والزهاد ودعوا عليه، فسلط الله عليه الجذام فمات به سنة (391هـ/1001م). انظر ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 205.

[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 85.

[6] أبو القاسم الحسين بن علي المغربي: وهو أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن ماذان بن ساسان بن الحرون بن بلاش بن جاماس بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام بن جور المعروف بالوزير المغربي، كان خبيث الباطن هرب من الحاكم عندما قتل أهله، واستقر بالرملة، وهناك حرض بني الجراح على الحاكم بأمر الله...، توفي في ثالث عشر رمضان سنة (418هـ/1027م)... أنظر ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج 2، ص ص 172-173-174-176.

[7] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 481.

رغم أنه كان مخلصا للفاطميين، وخطب لنفسهم وتلقب بالراشد بالله[1]، ثم خرج من مكة وانضم إلى بني الجراح في الرملة، ثم عمل الوزير الفاطمي على جلب أحلاف جديدة من قبائل بني سليم وهلال وعوف بن عامر، وبفضل كل هؤلاء أقيمت الدعوة لأبي الفتوح في كثير من بلاد الشام، وأزال أبو الفتوح ما كان من شعارات للفاطميين على مكة، واستبدلها بشعارات أخرى تخصه هو[2].

ولما علم الحاكم بأمر الله بما قام به أبو الفتوح أمير مكة، قرر أن يقضي عليه وعلى كافة الثائرين معه في فلسطين، فأرسل حملة عسكرية تحت قيادة علي بن جعفر بن فلاح الكتامي واصطدم هذا الأخير بقوات التحالف في الرملة عام (401هـ/1011م)، غير أنه انهزم أمامهم[3].

ولما أدرك الحاكم أن العمل العسكري لن يكون مفيدا له قرر أن يلجأ إلى العمل السياسي لتفرقة خصومه، فقام أولا بالتضييق على أهل الحجاز بأن قطع عنهم الميرة، وقتل مولى أبي الفتوح أحمد بن أبي العلاء والذي كان يشغل سفيرا لأبي الفتوح في مصر، كما أصدر الحاكم سجلا بمنع المصريين من السفر إلى مصر[4]، وقام أيضا بعزل أبي الفتوح عن ولاية مكة وتولية ابن عمه أبي الطيب الحسني، واستلطفه هو وأهله بمال جزيل وهدايا لكسب ودّهم مقابل التخلي عن أبي الفتوح، وبالفعل نجحت فكرته هذه[5]، كما قام أيضا بمنح بني الجراح إقطاعات كثيرة لاستقطابهم من أجل التخلي عن عن أبي الفتوح، كما أنه هوّن على حسان بن علي بن المفرج قتل ختكين[6] أمير دمشق، واستطاع الحاكم بفضل هذه السياسة تفريق المتحالفين وحيّد أبا الفتوح الذي وجد نفسه وحيدا واضطر للعودة إلى مكة، وطلب الاعتذار من الحاكم فقبل الحاكم عذره وأعاده إلى إمارة مكة مرة أخرى، بينما لم

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص101. إدريس عماد الدين القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار (السبع السادس- أخبار الدولة الفاطمية)، تح: مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت)، ط2 (1404هـ/1984)، ص 273-274. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج04، ص 120.

[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 290.

[3] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج2، 175.

[4] المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج2، ص 44.

[5] جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور بن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، تح: عصام مصطفى هزايمة وآخرون، دار الكندي (إربد- الأردن)، ط 1 (1999م)، ص 49-50.

[6] ختكين: وهو من دعاة الحاكم بأمر الله، وكان يلقب بالضيف، ولما ذهب إلى دمشق حاول أن ينتقص من أرزاق الجند، فثاروا به وقتلوه، ونهبوا دور الحكومة والكنائس. أنظر ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 207.

يتبق من المتحالفين سوى الوزير المغربي صاحب فكرة التحالف، ولما وجد هذا الأخير نفسه وحيدا قرر الفرار إلى بغداد[1].

وفي سنة (404هـ/1013م) ثار بنو الجراح مرة أخرى على الخلافة الفاطمية من أجل الاستئثار بفلسطين، واستعانوا بنصارى بيت المقدس، كما طلبوا من الإمبراطور البيزنطي مساعدتهم، غير أن الحاكم بأمر الله قرر أن يستأصل ثورتهم من جذورها، فأرسل إليهم حملة عسكرية بقيادة علي بن جعفر بن فلاح، كما أصدر أمرا إلى ولاة الشام التابعين إليه بالانضمام إلى الحملة ضد بني الجراح، واستطاع الحاكم هذه المرة أن يلحق الهزيمة بهم، واستولى على ممتلكاتهم وعاملهم معاملة قاسية حتى أنهم طلبوا الشفاعة من ست الملك أخت الحاكم بأمر الله، فشفعت فيهم وعفا عنهم وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين[2].

كانت هذه هي آخر محاولات بني الجراح في الثورة على الخلافة الفاطمية في عهد الحاكم بأمر الله، بل إنهم على عكس ذلك فقد انضموا إلى القوات المتحالفة ضد حلب للسيطرة عليها سنة (406هـ/1015م)، ومرد ذلك على ما يبدو هو لكثرة الهزائم التي تلقوها على يد الفاطميين، فارتأوا أن لا يثوروا مرة أخرى نزولا عند العهد الذي إلتزموه بعدم الثورة مجددا[3].

أ-1- القضاء على بني الجراح في فلسطين

لم يلبث بنو الجراح أن عادوا إلى الثورة مجددا مباشرة بعد إعلان وفاة الحاكم بأمر الله، وتولي ابنه الظاهر لإعزاز دين الله[4] السلطة في مصر، فاستغل حسان بن الجراح هذا الوضع، وقرر أن يستقل

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 103. ابن ظافر: نفس المصدر السابق، ص 50. عماد الدين إدريس: نفس المصدر السابق، ص 274-275.

[2] يحي بن سعيد بن يحي الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار جروس برس (طرابلس –لبنان)، ط1 (1990م)، 305-306.

[3] كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة المعروف بابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي (دمشق)، ط1 (1418هـ/1997م)، ج01، ص 190.

[4] الظاهر لإعزاز دين الله: وهو أبو الحسن علي بن منصور بن نزار بن معد، ولد ثالث ساعة من ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة (395هـ/1005م)، بويع له يوم عيد الأضحى سنة (411هـ/1021م)، توفي ليلة الأحد نصف شعبان وقيل من شوال سنة (427هـ/ 1036م). أنظر عبد الله بن إبراهيم الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب)، تح: حسين نصار، دار الكتب (القاهرة)، ط1 (1970م)، ص 76. ابن أيبك الدواداري: نفس المصدر السابق، ج6، ص ص 313-314-339.

يستقل بفلسطين، وليقوي جانبه تحالف مع أمير قبيلة كلب سنان بن عليان سنة (414هـ/1023م)، كما تحالف مع صالح بن مرداس[1] أمير قبيلة كلاب، واتفقوا جميعا على إنهاء الوجود الفاطمي ببلاد الشام واقتسامها بينهم، بحيث يستقل بنو الجراح بفلسطين وأعمالها، ويستقل سنان بن عليان وقبيلته كلب بدمشق وأعمالها بينما يستقل صالح بن مرداس وقبيلته كلاب بحلب وما يتبعها من أعمال[2].

وبعد تشكيل هذا الحلف طلب الثلاثة من الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الدعم، لكنه رفض ذلك بحجة أنهم ينوون الثورة على الحكم الشرعي، لكن السبب الرئيسي الذي جعله يرفض هذا العرض هو انشغاله بالأوضاع المتردية داخل إمبراطوريته، ولم يكن يريد فتح جبهة جديدة على نفسه ببلاد الشام.

شكل هذا التحالف قوة كبيرة يصعب على الظاهر أن يقضي عليها عسكريا، ولذلك التجأ إلى السياسة لتفرقة المتحالفين، فكتب إلى حسان بن الجراح في فلسطين يستميله إليه، إلا أن حسان رفض أن يدخل في مخطط الظاهر، بل إنه وجه إليه كتابا ظاهره أنه قد قرر أن يتولى فلسطين ويجبي خراجها ويكفي الخليفة التكلف لها، وأن الأقاليم الأخرى وهي دمشق وحلب قد تولى أمرها كل من سنان بن عليان، وصالح بن مرداس[3]، وقد كفوه هم أيضا عناء التكلف لها، وكان ذلك في (414هـ/1023م)، غير أن باطن الكتاب يحمل إهانة للدولة الفاطمية إذ أنهم أعلنوا أنهم قد أخذوا من ممتلكاته ما أرادوا دون إذن من الخليفة، كما أنهم أهانوه عندما قالوا له بأنهم سيجبون خراجها وأنهم سيكفونه عناء التكلف لهم.

لم يتقبل الفاطميون أن تستقل فلسطين عن حكمهم، خصوصا وأنها تمثل بوابة مصر من جهة بلاد الشام، ولذلك كان عليهم أن يعملوا كل ما يستطيعون حتى يمنعوا بني الجراح من

---

[1] صالح بن مرداس: وهو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس بن نصر بن حُميد بن مدرك بن شداد...، كان من عرب البادية، وقصد مدينة حلب وكان بها مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل بن سعد الدولة نصر بن سيف الدولة بن حمدان نيابة عن الظاهر بن الحاكم العبيدي صاحب مصر، فاستولى عليها وانتزعها منه في ثالث عشر ذي الحجة سنة (417هـ/1026م)، واستقر بها ورتب أمورها... أنظر ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 487.

[2] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص390. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص140. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 196.

[3] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 160.

الاستقلال بها، وارتأى الظاهر أن أحسن طريقة لتحقيق مبتغاه هو استعمال القوة العسكرية، فجهز جيشا قوامه خمسة آلاف جندي أسند قيادته إلى أنوشتكين الدزبري، وأمره بالقضاء على حسان بن الجراح الطائي، كما أسند إليه ولاية فلسطين بعد القضاء عليهم، وفي شهر رجب سنة (415هـ/1024م)، سار الدزبري بجيشه، والتحم مع جيش بني الجراح في الرملة، غير أنه انهزم أمام قوات بني الجراح ووقع الكثير من جنوده في الأسر، وفر الدزبري إلى عسقلان، بينما استغل حسان بن الجراح فرصة ارتباك الفاطميين فأرسل قوة من ألفي فارس هاجمت الفرما[1] وأحدثت هلعا في القاهرة نفسها[2].

غير أن حلف القبائل الثلاث سرعان ما فقد طرفا وهو قبيلة كلب عندما مات زعيمها سنان بن عليان، فاختلف ورثتها فيمن يتولى رئاستها، واستغل ابن أخ سنان المدعو رافع بن أبي الليل هذه الفرصة، وتوجه إلى القاهرة وأعلن ولاءه للخليفة الظاهر، فعينه هذا الأخير أميرا على دمشق خلفا لعمه سنان[3]، وبفقدان الثلاثة لقوة دمشق، قرر الخليفة الظاهر أن يستغل الوضع الضعيف للقبيلتين المتحالفتين، وأرسل جيشا قوامه سبعة آلاف جندي وأسند قيادته إلى أنوشتكين الدزبري مرة أخرى وكان ذلك سنة (420هـ/1029م)[4].

سار الجيش الفاطمي باتجاه فلسطين، وعلى الفور استنجد حسان بن الجراح بصالح بن مرداس، وتواجه الطرفان في غزة[5]، ومالت الكفة لصالح الفاطميين، فتقهقر المتحالفان إلى وادي اليرموك وتبعهم الفاطميون، ثم عاود الطرفان المعركة في منطقة الأقحوانة بالقرب من طبرية[6] في (24

---

[1] الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر على ضفة البحر. انظر يقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 255. إبراهيم بن محمد بن أيد مر العلائي (ابن دقماق)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، المكتب التجاري للطباعة والنشر (بيروت)، ج2، ص 53.

[2] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 410.

[3] المصدر نفسه، ص 410.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 118-119.

[5] غزة: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 202.

[6] طبرية: وهي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس. انظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 17.

ربيع الثاني 420هـ/1029م)، وهناك دارت معكرة طاحنة بين الطرفين انتهت بانتصار الفاطميين، وفرار حسان بن الجراح من المعركة، بينما قتل حليفه صالح بن مرداس[1]، واستطاع الفاطميون بعد هذا الانتصار أن يسيطروا على القسم الجنوبي من بلاد الشام.

أما عن حسان بن الجراح فإنه فر إلى البيزنطيين أحلاف أبيه سابقا، واستقبل من طرف الإمبراطور البيزنطي بحفاوة، واستقر عندهم، ثم اشترك معهم في حصار أفامية سنة (421هـ/1030م)، غير أنه لم يحظ باستعادة فلسطين رغم مساعدة البيزنطيين له، ولما يئس من ذلك سار مع عشيرته إلى شرقي أنطاكية واستقر بها بطلب من مبعوث الإمبراطور البيزنطي، وكان ذلك سنة (422هـ/1031م)، غير أن هذا المكان لم يكن آمنا عليهم من غائلة الفاطميين إذ أنهم كثيرا ما تعرضوا لغارات خاطفة من جانبهم عقوبة لهم[2]، وبهذه الهزيمة انتهى دور بني الجراح من على المسرح السياسي.

ب- علاقة الفاطميين بالحمدانيين والمرداسيين شمال بلاد الشام

خضعت حلب لسلطان الحمدانيين الذين كانوا بالموصل، فقد كان سيف الدولة الحمداني يرغب في الاستقلال عن أخيه ناصر الدولة[3]، خاصة وأنه رجل طموح وله خبرة واسعة في الحروب ضد البيزنطيين[4]، فطلب سيف الدولة من أخيه أن يمنحه إقطاعا يستقل به فأجابه إلى ((الشام أمامك ما فيه أحد يمنعك))[5]، وعلى الفور استعد سيف الدولة للمسير إلى الشام، وساعده أخوه بالعدة والعتاد، ووصل إلى حلب ودخلها في شهر ربيع الأول سنة (330هـ/942م)، ومنذ ذلك التاريخ دخلت هذه المدينة في فلك الحمدانيين، فصارت إمارة ثانية موازية لقرينتها في الموصل.

[1] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 411. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 119.

[2] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 411.

[3] أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية(بيروت)، ط1(1424هـ/2003م)، ج5، ص 253.

[4] أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1403هـ/1983م)، ج1، ص 37. فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، مطبعة الجامعة (بغداد)، ط1 (1973م)، ج2، ص 44.

[5] ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 112.

غير أنها لم تستطع مجاراة القوى الكبرى التي كانت تحيط بها، فحافظت على كيانها في بادئ الأمر، لكنها تعرضت لمضايقات كثيرة مع نهاية القرن الرابع الهجري، خاصة من جانب الفاطميين الذين اجتهدوا في ضم حلب إلى ممتلكاتهم ببلاد الشام، غير أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير عليهم، لأن بني حمدان استعانوا بالبيزنطيين ودفعوا لهم الجزية، فأمنوا أنفسهم من حملات الفاطميين، لكن ذلك لم يكن إلا فترة وجيزة، إذ عمل لؤلؤ الخادم مولى سعد الدولة الحمداني على إثارة الفتن من أجل الاستئثار بحكم حلب، واستطاع هذا الأخير أن يقضي على مولاه سعد الدولة، بعد أن دبر له وقتله بالسم، واستبد بحلب بعده دون ولدي سعد الدولة، وأعلن ولاءه للحاكم بأمر الله، وقطع الخطبة للخليفة العباسي[1].

وبعد وفاة لؤلؤ الخادم، تدهورت أوضاع حلب، بعد أن حاول أبو الهيجاء بن سعد الدولة استرجاع حلب من غاصبيها، إلا أن خليفة لؤلؤ الخادم وهو ابنه منصور، لم يسمح بضياع حلب من يده فقرر أن يستعين بالفاطميين والبيزنطيين وبعض القبائل العربية من أجل التضييق على أبي الهيجاء، ودعا للفاطميين سنة (402هـ/1011م)، ولقبه الحاكم بأمر الله بمرتضى الدولة، والتجأ أبو الهيجاء إلى الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني[2]، وابتدأ الصراع على حلب غير أن منصور استطاع أن يقلب الكفة لصالحه، وجاءه السجل الفاطمي الذي يقره على إمارة حلب سنة (404هـ/1013م)[3].

ثم عاد الصراع حول ملكية حلب بعد أن أخلف منصور بوعده الذي قطعه على قبائل بني كلاب، فضيقوا عليه ثم انضموا إلى أبي الهيجاء، وتجدد الصراع مرة أخرى واستعان الطرفان بالإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني، مالت الكفة في الأخير إلى أبي الهيجاء واستطاع أن يقبض على منصور أسيرا لديه، ففرض عليه شروطا قاسية، منها تقديم مبلغ خمسين ألف دينار وعشرين رطلا من الفضة، وإطلاق سراح أسرى بني كلاب، وأن يقاسمه حلب قسمين ظاهرا وباطنا، وأن يزوجه ابنته[4].

وفي هذه الظروف المختلطة استغل غلام لمنصور بن لؤلؤ يدعى فتح القلعي واستولى على القلعة وتحصن بها، وطلب الدعم من والي أفامية علي بن أحمد العجمي المدعو الضيف وكان ذلك

---

[1] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج01، ص 174-175.

[2] المصدر نفسه، ص 178-179. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 67-68.

[3] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 316-318. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 178-179. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج04، ص 254.

[4] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 319-321. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 180-185.

سنة (406هـ/1015م)، وانضم إليه بعض الجند المغاربة فتقوى بهم، في حين هرب لؤلؤ إلى أنطاكية واستجار بحكامها البيزنطيين[1].

ومن جانب الفاطميين فإنهم ارتاحوا لما آلت الأمور في حلب ورأوا أن مصلحتهم تقتضي تأييد الحكام الجدد لها، فمنح الحاكم بأمر الله لقب مبارك الدولة لفتح القلعي، بينما سمى الضيف سديد الدولة، ومنح صالح بن مرداس لقب أسد الدولة، وأغرى فتح بمنحه مدن صور[2] وصيدا[3] وبيروت[4] مقابل التنازل له عن حلب وقلعتها[5].

والواقع أن فتح قد قبل العرض الذي أعطاه إياه الحاكم، وقرر الخروج من حلب، لكن صالح بن مرداس أقنعه بعدم الخروج، ويتعاون معه في إخراج المغاربة من حلب، ويبدو أن بن مرداس كان ينوي أن يستأثر بحلب وإبعادها من الفاطميين، لكن فتح لم يقتنع بعرض بن مرداس خاصة وأن أهالي المدينة كانوا قد كرهوا بقاء قبائل البدو بمدينتهم، ونتيجة لذلك عادت الفتنة مجددا إلى حلب[6].
حلب[6].

وأمام هذا الوضع المتردي الذي آلت إليه حلب فإن الضيف قد طلب من الحاكم أن يمده بالعساكر ليخرج بهم فتح والمرداسيين معا، وهو ما وافقه عليه الحاكم، إذ أنه أرسل إلى ولاته في بلاد الشام، وبعض رؤساء القبائل واجتمعوا جميعا بظاهر حلب، ورغم كل هذه التعزيزات إلا أن الحاكم لم يكن يريد أن تقوم الحرب وكانت رغبته في تسلم حلب سلميا، ولذلك فإنه زاد في تعظيم شأن فتح بأن زاده في اسمه بحيث فصار مبارك الدولة وسعدها وعزها، وهنا نصحه أتباعه بأن يسلم القلعة، فسلمها إلى سديد الدولة ضيف، وخرج هو إلى صور[7].

---

[1] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 186-187.

[2] صور: مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بالبها. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج3، ص 431.

[3] صيدا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج3، ص 437.

[4] بيروت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 525.

[5] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص325. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 188.

[6] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص325.

[7] المصدر نفسه، ص 326.

عين الحاكم على حلب بعد أن استقر بها الوضع رجلا من أتباعه وهو عزيز الدولة فاتك، وهو أرمني في الأصل، ولقبه بأمير الأمراء، وكان ذلك في عام (407هـ/1017م)، واستطاع هذا الأخير أن يثبت الأوضاع داخل حلب بحيث تمكن بفضل دهائه أن يقضي على كل المناوئين له وذلك بمساعدة صالح بن مرداس، ثم انتقل إلى تحسين العلاقات الخارجية وخاصة مع بيزنطة، وأخذ في تعيين الرجال المخلصين له على أعمال حلب[1].

غير أن الحاكم بأمر الله تخوف من فاتك واعتبر ما يقوم به داخل حلب من تدابير هو بمثابة التحضير للانفصال عن الدولة الفاطمية، ولم يكن ظنه خائبا إذ سرعان ما انفصل فاتك بحلب عن سلطان الفاطميين سنة (409هـ/1018م)، ودعا لنفسه في المنابر، كما قام بضرب السكة باسمه[2].

كان على الحاكم الذي تنبه مبكرا لتخطيط فاتك وعمله على الاستئثار بحلب، أن يقوم بمنعه من ذلك لكن الجيوش الفاطمية لم تكن في مكان قريب من هناك حتى تستطيع منعه، ولكنه رغم ذلك أرسل حملة إلى حلب سنة (411هـ/1020م)، من أجل تأديب فاتك لكن هذا الأخير كان قدر أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني يطلب منه الوقوف إلى جانبه لدحر جيوش الفاطميين، وبالفعل لبى الإمبراطور طلبه، وكان ذلك مقابل تسليم المدينة (حلب) للإمبراطور، غير أن الأمور تغيرت فجأة بعد أن وصلت إلى فاتك معلومات تفيد بموت الحاكم بأمر الله، فقرر أن ينكث بوعده لبيزنطة، وأرسل إلى الإمبراطور يطلب منه العودة من حيث أتى، لكنه رفض ذلك وعدّ ما قام به فاتك خيانة للمبادئ، غير أنه تراجع فيما بعد إلى ملاذكرت بعد أن تلقى تهديدات بالمقاومة من أهل حلب[3]، ولم يلبث فاتك أن مات مسموما بتدبير من ست الملك شهر ربيع الآخر (413هـ/1022م)، وسهل ذلك الأمور لصالح بن مرداس الذي سيطر على الوضع في حلب وأصبح أميرا لها[4].

ولما تولى الخلافة في مصر الظاهر لإعزاز دين الله، قرر أن يؤمن سواحل الشام من أي هجمات محتملة من البيزنطيين الذين ربما يستغلون سوء أوضاع الفاطميين، ويسترجعوا ما كانوا يملكونه من قبل على الساحل الشامي، فعمل الظاهر على إرسال تعزيزات إلى مدن الساحل الشامي

[1] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص327.

[2] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 192.

[3] المصدر نفسه، ص 326.

[4] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 197.

على غرار مدن صور وطرابلس وغيرها، كما قام الظاهر أيضا بتولية سديد الملك أبو الحارث ثعبان بن محمد الكتامي على حلب بدلا من أخيه سند الدولة أبو محمد الحسن بن محمد بن ثعبان الكتامي، الذي حل به مرض أودى بحياته، ووصل سديد الملك أبو الحارث إلى حلب يوم الأحد (17جمادى الأولى 415هـ/1024م)[1].

ظل سديد الملك أبو الحارث أميرا على حلب بينما تولى قلعتها موصوف الخادم الصقلبي، وعمل الواليان معا على تسيير المدينة بحكمة، واستطاعوا أن يحققوا ذلك، لكن الأمور تغيرت فيما بعد، بحيث تحالفت كل من قبيلة طيء وقبائل كلب وكلاب، واستطاع صالح بن مرداس أمير قبيلة كلاب أن يستحوذ على حلب من حكامها، بعد حصارها لمدة قاربت الشهرين، وانتهى الحصار بدخول المدينة يوم السبت (13 ذي القعدة 415هـ/1025م)[2].

وكان من ضمن ساكنة حلب عند دخول صالح بن مرداس إليها بني حمدان، وهم أسرة قوية اجتمعت على قائدها المدعو سالم بن مستفاد، لما أراد الخادم الصقلبي قتل سالم، فقرروا الوقوف إلى جانب قائدهم والدفاع عنه، عندها تراجع الخادم على فكرة اغتياله، غير أن الأمور لم تطل حتى دخل صالح بن مرداس المدينة، ومباشرة توجه إليه سالم بن مستفاد وطلب الأمان لنفسه ولقبيلته من ورائه فأعطاهم صالح ذلك[3].

ثم إن صالح بن مرداس عين سالم بن مستفاد رئيسا لمدينة حلب، وأوكل إليه مهمة القضاء على الحامية الفاطمية التي تحصنت بقلعة حلب، بينما توجه هو ناحية الجنوب لمساندة حسان بن الجراح الطائي، غير أن القوات المحاصرة لقلعة حلب عجزت عن اقتحامها، فطلب سالم بن مستفاد الدعم من حاكم أنطاكية قسطنطين دلاسينوس أن يمده بالرجال، فأمده بثلاثمائة من الرماة غير أن قرارا صدر من الإمبراطور يأمر بعودة الرجال فأعادهم صالح فيما بعد[4].

سار صالح بن مرداس إلى الجنوب لنجدة حسان كما أشرنا إليه آنفا، واستطاع المتحالفون أن يلحقوا الهزيمة بالفاطميين، ثم في أثناء عودته إلى إمارته استولى على مجموعة من الحصون كحصن

---

[1] المصدر نفسه، ص 195.

[2] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 197. الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص390.

[3] الأنطاكي: المصدر نفسه، ص 394.

[4] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 319.

عكار، وصيدا وبعلبك وحمص، وربما كان ينوي أن يفتتح له منفذا بحريا[1]، وهكذا خرجت معظم بلاد الشام من ملك الفاطميين، فيما عدا صور التي كانت تحت سلطة ناصر الدولة ابن حمدان.

بينما عمل خلفاء صالح بن مرداس الذين كانوا محاصرين لقلعة حلب على تضييق الخناق على المحتمين بها، ودمروا قصر القلعة، ثم طافوا بسور القلعة ونادوا في المتحصنين به بأن يسلموا أنفسهم وفي مقابل ذل يؤمنوهم على أنفسهم وأغروهم بأكسية من الديباج، وعندها أرسل موصوف الخادم إلى سالم بن مستفاد يطلب منه الأمان، فأعطاه إياه، لكن جماعة من المغاربة افتتحوا أبواب القلعة بعد خلاف جرى فيما بينهم، ودخل سالم المدينة، وقبض على موصوف الخادم يوم (01جمادى الأولى 416هـ/1025م)، وتقرر حبس موصوف ومن معه من القادة لمدة ثلاثة أشهر، ثم أعدم بأمر من صالح بن مرداس، وأطلق سراح سديد الملك وبقية الأمراء[2].

ورغم انفصال صالح بن مرداس بحلب عن الفاطميين إلا أنه ظل على ولائه الاعتقادي للفاطميين إذ أنه لم يقطع الخطبة للفاطميين بل ظل يدعو للظاهر في منابر حلب، كما أن الظاهر قبل بحكم صالح مكرها لحلب، وزاده في ألقابه وخلع عليه[3].

وفي سنة (420هـ/1029م)، قتل صالح بن مرداس في معركة قرب الأقحوانة على يد قوات الفاطميين التي كان يتزعمها أنوشتكين الدزبري، وأرسلت رأسه إلى القاهرة، وبمقتله خسرت حلب أقاليم عدة أهمها بعلبك وحمص وصيدا ورفنية[4] وحصن عكار، حيث تخلى عنها المرداسيون وعادت هذه المدن كلها لسلطة الفاطميين.

2- علاقة الفاطميين ببني زيري في إفريقية[5]

لما انتقل الفاطميون إلى مصر، تركوا بني زيري خلفاء لهم على بلاد المغرب، من أجل المحافظة على سلطان الفاطميين، وإبقاء الدعوة الإسماعيلية منتشرة بين السكان المغاربة، وبنو زيري هم أسرة

---

[1] الأنطاكي: المصدر نفسه، ص 394. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 200.

[2] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 198-199. الأنطاكي: المصدر نفسه، ص 397-398.

[3] المصدر نفسه، ص 402.

[4] رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر، وقال قوم رفنية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج3، ص 55.

[5] إفريقية: مملكة كبيرة قبالة جزية صقلية، وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شماليها، فصقلية منحرفة إلى الشرق بينما الأندلس منحرفة إلى المغرب عنها... أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 228.

بربرية من قبيلة صنهاجة، كانت لها أيام على عهد الفاطميين، إذ استغلها الفاطميون لشجاعتها وكثرة عددها من أجل حماية ظهرها من جهة المغرب الأقصى، فأدت دورها المنوط بها على أكمل وجه.

لكن الأمور لم تسر على نحو ما أراده الفاطميون إذ سرعان ما أبدى الزيريون امتعاضهم من المذهب الإسماعيلي وإن كانوا في حقيقة الأمر على ذلك من قبل لكنهم يخفون ذلك على ما تذكره المصادر التاريخية، ومما ساعدهم في ذلك هو رغبة بني زيري في تأسيس كيان مستقل عن الفاطميين الذين صاروا بعيدين عنهم، ومثلهم مثل بني الجراح في فلسطين وبني حمدان وبني مرداس في حلب فإن الزيريين كانوا يتحينون الفرص من أجل الاستئثار بمنطقة المغرب، ولم تكن الفرصة يسيرة عليهم أيام المعز لدين الله ومن بعده، لكنها بدأت تظهر في الأفق مع تولي الحاكم بأمر الله أمر الخلافة.

اتسمت العلاقات بين الفاطميين وبني زيري في بداية عهد الحاكم بالتوافق والسلمية، فقد عمل الحاكم على جذب الزيريين إليه، ومن ذلك أنه أرسل في عام (387هـ/997م) كتابا يولي فيه باديس بن مناد[1] على إفريقية، ولقبه بنصير الدولة، وبادله باديس نفس المعاملة، غير أن العلاقات تدهورت بين الطرفين عندما رأى الحاكم أن بني زيري يريدون الاستئثار بإفريقية عن الدولة الفاطمية، فبدأ بتدبير المكائد لإضعافهم ومن ذلك ما قام به من تحريض للفتنة في طرابلس[2] التابعة لبني زيري لفصلها عنهم، وحدثت لأجل ذلك حروب كثيرة هلك فيها خلق كثير[3].

غير أن الحاكم بأمر الله لم يرد أن تبقى العلاقات مع بني زيري متوترة دائما فعمل على سنة (403هـ/1013م)، على إرسال سفارة إلى باديس بن زيري يتودد إليه فيها، بحيث منحه برقة

[1] باديس بن مناد:وهو أبو مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي والد المعز بن باديس، ولد ليلة الأحد 13 ربيع الأول (374هـ/985م) بأشير، تولى مملكة إفريقية نيابة عن الحاكم العبيدي المدّعي الخلافة بمصر، ولقبه الحاكم نصير الدولة ، وكانت ولايته بعد أبيه، وكان ملكا كبيرا حازم الرأي شديد البأس، توفي ليلة الأربعاء سلخ ذي القعدة سنة (406هـ/1016م). أنظر لسان الدين بن الخطيب الوزير: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من أعمال الأعلام)، تح وتع: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب (الدار البيضاء- المغرب)، ط1 (1964)، ص 69. ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 265-266.

[2] طرابلس الغرب:وهي مدينة مكونة من ثلاث مدن سماها اليونانيون طرابلية ومعناها ثلاث مدن، ويقال أن أشباروس قيصر، هو أول من بناها، وتسمى أيضا إياس وهي على شاطئ البحر... أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 25.

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 307-308.

كإضافة إلى ممتلكاته[1]، كما أرسل إليه في العام الموالي سجلا يخبره فيه بتعيين ابن عمه أبي القاسم عبد الرحيم بن إلياس وليا للعهد، ويبدو أنه قد قوبل بالرفض من باديس الذي قال: ((لولا أن الإمام لا يُعترض عليه في تدبير، لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بني عمه))[2].

وكعربون محبة ودليل على حسن العلاقات بين الطرفين عمل نصير الدولة على محاربة بني عمومته الحماديين عندما أعلنوا انفصالهم عن الفاطميين والدخول في فلك العباسيين[3].

واستمرت العلاقات بين الطرفين على السلمية أحيانا وعلى التوتر أحيان أخرى، وذلك حسب التعامل من جانب الفاطميين إذ أنه كلما لانوا في معاملاتهم مع الزيريين كلما دان لهم الزيريون بالولاء التام، وعلى العكس كلما صدر من الفاطميين ما يسيء إلى العلاقة مع الزيريين كلما تعنت هؤلاء من جانبهم.

لكن العلاقات من الجانب الزيري تغيرت مع الفاطميين بموت باديس سنة (406هـ/ 1016م)، إذ خلفه ابنه المعز، ولأنه كان لا يزال فتى حدثا، فإنه لم يكن هو من يتحكم في زمام ولايته وإنما نابت عنه عمته أم ملاّل، كما أن معلمه الحسن بن علي بن أبي الرجال، كان متأثرا بالمذهب السني، ولذلك عمل على تربيته على هذا المذهب والولاء لبني العباس على عكس الفاطميين، وأدى هذا العمل إلى قطع الدعوة للفواطم، وإعلان الدعوة لبني العباس، ونتج عن ذلك أن حدثت مواجهات دامية بين السنة والشيعة سنة (407هـ/1016م)، وحدث ذلك عندما خرج المعز بن باديس يوم العيد لأداء الصلاة، وفي طريقه كبا به فرسه، فقال: (أبو بكر وعمر)، عندها هجم عليه الشيعة ليقتلوه، فالتأم حوله عبيده وحرسه، ومن يخفي معتقده من المسلمين السنة، وجرى السيف في الشيعة، حتى قيل أنه قتل من الشيعة ما يربو عن الثلاثة آلاف[4].

---

[1] ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج- س كولان وإليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت)، ط3 (1983م)، ج1، ص 259-260.

[2] المصدر نفسه، ص260.

[3] المصدر نفسه، ص 260-265.

[4] ابن عذاري المراكشي: نفس المصدر السابق، ج1، ص ص 266-268-273-274 .

ورغم هذه المذبحة التي أحدثها السنة بأهل الشيعة، إلا أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لم يبد امتعاضه علنا من المعز بن باديس وإنما راسله شهر ذي الحجة (407هـ/1017م)، ولقبه بشرف الدولة، ولم يذكر أي شيء عن الاضطهاد الذي قام به هذا الأخير ضد الشيعة[1].

وظلت العلاقات بين الطرفين كما هي على وفاق رغم ما يحدث من المناوشات الداخلية التي لا تفسد العلاقة بين الطرفين على الأقل خلال فترة الحاكم الذي لم يستمر طويلا بعد هذا الوقت إذ أنه توفي في السنة الموالية، (411هـ/1020م).

وفي عهد الخليفة الفاطمي الظاهر، استمرت العلاقات بين الطرفين على ما كانت عليه من قبل، إذ عرفت تحسنا في بعض الأحيان، وتدهورا في أحيان أخرى، لكن غلب عليها التحسن مع بداية تولي الظاهر للخلافة، ومن ذلك أنه أرسل إلى المعز بن باديس سنة (418هـ/1027م)، هدايا تضمنت خيولا مسرجة وخلعا، كما لقبه بشرف الدولة وعضدها، واستقبل المعز رسول الظاهر استقبالا حافلا، وقرأ سجل الظاهر في جامع القيروان[2].

وكدليل عن حسن النية، أرسل المعز بن باديس هو الآخر هدايا إلى الخليفة الفاطمي الظاهر سنة (420هـ/1029م)، تضمنت مجموعة من الجواري الحسان، وخيول مسرجة بالذهب والفضة، وخلع وأثواب قدرت بألف وخمسمائة ثوب من الخز المغربي والسوسي والصقلي[3].

واستمرت العلاقات الودية من جانب الظاهر إذ أرسل إلى المعز بن باديس هدايا كثيرة تضمنت أنواعا من الجواهر الهندية، وأجود أنواع الملابس والفرش والأعلام والبنود، إضافة إلى العديد من الجواري الحسان والمغنيات وعددا من الخيول العربية الأصيلة[4].

غير أن العلاقات بين الطرفين عرفت برودا فيما بعد، والسبب في ذلك أن سكان إفريقية كانوا قد مالوا إلى السنة، مستغلين في ذلك بعد السلطة الفاطمية عنهم وانهماكها في القضاء على الثورات والفتن في بلاد الشام، كما أن الخليفة الظاهر مال في أواخر أيامه إلى الملذات، وانصرف عن تسيير شؤون دولته، وكل ذلك سهّل لسكان إفريقية التخلي عن مذهب التشيع، والميول إلى مذهب السنة،

---

[1] المصدر نفسه، ص 269.

[2] ابن عذاري المراكشي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 269-271. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 132.

[3] ابن عذاري المراكشي: نفس المصدر السابق، ص 271. الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف، تح: محمد حميد الله، مر: صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر (الكويت)، ط1 (1959م)، ص 69.

[4] ابن عذاري المراكشي: نفس المصدر السابق، ص 271.

وأدى هذا بدوره إلى خلافات بين الطرفين، وأصبح الفقهاء السنة يسبون الشيعة علنا، ومن ذلك عندما سأل المعز بن باديس فقيها سنيا عن الطراز التي تتضمن أسماء الخلفاء الفاطميين، فأجابه هذا الفقيه بقوله: ((يجب على من بسط الله يده أن يمنع ذلك))[1]، وبقيت العلاقات باردة بين الطرفين حتى وفاة الخليفة الفاطمي الظاهر في (15 شعبان 427هـ/1036م)[2].

ت- علاقة الفاطميين بالصليحيين في اليمن

ت-1- تبني الصليحيين الدعوة الإسماعيلية

ينتسب الصليحيون إلى أبي الحسن علي بن محمد الصليحي، وقد سمي بالصليحي نسبة إلى قبيلة الأصلوح من بلاد حراز، وهم من بني عبيد بن أوام ببيت الأخروج، وهم أنجاد كرماء، وكان أبوه على مذهب السنة الشافعية، ونشأ هو على هذا المذهب، ثم تغير فيما بعد إلى مذهب الرافضة، وصار يدعو له، بعد أن استولى على اليمن، وأسس به دولته[3].

ويعد علي بن محمد الصليحي هو أول من مهد للنفوذ المستعلي بأرض اليمن بعد أن أسس دولته، حيث قام بثورة في عام (439هـ/1047م) في رأس مسار[4] في جبال حراز[5] أخضع من خلالها قلاع وحصون اليمن لسلطانه[6]، وفي عام (453هـ /1061م)كتب علي بن محمد إلى المستنصر العبيدي صاحب مصر يستأذنه في إظهار الدعوة له في اليمن فأذن له بذلك وخطب

---

[1] أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة (تونس)، ط2 (1388هـ/1968م)، ج3، ص 167.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 219-220. عماد الدين إدريس: نفس المصدر السابق، ص 321.

[3] حسين بن فيض الله اليماني اليعربي الحرازي و حسن سليمان محمود الجهني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، منشورات المدينة (صنعاء)، ط3 (1407هـ/1986م)، ص 64-65

[4] مسار: قلة في أعلى موضع من جبال حراز منه كان مخرج الصليحي سنة (448هـ)، وجاهر فيه بدعوته. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 131.

[5] حراز: مخلاف بين اليمن قرب زبيد سمي باسم بطن من حمير وهو حراز. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 234.

[6] تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني: تاريخ اليمن المعروف ببهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الكلمة (صنعاء)، ط02 (1985م)، ص 52-53. يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، مر: محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي (القاهرة)، ط1 (1388هـ/1968م)، ج1، ص 253. عمارة اليمني: تاريخ اليمن، ص 101.

الصليحي في اليمن باسم الإمام الإسماعيلي المستنصر، واستمر علي بن محمد في فتوحاته حتى دخل مكة المكرمة وضم إليه إقليم الحجاز بكامله، واستعد للمسير إلى العراق وانتزاعه من أيدي العباسيين ولم تمض سنة (455هـ/1063م) إلا وقد استولى علي بن محمد الصليحي على اليمن سهله ووعره وبره وبحره[1].

لم يلبث أن قتل علي بن محمد الصليحي في عام (459هـ/1067م) وهو في طريقه إلى مكة المكرمة للحج بمدينة المهجم[2]، وتولى الأمر بعده ابنه المكرم أحمد بن علي فقام بالأمر بعد والده أتم قيام واستطاع أن يقضي على مناوئي الدولة الصليحية وتوفي المكرم أحمد بن علي في عام (484هـ/1091م) في ذي جبلة[3]، وجعل وصيته إلى الأمير الكبير الداعي سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي وقد قام بعدة حملات عسكرية على بني نجاح بزبيد، منها معركة الكضائم سنة (484هـ/1091م) والتي قتل فيها القاضي عمران بن المفضل، وتوفي سبأ بن أحمد في سنة (492هـ/1102م) في حصنه أشيح[4] ودفن به[5].

ت-2- عدم اعتراف إسماعيلية اليمن بإمامة الحافظ

وتولت الحكم بعده السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية[6] وحكمت ما يقارب نصف نصف قرن ضربت فيه أروع الأمثال من الحزم والثبات والحكمة والعدل، وفي عهد حكم السيدة الحرة توفي إمام الإسماعيلية المستعلية في مصر الآمر بأحكام الله ولم يكن له ولد، فتولى الإمامة بعده ابن

---

[1] يحي بن الحسن: نفس المصدر السابق، ج1، ص 253-254. عمارة اليمني: نفس المصدر السابق، 118-119.

[2] المهجم: بلد وولاية من أعمال زبيد باليمن بينها وبين زبيد ثلاثة أيام. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج5، ص229.

[3] ذي جبلة: مدينة باليمن تحت جبل صبر وتسمى ذات النهرين. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 106.

[4] أشيح: اسم حصن منيع عال جديد في جبال اليمن. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 202.

[5] يحي بن الحسين: نفس المصدر السابق، ص 258-279. حسين بن فيض الله الهمذاني: نفس المرجع السابق،ص 152-153.

[6] الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية: وهي أروى بنت احمد بن محمد بن القاسم الصليحي، وأمها الرداح بنت الفارس بن موسى الصليحي، ولدت سنة (440هـ/1048م)، وكان أهل اليمن يلقبونها بلقب سيدتنا الحرة الملكة، تربت في حجر السيدة الحرة أسماء بنت شهاب زوجة الملك علي الصليحي، وقد كانت عرافة بعلم الأنساب والتاريخ، والفقه والأدب، حتى أنها لقبت ببلقيس الصغرى، تولت إمارة اليمن بعد وفاة زوجها الأمير أحمد المكرم، وكان ذلك سنة (477هـ/1084م)، واستمرت في حكمها إلى أن توفيت في غرة شعبان سنة (532هـ/1138م)، ودفنت بجامع ذي جبلة. أنظر حسين بن فيض الله الهمذاني، ص ص 142-143-144-207.

عمه الحافظ لدين الله فرفض الصليحيون الاعتراف بالحافظ لأن الإمامة في العقيدة الإسماعيلية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وهذا مناف لعقيدتهم ومن ثم فليس للحافظ حق في الإمامة.

ت-3- انفصال إسماعيلية اليمن عن إسماعيلية مصر

وزعم الصليحيون أن إحدى زوجات الآمر كانت حاملا، ووضعت طفلا ذكرا اسمه الطيب بن الآمر، فالإمامة إذا هي للطيب بن الآمر ، ولقد خاف عليه أحد الدعاة فأخفاه عن الحافظ وأرسله إل الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن وهذه الملكة أخفته وجعلت نفسها كفيلة عليه ونائبا عنه في تولي شؤون الدعوة الإسماعيلية، واتخذت لنفسها لقب (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر) ومن هذا التاريخ انفصلت الإسماعيلية المستعلية في اليمن عن إسماعيلية مصر وأوجدوا لهم دعوة جديدة: هي الدعوة الطيبية نسبة إلى الطيب بن الآمر[1].

ويقول الدكتور كامل حسين: وفي اعتقادي أن قصة الطيب هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخي، فإن أحدا من المؤرخين لم يذكر وجود الطيب بن الآمر إلا ما نراه في كتب دعاته، أما ما يقال عن وجود سجل وجه الملكة الحرة من الآمر قبل مقتله فإنه سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة الطيب، والصليحيون ودعاة الدعوة الطيبية هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، بينما سكت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه في كتبهم، بل أجمع المؤرخون على أن زوجة الآمر التي كانت حاملا عند وفاته ووضعت أنثى[2].

ت-3-أ- أسباب انفصال الصليحيين عن الفاطميين

وفي الحقيقة فإن قصة الطيب هذه قصة خيالية ليس لها أي سند تاريخي وقصد الصليحيون من ورائها صبغ انفصالهم عن الإسماعيلية في مصر بصبغة شرعية، ومنذ ذلك الحين أصبح الصليحيون منفصلين عن مصر دينيا وسياسيا، وجمعت الملكة الحرة أروى في يدها السلطتين الدينية والسياسية بصفتها كافلة الإمام المستور الطيب بن الآمر، واستمرت الملكة في حكمها ملتزمة بتعاليم الإسماعيلية

[1] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 50.

[2] المرجع نفسه، ص 50-51.

إلى أن توفيت في عام (532هـ/1138م)[1]، وبوفاة الملكة الحرة، انتهى حكم الصليحيين وانقرضت دولتهم.

نهجت الدولة الصليحية نهج الحركات الباطنية فعملت إلى إرساء المذهب الباطني، وقد كشف أحد العلماء السنة في اليمن العالم محمد بن مالك اليماني الذي كان معاصرا لازدهارها، عن انحرافهم وتعاليمهم الباطنية، وكان هذا الأخير قد انخرط في سلك أتباعها وصور من الداخل حقيقة أمرهم، فقال عن الوالي الصليحي علي بن محمد الذي كان معاصرا له: (إن له نوابا يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالمكلبين، تشبيها لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبائل ويخدعون من يقع في حبائلهم بروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم محرفة وعن أقوال مزخرفة ويتلون عليه القرآن على غير وجهه ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينهجون النهج الباطني القائم على نظرية الظاهر والباطن، فالزكاة مفروضة في كل عام، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، ويبينون له كذلك أن لكل شيء ظاهر وباطنا، فقد قال الله عز وجل: ((وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ))[2]، وقوله: ((قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ))[3]، والظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس عن العلم به فلا يعرفه إلا القليل، ومن ذلك قوله تعالى: ((وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ))[4]، وقوله تعالى: ((وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ))[5]، فالأقل من الناس الذين لا عقول لهم[6].

ويحذر المسلمين من الاختلاط به والتقرب منه، لأنه بارع في استدراج الضعاف من الناس، بحيث يسلبهم عقولهم بدهائه، ولذلك عليهم ألا يقتربوا منه مهما كانت الظروف، ولقد كان يعمل على إزالة الشريعة المحمدية على حد زعمه، حتى ينشر المعتقد الفاسد بين عموم الناس[7].

---

[1] يحي بن الحسين: نفس المصدر السابق، ص 295.

[2] سورة الأنعام: الآية 120.

[3] سورة الأعراف: الآية 33.

[4] سورة هود: الآية 40.

[5] سورة ص: الآية 24.

[6] اليماني: نفس المصدر السابق، ص 11.12.

[7] اليماني: نفس المصدر السابق، ص 43.

وكما ابتدع الباطنية الآخرون من النزارية والمستعلية أساليب للدعوة، وهي على غاية من الخطورة والدهاء، فإن الصليحيين هم أيضا ابتدعوا أساليب جد ماكرة لأجل إيهام الناس بأحقية معتقدهم في سيادة العالم، وكانوا في بداية الأمر يدعون المستهدف من الناس بأسلوب ذكي يضفي القدسية على بيت النبوة وبعض الصحابة، حتى إذا استأنس إليهم الرجل أوغروا صدره بمعتقدات فاسدة تجعله في شك من أمره حيال بعض العقائد التي كان يراها من قبل يقينية، ثم يواصلوا معه على هذه الحالة حتى ينسلخ من الدين كليا، ويضحى على معتقدهم السيئ[1].

2- علاقة الفاطميين بالسكان المحليين(داخل مصر)

أ- علاقة الخلفاء بأهل الذمة

تغلب أهل الذمة على مفاصل الدولة في مصر منذ عهد العزيز بالله[2]، وأصبحوا يسيرون أمور الدولة حسب أهوائهم ومصالحهم[3]، ورغم محاولة الحاكم إقصائهم والتنقيص من وجودهم إلا أنه عجز عن ذلك، لكونهم الأعرف بالشؤون الإدارية والمالية، ولكنه رغم ذلك قرر أن يصدر أوامره في حقهم والتي كانت في أغلبها اضطهادية.

ومن إجراءاته الاضطهادية أنه ألزم أهل الذمة من النصارى واليهود بارتداء لباس معين وهو الأسود بموجب مرسوم (7محرم 395هـ/1004م)، وذلك لتمييزهم عن المسلمين، كما قام باعتقال رؤساء الكتاب النصارى ثم أطلق سراحهم بوساطة من طبيبه النصراني أبو الفتح سهل بن مقشر النصراني[4].

ومن إجراءات الحاكم في حق أهل الذمة أنه قام بإصدار مراسيم تقضي بهدم الكنائس، ومصادرة ما تحتويه من ممتلكات، وإحراق الصلبان، وسبب ذلك على ما يبدو هو ما عرفه الحاكم عن مراسيم الاحتفالات التي يجريها النصارى داخل هذه الكنائس من قائده ياروخ العضدي، فقد

---

[1] المصدر نفسه، ص 44.

[2] العزيز بالله: وهو العزيز باله أبو المنصور بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر اله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله، ولد بالمهدية يوم الخميس الرابع عشر من محرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، وولى العهد بمصر وبويع لسبع بقين من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة. أنظر تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 236.

[3] فاطمة مصطفى عامر: تاريخ الفاطميين في مصر الإسلامية (منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الفاطمي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1 (2000م)، ج1، ص 177.

[4] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 252.

أبلغه هذا الأخير أن عيد النصارى هو بيعة يعظمها النصارى ونتيجة لذلك انزعج الحاكم بأمر الله وقرر أن يهدم كنائسهم كما أمر بهدم كنيسة القيامة حتى تندثر هذه العادات[1].

ومن إجراءات التعسف في حق النصارى أيضا، ما قام به الحاكم بأمر الله في شهر رمضان سنة (400هـ/1010م)، عندما أمر بهدم دير القصير بالمقطم[2]، وهو من أعظم ديار النصارى الملكانية، ونهب ما فيه، ونبشت قبوره، وكان بداخله بطريرك الإسكندرية[3] أرسيانوس فقبض عليه وقتل[4].

كما منع في عام (402هـ/1011م) النصارى من الاجتماع في عيد الصليب والمضي إلى الكنائس، ثم أصدر مرسوما في العام الذي يليه يقضي بهدم جميع كنائس مصر ومصادرة ممتلكاتها، وأحرق حارة الجودرية على أهلها من اليهود، وفي العام الموالي أمر النصارى بتعليق صلبان طول الواحد فيها ذراع على ذراع في أعناقهم، وفعل الأمر نفسه على اليهود بحيث أمرهم بتعليق قرامي وزن القرمية الواحدة منها خمسة أرطال، وأمر بأن ينقش على هذه الصلبان والقرامي اسم الحاكم بالرصاص، وحرمهم أيضا من ركوب الخيل، بل إنه فرض عليهم ركوب الحمير والبغال مسرجة بسروج من الخشب، كما منعهم من استخدام المسلمين، ومنعم من استعبادهم أيضا، ومنع المسلمين من أن يحملوا في مراكبهم أهل الذمة، وجعل لأهل الذمة حمامات خاصة حتى لا يختلطوا بالمسلمين، ثم أنشأ لهم حيا خاصا قرب باب زويلة[5]، وقد عمل الحاكم على تنفيذ هذه الأوامر بصرامة متناهية[6].

ونتيجة لهذا الضغط الكبير الذي فرضه الحاكم على أهل الذمة، فإن الكثير منهم هاجر سرا إلى بيزنطة ومنهم من اعتنق الإسلام كرها، ولما علم الحاكم بذلك أصدر مرسوما سنة

---

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 273.

[2] المقطم:وهو جبل يمر على جانبي النيل إلى النوبة، ويعبر فوق الفيوم فيتصل بالغرب إلى أرض مغراوة... أنظر تقي الدين المقريزي: الخطط، ج1، ص 351.

[3] الإسكندرية:وهي مدينة عظيمة لم يكن بالديار المصرية مثلها ولا يقارن بها في الحسن وإتقان البناء، وقال بعضهم أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد هي الإسكندرية... أنظر ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج2، ص 116.

[4] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 282-283.

[5] باب زويلة: وهو مكان على شاطئ البحر اختطه طائفة من البربر الذي قدموا مع المعز لدين الله، وابتنوا به القصور والدور...أنظر ابن دقماق: نفس المصدر السابق، ج2، ص 38. محي الدين أبو الفضل عبد اله بن عبد الظاهر المصري: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تح: أيمن سيد فؤاد، مكتبة الدار العربية (القاهرة)، ط1(1417هـ/1996م)، ص 58.

[6] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 295-296. المقريزي: الخطط، ج04، ص 75.

(404هـ/1013م) وصرح بموجبه أن تتم الهجرة علنا وتحت إشراف الحاكم رسميا كما أعطاهم الحرية في اختيار الوجهة التي يريدون فهاجر منهم عدد كثير إلى البيزنطيين وإلى الحبشة وبلاد النوبة، كما سمح لهم بأخذ أموالهم معهم[1].

وكعادته بعد مدة ليست بالطويلة رأى الحاكم أنه قد قسا على أهل الذمة وارتأى أنه لابد من أن يخفف إجراءاته على أهل الذمة فأصدر مراسيم عدة سنة (411هـ/1020م)، تلغي المراسيم السابقة، بحيث أعطى الحرية لمن أراد العودة إلى مصر أن يعود ومن أراد أن يرتدد إلى دينه من الإسلام فله ذلك فارتد كثيرون، كما أمر بأن ترفع الأحباس على أوقاف الكنائس والأديرة[2].

وتذكر المصادر سبب تغير الحاكم في مواقفه العدائية ضد أهل الذمة إلى أسباب عدة، فهناك من يرى أن الحاكم قد تأثر براهب نصراني يدعى سليمان بن إبراهيم كان قد أسلم أيام محنة الحاكم، ثم ارتد إلى دينه، وكان الحاكم قد تقرب منه وأعجب به وبأفكار النصرانية[3]، بينما تعزو مصادر أخرى إلى أن الحاكم تخوف من ردة فعل الدول التي تحوي بداخلها جالية إسلامية أن تعامل المسلمين بمبدأ التعامل بالمثل فتضطهدهم فتراجع عن قراره، بينما تذكر مصادر أخرى أن سبب ترجع الحاكم عن قراراته بشأن أهل الذمة هو تخوفه من ردة فعل إمبراطور بيزنطة الذي قرر شن حرب مقدسة على الإسلام بعد أن علم بتهديم كنيسة القيامة[4].

غير أن الوقائع التي كانت ظاهرة وثابتة في مصر، هو أن أهل الذمة كانوا قد استأثروا بأهم المناصب الحساسة، واستغلوا مناصبهم في قضاء حوائجهم على حساب المسلمين وخاصة السنة، ولذلك ظهر الارتياح جليا على المسلمين السنة في إجراءات الحاكم بأمر الله هذه، رغم اتهامهم له بالمروق عن الملة الإسلامية[5].

---

[1] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 305.
[2] المصدر نفسه، ص 353.
[3] المصدر نفسه، ص 357-359.
[4] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 275.
[5] المرجع نفسه، ص 275.

ب- علاقة الخلفاء الفاطميين بطوائف الجند

ب-1- صراع طوائف الجند

اعتمد الفاطميون خلال مراحل تاريخهم على عناصر متعددة في جيشهم، وكانوا في كل مرة يقربون طائفة على الأخرى حسب ميول كل خليفة أو حسب تربيته، ففي البداية اعتمد الفاطميون على المغاربة الذين كانوا عماد جيشها لأن الدولة تأسست على أكتافهم، وعرفت هذه العناصر بالمغاربة، وازدادوا كثرة مع خلافة المعز لدين الله إذ أنهم انتقلوا معه إلى القاهرة، ووصل عدد لا بأس به منه إلى مناصب كبيرة في الدولة .

غير أنه قرر بعد استقراره في مصر أن يكوّن جيشا من سكان مصر والمماليك، ويعزى ذلك إلى تخوفه من عنصر المغاربة خاصة بعد أن ظهر العصيان في بلاد المغرب وانفصاله عنهم[1]، وأقام لهم ثكنات خاصة عرفت بالحجر، كما أوكل تدريبهم إلى أشخاص لهم كفاءة عالية.

وفي عهد العزيز بالله أدخل عنصر جديد ضمن الجيش المصري وهم المشارقة وذلك لإحداث التوازن في الجيش مع عنصر المغاربة، وقربهم إليه وأكثر من عددهم حتى أنه أقطع لهم إقطاعات مستقلة وأسكنهم فيها، وسميت باسمهم مثل حارة الديلم، وحارة الأتراك[2].

ثم اعتمد الفاطميون على عنصر آخر وهم السودان، وظهر وجودهم في مصر على عهد الحاكم بأمر الله، وقد استعان بهم لمواجهة المغاربة، وازداد عددهم في عهد المستنصر بالله، وسبب ذلك أن أمه كانت سودانية حتى بلغ عددهم خمسين ألفا، ونفس العدد بلغه عنصر آخر استعملهم المستنصر وهم البدو[3].

كل هذه الطوائف وقع بينها التحاسد والتباغض نتيجة لاستعمال عنصر أكثر من العنصر الآخر، وكان الوزراء يعمدون إلى هذه السياسة حسب أجناسهم للاحتماء بهم أو للحد من عنصر قوي آخر والتموقع على حسابهم.

ويضاف إلى كل هؤلاء العناصر ظهور عنصر آخر على مسرح الأحداث، وهو عنصر أهل الذمة، فقد ارتفع عددهم وخاصة اليهود منهم بعد أن انتهجت الدولة الفاطمية سياسة التسامح،

---

[1] ناصر خسرو علوي: سفر نامة، تر: يحي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1 (1993م)، ص 52.

[2] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي (القاهرة)، ط1 (1997م)، ج3، ص 16-20.

[3] ناصر خسرو: نفس المصدر السابق، ص 53.

وتحكموا في الاقتصاد الفاطمي وبرز أخوين تحكم أحدهم في التجارة بينما تحكم الآخر في الصيرفة، وهما أبو سعيد إبراهيم، وأبو نصر هارون ابنا سهل التُّستَري، وكان الخليفة الظاهر قد قرب إليه أبا سعد إبراهيم حتى علا شأنه، فأهداه هذا الأخير جارية سوداء ولدت للظاهر ابنه المستنصر[1].

استغل هذا اليهودي فرصة وفاة الظاهر وتولي المستنصر الخلافة بعده، فتقرب من أم المستنصر التي جعلته متولي ديوانها، وصارت له سطوة، وهو ما ولّد عليه حقدا من الوزير أبو منصور بن صدقة الفلاحي، إذ لم يبق للوزير معه سوى الاسم[2]، ولعل ما سهل للوزير التحكم في أمور الدولة هو ما قام به من إجراءات احترازية جعلته يعمل بسهولة ويسر، ومن هذه الإجراءات أنه أحاط نفسه بطائفة من الموظفين اليهود، بحيث جعلهم في مناصب حساسة من أركان الدولة، كما تقرب من العنصر المغربي بحيث استقوى بأجنادهم على حساب الجنود الآخرين، وكان لهذا الإجراء الدور في نشوب الحروب بين طوائف الجند في مرات عديدة[3].

واستعان الوزير أبو منصور صدقة فرصة تذمر الجنود الأتراك من الأوضاع في مصر، فتقرب منهم، وزاد في أعطياتهم من أجل الإيقاع بخصمه اليهودي، واستطاع أن يقضي عليه بعد كمين وضعه له في (03 جمادى الأولى 439هـ/1047م)[4]، ولما قرر الخليفة المستنصر معاقبة قاتلي اليهودي لم يتعرف عليهم، لأن كل الطوائف ادعت أنها مشاركة في قتله ويعزى ذلك إلى الكره الشديد الذي يكنونه له بفعل أعماله العدائية ضد أهالي مصر[5].

لم ينج الوزير صدقة الفلاحي من فعلته هذه، فقد دبرت له أم المستنصر عند ابنها، فعزله ثم قتله في (05 محرم 440هـ/1048م)، كما أن المستنصر لم يتوقف عن اعتماده على اليهود، إذ أنه عين مكان أبي سعد إبراهيم أخاه أبو نصر هارون، وفتح المجال واسعا لليهود في أجهزة الدولة الحساسة[6].

---

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 2-4. المقريزي: الخطط، ج2، ص 193.

[2] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 2.

[3] المصدر نفسه.

[4] المصدر نفسه.

[5] ناصر خسرو: ص 108-109. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 195.

[6] ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 71-72. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 04.

وبالقضاء على الوزير صدقة الفلاحي، خلا الجو لأم المستنصر كي تتحكم في زمام الأمور فالتجأت إلى سياسة تحمي بها نفسها، بحيث استكثرت من العبيد السود، وقربتهم إليها نكاية في الأتراك، وولد هذا الإجراء كرها كبيرا ما بين الطائفتين.

لاحظنا كيف تواجدت هذه الطوائف في مصر، وقد أحدث هذا الخليط من الأجناس فيما بعد ثورات كثيرة تزامنت مع خلافة المستنصر، وكانت أشد هذه المواجهات التي حدثت سنة (454هـ/1062م)، فقد اشتد الصراع بين الأتراك والسودان، ورغم محاولة بعض الأطراف تهدئة الوضع إلا أن الأمور ظلت على حالها، وذلك بسبب مواقف أم المستنصر التي رفضت التقارب مع الأتراك[1]، ووقف إلى جانب الأتراك الجنود المغاربة، واستطاعوا معا أن يهزموا السودان حتى ألجأوهم إلى الصعيد[2].

أدى انتصار الأتراك هذا إلى وصولهم للسلطة، وصارت لهم كلمة عند الخليفة نفسه، وبرز قائدهم المدعو ناصر الدولة الحسن بن حمدان التغلبي، الذي كان له طموح سياسي كبير، فقد عمل هذا الأخير بالضغط على الخليفة، ليزيد في مرتبات الجنود الأتراك، واستطاع أن يحقق مبتغاه في سنة (460هـ/1068م)، بحيث ارتفعت المرتبات من ثماني وعشرين ألف دينار إلى أربعمائة ألف دينار[3].

ورغم ما وصل إليه الجنود الأتراك من مرتبات إلا أنهم لم يقنعوا، وطالبوا في عديد المرات برفعها، ولما عجزت الخزينة في تحقيق مطالبهم فإنهم ثاروا على الخلافة، ونهبوا خيرات البلد ووصلوا إلى قصر الخليفة نفسه واستحوذوا على كل ما فيه من ذخائر وكنوز، حتى لم يبق للخليفة شيء وعجز حتى عن توفير غذائه اليومي على حد قول ابن ظافر الأزدي: ((ووصلت حالة التردي به إلى درجة دفعت ابنة أبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي إلى أن ترسل إليه رغيفين يوميا على ما هو مشهور ذائع))[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 06.

[2] المصدر نفسه، ص 17. ناصر خسرو، ص94-95. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1424هـ/2004م)، ج28، ص ص 143-144-145.

[3] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 17. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 275. النويري: ج28، ص 144-145.

[4] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ص 74.

لم يتوقف ناصر الدولة الحسن بن حمدان عند رغبته في زعامة الأتراك، وإنما سعى لأجل القضاء على السودان، فتوجه إليهم في الصعيد واقتتل معهم عدة مرات انتصر فيها عليهم وقضى على الكثير منهم، ثم إنه ارتأى أن يخلع الخليفة ويعين مكانه رجلا آخر من الأشراف، وهو ما أثار حفيظة الأتراك الذين رأوا في ذهاب الخليفة المستنصر انتقاصا من وجودهم، فأخطروا الوزير خطير الملك محمد بن حسن اليازوري، فرفع هو بدوره الأمر إلى الخليفة الذي أصدر أمرا بطرد ناصر الدولة من مصر بمساعدة من الأتراك.

خرج ناصر الدولة من مصر إلى الجيزة، لكنه عاد بعد مدة قصيرة إلى القاهرة وهناك قرر أن يتخلص من الوزير خطير الملك، واستطاع أن يحقق ذلك، بينما عجز عن قتل القائد التركي إيلدكز الذي احتمى بالخليفة، ووسوس هذا الأخير للخليفة كي يقضي على ناصر الدولة، فوافقه على ذلك، وخرج على رأس جيش انتصر به على ناصر الدولة حتى اضطره إلى دلتا النيل، إذ أنه هناك اعتمد على عناصر أخرى من عرب بني الجراح، بعض الأكراد، وقبيلة لواتة البربرية[1].

استطاع ناصر الدولة أن يجمع ما يقارب الأربعين ألفا من الجنود، وسار بهم إلى واجهات مصر البحرية فخربها، وسيطر على الإسكندرية ودمياط[2]، فأدى كل ذلك إلى قطع المؤن عن القاهرة والفسطاط[3]، وعظم شأنه في مصر، ولما عجز الخليفة عن مجابهته هذه المرة أرسل إليه يقره على ما هو عليه، وأن يجعل تاج الملوك شاذي نائبا له في القاهرة، مقابل أن يفسح لمرور المؤن إلى العاصمة فقبل بذلك، وتم الصلح بين الطرفين[4].

استغل تاج الملوك شاذي منصبه الجديد، واستبد بالشؤون العامة في القاهرة، ونكث بوعده وعهده لناصر الدولة، فقرر ناصر الدولة أن يسير إليه بجيشه، واستطاع أن يقبض عليه، وعمل جنوده على تخريب الفسطاط، ولم يستطع المستنصر أن يرده، فاضطر إلى مصالحته، لكن على شروط ناصر

---

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص18-19.

[2] دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 472.

[3] جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي (القاهرة)، د-س-ن، ص104.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 21.

الدولة، فوافق الخليفة على ذلك وتم الصلح، ودخل ناصر الدولة إلى القاهرة، وقبض على الجنود الأتراك، وعلى تاج الملوك شاذي، ورتب الأوضاع وأصبح الحاكم الفعلي لمصر[1].

ولما لم يعد هناك ما يعيق ناصر الدولة على تحقيق غاياته فإنه حاول إزالة ملك الفاطميين من الوجود إذ أنه أرسل سنة (462هـ/1070م) إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان، يطلب منه المجيء وإزالة الخلافة الفاطمية وإقراره هو على حكم مصر، لكن ذلك لم يتم رغم موافقة السلطان على ذلك، فقد انشغل هذا الأخير بجبهة الشمال التي كانت تحت تهديد البيزنطيين فأعرض عن مساعدة ناصر الدولة[2].

وقام أيضا بمصادرة ممتلكات أم المستنصر للحد من نفوذها، كما عمل على تفريق أبناء المستنصر في البلاد، وخص المستنصر براتب شهري قدره مائة دينا شهريا[3]، وأكثر من ذلك فإنه حذف اسم الخليفة من الوجه البحري لمصر، وأظهر ميولا للخليفة العباسي سنة (464هـ/1072م)[4]، غير أن ذلك لم يحدث إذ أن الأتراك لما رأوا تمادي ناصر الدولة في إجراءاته وتخوفوا من ذهاب نفوذهم، قرروا أن يقضوا عليه، فتوجه جماعة منهم إلى بيته على شاطئ النيل وقتلوه في شهر رجب (465هـ/1073م)، ثم تخلصوا من كافة بني حمدان بمصر[5].

لم تنته الفوضى بمقتل ناصر الدولة، إذ سرعان ما سيطر إيلدكز على الأوضاع في مصر، وضيق على الخليفة ما اضطره إلى مراسلة والي عكا الأرميني بدر الجمالي[6] لتخليصه، وإصلاح ما فسد فسد في مصر، وكان ذلك في سنة (466هـ/1074م)، وكان لجوء الخليفة إلى هذا الإجراء بعد أن فقد كل الأمل في انضباط الأمور بمصر إذ أن طوائف الجند لم تترك له فرصة التأقلم والتعايش مع

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 338.

[2] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 19-20.

[3] المصدر نفسه، ص 21.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 21.

[5] المصدر نفسه، ص25. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 397.

[6] بدر الجمالي:وهو أرمني الجنس، اشتراه جمال الدولة بن عمار وتربى عنده وتقدم بسببه، وكان من الرجال المعدودين في ذوي الآراء والشهامة وقوة العزم، استنابه المستنصر صاحب مصر بمدينة صور، وقيل عكا، فلما اختلت دولته، وصف له بدر الجمالي فاستدعاه، فركب البحر في الشتاء ووصل القاهرة عشية يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى وقيل الآخرة سنة (460هـ/1068م)، فولاّه المستنصر تدبير أموره، وقامت بوصوله الحرمة وأصلح الدولة، وكان وزير السيف والقلم. أنظر ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 448-449.

بعض، وسيطرت كل طائفة على إقليم معين فاستقر الأتراك في القاهرة والفسطاط، بينما استولى العبيد السود على الصعيد، في حين تملك اللواتيون وبعض الأعراب والأكراد على الواجهة البحرية والإسكندرية[1].

ب-2- استدعاء بدر الجمالي إلى القاهرة

لما رأى الخليفة المستنصر أن الأوضاع لن تتحسن في مصر مادامت طوائف الجند متصارعة، قرر أن يستعين بقوة خارجية لها بالقدرة على ضبط الأوضاع في مصر وإعادتها إلى ما كانت عليه، فوقع اختياره على والي عكا بدر الجمالي الأرمني، وراسله سرا عن طريق وزيره أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي[2].

قبل بدر الجمالي بالقدوم إلى مصر، لكنه اشترط على المستنصر أن يأتي معه بجيشه من الأرمن، وقبل المستنصر ذلك، فسار الأفضل باتجاه مصر، وفي طريقه قضى على المقاومات المحلية في أرض مصر مثل مقاومة قبيلة لواتة، وطائفة الملحية، وسيطر على كل المناطق المجاورة لطريقه كدمياط وقليوب، وأرسل إلى المستنصر بأن يقبض على إيلدكز، ففعل ذلك، ودخل بدر الجمالي إلى القاهرة يوم (27جمادى الأولى 466هـ/1074م)، واستقبله المستنصر استقبالا حارا، ومباشرة بدأ الأفضل في إصلاح الأوضاع في مصر[3].

ب-3- إصلاحات بدر الجمالي

باشر الأفضل بن بدر الجمالي إصلاحاته في مصر، التي وجدها متدهورة إلى حد كبير، وحتى يضفي على أعماله هذه صفة الشرعية فإنه تلقى مباركة الخليفة نظير أعماله هذه، بحيث خلع عليه، ولقبه بالسيد الأجل أمير الجيوش[4].

وكانت أولى إجراءاته التي قام بها، هو تحييد طوائف الجيش التي كانت تثير الشغب في مصر، واستبدلها بعناصر أرمنية أتى بها معه من عكا[5]، وعرف عن هؤلاء المشارقة أنهم أكثر تفانيا في العمل

---

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 24. ابن ظافر: نفس المصدر السابق، ص 74.

[2] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 22. المقريزي: الخطط، ج2، ص 242.

[3] ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 95-96. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، 22-24. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 242.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، 22-24. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 242.

[5] عكا: اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن. انظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 143.

ولهم وفاء كبير لبدر الجمالي، رغم أن أغلبهم نصارى، وأسكنهم في حارات خاصة بهم حتى يتميزوا عن غيرهم الأجناد[1]، بعدها لجأ بدر الجمالي إلى القضاء على قادة الجنود الأتراك والمغاربة، وأعاد ما نهب من كنوز القصور الفاطمية[2].

بعدها انتقل بدر الجمالي إلى خارج القاهرة بحيث قام بتثبيت الأوضاع في المناطق الثائرة على الحكم المركزي، وابتدأها بالوجه البحري ممثلا في الإسكندرية، فاستردها من حكامها المغاربة، ثم من ابنه الأوحد الذي أراد الاستقلال بها في عام (477هـ/1084م)،كما قاتل القبائل العربية الثائرة كجهينة وقيس، والسودان في صعيد مصر، ولم تمض مدة وجيزة حتى استرد كافة سواحل مصر[3].

بعد أن ثبت الأفضل دعائم الدولة أمنيا، التفت إلى الوضع الاقتصادي وكان هو الآخر قد تدهور بشكل كبير نتيجة تردي الوضع الأمني، فقام أولا بتشجيع الفلاحين على العمل، بأن خفف عنهم الضرائب، وأعفاهم من الخراج، فانتعشت الزراعة وعادت التجارة إلى ما كانت عليه قبل الثورات، حتى أن خراج مصر زاد من مليوني دينار إلى ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار[4].

كما اهتم أيضا بالعمران إذ أعاد بناء سور القاهرة الذي بناه جوهر الصقلي، وكان قد خرب في أيام الفتنة في مصر، وبنى أبوابا جديدة للقاهرة وهي باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة وكان كل ذلك في سنة (480هـ/1087م)[5]، كما أمر ببناء المساجد وأقطع لها الإقطاعات مثل جامع العطارين، ورمم العديد من الجوامع الأخرى كجامع الحاكم، وجامع ابن طولون، وأمر بابتناء المشاهد والأضرحة، مثل مشهد الجيوشي على جبل المقطم، ومشهد رأس الحسين بعسقلان[6].

واهتم أيضا بالجانب الإداري إذ قام بتقسيم مصر إلى قسمين مصر العليا ومصر السفلى، وحدد عواصم الولايات حتى يسهل عليه التحكم في الأوضاع العامة، وجعل الولايات أربعا، وهي

---

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 340.

[2] ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 95-96.

[3] المصدر نفسه. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 243.

[4] ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 95-96.المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 243.

[5] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 241.

[6] المصدر نفسه، ص 243.

قوص[1] والشرقية والغربية والإسكندرية فضلا عن القاهرة والفسطاط، ومنح رؤساء الولايات سلطات واسعة، وكان يهدف من وراء هذه التقسيمات، أن يتحكم أكثر في الطرق التجارية والأوضاع الأمنية بحيث يكلف كل والي بتأمين ولايته وما يجاورها ويرفع التقارير إلى العاصمة عن أية حوادث جديدة، فمثلا تولى حاكم قوص أمر حماية المراكب التجارية من القراصنة، بينما اهتم حاكم الشرقية بحماية مدن مصر الشرقية وما يجاورها في كل من فلسطين والأراضي التابعة للدولة الفاطمية في بلاد الشام من غارات السلاجقة[2].

ولم يهمل بدر الجمالي أمر الدعوة الإسماعيلية فقد أولى لها اهتماما كبيرا، لأنه كان يرى فيها جيشه المتقدم في أراضي العباسيين، فقام بتنظيم دروس في المذهب، كما أعاد صيغة الأذان بحي على خير العمل، وأعاد الاحتفالات بالشعائر الدينية الشيعية التي افتقدت لدى غالبية الناس، وضيق على أهل السنة، كما أمر بنقش لعن الصحابة[3].

أما عن أهل الذمة فإنه ألزم الأقباط النصارى بدفع الجزية التي قدرها بدينار وثلث أو ربع، كما أمرهم بارتداء زنانير سوداء حتى يتميزون عن الطوائف الأخرى، رغم أنه كان على علاقة ودية مع بطريق الكنيسة القبطية، إذ أنه كان يجالسه شخصيا[4].

ولما أحس بدر الجمالي بدنو أجله أقنع الخليفة المستنصر، بأن يجعل ابنه الأفضل ولي عهده ليخلفه في الوزارة في جمادى الأولى(477هـ/1084م)، وهي بدعة جديدة استحدثها بدر الجمالي ووافقه عليها الخليفة المستنصر الذي لم يكن يرفض له طلبا ولا أمرا، إذ أن الخليفة كان يشيد به في جميع مراسلاته إلى دعاته في الأصقاع[5]، ويأمرهم بالدعاء له على المنابر، ولم يدم طويلا حتى مرض بدر الجمالي وعجز عن أداء مهامه، فأمر الخليفة بنقل الوزارة إلى ابنه حسب نص الوصية، وأصبح

[1] قوص: مدينة قديمة وتعرف بقوص العالية بنيت في زمن شداد بن عديم وهو السادس من ملوك مصر بعد الطوفان، وهي على الضفة الشرقية لنهر النيل. أنظر ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج1، ص 28.

[2] أيمن سيد فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر(تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية(القاهرة)، ط1(1413هـ/1992م)، ص 151.

[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 125.

[4] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 343.

[5] المستنصر بالله الفاطمي: السجلات المستنصرية، تح: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي(مصر)، ط1 (1954)، ص63-64.

الأفضل وزيرا لمصر منذ شهر ربيع الآخر (487هـ/1094م)، ولم يلبث أن توفي والده بعد ذلك بقليل، ولقب الأفضل بنفس ألقاب والده تقريبا[1].

المبحث الثاني: علاقة النزارية بالمستعلية

1- عقائديا

أ- معتقدهم في التوحيد

يتفق كل من النزارية والمستعلية في التوحيد، فكل منهما يؤمن بالوحدانية ويشهدون بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، كما أنهم يؤمنون بأن لكل نص شرعي تفسيران أحدهما ظاهري والآخر باطني، ويفسرون ظاهر القرآن بشكل يقارب ويشابه تفسير المسلمين السنة، لكنهم يعتقدون أن للقرآن تفسير باطني هو على نحو غير النحو الظاهري[2]، ويرى الإسماعيلية عموما أن الإيمان لا يكون صحيحا إلى بالإيمان بالتأويلين الظاهري والباطني، ومن آمن بواحد فقط فهو كافر، وقد ذهب الداعي هبة الله الشيرازي إلى أبعد من ذلك عندما قال: ((من عمل بالباطن والظاهر معا فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه))[3].

هذا ويتفق كل من النزارية والمستعلية في إنكارهم للصفات الإلهية، فهم يقولون بأن الله فوق متناول العقل، ولذلك يرفضون القول بأن الله موجود أو أنه غير موجود، كما أنهم لا يعطون الله صفة العلم ولا الجهل، ولأجل ذلك فهم لا يقولون بالإثبات المطلق ولا النفي المطلق[4]، ويقولون في الذات الإلهية أمورا أكثر من ذلك نتجاوزها تجنبا للإطالة.

ويعتقد كل الإسماعيلية أن الله لم يخلق العالم خلقا مباشرا، بل أبدع العقل الكلي، والعقل الكلي تتمثل فيه جميع الصفات الإلهية، فهو إذا إله حسب نظرهم، ويسمونه الحجاب أو المحل أو الصلة، ويرون أن السعادة هي تحصيل العلم، ولا يمكن الحصول عليها إلا بحلول العقل الكلي في جسم بشري وهو النبي ثم الأئمة الذين يخلفونه، ويسمون العقل الحالّ بالناطق، كما يسمون النفس

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 30.

[2] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 11-12. الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج01، ص 228-229.

[3] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 250.

[4] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج1، ص 229.

الحالّة بالأساس ويكون الإمام هو من يبلغ هذه الرتبة، فيصبح بذلك مفسرا للكلام المنزل على الناطق(النبي) معتمدين على التأويل، وهم بذلك يقرون بأن محمدا هو الناطق، وعليا هو الأساس[1].

ويرى الأستاذ مصطفى الشكعة أن الإسماعيليين عموما، إنما اعتقدوا في الذات الإلهية هذا الاعتقاد لأمر مدبر له، فهم لما قالوا بأن الله هو العقل الكلي والنفس الكلية، وهو في العالم العلوي، يقابله في العالم السفلي الإمام، ويرون بأن نفس الصفات التي يتصف بها العقل الكلي في العالم العلوي، تنطبق على الإمام الذي هو في العالم الجسماني، فإن كل ذلك لأجل إضفاء القدسية على الإمام، حتى أنهم يرون أن كل أسماء الله الحسنى هي أسماء الإمام الذي هو مثل للعقل الكلي[2].

ب- تقديسهم للأئمة

هذا ويتفقون أيضا على ضرورة وجود إمام معصوم منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ومعروف في عقيدتهم أن الإمام الحالي يوصي بولي عهده، وخليفته من بعده، وعادة ما تكون الإمامة في الأعقاب[3]، وقد انتهج أغلب أئمة الإسماعيلية هذا الاعتقاد إلا في حالات نادرة سنذكرها آجلا.

ويتفقون أيضا في أن الأرض لا يمكن أن تخلو من إمام أبدا، والإمام إما أن يكون ظاهرا، وإما أن يكون مستورا، وللإمام حجج ودعاة، يمشون على العكس منه، فإن كان ظاهرا يكونون مستورين، وإن كان العكس يكونون ظاهرين[4]، ولذلك توجب على الناس أن يعرفوا إمامهم، ومن لا يعرف إمام زمانه ومات يكون قد مات على الكفر[5].

ويتفق كل طوائف الإسماعيلية في أن الإمام هو بشر مثل عامة الناس في الظاهر، بينما في الباطن يرتقون به إلى مصاف الآلهة، وأن التأويل الباطن قد أتاهم من عند علي بن أبي طالب، الذي اختصه به مولاه تعالى دون النبي صلى الله عليه وسلم، ولا حرج في ذلك مستدلين في ذلك بقصة النبي موسى عليه السلام، مع الخضر عليه السلام، فقالوا بأن الخضر كان عالما بالباطن، دون موسى عليه السلام مع أن موسى نبي، وأكثر من ذلك يقولون بأن علي بن أبي طالب، شريك للرسول محمد

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 251، نقلا عن دائرة المعارف (مادة الإسماعيلية).

[2] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 158-160. مصطفى الشكعة، نفس المرجع السابق، ص 251.

[3] المرجع نفسه، ص 252.

[4] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج01، ص 227.

[5] المصدر نفسه، ص 228. مصطفى الشكعة، نفس المرجع السابق، ص 253.

صلى الله عليه وسلم في النبوة، وأنه (علي بن أبي طالب) قد ترك هذا التأويل في أعقابه من الأئمة ليتوارثوه عبر الأجيال[1].

ويرى الإسماعيليون بأن كل الأئمة هم خلفاء للأنبياء، فهم بذلك كلهم على درجة واحدة في مركزهم ومراتبهم عند الله عز وجل، وأي إمام من أئمة الإسماعيلية هو وارث من سبقه من الأئمة والأنبياء، ونتيجة لذلك حظي العديد من أئمة الفاطميين بأسماء الأنبياء وألقابهم، فتسموا بخليل الله، وكليم الله والمسيح... إلخ[2].

ومن عقائد الإسماعيلية هو استعمالهم للأعداد في تفسيرات لا يعلمها سواهم، بل إنهم جعلوها أصولا لعقيدتهم، فهم يقولون بأن الرقم واحد هو العقل الكلي أو القلم، والرقم اثنان هما العقل الكلي والنفس الكلية، أي القلم والروح، والثلاثة هم محمد وعلي وفاطمة، والخمسة هم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ويرى العارفون بأهل النحل أن الإسماعيلية قد اشتقت هذه المعتقدات من الفلسفة الفيثاغورية، أخذوا منها وصبغوها بصبغة إسلامية[3].

كانت هذه بعض المعتقدات التي يتفق كل من النزارية والمستعلية فيها، وليس هذا بغريب طالما أن النزارية هي بنت الإسماعيلية مثلها مثل الطائفة الدرزية، وإن كانت الدرزية قد تميزت ببعض المعتقدات الجديدة، لكن النزارية اختلفت عن المستعلية فيمن سيتولى خلافة المسلمين بعد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (427-487هـ/1036-1094م)، فقد ذكرت المصادر بأن الداعي الإسماعيلي الحسن بن الصباح، قد قصد مصر في زي تاجر واجتمع بالمستنصر، وخاطبه في إقامة الدعوة له ببلاد العجم وقال: من إمامي بعدك ؟ فقال: ابني نزار[4]، غير أن الوزير الأفضل قام بمبايعة الأخ الأصغر لنزار وهو أبو القاسم أحمد ولقبه بالمستعلي بالله[5]، وكان من المفروض أن يكون نزار هو هو خليفة الفاطميين بعد والده المستنصر حسب نص ولاية العهد.

وعن سبب عزل الأفضل لنزار فهو أن نزار خرج ذات يوم في حياة أبيه المستنصر وكان الأفضل قد دخل دهليز القصر من باب الذهب راكبا فصاح به نزار: انزل يا أرمني يا نجس...

---

[1] المرجع نفسه، ص 254.

[2] المرجع نفسه، ص 255. محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 169-170.

[3] مصطفى الشكعة، نفس المرجع السابق، ص 257-258.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 237.

[5] المصدر نفسه: ج10، ص 237. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج03، ص 12.

فحقدها عليه الأفضل وصار كل منهما يكره الآخر[1]، فاجتمع بعد موت المستنصر بالأمراء والخواص وخوفهم من نزار وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أبي القاسم أحمد فرضوا بذلك وبايعوه ولقب بالمستعلي[2].

2- عسكريا

أ- ثورة نزار على أخيه المستعلي

ما إن رأى نزار بن المستنصر أخاه الأصغر أحمد المستعلي جالسا على كرسي الخلافة، حتى استبد به الغضب، وقرر أن يسترد حقه الضائع منه بالقوة، فخرج من توّه إلى الإسكندرية واعتصم بها مطالبا بحقه[3]، وسانده في ذلك والي الإسكندرية ناصر الدولة أفتكين التركي، وهو أحد غلمان بدر الجمالي، وهناك أعلن نزار نفسه إماما وتسمى بالمصطفى لدين الله[4]، وانضمت إليه بعض القبائل العربية الرافضة لحكم المستعلي، وأصبح تعداد الجيش يفوق الثلاثين ألفا، استطاعوا أن يستولوا على معظم دلتا النيل[5].

وجرت بين الطرفين معارك عدة كان النصر في بدايتها لنزار والقوى المتحالفة معه، لكنه انهزم فيما بعد نتيجة خذلان جزء من الجيش وبعض القبائل العربية التي استمالها الأفضل بالمال، فتراجع نزار ومعه أفتكين التركي إلى داخل الإسكندرية، وضيق الأفضل الحصار عليهم، واستمر يدك حصون المدينة طيلة عشرة أشهر كاملة ابتداء من شهر صفر إلى شهر ذي القعدة (488هـ/1095م)[6].

ونتيجة لهذا الحصار الطويل والقصف المتواصل من جانب قوات الأفضل، اضطر سكان المدينة إلى أن يجنحوا إلى السلم، ويطلبوا الأمان، فقبل منهم الأفضل ذلك، لكنه في مقابل ذلك ألقى

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 237- 238. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق ، ج05، ص 142. تقي الدين المقريزي: نفس المصدر السابق، ج03، ص 12. ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج01، ص 407.

[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق ، ج05، ص 142. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 238.

[3] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 35-36. ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، 83-84. المقريزي: الخطط، ج3، ص 14.

[5] محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين، 391.

[6] المرجع نفسه.

القبض على كل من نزار وأفتكين التركي، فقام بقتل أفتكين، بينما سلّم نزار إلى أخيه المستعلي الذي ابتنى عليه جدارا وجعله بداخله فمات صبرا[1].

واستمر العداء بين الطائفتين النزارية والمستعلية، حتى بعد مقتل نزار، والسبب في ذلك هو أن الحسن بن الصباح الذي كان يدعو لنزار من أرض فارس، عمل على نشر الدعوة النزارية في كل مكان بما في ذلك مصر، وكان من نتيجة ذلك أن اندلعت عدة ثورات موالية لنزار في عهد الخليفة المستعلي الفاطمي والحافظ لدين الله، لكن جيوش مصر استطاعت أن تخمد هذه الثورات وتقضي عليها وأخذت الحكومة المستعلية في مصر بعد ذلك في صرف معظم انتباهها للتغلب على الدعاية النزارية بين رعاياها[2]، وفي المقابل واجه النزارية أيضا مساعي المستعلية في نشر دعوتهم ببلاد الشام، فقد روي أنه في سنة (514هـ/1120م) قتل رجل في دمشق على يد الباطنية وسبب ذلك أنه اتهم بالتجسس للمستعلية على نزارية الشام[3].

ب- اغتيال الوزير الأفضل على يد النزارية

ولأن سبب إقصاء نزار من خلافة الفاطميين، هو تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وتغييره لنص ولاية العهد، فقد هذا التدخل إلى حقد كل أتباع نزار على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، ولذلك كانوا يتحينون أية فرصة للانتقام منه، ولم تتح لهم هذه الفرصة إلا بعد وقت متأخر، وربما كان ذلك بعد أن امن هو على نفسه، لكن وكعادة النزارية فإنهم ينتظرون فرصهم ولو بعد زمن طويل، وجاءتهم الفرصة في آخر شهر رمضان سنة (515هـ/1121م)[4].

ورغم أن العديد من المؤرخين يقولون بأن مقتله كان بإيعاز من الخليفة الآمر بأحكام الله، الذي كره فيه تضييقه عليه، فدبر أمر اغتياله، حتى يخلو له الجو لممارسة طيشه، إلا أنه لا يمكننا أن نغفل أن مقتله كان على يد الباطنية النزارية، وهم في الحقيقة أعداؤه الحقيقيون، فقد سعوا قبل ذلك

---

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 36-37. ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، 83-84. المقريزي: الخطط، ج3، ص 14.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 469-470. برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124.

[3] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 76-77.

[4] جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي: نصوص من أخبار مصر، تح: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي لآثار الشرقية (القاهرة)، د- س-ن، ص 15. النويري: نفس المصدر السابق، ج28، ص 180.

مرات عديدة لكنهم فشلوا، حتى جاءت فرصتهم هذا فاستغلوها، وقتلوه وهو خارج من دار الملك فوثب عليه عدد من الباطنية من حلب وطعنوه ثماني طعنات قتل على إثرها[1].

ت- اغتيال الخليفة الآمر بأحكام الله على يد النزارية

لم يقف النزارية عند حد تصفية الوزير الأفضل بن بد الجمالي، بل كانوا دائما ما يبحثون عن اغتيال شخصيات كبيرة في حكم المستعلية، وسعوا إلى أن تكون تصفيتهم لشخصيات الخلفاء أنفسهم، وبالفعل تمكنوا في الثاني من شهر ذي القعدة سنة (524هـ/ 1130م)، من اغتيال الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، بجزيرة مصر، إذ وثب عليه عشرة من الباطنية وطعنوه، ثم قتلوا دونه، ولم يلبث أن توفي هو الآخر متأثرا بجراحه[2].

والراجح أن سبب إقدام الباطنية على قتل الخليفة الآمر بأحكام الله هو رغبتهم في الانتقام لإمامهم المقتول نزار، فقد كانوا يريدون بقتل الخليفة أن يكونوا قد حققوا العدالة إذ لا يساوي مقتل إمامهم نزار إلا قتل إمام بحجمه.

يضاف إلى ذلك أن الخليفة المستعلي الآمر كان يكن كرها شديدا للنزارية، فقد ذكر عنه أنه بعد مصرع بهرام داعي الباطنية النزارية في الشام على يد جماعة ضحاك بن جندل أخو برق بن جندل مقدم وادي التيم الذي اغتالته الباطنية النزارية، أخذ رأس بهرام ويداه وخاتمه من قبل أحد سكان وادي التيم إلى القاهرة حيث استلم حاملها جوائز وخلعة من الآمر نفسه[3].

هذه هي طبيعة العلاقات بين النزارية والمستعلية عداء محكم قائم على الكيد لمحاولة تخلص أحد الطرفين من الآخر، ولم يقف العداء عند هذا الحد بل تعداه إلى الاغتيال والقتل وسفك الدماء أحيانا فهذه هي طبيعة الحركات الباطنية في كل عصر وزمان.

---

[1] المصدر نفسه. ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص 222. الذهبي: العبر، ج2، ص 404-405. برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124.

[2] النويري: نفس المصدر السابق، ج28، ص 190-191. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 110-111.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، 664-665. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 200. المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج3، ص 128. برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124. عبد الرحمن بدوي: مذهب الإسلاميين، ج2، ص 367.

المبحث الثالث: علاقة المستعلية بالدروز والنصيريين

01- علاقة المستعلية بالدروز

أ- عقائديا

أما عن علاقة المستعلية بالدروز فإنها هي الأخرى لم تتجاوز العداء السلمي إن صح التعبير، وذلك لاشتراكهم في الأصل الذي ينتسبون إليه، ولذلك عمد الطرفان على ألا يتصادما، بل إنهما ربطا علاقات ودية وإن لم تكن ظاهرة للعيان إلا أنهما حافظا على تماسكها قدر الإمكان.

أ-1- الدروز جزء من الإسماعيلية

أ-1-أ- تبني الحاكم الفاطمي فكرة التأليه

أشرنا سابقا إلى أن الدروز هي إحدى الفرق الإسماعيلية الباطنية، التي ادعت ألوهية الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، وقد اعتمدوا منذ ظهورهم على سياسة الكتمان والتخفي، من أجل الحفاظ على معتقداتهم، ولا يعبرون عنها إلا بالرموز حتى لا يفتضحون أمام الغير[1].

تنسب بداية الدعوة الدرزية إلى ثلاثة أشخاص وهم حمزة بن أحمد الزوزني المعروف باللباد، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنشتكين، لكن ليست هناك معلومات واضحة بشأن هؤلاء الأشخاص[2]، وكل ما هو معلوم عنهم، هو أن حمزة الزوزني كان قد زار مصر سنة (405هـ/1015م)، بصفته أحد دعاة الإسماعيلية في بلاد فارس، فقد كان هذا الأخير يختلف كثيرا على دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله عام (395هـ/1005م)، وهناك بدأ ينشر دعوة تأليه الحاكم سرا، وألف في ذلك كتابا ذكر فيه أن روح

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 261. حنا أبي راشد: نفس المرجع السابق، ص 41. محمد كامل حسين: طائفة الدروز، ص 3.

[2] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ج2، ص 593.

الله تعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ثم إلى ابنه الحاكم، فالحاكم إذا إلها عن طريق الحلول[1].

ولكي يضفي حمزة على فكرته هذه نوعا من الشرعية، حاول أن يتصل ببعض الدعاة المشهورين، وطرح عليهم الفكرة وطلب منهم تدعيمه فيها، ومن هؤلاء الدعاة حسن بن حيدرة الفرغاني المدعو الأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي الذي كانت له ميول يهودية مجوسية، ولما علم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بأمر الدعوة، قرب إليه الأخرم، ولعل ذلك ما يسر للأخرم بأن يجهر بدعوته لما لاقاه من دعم من الخليفة نفسه.

يتضح لنا مما سبق أن أصل دعوة الدروز وإن كانت ليست فاطمية بحتة، إلا أنها لاقت قبولا وترحيبا كبيرين من خليفة الفاطميين نفسه، ويرجح أن سبب قبوله لفكرة التأليه هو أنه كان فاسد المعتقد، وهو يبحث عما يفسد الناس، وخاصة العالم الإسلامي السني، ويتضح ذلك جليا من خلال سماحه للأخرم بالجهر بدعوة ألوهيته في جامع عمرو بن العاص بالقاهرة، فقد قام الأخرم بتقديم ورقة إلى القاضي في الجامع موقع عليها اسم الحاكم الرحمن الرحيم، وهو ما أثار حفيظة أهل السنة ورأوا بأنه تعديا كبيرا على معتقدات المصريين والمسلمين عامة، ونتيجة لذلك وثب عليه رجل من أهل السنة فقتله وقتل معه ثلاثة من أتباعه[2].

وبالرغم من مقتل الأخرم وهو أول من دعا بألوهية الحاكم بأمر الله، إلا أن دعواه هذه لم تتوقف بموته، بل استمرت على يد محمد بن إسماعيل الدرزي الذي قدم إلى مصر علم (408هـ/1018م) فقربه الحاكم وفوض الأمور إليه، حتى أنه صار الآمر الناهي عنده ولا يمكن لأي شخص أن يبلغ مقصده عند الخليفة إلا عن طريقه هو، وكان قصد الحاكم أن تنقاد الحاشية والوزراء إلى الدرزي فيطيعونه[3]، وحتى يستطيع هذا الأخير أن ينشر دعوة التأليه في الوسط المصري، استند إلى

---

[1] حنا أبي راشد: نفس المرجع السابق، ص 34. حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع السابق، ج4، ص259-260. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 273.

[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 283. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 75. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 273.

[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، 184.

شخص آخر يكون له عونا، وهو حمزة بن علي وعمل معه على رسم خطط الدعوة، ثم لقب محمد بن إسماعيل نفسه بسند الهادي أي سند حمزة، لأن الهادي هو حمزة[1].

بدأ الدرزي يوسوس للحاكم ويقنعه بفكرة أنه إله، ولم يحصل على موافقة صريحة من الخليفة كما لم يلق منه اعتراضا على ذلك، ولما رأى أن الخليفة يوافقه مبدئيا، فإنه أعلن الدعوة جهرا بالجامع الأزهر بالقاهرة، وهو ما أثار عليه العامة، بحيث رأوا أن في هذا الأمر تعديا كبيرا على المعتقدات الإسلامية، ولما رأى الخليفة ثورة العامة أعلن تبرأه من هذه الدعوى، ووفر للدرزي الحماية حتى يفر إلى خارج مصر، فسار إلى وادي التيم في الشام، وهناك قام ببث دعوته بين أهل تلك المنطقة فلقي منهم استجابة، ويقال بأن الحاكم هو الذي أمر الدرزي بالرحيل إلى هذه المنطقة في الشام وأعانه بالمال[2].

يظهر لنا مما سبق أن دعوة الدروز لم تكن لتظهر إلى الوجود لو لم تجد يدا تتعهدها، فقد كان عليها أن تستند إلى قوة كبيرة حتى تضمن بقاءها، ولذلك أبرع دعاتها في إيجاد القوة التي تضمن لهم حياة دعوتهم واستمراريتها، وكان اختيارهم لشخص الخليفة نفسه أمرا في غاية الذكاء، إذ أن الخليفة وحده من له القوة على حماية الدعوة، وضمان استمراريتها، ورغم أنه خاف من تبعاتها عندما ثار عليه بعض المسلمين السنة، إلا أنه مكّنها من الاستمرار والتطور في مكان آخر، وذلك بتقديمه الدعم المادي[3].

وفي اعتقادنا أن اختيار الخليفة الحاكم بأمر الله دون غيره من الخلفاء، كان هو الآخر مدروسا بدقة من طرف المنظرين للدعوة، فهم إنما اختاروه هو بالضبط، لمعرفتهم بشخصيته المضطربة المحبة للتميز، فقد عرف عنه أنه كان يتصرف باضطراب، فتجده أحيانا يقرر قرارا ثم يتراجع عنه، وكثيرا ما يفعل أمورا لا تدخل في عقل بشر، ولذلك نقول بأن اختياره من طرف دعاة الدرزية، كان لعلمهم بتبنيه للفكرة، وفي اعتقادنا أنه لو لم يتخذ هو إله لما قبل الفكرة من أصلها ، وربما كان سيفعل بهم ما لا يتوقعونه منه.

أ-1-ب- الحاكم عند دعاة المذهب الفاطمي

---

[1] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 73.

[2] يوسف إبراهيم الشيخ: نفس المرجع السابق، ص93. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 77.

[3] المرجع نفسه.

يشترك كل من الفاطميين والدروز في شخصية الحاكم بأمر الله، الذي يعد من جانب الفاطميين خليفة المسلمين وإمامهم، وهو بذلك في مرتبة أعلى من مراتب البشر، كون الأئمة هم حجج الله في خلقه وهم الداعون إلى توحيد الله عز وجل وتنزيهه، غير أنهم يختلفون عما يعتقده الدروز في شخص هذا الأخير (الحاكم) الذي يعتبرونه إلها، فالفاطميون لم يؤلهوا الأئمة من قبل رغم إحاطتهم بقدسية خاصة للأئمة تفوق ما يتميز به البشر العاديون، فهم يأتون في مرتبة ثالثة بعد كل من مرتبة الأنبياء ثم الأوصياء، والخليفة الحاكم مثله كمثل باقي الأئمة الفاطميين هو إمام وحسب[1]، لكن الدروز أعطوه مرتبة أعلى وأقدس، وقد تم العثور على رسالة مخطوطة خاصة بالحاكم، هي ((رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم))[2] كتبها الداعي أحمد حميد الدين الكرماني الذي يعرف أحيانا بحكيم الدعوة وفيلسوفها الذي توفي بعد وفاة الحاكم بعام واحد (412هـ/1022م)، بحيث استشهد الكرماني بنصوص من الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن في البشارة بالحاكم وليس ذلك بغريب في الدعوة الفاطمية التي تؤول الآيات في الأئمة[3]، لكنه لم يصرح بألوهية الحاكم بأمر الله علنا، وإنما ميزه بميزات خاصة جعلته في مرتبة تفوق مراتب البشر وحتى الأئمة الفاطميين.

ورغم ذلك فقد ظهر لنا جليا كيف أن الكرماني قد بالغ في تقديس الأئمة الفاطميين وبالغ أكثر في تمييز شخصية الحاكم بأمر الله على بقية الأئمة، حتى أنه لمح إلى فكرة ألوهية الحاكم، وإن كان ذلك لم يكن بصريح اللسان كما أشرنا إلى ذلك سابقا[4].

أ-2- عقيدة الفاطميين أساس عقيدة الدروز

بما أن الدروز هم جزء من الفاطميين، وأساس اعتقادهم هو تأليه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، فإن باقي عقائدهم هي نفسها تقريبا عقائد الفاطميين، لكن يوجد هناك اختلاف بين الطرفين وهو ما يميز طائفة الدروز الفرعية عن الطائفة الفاطمية الأصلية، ولمعرفة عقائد الدروز ينبغي أن نعرج إلى بعض من عقائد الفاطميين، أو بمعنى آخر ينبغي أن نسلط الضوء على أهم المعتقدات التي يشترك فيها الطرفان وأهم الاختلافات بينهما.

---

[1] محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 53.

[2] المرجع نفسه، ص 55.

[3] أحمد حميد الدين الكرماني: مجموعة رسائل الكرماني، تق وتح مصطفى غالب، ط2، 1987، المؤسسة الجامعية، (بيروت)، ص 113.

[4] نفسه ص 53-54.

أ-2-أ- عقيدة الفاطميين

من المعلوم أن عقيدة الفاطميين تقوم على أساسين هما العلم والعمل والذي يقصد بهما الظاهر والباطن[1]، فالعلم هو الظاهر بينما يعتبرون أن العمل هو الباطن وهما مختلفان تماما، إذ أنهم يؤولون ظاهر الحديث بحسب ما يعتقدونه هم، وهم بذلك يختلفون عن بقية الفرق الإسلامية، ولذلك تسموا بالباطنية[2].

إن المقصود بالظاهر عند الفاطميين هو القيام بأداء جميع فرائض الدين الإسلامي التي وردت في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم[3]، فهم إذا يقومون بجميع الحركات الجسمانية المصاحبة للفرائض الدينية، فهم يصلون ويصومون ويحجون ويزكون ويتطهرون ويجاهدون مثلهم مثل بقية المسلمين، ويعترفون بجميع الأنبياء والرسل، ويعتقدون بأن هذه الفرائض هي أساس دينهم، ولا يصح إسلام المرء إذا لم يؤمن بذلك[4]، فهم إذا لا يختلفون عن جمهور المسلمين في شيء.

أما المقصود بالباطن أو العمل، فهو التأويل والنية المقصودة من وراء الفرائض المؤدّاة[5]، والواضح أن نية تلك الأعمال لا يعرفها إلا أئمتهم، فهم لا يعتقدون في الصلاة كما يعتقده مسلمو السنة، ولا يعتقدون في الحج والجهاد وبقية الفرائض كما جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنهم اتخذوا لهذه الفرائض نوايا مستوحاة من فلسفات قديمة لا تمت للإسلام بصلة[6]، والسبب في تأويلاتهم هو لأغراض دنيوية بحتة، فهم يريدون التمتع بالحياة الدنيا لكن الإسلام يقيدهم ويعيقهم في تحقيق متطلباتهم، فاتخذوا التأويل وسيلة للتحايل على عامة الناس، بحيث يتظاهرون بالإسلام بينما يخفون مآربهم الدنيوية في نواياهم وتأويلاتهم الخاصة بهم[7].

---

[1] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج01، ص 227. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ص 751.

[2] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ص 27.

[3] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 11.

[4] القاضي النعمان المغربي: دعائم الإسلام، تح: آصف بن علي أصغر فيضي، ط1، (1383هـ/1963م)، دار المعارف (القاهرة)، ج01، 31.

[5] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص12.

[6] محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 87. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص ص 754-755-756.

[7] المرجع نفسه، ص 87.

هذا عن أساس العقيدة الفاطمية، ونفس الشيء سنراه مع عقيدة الدروز التي تؤمن بأن لكل عمل ظاهر تأويل باطني لا يعرفه إلا أهل العلم منهم، ولا يحق لعامة الناس وخاصة المسلمين السنة أن يتعرفوا عليه، وهاهي بعض من العقائد التي يتشارك فيها كل من الفاطميين والدروز.

أ-2-ب- تأويلهم للذات الإلهية

ذهب الفاطميون إلى أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الصفات والأسماء لا شريك له وأنه ليس أيسا[1] وليس ليسا، فهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول وليس بجسم حتى يراه البصر ولا يحل في جسد، وأنه سبحانه أبدع العقل الكلي الذي أطلق عليه الفاطميون اسم السابق والمبدع الأول واسم القلم، ثم بواسطة المبدع الأول هذا وجدت النفس الكلية التي أطلقوا عليها اسم التالي واسم المبدع الثاني واسم اللوح المحفوظ، وبواسطة السابق والثاني وجدت المخلوقات كلها العلوية والجسمانية[2]، واستدلوا على قولهم هذا بحديث نسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم زورا: ((أول ما خلق الله العقل فقال له أَقبل فأقبل، وقال له أدبر فأدبر فقال بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أعز منك، بك أثيب وبك أعاقب))[3]، وذهبوا إلى أن العقل هو أرفع مبدعات الله وأقربهم إليه وهو عندهم ((الخالق)) الحقيقي.

بينما يرى الدروز أن الله قد تمثل في صورة الحاكم بأمر الله[4]، لكن حقيقة لاهوتيته لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام، ولا تعرف لا بالرأي ولا بالقياس، ومهما حاول الإنسان أن يفكر فيه لمعرفة كنهه فهو يحاول محاولة فاشلة، لأن لاهوته ليس له مكان ولكن لا يخلو منه مكان، وليس بظاهر كما أنه ليس بباطن، ولا يوجد اسم من الأسماء يمكن أن يطلق عليه لأنه لا يدخل تحت الأسماء، إذ لا يتصف بصفات، ولا يمكن التعبير عنه بلغة من اللغات، فهو ليس بشخص وليس بجسم وليس

---

[1] ليسا: ويقصد بها، أن الله ليس موجودا مثل سائر الموجودات المخلوقة ، متعلق بغيره مستند في وجوده إلى آخر. أنظر أحمد حميد الدين الكرماني: راحة العقل، تح و تق، مصطفى غالب، دار الأندلس، (بيروت)، ص 130.

[2] المصدر نفسه.

[3] حديث موضوع ، والصحيح ما رواه أحمد والترمذي (أول ما خلق الله القلم) . أنظر إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة القدس، (1351هـ)، ج 1 ص 263 .

[4] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 508. محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 104.

بشبح وليس بصورة، فلا يقال عنه إنه جوهر أو يقال عنه إنه عرض ((ولا أقول إنه شيء فيكون محمولا عليه، ولا هو في شيء فيكون محاطا به، ولا متعلق بشيء فيكون قد التجأ إليه))[1].

وقد جاء في كتاب رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم، أن الله ليس ليسا، وليس أيسا، وأنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات، وأنه لا بجسم ولا في جسم ولا بعقل ذاته عاقل، وأنه تعالى ليس صورة ولا مادة، ولا ضد له ولا مثل، وأنه لا يوجد في اللغات ما يمكن الإعراب عنه بما يليق به، وجاء في ختام الكتاب أن أصدق قول في التوحيد والتسبيح والتمجيد والإثبات ما يكون من قبيل نفي الصفات الموجودة في الموجودات وسلبها عنه تعالى[2].

نلاحظ هنا كيف أن كلا من الفاطميين والدروز يتفقون في حقيقة الذات الإلهية وأهم صفاتها والتي هي غيبية لا تدرك بعقول البشر، كما أن هذه الصفات هي نفسها ما يقول بها أغلب الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية، فكلهم يعتقدون في غيبية الذات الإلهية وأنه لا يعرف بعقول البشر ولا يمكن أن تدرك صفته ولا مكانه ولا قدرته، لكن نلاحظ أن الدروز لم يكونوا يقصدون نفس الذات الإلهية التي يقصدها الفاطميون، وإنما كانوا يقصدون الحاكم بأمر الله وقد أسبغوا عليه حقيقة اللاهوتية وأعطوه نفس الصفات التي يعتقدها الفاطميون في ذات الله، ونرى ذلك في كتبهم المقدسة، فقد جاء في رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد: ((ومولانا سبحانه معل علة العلل جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه ليس له شبه في الجسمانيين ولا ضد في الجرمانيين ولا كفؤ في الروحانيين ولا نظير في النفسانيين ولا مقام له في النورانيين)) وقولهم ((سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به، وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)) أو قولهم ((وسلطان لاهوته لا يدرك بالعين ولا يعرف بالكيف والأين))[3].

أ–2–ت– تقديس الأئمة

ويتفق كل من الفاطميين والدروز حول فكرة تقديس الأئمة، لكن ما يلاحظ أن الفاطميين كانوا أكثر تحفظا في التأليه من الدروز الذين أعلنوها صراحة، فقد تبرأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ممن غلوا في تقديسه واتخذوه إلها، وكذلك ادعى أبو الخطاب الأسدي تلميذ الإمام جعفر الصادق

[1] الكرماني: مجموعة الرسائل، ص 113.
[2] المصدر نفسه.
[3] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 75.

ألوهية أستاذه وأنه (أبو الخطاب) هو نبيه[1]، والدروز يقولون بتأليه ((الحاكم بأمر الله)) وأن حمزة بن علي بن أحمد هو نبيه[2].

ويظهر هنا أن الفاطميين لم يقولوا بألوهية الأئمة صراحة، لكنهم في مقابل ذلك وضعوهم في مراتب عليا وأسبغوا عليهم صفات جعلتهم فوق مرتبة البشر، وإن كان منهم من صرح بألوهية بعض الأئمة على غرار الشاعر ابن هانئ الأندلسي الذي قال في الخليفة الفاطمي المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فإنك أنت الواحد القهار[3]

وكذا الشاعر الأمير تميم بن المعز الذي امتدح أخاه الخليفة الفاطمي العزيز بقوله:

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر

نور لطيف تناهى منك جـوهره تناهيا جاز حد الشمس والـقمر

معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمـدر[4]

وربما يكون هذا التقديس قد سهل فكرة التأليه خاصة لدى عامة الناس وضعاف العقول، وما ساعد على التدليس في عقول العامة أن الفاطميين أقنعوا الناس بمعتقدات أخرى هي أقرب إلى فكرة التقديس، فقد قالوا بأن العقل الكلي تنبعث منه عقول روحانية وأطلقوا عليها الجد والفتح والخيال[5]، وهم بمثابة الملائكة الروحانيون الذين يعرفهم العالم الإسلامي باسم إسرافيل وميكائيل وجبرائيل، وهؤلاء العقول مع العقل الكلي والنفس الكلية يكونون الأشباح الخمسة العلوية أو الحدود العلوية، وجعلوهم ممثولات للقائمين على الدعوة الإسماعيلية، ومن ثم جعل الفاطميون مراتب الدعاة من المراتب الروحية التي تقام عليها دعوتهم، وينبغي على أي شخص يريد أن ينضم إلى مذهبهم أن يؤمن إيمانا تاما بهذه المعتقدات، وإلا فإنه لا يكون مؤمنا ولا موحدا حتى يقر ما يقر به الفاطميون[6].

---

[1] محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 87.

[2] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 269.

[3] ابن هانئ الأندلسي: الديوان ص 146.

[4] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 159-160.

[5] محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 88.

[6] محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 89.

سهلت فكرة تقديس الأئمة عند الفاطميين، قبول فكرة التأليه، وهو الأمر الذي تبناه دعاة الدروز، فقد استساغوا فكرة أن الحاكم بأمر الله إله، وأنه جسم بشري حلت فيه الروح الإلهية، فهم بذلك يتشابهون إلى حد بعيد مع ما يعتقده الفاطميون الذين هم في الأصل إخوانهم في المعتقد.

أ-2-ث- شريعة الدروز

هذا ويتفق الدروز مع الفاطميين في كثير من المعتقدات كما أشرنا إلى ذلك سابقا، فهم يؤمنون بأن الدين هو ظاهر وباطن، ولا يصح التوحيد إلا بحقيقة الباطن، غير أن الدروز تميزوا عن الفاطميين كما أشرنا إلى ذلك سابقا، بعبادتهم للحاكم بأمر الله، ولذلك فإنهم عملوا جاهدين منذ إعلانهم ألوهية الحاكم على نقض الشريعة القائمة المنتشرة حولهم، والتي كان يدين بها أغلب أفراد الشعب المصري وأجزاء واسعة من بلاد الشام[1]، فبدأوا بالقول بتلاشي الظاهر وإقامة الباطن المحض أي بإبطال كل فرائض الدين الظاهرة والعبادة العملية، وإلغاء كل أركان العبادة، وأن يقوم الباطن فقط، على أن التأويل الباطني الذي قالوا به هو نفس ما قاله علماء الدعوة الفاطمية في التأويل الباطني للفرائض[2].

غير أن الدروز خالفوا الفاطميين في بعض المعتقدات، حتى يتميزوا عنهم بدينهم الجديد، فمثلا أعلنوا أن ((الفحشاء والمنكر)) هو إتباع الشريعتين، الشريعة الظاهرة والشريعة الباطنة، وأن التأويل الباطني للزكاة مثلا عند الفاطميين، هي ولاية علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته، والتبرؤ من الأضداد[3]، فقال دعاة المذهب الجديد إن الحاكم منع سب أضداد الأئمة فأظهر بذلك بطلان الزكاة الباطنية، وأن الزكاة الحقيقية هي توحيد المولى وترك ما كان عليه الناس قديما، وبذلك استطاعوا أن يضفوا على تعاليمهم بعض الجدة، لكن من له عقل حصيف يستطيع أن يرى نقاط الاشتراك بين العقيدتين الدرزية والفاطمية[4].

ويقول الدروز أيضا بأن الله قد فرض عليهم سبع خصال توحيدية والتي أشرنا إليها سابقا، وهي: سدق اللسان(صدق اللسان)، وحفظ الإخوان، وترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان، ثم البراءة من الأبالسة والطغيان، ويقصد بذلك البراءة من الأنبياء السابقين

[1] حنا أبي راشد: نفس المرجع السابق، ص 35.
[2] محمد كامل حسين، نفس المرجع السابق، ص 89-90.
[3] المرجع نفسه.
[4] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 122.

ومن كل الأديان والشرائع، ثم التوحيد للمولى في كل عصر وزمان ودهر وأوان، وبعدها الرضا بفعله كيفما كان، وأخيرا التسليم لأمره في السر والحدثان، وأنه يجب أن يعلم كل واحد أن المولى يراه حيث لا يرى هذه الخصال التوحيدية التي يجب على الموحد اعتقادها والعمل بها[1]، والناظر إلى هذه الخصال نجدها كلها في كتاب ((الهمة في إتباع آداب الأئمة)) للقاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي المتوفى سنة (363هـ/974م)[2].

يظهر لنا من كل ما سبق أن معتقدات الدروز هي جزء من المعتقدات الفاطمية، وقد أخذت منها العديد من التعاليم التي تتفق كلها حول إسقاط الفرائض الدينية الحقة التي جاء بها الإسلام الصحيح، واستبدالها بمعتقدات من نسج أفكارهم، وإن كانت ظواهر هذه المعتقدات صحيحة إلا أنهم يتعمدون تفسيرها حسب أهوائهم، فهم بذلك يرفضون الدين الصحيح، لكنهم لا يعلنونها صراحة، ولذلك يخربون محتواه بتطبيق تعاليمه على نحو ما يبغونه هم، وهذا هو مبتغى الباطنية ككل.

ب- عسكريا

ومن الناحية العسكرية فقد وجد بعض الاحتكاكات بين الطائفتين، غير أنها كانت في أغلبها على وفاق، فقد سعت الدولة الفاطمية لاستخدام بعض الأسر العربية التي اعتنقت الدرزية كمعتقد ديني، على بعض الولايات، وقد أدت هذه الأسر الدور المنوط بها على نحو ما كان يطلب منها من مركز السلطة الفاطمية، لكن الأمور كانت تخرج عن التوافق في بعض الأحيان إذا ما خالفت هذه الأسر التعاليم، ومن ذلك ما قام به الوزير الفاطمي ضرغام، حيث أرسل إلى الأمير التنوخي علي الملقب بزهر الدولة كرامة، يحثه على إبعاد الأمراء عن معاضدة نور الدين محمود لأنه متحالف مع خصمه شاور سنة (557هـ/1162م)، وهو ما ولد الخلاف بين هذا الأمير ونور الدين محمود بعد أن كانت علاقاتهما على وفاق تام قبل ذلك[3].

واستمرت العلاقات بعدها بين الطرفين على وفاق تام، وظلت هذه الأسر الدرزية تعمل تحت راية الفاطميين، لا تزيغ عما يطلب منها، ولعل السبب في ذلك هو ما أشرنا إليه آنفا، فهذه الأسر

---

[1] حنا أبي راشد: نفس المرجع السابق، ص 42-43.

[2] القاضي النعمان بن محمد المغربي: الهمة في اتباع آداب الأئمة، تح: محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، د-س-ن، ص ص 38-45-74. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 122.

[3] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 508.

لم يكن لها من القوة ما يمنعها من الخطر الخارجي[1]، كما أن منحها رئاسة بعض الأقاليم هو في حد ذاته إنجاز لها، ولذلك رضيت بما منح لها، وبقيت في خضوع تام للقوة الفاطمية، بينما خضعت اسر أخرى لسلطان السنة، على ما سنذكره لاحقا.

2- علاقة المستعلية بالنصيرية

أ- عقائديا

يختلف كل من الفاطميين والنصيرية في كثير من المعتقدات، رغم كونهما شيعة، وذلك لأسباب عدة، فالفاطميون شيعة إسماعيلية، بينما النصيرية إثناعشرية[2]، وهما يختلفان كل الاختلاف في الإمامة، لأن النصيريين يسوقون الإمامة بعد جعفر الصادق إلى موسى الكاظم وأبنائه من بعده، ولا يؤمنون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق الذي قول به أتباع الإسماعيلية، وهذا هو جوهر الخلاف بين الطائفتين رغم أن مصدرهما الأول واحد، ومع مرور الزمن اختلفت كل طائفة عن الأخرى بمعتقدات خاصة منبها ما هو قديم قدم فكرة التشيع، ومنها ما هو جديد أملته عليه ظروف الحياة.

أ-1- الاتفاق حول فكرة تناسخ الأرواح

يتفق كل من النصيريين والفاطميين حول فكرة التناسخ، ويرجح أن الفاطميين هم من أخذوا من النصيريين هذه الفكرة، إلا أنهم يختلفون عنهم قليلا في كيفية تجسيدها، فالفاطميون لم يصرحوا بفكرة التناسخ علنا لكنهم في مقابل ذلك يقرون بأن الأنبياء والأئمة يظهرون في صور مختلفة في الحياة الدنيا[3]، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى ومحمد وهم الأنبياء عند الفاطميين ظهروا في هذه الصور الآدمية المختلفة، وفي عصور متفاوتة ولكنهم جميعا شخص واحد في الحقيقة، ويعتبرون أن الأئمة هم أوصياؤهم وورثتهم أيضا، وهم والأنبياء شخص واحد، لأن الجميع يمثلون العقل الكلي[4]، ومن هنا يتبين لنا أن الفاطميون يقرون بفكرة تناسخ الأرواح، رغم أنهم لا يعلنون ذلك في صراحة[5].

---

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 259.

[2] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 38-39. محمد علي الصلابي: الدولة الفاطمية، ط1(4271هـ/2006م)، مؤسسة اقرأ للنشر (القاهرة)، ص 19.

[3] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 251-252.

[4] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 89.

[5] المرجع نفسه.

ونفس الأمر يقول به النصيريون، فهم يقولون بفكرة التناسخ، بحيث يعتقدون بأن روح الله تعالى تقمصت جسم علي بن أبي طالب، ولذلك هم يؤلهون علي بن أبي طالب، كما أنهم يقدسون قاتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي، ويترحمون عليه، لأنه في اعتقادهم حرر الروح الإلهية من جسم علي بن أبي طالب[1]، فهم إذن يقولون بأن الأرواح تتناسخ وتتقمص أجساما أخرى، ولعل ذلك ما يؤمن به الفاطميون ولا يعلنونه صراحة، ويعتقد أن الفاطميين قد أخذوا هذه الفكرة من النصيريين[2].

أ-2- النصيريون في ميزان الشيعة الإسماعيلية

وفيما عدا إيمان الفاطميين بفكرة التناسخ التي يقول بها النصيريون، فإنهم في حقيقة الأمر يعتقدون في النصيريين المغالاة في التدين الباطني، وهو ما يشير إليه القاضي النعمان في كتابه دعائم الإسلام، عندما تكلم على الأئمة العلويين بحيث قال عنهم بأنهم خلق من خلائق الله، لكنهم مصطفون عن بقية العباد، وهم هداة البشر إلى الطريق السوي، لكنهم ليسوا آلهة كما يعتقده بعض المتطرفين من الناس الذين استهواهم الشيطان وغلب عليهم، وهو بذلك يقصد النصيريين الذين يقولون بألوهية علي بن أبي طالب، ((فمن ذلك ما روينا عن علي بن أبي طالب أن قوما من أصحابه وممن كان قد بايعه ووالاه ودان بإمامته، مرقوا عنه ونكثوا عليه، وقسطوا فيه، فقاتلهم أجمعين فهزم الناكثين، وقتل المارقين، وجاهد القاسطين، وقتلهم وتبرأوا منه وبرئ منهم، وأن قوما غلوا فيه لما استدعاهم الشيطان بدواعيه فقالوا: هو النبي... وإنما غلط جبريل به...وإليه كان أرسل فأتى محمدا صلى الله عليه وسلم... فيا لها من عقول ناقصة، وأنفس خاسرة وآراء واهية...))[3].

لم تكن هناك علاقات مباشرة بين الطائفتين، وذلك للاختلاف الواضح في المعتقدات التي يعتقدها الطرفان، رغم بعض التشابه، ولذلك لم تذكر المصادر أنه حدث بينهما احتكاك عسكري مباشر، ولعل السبب في ذلك هو أن النصيريين كانوا مثل الدروز يتحصنون بالجبال، ولا يعرف لهم كيان سياسي واضح يعمل على توسيع نفسه، كما أنهم لم يبحثوا يوما على سلطان وسط البلاد الإسلامية، رغم ما عرف عن بعض شخصياتهم التي تركت تاريخا يسجل إلى اليوم في صفحات

[1] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج1، ص 221.

[2] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 89.

[3] القاضي النعمان: دعائم الإسلام، ج01، ص 48.

الكتب[1]، وقد حاولنا أن نتقصى صيغ العلاقات بين الطرفين إلا أننا لم نجد تماس واضح بين الطرفين للأسباب التي ذكرناها.

المبحث الرابع: علاقة النزارية بالدروز والنصيرية

01- علاقة النزارية بالدروز

أشرنا سابقا إلى أن علاقة كل من النصيرية والدروز بالفاطميين، كانت علاقات عادية، رغم بعض الاختلافات التي لا تضر بسلمية الجوار، وتكاد تكون علاقتهما مع طائفة النزارية هي الأخرى سلمية أيضا إلا في حالات نادرة، ولعل السبب في ذلك هو ما وضحناه سابقا، من أن كلا الطائفتين، كانتا تعملان على المحافظة على استقلاليتهما، ولا تسعى إلى البحث عن سلطان سياسي، إلا ما عرف عن بعض الشخصيات من الطرفين والتي ذكرناها آنفا، ومن صيغ العلاقات الخارجية للطائفتين مع النزارية نذكر:

أ- عقائديا

أشرنا سابقا إلى أن عقيدة الدروز هي في الأصل مشتقة من العقيدة الإسماعيلية، وعلمنا أيضا أن الإسماعيلية في مصر انقسمت قسمين، قسم يدعي إمامة المستعلي بالله وهم المستعلية، وهم الذين في مصر، وقسم آخر يرى أحقية نزار بن المستنصر بخلافة المسلمين، وتسموا بالنزارية وكانوا في بلاد فارس وبعضا من أجزاء بلاد الشام، ومعلوم أن كلا من النزارية والمستعلية لهم نفس المعتقدات إلا

[1] نقصد بهذه الشخصيات، كلا من فيروز الذي كان ساهم في إسقاط مدينة أنطاكية بيد الصليبيين، ونصير الدين الطوسي الذي سهل للتتار دخول بغداد.

اختلافات بسيطة ظهرت بانقسام الإسماعيلية، وعليه فإن علاقة الدروز بالنزارية في المعتقد هي نفسها العلاقة مع الفاطميين، والتي ذكرنا تفاصيلها سابقا، وعليه يمكننا القول بأن عقيدة النزارية والدروز منبعهما واحد، وهو العقيدة الفاطمية التي تؤمن هي الأخرى بالتأويل الباطني للنصوص الشرعية[1].

وكل من الطائفتين تعطي الإمام قدسية خاصة، فالنزارية تقدس الأئمة وترى فيهم الحد الأعلى الذي لا تصل إلى فهوم البشر، وكل ما يصدر عن الإمام هو من الوحي الرباني، ونفس الأمر يعتقده الدروز في الإمام، فهم كذلك يقدسون الإمام إلى درجة الألوهية كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

غير أنهما يختلفان في معتقدات أخرى، فالنزارية يعتقدون في شخص الخليفة الحاكم بأمر الله أنه إمام مثل باقي الأئمة الإسماعيلية، يحظى بنفس الطاعة والقدسية التي يمتلكها كل الأئمة الذين سبقوه[2]، بينما يرى الدروز بأن كل الأئمة قبل الحاكم بأمر الله لهم قدسية خاصة، بينما يفوقهم الحاكم في القدسية والمكانة، فهم يعتقدونه إلها، وأن الإيمان به واجب[3]، فهم بذلك يختلفون عن النزارية في هذا الجانب فقط، لكنهم في مقابل ذلك يتفقون معهم في أن كل النصوص الشرعية تحتمل تأويلا باطنيا يتفق ونزعاتهم الدنيوية[4]، كما أنهم يتفقون على سرية هذا التأويل وأن إفشاءه خطيئة كبرى تتطلب من صاحبها التوبة[5].

ب- عسكريا

لم تشهد العلاقات بين النزارية والدروز تماسا مباشرا، إلا في حالات نادرة جدا، وكل ما وصلنا إليه من علاقات بين الطرفين، هو ما قام به الدروز قرب قلعة بانياس التي كانت خاضعة للباطنية النزارية، وكان الذي يتحكم فيهم هناك هو الداعي بهرام، فقد هجم الدروز على القلعة سنة (522هـ/1137م)، وقتلوا بها خلقا كثيرا من الباطنية، وفر منهم عدد آخر، وكان من ضمن القتلى الداعي بهرام نفسه[6].

---

[1] الشهرستاني: نفس المصدر السابق، ج1، ص 228. أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 11.
[2] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 252.
[3] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 508.
[4] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص 11.
[5] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 75.
[6] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 351-352.

ويعود السبب في هجوم الدروز على القلعة، هو ما قام به الباطنية من قتلهم لأحد مقدمي الدروز بوادي التيم وهو برق بن جندل، في إطار سياستهم التوسعية خارج القلعة، ولذلك حقد عليهم الدروز، وقرروا أن يوقفوهم عند حدهم، فباغتوهم وهم لا يشعرون ووضعوا فيهم السيف، حتى أنهم استطاعوا أن يقتلوا قائد الباطنية نفسه[1].

وبتحليل بسيط للحادثة يتبين لنا أن الدروز لم يكونوا ليهاجموا الباطنية النزارية، لو لم يبادروا إليهم هم بذلك، كونهم إخوانهم في المعتقد، فكلاهما خرج من رحم الإسماعيلية، رغم الاختلافات البسيطة، ويظهر لنا أيضا أن الباطنية النزارية لا يراعوا في سياساتهم التوسعية، أي أعراف مهما بلغت أهميتها، وإلا فكيف لهم أن يقوموا بقتل درزي هو في الأصل أخ لهم في المعتقد، ولم يكن للدروز أن ينتصروا على النزارية لو لم يعتمدوا عنصر المفاجأة، فقد عرف عن الباطنية النزارية أنهم شديدون في الحروب، وهم يعتمدون كل أساليب المكر والخداع من أجل تحقيق الانتصار، وإن دل هذا على أمر فإنما يدل على فطنة الدروز وذكائهم في اختيار الوقت للإغارة على النزارية، كما أثبتت هذه المعركة أيضا أن الدروز قوة متماسكة اجتماعيا، فهم يثورون لتضرر أي شخص منهم مهما بلغت رتبته، ولذلك كانت ثورتهم هذه على الباطنية من أجل الأخذ بالثأر لأحد مقدميهم، ورغم كونه ليس في منصب مهم إلا أنهم لم يرضوا بمقتله، وقرروا أن ينتقموا له، فثار أخوه الضحاك بجموعه الدرزية، واستطاع أن يحدث مقتلة كبيرة في حق النزارية[2].

2– علاقة النزارية بالنصيرية

أ– عقائديا

يتفق أيضا كل من النصيرية والنزارية في بعض المعتقدات كون أن الطائفتين تنتسبان إلى الشيعة، لكنهما مختلفتان في أن النزارية تنتمي إلى الإسماعيلية مثل المستعلية وهم إمامية سبعية، بينما ينتمي النصيرية إلى الإمامية الإثنا عشرية كما أشرنا إلى ذلك سابقا، ولذلك فلا يوجد توافق كبير بين الطائفتين إلا في جزئيات بسيطة، ومن ذلك أنهما يؤمنان بفكرة تناسخ الأرواح وإن كانت النصيرية أكثر غلوا فيه، لكن النزارية أيضا يؤمنون بفكرة التناسخ ولا يصرحون به علنا، مثلما يؤمن به إخوانهم

[1] المصدر نفسه.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 352.

المستعلية، إذ يقولون بأن الأنبياء والأئمة يظهرون في صور إنسية في الحياة الدنيا[1]، فمثلا آدم ونوح وإبراهيم وموسى ومحمد وهم الأنبياء في عقيدة الإسماعيلية ظهروا في هذه الصور الآدمية المختلفة وفي عصور متفاوتة، ولكنهم جميعا شخص واحد في الحقيقة، والأئمة هم أوصياؤهم وورثتهم أيضا، وهم والأنبياء شخص واحد، لأن الجميع يمثلون العقل الكلي[2]، وهذه في حقيقة الأمر نوع من التناسخ وإن كان غير واضح بالاسم، إلا أنه واضح في الكيف[3].

غير أنه وبتولي سنان راشد أمر الإسماعيلية في بلاد الشام سنة (558هـ/1162م)، حتى أصبح النزارية يقولون بتناسخ الأرواح علنا مثلهم مثل النصيرية، ويعود السبب في ذلك إلى أن سنان راشد كان نصيريا قبل أن يتحول إلى النزارية الإسماعيلية[4]، ويصبح من دعاتها في بلاد الشام، حتى أنه وصل إلى أعلى المراتب، ولعل السبب في ذلك هو معرفته بعلم السيما وهو علم الحيل والشعوذة[5].

يظهر لنا مما سبق أن العلاقات بين كل من النصيرية والنزارية لم تكن ظاهرة للعيان، وكل ما علمناه عن هذه العلاقات هو اشتراك الطائفتين في شخص سنان راشد الدين، الذي نشأ وتربى في بيئة نصيرية بحتة وأتقن مبادئها، لكنه تحول إلى مذهب الإسماعيلية النزارية فيما بعد[6]، ونقل إليها بعض التعاليم النصيرية التي لم يكن النزارية يؤمنون بها.

وبدراسة بسيطة لأسباب تحول سنان راشد الدين من مذهب النصيرية إلى مذهب الإسماعيلية النزارية، يتضح لنا أن السبب المباشر لتحوله في اعتقادنا هو مادي، فقد عرف عن شيوخ النزارية أنهم أثرياء نتيجة كثرة النهب والسلب الذي يمارسونه على ضعاف الناس والغافلين عن غائلة الأعداء، ولذلك استغل أول فرصة أتيحت له على يد داعي دعاة العراق، فانصرف إلى ما طلبه منه، وهو تعلم مبادئ الإسماعيلية، لأنه رأى فيه علامات النبوغ وأنه سيكون له شأن كبير في المستقبل، وهو ما

---

[1] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 251-252.

[2] محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 89.

[3] المرجع نفسه.

[4] يوسف ابراهيم الشيخ عيد الزاملي: نفس المرجع السابق، ص 62-63.

[5] ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج 4، ص 137. ابن جبير: رحلة بن جبير، دار الشرق العربي (بيروت)، ط01 (1428هـ/2007م)، ص 229. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ج2، ص 377.

[6] محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، ص 284.

حدث بالفعل، وما إن أصبح في كرسي الزعامة على إسماعيلية الشام، حتى مارس السلب والنهب على كل الأقاليم المجاورة لإقطاعات الباطنية[1].

ولعل ما يدعم رأينا هذا هو ما كان يتلقاه هذا الأخير من أموال، نتيجة تنفيذ عمليات اغتيال في حق أعداء لهم ، ومن أمثلة ذلك أنه أرسل إلى ملك بيت المقدس عموري الأول (Amoury 1) يعرض عليه خدماته، بحيث طلب منه أن ينسق معه في مواجهة نور الدين محمود، مقابل إعفاء الباطنية النزارية من الضريبة التي فرضتها عليهم عناصر الداوية في أنطرطوس، وكان ذلك سنة (547هـ/1125م)، وقد لبى عموري الأول طلب سنان على الفور، لإدراكه بأهمية حلفه مع شخصية سنان القوية[2]،غير أن هذا التحالف لم يكتب له النجاح، فقد أقدم فرسان الداوية على قتل سفير سنان راشد تعبيرا على عدم قبولهم التحالف، لأن قبولهم لهذا التحالف سيحرمهم من مداخيل مالية كبيرة مفروضة على الباطنية[3].

وذكرت المصادر أيضا أن سنان راشد، تلقى أموالا ضخمة وإقطاعات من طرف سعد الدين كمشتكين أتابك الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، من أجل تنفيذ عملية اغتيال في حق صلاح الدين الأيوبي وكان ذلك سنة (570هـ/1174م)، وعلى الفور تحرك سنان راشد لتنفيذ الطلب، فأرسل مجموعة من فدائييه لقتل صلاح الدين الأيوبي، لكنهم فشلوا في تنفيذ مهمتهم[4].

كانت هذه أمثلة عن تلقي سنان راشد لعمولات مادية من أجل تنفيذ عمليات اغتيال في حق أعدائه، وهي في حقيقة الأمر دليل واضح على أن عمليات الاغتيال لم تكن جزء من معتقداتهم، وإنما هي لأجل الثراء المادي الدنيوي، وهذا دليل على ما أشرنا إليه سابقا.

3- علاقة الدروز بالنصيرية

أ- عقائديا

أ-1- أوجه الاتفاق بين الطائفتين

أ-1-أ- تأليه الأئمة

---

[1] المرجع نفسه.

[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 285.

[3] المرجع نفسه.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 67-68.

يأخذ كل من الدروز والنصيرين عن بعضهم البعض الكثير من المعتقدات، حتى ليخيل إلينا أحيانا أنهما طائفة واحدة إذا لم ندرس بعضا من جوانب الاختلاف بينهما، ولا نجد في كتب التاريخ من قال بأن هذه الطائفة أخذت من تلك إلا أننا نجد كل المؤرخين يقرون بوجود علاقة بينهما، لكن إذا نظرنا بعين التاريخ نستطيع القول بأن الدروز هم من أخذوا عن النصيرية بعض هذه المعتقدات ونسخوها في دينهم، وسبب ذلك واضح، فطائفة النصيرية تسبق طائفة الدروز بما يقارب عن القرنين وأغلب معتقدات النصيرية وتعاليمهم جاء بها أئمتهم خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، بينما لم تظهر طائفة الدروز إلى الوجود إلا مع بداية القرن الخامس الهجري، واستمر منظروها في تشكيل العقيدة الدرزية، فأخذوا الكثير من عقائد النصيريين، وحوروا فيها قليلا، وما سنذكره خير دليل على ما نقول.

يأخذ الدروز عن النصيريين فكرة تأليه البشر، فكما علمنا سابقا يعتقد النصيريون أن عليا بن أبي طالب[1] هو الله وأن روح الله تجسدت في شخصه، ونفس الأمر قال به الدروز الذين قالوا بأن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي هو الله وأن روح الله تجسدت فيه[2]، فهو إله يمشي في الأرض أمام الناس بينما هو في حقيقة الأمر إله الناس وهو من يتصرف في دينهم ودنياهم وأخراهم، وحقيقة الأمر أن ما يعتقده الطرفان هو كذب وافتراء وغلو في الدين إذ لا يقبل كل من له عقل فكرة تجسد الله في جسم بشري ويعيش بين الناس ويتصرف كما يتصرفون، ثم إذا شاء له أن يتحكم فيهم فعل بهم ما أراد.

أ-1-ب- الاتفاق حول سرية العقيدة

كما يأخذ الدروز أيضا عن النصيريين عقيدة السر والكتمان، فهم لا يعلنون عقيدتهم لعامة الناس ولا يمكّنان أحدا من غير ذويهم أن يطلع على كتبهم السرية[3]، وأغلب ما وصلتنا من كتبهم على هذا الزمان هو من بعض الأشخاص الذين دخلوا في مذاهبهم ثم خرجوا منه، أو ممن كانوا يجاورونهم في السكن، وإن كانت هذه أقل من الأولى.

[1] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 488.
[2] ماكس أوبنهايم: نفس المرجع السابق، ص 52-53.
[3] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 75.

وإذا حدث وأن كشف أحد منهم أسرار عقيدتهم فإن مصيره سيكون الموت المؤكد، فقد رأينا كيف قام النصيريون بقتل سليمان الأدني الذي كشف حقيقة مذهبهم، بحيث عملوا على استدراج بكل الطرق إلى أن وقع في أيديهم وقتلوه في الأخير بطريقة فظيعة.

أ-1-ت- نظرتهم إلى الثواب والعقاب

هذا ويتفق كل من النصيرية والدروز في أن النصوص القرآنية لا تفسر على ظاهرها، وإنما لها تفسيرا باطنيا يتفق مع نزعاتهم الدنيوية، ويتفقان أيضا على أن أنه لا يوجد بعث ولا حساب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ((فيوم الحساب في العقيدة الدرزية ليس يوم قيامة لأن الأرواح لا تموت لتبعث، ولا تنام لتوقظ بل إن يوم الحساب في مفهومهم هو نهاية مراحل الأرواح وتطورها إذ يبلغ التوحيد- أي العقيدة الدرزية- غايته بالانتصار على العقائد الشركية، وينتهي الانتقال والمرور في الأقمصة المادية لتصل الأرواح الصالحة بالعقل الكلي))[1] .

وتختلف الطائفتان في بعض المعتقدات البسيطة، وإن كانت غير واضحة إلا لذوي العلم بالعقائد، فمثلا يعتقد الدروز في أن العذاب هو انتقال الروح البشرية بعد الموت من درجة عليا إلى درجة دنيا، فتفقد هذه النفس لذتها التي كانت عليها في الدرجة العالية، وتشعر بالضيق في الدرجة الدنيا، لكن العذاب على الصفة التي نعرفها نحن المسلمون فإنهم لا يؤمنون بها أصلا[2]، ويتعقدون في الثواب أمورا أخرى مخالفة لما نعتقده نحن أيضا في الجنة ونعيمها، فالدروز يقولون بأن الثواب هو أن ترتفع النفس بعد موتها من درجة دنيا إلى درجة عليا إلى أن تصل إلى أعلى الدرجات وهي المكاسرة[3]، ويزاد له في ماله مع ارتقائه في الدرجات الدينية إلى أن يبلغ حد الإمامة.

ويعتقد الدروز أن الجنة هي معرفة دعوة التوحيد الدرزية، وأن الجحيم هو الكفر بها، ونفس الأمر يراه النصيريون تقريبا، فهم يعتقدون أن الجنة هي معرفة ألوهية علي بن أبي طالب، بينما يكون الجحيم بالكفر به وعدم معرفته[4].

وتتفق الطائفتان أيضا في أن الوضوء والطهارة ليست ضرورية لمزاولة العبادات التي يمارسونها حسب مفهومهم، فالدين الدرزي دين صوفي يعتمد على الداخليات والجواهر، ولا يهتم بالشكليات

---

[1] مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص 282.

[2] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 75.

[3] المكاسرة: درجة من درجات الدعوة الدرزية. المرجع نفسه، ص 76.

[4] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 77.

والطهارة الداخلية أي النفسية الروحية هي الأساس، أما الطهارة الخارجية فلا قيمة لها[1]، بينما يعتقد النصيريون بأن النجاسة هي موالاة الأضداد والجهل بالعلم الباطني، والطهارة معاداة الأضداد ومعرفة العلم الباطني[2].

أما صيام الطائفتين فهو الآخر متشابه إلى حد بعيد، بحيث يمتنع كل من الدروز والنصيريين على معاشرة النساء، بينما يسمح لهم بالأكل والشرب، لكنهما يختلفان في توقيت الصيام فقط، فالنصيريون يرون بأن الصيام هو شهر رمضان، بينما يقول الدروز أن الصيام هو عشرة أيام من بداية ذي الحجة وتنتهي بعيد الأضحى المبارك[3]، وكلتا الطائفتين تعتقدان بأن الحج هو ظاهرة وثنية لا ينبغي للمسلم أن يؤمن بها، ولذلك فإنهم لا يعتقدون به أصلا ولا يمارسونه[4].

ويرى النصيريون أن الأرواح تنتقل من جسم بشري إلى جسم بشري آخر، فيما يعرف بتناسخ الأرواح، أما إذا انتقلت النفس البشرية إلى جسم حيوان فتسمى هذه الظاهرة بالمسخ، وأما الفسخ فهو انتقال النفس من جسم بشري إلى حشرة، وإذا انتقلت إلى شجر أو نبات فتسمى هذه الحالة بالرسخ، ويرى الدروز أن انتقال النفس من جسم إنسان إلى جسم إنسان آخر هو تقمص، وبذلك يظهر الاختلاف بين العقيدتين، وهو اختلاف إسمي فحسب، فكلاهما يعتقد بتناسخ الأرواح، لكن الدروز ينكرون على النصيريين هذه التسمية، لأن التناسخ في اعتقادهم يضم المسخ، وهو ما لا يحدث للنفس البشرية في رأيهم[5].

فالجسد البشري في عقيدة الدروز ثوب أو قميص للروح، تتقمصه الروح عند الولادة، وتنتقل منه بالموت فورا إلى جسد مولود إنساني آخر، وهكذا تظل بعد كل موت تخلع به الثوب الميت البالي وتلبس ثوبا جديدا إلى نهاية الأجيال[6].

ب- أوجه الاختلاف بين الطائفتين

---

1 مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 288-291.

2 سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 77.

3 المرجع نفسه.

4 المرجع نفسه، ص 78.

5 المرجع نفسه، ص 75.

6 المرجع نفسه، ص 76.

رغم أن الطائفتين تتفقان في كثير من المعتقدات الدينية، كونهما باطنية، إلا أن هناك الكثير من أوجه الاختلاف بينهما، والراجح أن أسباب الاختلاف هو لأمور دنيوية بحتة، فقد كان كل طرف يسعى لفرض نفسه في الساحة، ولذلك ظهرت بين الطرفين بعض المساجلات الكلامية ولم تتعداها، وقد حاولنا أن نبحث عن صيغ للمواجهات العسكرية بينهما لكننا لم نعثر لها على وجود، رغم بعض الإشارات التي ذكرها بعض المؤرخين، فقد ذكر عبد الرحمن بدوي في كتابه مذاهب الإسلاميين، أن النصيريين لم يكوّنوا دولة مستقلة عبر تاريخهم، لكنهم اشتركوا في تاريخ الشام منذ القرن (05هـ/11م) بمناوشات تارة ضد الدروز، وتارة ضد المماليك[1]، ولم يزد على ذلك، وعليه سنشير فيما سيأتي إلى أهم الخلافات المذهبية التي جرت بين الطرفين، حسب ما سجلته لنا إحدى رسائل الدروز، وهي الرسالة الموسومة برسالة السؤال والجواب[2]:

إذ يقول السؤال رقم 44 بالنص:

س44- كيف انفصل النصيرية عن الموحدين (الدروز) وخرجوا من دين التوحيد ؟... ويقول الجواب:

ج- انفصلوا بدعوى النصيري لهم، حيث زعم أنه عبد مولانا أمير المؤمنين علي وأنكر لاهوت مولانا الحاكم بأمر الله ، أي أنكر حلول الإله بشخص الحاكم، واعترف بلاهوت علي بن أبي طالب، وقال إن اللاهوت ظهر في الأئمة الإثني عشر.

ثم يقول الجواب: وأن النصيرية كلما صفى منهم واحد (أي وصل بالتناسخ إلى درجة الاصطفاء)، يرجع ويصير نجما في السماء وهو مركزه الأول، وإن عمل معصية (أي النصيري) تخالف الوصية على أمير المؤمنين الرب الأعلى، يعود (أي تحل روحه عن طريق التناسخ) في جسد يهودي أو مسلم سني أو نصراني، ثم يتكرر(لكي يتطهر من ذنبه)، إلى أن يظهر مثل الفضة (وبعد أن ينال عقابه عن طريق حلول روحه في جسد غير نصيري)، يرجع ويصير نجما في السماء.

وأن الكفرة (أي غير النصيريين) الذين ما عبدوا عليا بن أبي طالب كلهم يصيروا جمالا وبغالا وحميرا وكلابا وخرفانا للذبح وأمثال ذلك، (أي يصيبهم المسخ فتنتقل أرواحهم بعد موتهم من أبدانهم

[1] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 498.

[2] المرجع نفسه، ص 823.

الإنسانية فتحل في أجساد الحيوانات السالفة الذكر...) لكن الوقت لا يكفي لشرحها، وخاصة انتقال نفوس البشر إلى البهائم والحيوانات، ولهم مناقب وكتب كفرية مثل ذلك[1].

وقد رد حمزة بن علي على أحد النصيريين الذي اتهم الدروز ببعض المنكرات في دينهم من خلال كتابه (كشف الحقائق وكشف المحجوب) [2]، برسالة عنوانها: (الرسالة الدامغة للفاسق والرد على النصيريين المارقة لعنه الله في كل كور ودور)[3]، ومما جاء فيها: ((وأدى ما قاله هذا النصيري في كتابه السابق الذكر هو أن جميع ما حرموه- يقصد ما حرمته سائر الأديان- من القتل والسرقة والكذب والبهتان والزنا واللياطة بالذكور فهو مطلق للعارف (أي الدرزي)، والعارفة بمولانا جل ذكره)) ويرد حمزة على هذا فيقول: ((إنه كذب بالتنزيل والتأويل وحرف إذ لا تجوز السرقة ولا القتل ولا الكذب، فالصدق من الإيمان كالرأس من الجسد، وأما قوله (أي النصيري)، بأنه يجب على المؤمنة أي الدرزية ألا تمنع أخاها فرجها، وأن تبذل فرجها له مباحا حيث شاء، وأنه لا يتم نكاح الباطن إلا بنكاح الظاهر ونسبه إلى توحيد مولانا جل ذكره (أي نسبه إلى العقيدة الدرزية)، فقد كذب على مولانا عز اسمه وأشرك به وألحد فيه، وحرف مقالة أوليائه الموحدين)).

وأما قوله- أي النصيري- : (بأن أرواح النواصب والأضواء ترجع (أي تحل) في الكلاب والقردة والخنازير إلى أن ترجع في الحديد وتحمى وتضرب بالمطرقة، وبعضهم في الطير والبوم، وبعضهم ترجع إلى المرأة التي تثكل ولدها...)، فقد كذب على مولانا جل ذكره وآتى بالبهتان العظيم، فلا يدخل في المعقول، ولا يجب في عدل مولانا سبحانه بأن يعصيه رجل عاقل لبيب فيعاقبه في صورة كلب أو خنزير، وهم لا يعقلون ما كانوا عليه في الصورة البشرية ولا يعرفون ما جنوه، ويصير حديدا يحمى ويضرب بالمطرقة فأين تكون الحكمة في ذلك، وإنما تكون الحكمة في عذاب رجل يفهم ويعرف العذاب ليكون مأدبة له وسببا لتوبته، وأما العذاب الواقع بالإنسان فهو نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها في الدين، وقلة معيشته، وعمى قلبه في دينه ودنياه، وكذلك نقلته من قميص إلى قميص على هذا الترتيب، وكذلك الجزاء في الثواب ما دام في قميصه فهو زيادة درجته في العلوم،

---

[1] مذاهب الإسلاميين، 823. سليمان الحلبي: طائفة النصيرية، ص 78-79.

[2] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 163-164. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 815-816.

[3] أبو موسى الحريري: العلويون النصيريون(بحث في العقيدة والتاريخ)، ب-د-ن، (بيروت)، (1400هـ/1980م)، ص 178-180. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 816.

وانتقاله من درجة إلى درجة اللاهوت، إلى أن يبلغ حد المكاسرة، ويزيد في ماله، وينبسط في الدين من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ حد الإمامة.

فهذه أرواح الباطنية وأثوابها، وما تقدم أرواح الأضداد وعقابها، والعمل الصالح معشر الإخوان ينتفع به ويثاب عليه عاجلا و آجلا، ويخشى من عقاب مولانا جل ذكره عاجلا وآجلا، ويعمل الحسنات، ويتجنب السيئات.

ومن اعتقد التناسخ مثل النصيرية الملعونة، في علي بن أبي طالب، وعبده، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين)).

ويقول حمزة: ((ثم إنه إذا ذكر عليا يقول: (علينا سلامه ورحمته)، وإذا ذكر مولانا (الحاكم)، جل ذكره يقول: علينا سلامه، فيطلب الرحمة من المفقود المعدوم- ويجحد الموجود الحاكم بذاته المنفرد عن مبدعاته، ولا يكون في الكفر أعظم من هذا، فصح عن الموحد العارف بأن الشرك الذي لا يغفر أبدا هو بأن يشرك بين علي بن أبي طالب وبين مولانا جل ذكره، ويقول على: مولانا الموجود، ومولانا هو علي، لا فرق بينهما[1]، والكفر ما اعتقده هذا الفاسق من العبادة في علي بن أبي طالب والجحود بمولانا جل ذكره[2].

كانت هذه بعض جوانب الاختلاف والتشابه بين العقيدتين الدرزية والنصيرية، ويتضح لنا من خلالها، أن كلا الطائفتين باطنية في تفسيرها للنصوص الشرعية، وبالتالي فإن ضررها على العالم الإسلامي واضح، فهم يفسدون المعتقد الإسلامي الصحيح من خلال إغواء العديد من الناس، بصحة معتقداتهم، وكثيرا ما تتبعهم جهلة الناس، وأصحاب المطامع الشخصية، والحاقدون على الإسلام والمسلمين، ونتيجة لذلك ضاعت العديد من مدن العالم الإسلامي ببلاد الشام، والتي كانت تخضع لحكم المسلمين السنة أو الإسماعيلية المستعلية، وصارت بظهور هذه الفرق تحت سلطتها، تأتمر بأوامرها وتنتهي بنواهيها.

ورغم ما أحدثته هذه الفرق من ضرر في العالم الإسلامي إلا أنهما لم تكونا على وفاق دائم فقد رأينا مدى الخلاف الذي كان بينهما، والسبب في ذلك واضح، فكل منهما له آراؤه ومنهجه وبالتالي لا يمكن أن يحيد عنه إرضاء لغيره، كما أنهما سعيا لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع

---

[1] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ص 163-164. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 815-816.

[2] مذاهب الإسلاميين، ص 816-822. سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص ص80-81- 82.

من أجل إعطاء الشرعية لأفكارهم الهدامة، ولذلك كانت المنافسة على كسب التأييد البشري، والاستحواذ على المواقع الجغرافية، سببا آخر في استعار الخلاف بينهما، والذي لم يتجاوز حد العداء السلمي.

الفصل الثالث:

علاقة الحركات الباطنية بالمسلمين السنة

المبحث الأول: علاقة المستعلية بأهل السنة قبل الحروب الصليبية

المبحث الثاني: علاقة المستعلية بأهل السنة أثناء الحروب الصليبية

المبحث الثالث: علاقة النزارية بأهل السنة

المبحث الرابع: علاقة الدروز والنصيرية بأهل السنة

أشرنا سابقا إلى أن الحركات الباطنية بالمشرق الإسلامي كانت تعيش جنبا إلى جنب مع المسلمين أهل السنة، وبحكم الاختلاف العقائدي بين الطرفين، حدثت احتكاكات كثيرة بينهما كان بعضها سلميا فاقتصر على السجال العلمي بحيث عمل كل طرف على إثبات وجوده بالأدلة المتوافرة لديه، بينما جاءت بعض الاحتكاكات عنيفة، وانجر عنها اقتتال في كثير من الأحيان مخلفا نتائج سلبية على الطرفين، وفيما يلي نحاول أن نعطي أمثلة عما حدث بين الطرفين من احتكاك وما نتج عنه على كافة الأصعدة.

المبحث الأول: علاقة المستعلية بأهل السنة قبل الحروب الصليبية

1- عقائديا

عرفت العلاقات السنية المستعلية نفورا كبيرا على المستوى العقائدي، وسبب ذلك هو معتقد المستعلية الذي يراه علماء السنة فاسدا، فعملوا على التصدي لأقوالهم ومعتقداتهم منذ أن ظهروا إلى الوجود، وبدأوا بكشف خباياهم الفاسدة، وحذروا عوام الناس منهم، ولذلك ألف العديد من العلماء كتبا يكشفون بها حقائق هذا المذهب السيئ، وأصدر البعض الآخر من العلماء فتاوى في جواز التعامل مع المستعلية من عدمه، واستمر السجال بين الطرفين، وإن كان من جانب أهل السنة أكثر إلى حد الساعة، ومن أمثلة ذلك:

أ- التنافس العلمي

تنبه العديد من علماء السنة إلى مخاطر الحركات الباطنية في الإسلام ولذلك راحوا يؤلفون فيهم الكتب لكشفهم، وتنوير عامة الناس بمخاطرهم، ومن هؤلاء العلماء نذكر أبو حامد الغزالي الذي ألف كتابه الشهير "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية"[1]، ابتدأه صاحبه بالتعريف بالباطنية، وإظهار بطلان مذهبهم[2]، ثم ذكر أهم الطوائف التي تدخل ضمن الباطنية بصفة عامة[3]، ثم عرج فيه إلى مخاطرهم وحيلهم في استدراج الناس وخاصة الضعاف منهم[4]، ثم ذكر

---

[1] أبو حامد الغزالي: نفس المصدر السابق، ص ص 7ـــ10. فرهاد دفتري: معجم التاريخ الإسماعيلي، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي (بيروت)، ط1 (2016م)، ص 221. فاروق ميثا: الغزالي والإسماعيليون (العقل والسلطة في إسلام العصر الوسيط)، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي (بيروت)، ط1 (2005م)، ص 38-39.

[2] المصدر نفسه، ص 11.

[3] المصدر نفسه، ص ص 12 ـــ17.

[4] المصدر نفسه، ص ص 21 ـــ32.

بطلان إمامتهم، وأن الإمام الحق هو إمام ذلك الزمان من نسل بني العباس، وهو المستظهر بالله (487-512هـ/1094-1118م)[1]، ويعد هذا الكتاب بحق، كاشفا لمعتقد الباطنية الفاسد، وقد ذكر أن الغزالي هو أول من صنف في الحركات الباطنية لإظهار حقيقتهم كما هي، وكان ذلك بتدعيم من الخليفة العباسي المستظهر بالله[2].

وعلى هذا النحو سار جماعة آخرون، فألفوا مجموعة من الكتب تكشف حقائق الباطنية، وخاصة الإسماعيلية منها، ومنهم الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت-547هـ/1153م)، صاحب كتاب الملل والنحل، فقد ذكر فيه هو الآخر حقيقة الإسماعيلية، وكشف مذهبهم الفاسد، وأهم تسمياتهم، ورغم أن بالبعض اتهموه بأنه مال إلى الإسماعيلية في آخر حياته إلا أنه لا يوجد ما يثبت ذلك، سوى ما يخمنه من اتهموه بهذا الزعم[3].

وهناك أيضا عالم آخر من علماء السنة عاشر الإسماعيليين في اليمن على عهد الصليحيين وتعرف على مذهبهم عن كثب وهو أبو عبد الله محمد بن مالك المعافري المتوفى أواسط القرن الخامس الهجري، كتب عنهم كتابا عنوانه كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، يكشف فيه حقيقتهم وأهم حيلهم، ويحذر من فساد معتقدهم، فقال عن الوالي الصليحي علي بن محمد الذي كان معاصرا له: ((الحذر الحذر أيها المسلمون من مقاربته أو مخالطته والركون إلى قوله، فإنه وأهل مذهبه يستدرجون العقول ويضلون من ركن إليه، ولقد سمعته مرارا وأسفارا وهو يقول لأصحابه قد قرب كشف ما نحن نخفيه وزوال هذه الشريعة المحمدية[4]، ثم يواصل كلامه في التحذير منه فيقول: ((عباد الله إني لم أزل أتلطف بخاصته وأهل مذهبه ولم أقنع حتى خالطته وأطمعته بقبول ما هو عليه من مذهبه وضلالته وكفره وبدعته وأعماله الشنيعة وضلالته الفظيعة التي تنكرها القلوب وتشمئز منها النفوس))[5].

وهناك علماء آخرون عملوا على كشف حقائق الباطنية الفاسدة في كتب ألفوها لأجل هذا الأمر، ومنهم أبو منصور عبد القادر بن طاهر البغدادي (ت429هـ/1037م)، الذي ألف

[1] المصدر نفسه، ص ص 169ـــ174.

[2] فرهاد دفتري: نفس المرجع السابق، ص 221.

[3] فرهاد دفتري: نفس المرجع السابق، ص 178-179.

[4] محمد بن مالك الحمادي: نفس المصدر السابق، ص 125.

[5] المصدر نفسه، ص 127.

كتابا عنوانه الفرق بين الفرق، وذكر فيه أهم الفرق الإسلامية، مع التركيز على فرق الباطنية حيث بين مخاطرها بقوله: ((اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدعوة بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا هذا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن الأربعين يوما، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمال والقَطْر))[1].

هذه بعض الأمثلة من الكتب التي ألفت في خطر الباطنية والتحذير منهم، وهي في حقيقة الأمر جزء يسير جدا من مجموع الكتب التي تناولت الفرق الإسلامية نذكر بعضا منها على سبيل المثال، كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازي، وكتاب الملل والنحل لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، وهو كتاب آخر له في الفرق الإسلامية، يحمل نفس عنوان كتاب الشهرستاني، إلا أنه يختلف عنه في منهجه، وفي بعض المواضيع التي انفرد بها الشهرستاني عنه.

ومن جانبهم عمل الإسماعيليون على تبرئة أنفسهم، ومذهبهم من التهم التي نسبها إليهم علماء أهل السنة، فألّفوا كتبا تضمنت ردا على هذه الاتهامات، أو شرحا لمعتقدهم لإيهام الناس بأحقية مذهبهم في سياسة الأمة الإسلامية بدلا مما يعتقده غيرهم من أهل النحل الإسلامية وخاصة أهل السنة.

ومن هذه الكتب نذكر كتاب دامغ الباطل وحتف المناضل لمؤلفه الداعي المطلق علي بن الوليد الذي عاش في القرن الخامس الهجري، ألف هذا الكتاب ردا على أبي حامد الغزالي الذي كشف حقيقة الباطنية وحيلهم، ووصف فيه الغزالي بأقذع الأوصاف كالمارق والشيطان، والملحد، فيقول: ((إنه نشأ أولا على ملة الإسلام، إذ كل مولود يولد على فطرته كما أخبر بذلك النبي عليه السلام وعلى آله أفضل السلام، ثم مرق عنها إلى التفلسف قولا بنفي الوسائط، من نبي أو وصي أو إمام واعتمادا على ما يهواه عقله استغناء به عمن يحل هداه من عقول البشر محل الأنوار السماوية من الأبصار التي بحصولها لها يحصل درك حقيقة الأبصار وبعدمها إياها تعدم إدراك

[1] عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 211.

مبصراتها، لغروب تلك الأنوار فسمي لمروقه عن الإسلام وميله عن سنن الهدي مارقا ملحدا، وصار بشوطنه عن الحق وتمرده على أربابه شيطانا متمردا...))[1].

يضاف إلى قائمة المؤلفات التي جعلها الإسماعيليون دعامة مذهبهم وصحته، ما كتبه الداعي هبة الله الشيرازي (ت 470هـ/1078م) عن حياته ومسيرته السياسية والدينية، فألف سيرة حياته في كتاب سماه المجالس المؤيدية، وهو في ثماني مجلدات، يضم كل مجلد حوالي مئة مجلس أو محاضرة من تصنيفه هو، وتتضمن مختلف القضايا الدينية والفلسفية والأخلاقية إضافة إلى التفسير الباطني للقرآن الكريم[2]، وفيها أيضا دروس تعنى بتعليم الناس المذهب الإسماعيلي لحمايتهم من المد السني، وكان ذلك بإيعاز من الخلفاء الفاطميين أنفسهم، فقد ذكر أن الخليفة المستنصر بالله أرسل إلى الداعي أبياتا شعرية تتضمن أمرا بتعليم الناس قواعد المذهب الإسماعيلي، ومنها:

يا حجة مشهورة في الـــورى	وطود علم أعجز المـــــرتقى
شيعتنا قد عدموا رشـــــدهم	في الغرب يا صاح وفي المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا	كن لهم كالـــوالد المـــشفق[3]

2- عسكريا

أ- علاقة الفاطميين بأهل السنة في مصر وبلاد الشام

كانت الدولة الفاطمية تحكم في مصر وبلاد الشام شعبا لا يتبعها من الوجهة المذهبية، وكان العمل على تدعيم الصيغة المذهبية الإسماعيلية، من أهم عناصر سياستها الدينية، وقد واصل الحاكم بأمر الله ما كان قد قام به أسلافه من نشر الدعوة الفاطمية بقوة وجرأة كبيرتين، غير أنه بالغ أكثر في ذلك، وجعلها سنة باقية لمن خلفه .

ولم يراع الحاكم مشاعر محكوميه ولا جيرانه من المسلمين أهل السنة، فقد شاع في عهده سب الصحابة، حتى أنه كتب ذلك على جدران المساجد والحوانيت والمقابر والدور، ولونت بالأصباغ والذهب ويذكر المقريزي أن اللعن كان من رأي جماعة من المصريين الذين كتبوه

---

[1] الداعي المطلق علي بن الوليد: دامغ الباطل وحتف المناضل، تح وتق: مصطفى غالب، مؤسسة عز الدين (بيروت)، ط1 (1403هـ/1982م)، ج1، ص 33.

[2] فرهاد دفتري: نفس المرجع السابق، ص 252-253.

[3] الداعي ثقة الإمام علم الإسلام: المجالس المستنصرية، ص 05.

بالأصباغ[1]، وكان الخطباء يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر[2]، وتضمنت القوانين الكثيرة التي أصدرها عبارات الطعن في أبي بكر وعمر وسائر الصحابة.

لكن الحاكم بأمر الله تدارك الوضع فيما بعد وخفف على أهل السنة، وأصدر مجموعة من السجلات (397هـ/1006م) تتضمن الكف عن سب الصحابة، كما تضمنت أيضا بعض الأوامر التي تسهل للمسلمين السنة ممارسة شعائرهم بأريحية مثل السماح بأداء صلاة التراويح والضحى، كما أنشأ مدرسة لتعليم المذهب المالكي وزودها بالكتب[3].

غير أن الحاكم بأمر الله لم يكن يثبت على رأي واحد إذ كثيرا ما كان يثور على مرسوم أصدره ووقع عليه، فقد أصدر سنة (401هـ/1010م) سجلا يعيد فيه عبارة حي على خير العمل في صلاة الفجر التي جعل مكانها الصلاة خير من النوم بموجب قراره السابق، كما منع صلاة التراويح والضحى[4]، ثم عاد الحاكم بأمر الله سنة (403هـ/1102م)، ليلغي مرسومه السابق الذي يتضمن التضييق على أهل السنة، وكان ذلك بسبب ثورة أهل السنة على تجاوزات الشيعة في سب الصحابة، كتب الحاكم نتيجة لذلك مرسوما جديدا يدعو للترحم على الصحابة والنهي عن الخوض فيه، وكتعبير عن حسن نواياه عين قاضيا سنيا على رأس قضاء مصر ويدعى ابن أبي العوام والذي استمر في منصبه إلى غاية (411هـ/1020م)، ورغم معارضة من حوله على هذا التعيين إلا أنه أصر على حسن رأيه بقوله: ((هو ثقة مأمون مصري عارف بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره))[5].

ب- العلاقة مع الخلافة العباسية

ب-1- عقائديا

عمل الفاطميون في إطار نشر دعوتهم الإسماعيلية كل ما بوسعهم، وكان ذلك في جميع المناطق القريبة منهم، وركزوا على داخل الدولة العباسية التي رأوا فيها منافسهم على السلطة

---

[1] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 69. الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 256.

[2] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج5، ص 293.

[3] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 69. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج04، ص 178.

[4] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 278.

[5] أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري، الولاة والقضاة، تص: رفن كست، دار الآباء اليسوعيين (بيروت)، ط1 (1908م)، ص 610-611. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 271-273.

الروحية للعالم الإسلامي، ولذلك اجتهد الحاكم في استمالة قراوش بن المقلد، الملقب بمعتمد الدولة وهو أمير بني عقيل، المسيطر على الموصل، فخرج على طاعة الخليفة العباسي القادر في عام (401هـ/1010م)، وقام بنشر الدعوة الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة وأقامها للخليفة الحاكم الفاطمي[1].

ونتيجة لذلك عمل الخليفة العباسي على التصدي لهذا المد الإسماعيلي الذي وصل إلى مشارف بغداد، وكان من جملة التدابير التي أقامها في هذا السياق أن أرسل القاضي أبو بكر الباقلاني إلى الأمير البويهي بهاء الدولة ليعلمه عن مدى الخطر الذي ألحقه الفاطميون به، فقام هذا الأمير بالضغط على قراوش بن المقلد وفرض عليه أن يعيد الدعوة للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي وهو ما رضخ له[2].

ب-2- اقتصاديا

وفي هذا الإطار عمل الفاطميون على منافسة العباسيين على المنافذ التجارية البحرية من خلال تنشيط حركة الملاحة والموانئ على البحر الأحمر والخليج الفارسي، وهدفهم في ذلك هو السيطرة على الشاطئين الإفريقي والعربي للبحر الأحمر، وعلى المنفذ الجنوبي المؤدي إلى الهند[3].

ولعل ما هدف إليه الفاطميون من الاستحواذ على الطرق التجارية البحرية ليس الهدف منه تطوير الجانب الاقتصادي وحسب، وإنما استغلالها أيضا في نشر الدعوة الإسماعيلية بين قوافل التجار، وبالفعل استطاعوا أن ينشروا الدعوة في الهند كما أشرنا إليه آنفا، وازدهرت على إثر ذلك موانئ عيذاب[4] على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، وعدن عند المدخل الجنوبي له، كما سيطر الفاطميون على عمان ومنها تسهل عليهم الطريق إلى السند والهند[5].

ولعل من أسباب نجاح الفاطميين في جعل طريق البحر الأحمر الطريق الأكثر استقطابا للتجارة، هو ما جرى من اضطرابات في كل من العراق وإيران ما جعل طريق الخليج الفارسي غير

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 63.

[2] ابن الأثير: المصدر نفسه، ص 63.

[3] أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص 129.

[4] عيذاب: بدأ ذكر هذا الميناء في المصادر التاريخية ابتداء من القرن الثالث الهجري، لكنه لم يزدهر إلا بمجيء الفاطميين واستمر على حاله تلك إلى القرن التاسع الهجري أين بدأ يفقد بريقه... أنظر ناصر خسرو: سفرنامة، ص 118. ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص 45.

[5] أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص 130.

آمن، وقد كان لهذه الإستراتيجية الدور الكبير في انتعاش الاقتصاد الفاطمي من جهة وتدهوره على الجانب العباسي من جهة أخرى[1].

كانت هذه هي سياسة الفاطميين على الجانب الاقتصادي وقد كان لها تأثير على الجانب العباسي بحيث فقدت الخلافة العباسية أقاليم واسعة نتيجة النشاط الفاطمي وهي المناطق الممتدة من اليمن إلى الهند والتي كانت إلى وقت قريب تدين بالولاء لها، ومن هذه المناطق من بقيت على مذهب الإسماعيلية إلى وقت متأخر مثل الهند، ولكن الفاطميين لم يتوقفوا عند هذا الحد بل لجأوا إلى أساليب أخرى كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

ب-3 عسكريا

ب-3-أ- المواجهة العسكرية الغير مباشرة

أما بالنسبة لعلاقة المستعلية بالسلاجقة السنة، فهي الأخرى كانت عدائية على مر الأوقات، وسبب ذلك أن كلا الطرفين كانا متجاورين، ومختلفتين مذهبيا، وكان كل طرف يبحث عن فرض السيطرة على الطرف الآخر، وهو ما ولد نوعا من العداء الذي ظل مستحكما بينهما مدة من الزمن، وكانت بلاد الشام مسرحا لخلافاتهما المستمرة، فمرة تخضع للفاطميين، ثم تصبح تحت حكم السلاجقة، وتعود مرة أخرى للفاطميين، ورغم أنها كانت للسنّة من قبل إلا أن الفاطميين استعملوا كل ما يملكوه من وسائل من أجل السيطرة عليها، ولعل هذا ما جعل السلطان السلجوقي ملكشاه يشرع في تجهيز الجيوش عازما على غزو مصر وأخذها من الرافضة[2].

غير أنه وبتولي المستنصر بالله (427هـ-1036م) السلطة في مصر، حدثت أمور خطيرة كادت أن تأتي بزوال دولته مع أول صدام حقيقي مع الدولة العباسية[3]، ولكن رغم ذلك فقد وصلت الدولة الفاطمية إلى أوج اتساع لها في العشرين عاما الأولى لخلافته، واستطاعت أن تستحوذ على أماكن عصية ما تزال تحت حكم السنة، غير أنها ما لبثت أن تدهورت أوضاعها نتيجة لحوادث معتبرة، وتقلصت رقعتها[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص 130.

[2] شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، تح وتع: حسن إسماعيل مروة، تق: محمود الأرناؤوط، دار صادر (بيروت)، ط1 (1999م)، ج2، 13.

[3] أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص 125.

[4] المرجع نفسه، ص 125.

وكانت بداية التدهور للدولة الفاطمية بعد وفاة الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني في رمضان سنة(436هـ/1045م)، حيث دخلت في نزاع مع الخلافة العباسية الذي كان يتولى خلافتها القائم بأمر الله (381-467هـ/991-1074م)، بحيث أصدر هذا الأخير بإيعاز من علماء بغداد مرسوما سنة (402هـ/1011م) يتضمن طعنا في نسب الفاطميين وقدحا فيهم، ووقع على هذا المرسوم العلماء والفقهاء والقضاة السنة، وعلى رأسهم نقيب الطالبيين الشريف المرتضى وأخوه الشريف الرضي[1]، واعتبر هذا المرسوم بداية الحرب الدعائية بين الدولتين.

وأكثر من ذلك استعان العباسيون بالسلاجقة الأتراك الذين ظهروا شمال بلاد الشام وحملوا على عاتقهم راية الدفاع عن السنة أمام المد الشيعي، كما اتصلوا أيضا بحاكم إفريقية المعز بن باديس الذي تركه الفاطميون خليفة لهم على بلاد الشام سنة (435هـ/1043م)، وخلعوا عليه عن طريق القسطنطينية من أجل الدخول بين الخلافة الفاطمية والقسطنطينية، لكن الرسول قبض عليه من طرف الإمبراطور البيزنطي، وأرسل إلى الخلافة الفاطمية تعبيرا على حسن العلاقات، ووقوفا على حدود الاتفاقية المبرمة بين الطرفين[2].

ورغم جهود البيزنطيين في منع بني زيري من الاستقلال عن الفاطميين إلا أن هؤلاء الأخيرين انفصلوا، واعتنقوا المذهب المالكي وقطعوا دعوة الفاطميين وإقامة الدعوة للعباسيين منذ (443هـ/1051م)[3].

هذا ونجح السلاجقة أيضا في فتح علاقات ودية مع الإمبراطور البيزنطي استطاعوا بموجبها إفساد العلاقة بين البيزنطيين والفاطميين بحيث قطع الإمبراطور البيزنطي إمداداته من القمح التي كان يرسلها إليهم[4]، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسي القائم بأمر الله في جامع القسطنطينية، وقد

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم، ج07، ص 255-256. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 236. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص 76-77. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 15.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 214-224.

[3] المستنصر بالله الفاطمي: السجلات المستنصرية، ص 43-44. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج01، ص 278-279. ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 257. ابن ميسر: أخبار مصر، ص 11-12.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 13. المقريزي: الخطط، ج01، ص 335.

أدى هذا القرار بالخليفة الفاطمي المستنصر إلى غلق أبواب كنائس مصر والشام، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين، وزاد الجزية على سائر النصارى[1].

أدت تصرفات العباسيين هذه إلى استفزاز الفاطميين، فقرروا مواجهة العباسيين عسكريا، وكانت أولى خطواتهم في ذلك هي تحريض بعض القبائل العربية المقيمة بصعيد مصر، وهي قبائل زغبة ورياح الهلاليتين بالزحف إلى إفريقية لاحتلالها، وكان ذلك مباشرة بعد الأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر سنة (444هـ/1052م)، وقد تمكنت هذه القبائل العربية من إحداث خسائر كبيرة بممتلكات بني زيري استمرت سنوات طويلة [2]، واستطاع الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري (442-450هـ/1050-1058م)، تحريض أهل صقلية للثورة على ابن باديس[3].

لم يتوقف الفاطميون عند حد إثارة الفتنة بالمغرب الذي انفصل عنهم ودخل في فلك العباسيين مرة أخرى، بل صوبوا استراتيجيتهم إلى المشرق أيضا على مقربة من معقل العباسيين، فعملوا على نشر دعوتهم باليمن بعد أن وجدوا الأرض مهيأة لهم هناك، فعمد الوزير اليازوري على تدعيم علي بن محمد الصليحي الذي تمرد عن العباسيين، وتمكنوا بفضله من إقامة الدعوة الإسماعيلية لهم هناك، وفي مناطق مجاورة له في كل من عمان وغرب الهند وخاصة إقليم كُجَرات[4].

ب-3-ب- المواجهة العسكرية المباشرة

ولما لم يتوصل الفاطميون في كثير من الأحيان إلى أهدافهم سلميا، لجأوا إلى العمل العسكري وكان ذلك على أوجهه المختلفة سواء المواجهة المباشرة أو تدعيم الثائرين على العباسيين، وقد تولى هذه المهمة الخلفاء والدعاة وفي أحيان أخرى الوزراء، ويسجل الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، في سيرته أنه أيد ثورة أبي الحارث أرسلان البساسيري، الذي ثار على الخليفة العباسي مستغلا الفوضى التي أحدثها سقوط البويهيين، ومستعينا بالأموال والذخائر التي

---

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 14.المقريزي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 335. أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص 128.

[2] ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 77. ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، ص 9-69-71. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 566. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 12-17. ابن عذاري المراكشي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 288-295. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج04، ص 62-63.

[3] أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص 128.

[4] أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص 129.

أمده بها الوزير الفاطمي اليازوري[1]، واستطاع البساسيري أن يستولي على بغداد، ويقيم الخطبة بها للمستنصر الفاطمي لمدة عام سنة (450هـ/1058م)[2].

وكان أول من أيده ودعا لصاحب مصر هم أهل الكرخ[3]، وألزم البساسيري الخليفة العباسي القائم بأمر الله بكتابة كتاب أشهد عليه العدول ((بأنه لا حق لبني العباس، ولا له من جملتهم في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء عليهم السلام))، وأرسل الكتاب إلى خليفة مصر المستنصر وظل الكتاب هناك مدة طويلة إلى أن أعاده صلاح الدين الأيوبي إلى العباسيين بعد سيطرته على مصر[4].

لكن على ما يبدو فإن القائمين على السلطة في مصر لم يهتموا فيما بعد بإنجاز البساسيري رغم وعدهم له بإرسال الأموال له ولخواصه وتدعيمه بالعساكر، لكن كل ذلك لم يحدث وبقي على حاله عرضة لقوة السلاجقة التي أنهت وجوده من هناك، بحيث استجاب طغرلبك السلجوقي لنداء الخليفة العباسي وزحف هذا الأخير بجيشه وقضى على البساسيري وحركته هناك وأعاد الخلافة العباسية إلى ما كانت عليه[5].

---

[1] المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (ترجمة حياته بقلمه)، تح وتق: محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري(القاهرة)، ط1 (1949م)، ص ص 100-101-102-103. ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 80. شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله الملقب بسبط بن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد بركات وعمار ريحاوي، دار الرسالة العالمية (دمشق)، ط1 (2013م/1434هـ)،ج04، ص 26-27.ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 15-17-21. ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط1 (1418هـ/1998م)، ص 195. المقريزي: الخطط، ج01، ص 335.

[2] سيرة المؤيد في الدين، ص 178-180. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 87-90. ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج08، ص 191-197. ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ص 67-69، ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص18-19.سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج04، ص 70. ابن خلكان: وفيات الأعيان: نفس المصدر السابق، ج01، ص 191. ابن العديم الصاحب: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح وتق: سهيل زكار، دار الفكر (بيروت)، د-س-ن، ج01، ص 15. النويري: نفس المصدر السابق، ج23، ص 223.

[3] ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج8، ص 192.

[4] المقريزي: الخطط، ج01، ص 439.

[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 108.ابن ظافر: نفس المصدر السابق، ص 68-76. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص ص 68-99-100. سبط بن الجوزي: نفس المصدر السابق، ص 179-180 ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 43. الذهبي: العبر، ج3، ص 266. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج04، ص 65. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 315. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج05، ص 87-101-102.

ويبدو أن تفريط حكام مصر في بغداد مرده إلى الضعف الذي كان قد أصاب مصر نتيجة الأزمات الاقتصادية المتوالية التي أنهكت خزينة الدولة، وهو ما جعلها عاجزة عن تغطية نفقات إضافية، ولو أن حدثا كهذا جاء أيام قوتها لربما زال الوجود السني في الأراضي الإسلامية كلها، لكن صادف ذلك أن الوهن كان قد أصاب الخلافتين في آن واحد، فظلت الأمور على ما هي عليه إلى أن ظهر طرف ثالث يحسب لبني العباس، وأعاد الكفة لصالحهم ممثلا في السلاجقة.

ولما علم المستعليون عدم جدوى الغارات الحربية للسيطرة على بلاد الشام لجؤوا إلى طريق آخر، ففي عام (490هـ/1095م) ورد فخر الملوك رضوان ملك حلب كتاب المستعلي بالله صاحب مصر، مع رسوله يلتمس من رضوان الدخول في طاعته وإقامة الخطبة والدعوة لدولته، ولحاجة في نفس رضوان[1]، أجاب إلى ما التمسه منه المستعلي، فأمر بأن يدعى للمستعلي على سائر منابر الشام التي في يده، فدعا الخطيب أبو تراب حيدرة بن أبي أسامة بحلب للمستعلي، ثم لوزيره الأفضل ثم لرضوان وذلك يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان عام (490هـ/1097م)، فاستمرت الخطبة على هذا لمدة أربع جمع، وصادف أن حضر إلى حلب الأمير سقمان بن أرتق وياغي سيان صاحب أنطاكية، فأنكرا ذلك على رضوان واستعظماه، وأشارا عليه بإبطال ذلك فقبل بما أشير به عليه، وأعاد الخطبة للعباسيين وأرسل إلى بغداد يعتذر مما كان منه[2].

بعد فشل المستعلية في بناء العلاقات الودية مع الملك رضوان، وعدم مقدرتهم على وضع قدم لهم بالشام، لجأوا إلى أسلوبهم المعهود فجهز الأفضل أمير الجيوش في مصر عام (491هـ/1098م) جيشا كبيرا ونزل به على بيت المقدس الذي كان تحت الأميرين سقمان وإيلغازي ابنا أرتق السنيين وجماعة من أقاربهم، فحاصر الأفضل بيت المقدس، ونصب عليه المجانيق

---

[1] كان هناك صراع عنيف بين الملك رضوان وأخيه دقاق ملك دمشق وكان منهما يطمع في السيطرة على أملاك الآخر فوجد رضوان الفرصة مناسبة للاستعانة بالفاطميين على أخيه رضوان وفي ذلك يقول ابن القلانسي: وكان الملك رضوان قد بنى الأمر الآمر في ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري والنزول على دمشق لأخذها من أخيه دقاق. انظر ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 217.

[2] ابن الأثير: نس المصدر السابق، ج10، ص 269-270. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 344. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 154. الذهبي: العبر ، ج2، ص 362. النويري: نفس المصدر السابق، ج27، ص 72.

فتهدم جزء من السور، واستطاع أن ينتزع بيت المقدس من يد الأراتقة السنيين، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون مدينة أنطاكية[1]، كما سنذكره لاحقا.

تجدر الإشارة إلى أن الفاطميين لم يعتمدوا على المواجهة العسكرية وحدها في مجابهتهم للعباسيين، بل تعدوا إلى استخدام وسائل أخرى شملت ميادين الدعاية والتنافس التجاري.

ت- علاقة الفاطميين بالسلاجقة

يذكر بعض المؤرخين المسلمين، أن من أسباب هجوم الصليبيين على الشرق الإسلامي هو مراسلة الفاطميين لأمم الإفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة[2] لأنهم تغلبوا عليهم وافتكوا منهم بعض مدنهم في بلاد الشام، زيادة على الخلافات المذهبية ما بين أهل السنة والشيعة، وكانت على أشدها في تلك الأزمنة، لذلك كانوا يتحينون فرصة مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، لاستعادة ممتلكاتهم[3].

وفي ذلك يقول السيوطي ((وفي سنة تسعين... جاء الفرنج فأخذوا نيقية، وهو أول بلد أخذوه، ووصلوا إلى كفرطاب واستباحوا تلك النواحي، فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم، وانزعجت الملوك والرعية، وعظم الخطب، فقيل إن صاحب مصر لما رأى قوة السلجوقية واستيلائهم على الشام كاتب الفرنج يدعوهم إلى المجيء إلى الشام ليملكوها...))[4].

لم تعرف العلاقات المباشرة بين كل من السلاجقة[5] والفاطميين توافقا عبر التاريخ، وذلك للاختلاف البيّن بين الطرفين في العقيدة، ولذلك عمل كل طرف على استغلال أية فرصة تتاح له من أجل الانتقام من الآخر، وجاءت فرصة الحروب الصليبية والتي ابتدأت بمهاجمة السلاجقة، فاستغلها الفاطميون، لينتقموا من السلاجقة فكيف حدث ذلك ؟

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 221.

[2] ذكر ذلك المؤرخين ابن الأثير في الكامل، ج9، ص 13، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ص336.

[3] مسفر بن سالم عريج الغامدي: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية (491-569هـ/1097-1170م)، دار المطبوعات الحديثة (جدة)، ط1 (1406هـ/1986م)، ص 118-119.

[4] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، نفس المصدر السابق، ص 335-336.

[5] أنظر خريطة رقم (05).

ت-1- انتقام الفاطميين من السلاجقة

استغل الفاطميون فرصة مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام ومهاجمتهم لشماله الخاضع للسلاجقة، لينتقموا منهم، وسبب ذلك هو كما ذكرنا آنفا اختلاف الطرفين في المذهب فقد عمل كل طرف على إرساء مذهبه ومعتقده على حساب الآخر، كما أن الفاطميين تعاملوا بمبدأ الرد بالمثل على تصرف السلاجقة السابق، إذ استولى السلاجقة على بعض من مدن الفاطميين بجنوب بلاد الشام، ولذلك ظلوا يتحينون فرصة استعادتها منهم، فجاءتهم هذه الفرصة فاستغلوها[1].

ت-1-أ- عسكريا

ت-1-أ-1- احتلال الفاطميين أراضي السلاجقة

والواقع أن الفاطميين لم يعمدوا إلى احتلال المدن التابعة للسلاجقة والتي كانت تحت سلطانهم من قبل، حتى راسلوا الصليبيين وعرضوا عليهم إجراء تحالف ضد السلاجقة، لإلهائهم في الشمال ويخلو لهم الجو بالجنوب فيفعلوا ما يريدون، وقبل منهم الصليبيون فكرة التحالف[2]، وعلى الفور تحرك الفاطميون في الجنوب لاحتلال مدن السلاجقة.

كان الفاطميون يرغبون في استعادة مدن كل من بيت المقدس وصور، وهما مدينتين كانتا تحت سلطانهم قبل أن يحتلها السلاجقة لما رأوا الوهن في الدولة الفاطمية، وإذا عاينا الموقف بعين الإنصاف سنعطي الشرعية لتصرف الفاطميين هذا في استعادة المدينتين لأنهما كانتا تابعتين لهم ثم احتلهم السلاجقة لما رأوا الوهن في الفاطميين، لكن الذي يرفع الشرعية عن هذا التصرف هو التوقيت الذي جرت فيه عملية الاستعادة للمدينتين، فهذه الفترة هي فترة حرب صليبية مسيحية على الإسلام بصفة عامة، وليست على كيان معين، وكان من الأجدر أن يتحالف الفاطميون مع السلاجقة في هذا التوقيت ليدافعوا عن حرمة الإسلام، وكلا الدولتين مسلمتين، ومن المفروض أن توضع خلافاتهما السابقة جانبا.

غير أن الفاطميين أبوا إلا أن يمضوا في رأيهم ولم يهتموا للإسلام ولا الأخوة ولا القومية، فتحركوا على الفور باتجاه مدينة صور للاستيلاء عليها، ومن ورائها بيت المقدس[3].

---

[1] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 159.

[2] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 428.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 235.

أولا– الاستيلاء على مدينة صور

تجدر الإشارة إلى أن مدينة صور، كانت إلى غاية سنة (490هـ/1097م) تابعة للفاطميين غير أن حاكمها المدعو كتيلة، لما علم بزحف الفرنج على شمال بلاد الشام، أظهر عصيانه وقرر الخروج عن طاعة المستعلي الفاطمي، ولذلك فما إن أدرك الأفضل بأنه بإمكانه استعادتها، حتى جهز لها جيشا كثيفا شهر(ربيع الأول491هـ/1098م)، وحاصرها حتى ضيق عليها ((ثم افتتحها عنوة بالسيف، وقتل بها خلق كثير، ونهب منها المال الجزيل، وأخذ الوالي أسيرا بغير أمان، وحمل إلى مصر فقتل بها))[1].

ولكن ما لا نعلمه هو هل تمرد كتيلة على الخليفة الفاطمي، هو بغرض الانضمام إلى السلاجقة؟ وفي هذه الحالة يكون الفاطميون قد وقفوا نفس موقفهم من بيت المقدس، أما إن كان تمرده بغرض الاستقلال بهذا الثغر، فهنا يمكننا أن نقبل عذر الفاطميين في عدم السماح له بالانفصال في مثل هذا الوقت بالضبط، لكن ذلك لا يعني أن يستبيحوا المدينة.

ثانيا– الاستيلاء على بيت المقدس

أما بالنسبة لبيت المقدس، فالظاهر أن الفاطميين لم يهاجموه قبل بداية العدوان الصليبي وذلك لتخوفهم من قوة السلاجقة، غير أنه ومع بداية العدوان الصليبي وتأكد الجانب الفاطمي من إمكانية السيطرة عليه، بعد أن انشغل السلاجقة بدفع الصليبيين عن أراضيهم[2]، حتى خرج الأفضل من مصر على رأس جيش كثيف، ومجهز بأحدث آلات الحصار من بينها أربعين منجنيقا[3] ونزل على بيت المقدس، في شهر (رمضان491هـ/1091م) والصليبيون ما يزالون في أنطاكية، وحاصره وفيه الأميران سقمان وإيلغازي، ابنا أرتق بن أكسك[4]، ثم راسلهما يطلب منهما تسليم بيت المقدس إليه دون قتال، فامتنعا في بداية الأمر عن إجابة طلبه وتحصنا وراء أسوار المدينة، بعد أن علما أن دقاقا ليس بمقدوره مساعدتهما، وربما كان في اعتقادهما أنه بإمكانهم الصمود وراء تحصينات بيت المقدس، فإن الأراتقة ظلوا يقاومون الحصار مدة أربعين يوما ولم يرغمهم على الاستسلام إلا ما حدث من تدمير الأسوار، ودخل الأفضل إلى بيت المقدس

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 08.

[2] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 38.

[3] عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 86.

[4] عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، ط2، د–س–ن، ص66–67. عاشور: المرجع السابق، ص 237.

واستولى عليه، فأحسن معاملة الأخوين، وسمح لهما بالذهاب إلى دمشق مع رجالهما، وعندئذ استعاد الفاطميون سيادتهم على بيت المقدس[1].

وفي اعتقادنا أن الأفضل سمح لهما بالخروج دون أن يمسهم بسوء، لعلمه بأن ذلك ليس في صالحه، فهو ربما عمل على إبقاء صورته ناصعة، وهو الذي استجار بالأعداء ضد إخوانه المسلمين، فليس من العقل أن يجمع في شخصه كل الصفات الدنيئة، فيقتل الأبرياء بعد أن ساعد على قتل الكثير منهم في شمالي بلاد الشام.

عاد الأفضل إلى القاهرة، بعد أن ترك الأمير افتخار الدولة، نائبا له على حكم بيت المقدس، ولم تكد تنتهي سنة (491هـ/1098م) إلا وكانت حدود الدولة الفاطمية قد امتدت إلى نهر الكلب شمالا ومجرى نهر الأردن شرقا[2]، والواقع أنه تحقق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين بالغزو الصليبي، ولن يكون بمقدورهم صد الهجوم الفاطمي، كما أن تهديده لفلسطين وبيت المقدس، خدم الصليبيين، لأنه سبب ارتباكا للسلاجقة في أشد الأوقات حرجا، ولذلك فإنهم تجرعوا هم أيضا بعد فترة قصيرة من سقوط شمال الشام، من مرارة العدوان الصليبي.

كانت هذه هي علاقات الفاطميين بالمسلمين السنة، خلال البدايات الأولى للحروب الصليبية، وقد رأينا كيف أن الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، هو من سير أحداثها، بصفته المتحكم الأول في أوضاع مصر في تلك الفترة، وبمقتله تقلص دورها خارجيا، وكثرت الفوضى داخلها، نتيجة التنافس على كرسي الوزارة، وكان من نتيجة هذا التنافس، أن فتحت علاقات جديدة بين الفاطميين والمسلمين السنة ممثلين في شخص نور الدين محمود زنكي[3]، الذي حمل لواء الجهاد الإسلامي في ذلك الوقت ضد الصليبيين، ومن صيغ التعامل بين الطرفين نذكر:

---

[1] مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان)، (1420هـ/1999م)، ج1، ص306.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 11.

[3] نور الدين محمود: هو محمود بن زنكي (عماد الدين) بن آقسنقر أبو القاسم نور الدين، الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه، كان من المماليك ولد في حلب سنة (511هـ/1118م)، وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه سنة (541هـ)، وكان ملحقا بالسلاجقة، فاستقل وضم دمشق إلى ملكه مدة عشرين سنة، وامتدت سلطته في المماليك الإسلامية حتى شملت جميع سورية الشرقية وقسما من سورية الغربية، والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب، وجانبا من اليمن، وخطب له بالحرمين...، أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، (1415هـ/1995م)، ص 63.

ث- علاقة الفاطميين بنور الدين محمود

كانت مصر في أطماع الصليبيين منذ أن احكموا سيطرتهم على بلاد الشام، ولذلك حاولوا السيطرة عليها سنة (511هـ/1117م)، لكنهم لم يوفقوا في ذلك، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصليبيون يتحينون الفرصة من أجل السيطرة عليها، وصادف ذلك أن نور الدين محمود، حامل لواء الجهاد في بلاد الشام كان هو الآخر يسعى للسيطرة عليها، وهو ما أجج الصراع بينهما، ودخل في هذا الصراع أطراف من داخل مصر كان لهم الدور الفاعل في استقطاب القوتين الكبيرتين المذكورتين، وكان الصليبيون يسعون من وراء السيطرة على مصر إلى فتح منفذ جديد يستغلونه في تحسين أوضاعهم الاقتصادية، خصوصا وأن مصر بلد مشهور بخيراته، كما أن السيطرة عليها يؤمن جانب الصليبيين في بلاد الشام، ومن جهة نور الدين محمود فإنه هو الآخر رأى بأن تحرير القدس لن يكون إلا بضمان جبهة مصر، وبالتالي توحيدها مع بلاد الشام أمر ضروري، كما أن خيراتها كفيلة بتحسين أوضاع بلاد الشام.

وصادف ذلك أن دخلت مصر في فوضى الصراعات السلطوية، بين الوزراء، فقد استبد الوزير شاور[1] بالحكم وأساء السيرة مثلما فعل من سبقه، بعد أن ضيق على العاضد[2] وأساء إليه، وصادر أموال طلائع بن رزيك[3] الوزير السابق للخليفة الفاطمي.

---

[1] شاور: هو أبو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار بن عشائر بن شأس، كان الصالح بن رزيك وزيرا للعاضد صاحب مصر قد ولاه الصعيد الأعلى من ديار مصر، ثم إن شاور تمكن في الصعيد، وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزيك أن لا يتعرض لشاور بمساءة ولا يغير عليه حاله، فإنه لا يأمن عصيانه والخروج عليه...، وقدم من الصعيد على واحات، واخترق تلك البراري إلى أن خرج عند تروجة، وتوجه إلى القاهرة، ودخلها يوم 22 محرم سنة 558هـ وهرب العادل رزيك، وأهله من القاهرة، ليلة 20 محرم، ثم قتل العادل وأخذ مكانه من الوزارة...، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 439-440.

[2] العاضد: أبو محمد عبد الله العاضد بالله بن الأمير يوسف ين الخليفة الحافظ بالله عبد المجيد بن الأمير محمد بن الخليفة المستنصر بالله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن عبيد الله المهدي، الفاطمي العبيدي، المغربي الأصل المصري، الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل سنة أربعين، وبويع في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهو ابن إحدى عشر سنة وشهور...، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج05، ص 319.

[3] طلائع بن رزيك: هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح، وزير مصر، كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، سير أهل القصر إلى الصالح، واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة، ومعه جمع عظيم من العربان، فلما قربوا من البلد، هرب عباس وولده وأتباعهما، ومعهما أسامة بن منقذ لأنه كان مشاركا لهما في ذلك على ما يقال، ودخل الصالح إلى القاهرة، وتولى الوزارة في أيام الفائز...، ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج02، ص 526.

وكان طلائع بن رزيك قد أنشأ فرقة عسكرية سماها البرقية، وعين عليها رجلا يدعى ضرغام بن عامر بن سوار المنذري، ولما تولى شاور الوزارة لم يرض بها ضرغام هذا، لأنه هو الآخر كان طامعا فيها، ولذلك خرج على حكم شاور بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة وجرى قتال بين أنصار الرجلين، انتهى بانتصار ضرغام وفرار شاور ومقتل ابنه طيء، فخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور[1].

ث-1- استنجاد شاور بنور الدين محمود

ونتيجة لانتصار ضرغام على شاور واستيلائه على كرسي الوزارة، سار شاور إلى بلاد الشام للاستنجاد بنور الدين محمود صاحب دمشق، ليساعده في العودة إلى منصبه، واجتمع به فأحسن نور الدين استقباله وأكرمه، ووعده بمساعدته في العودة إلى مكانه، مقابل امتيازات يحصل عليها من مصر[2]، ولما علم الوزير ضرغام بموافقة نور الدين محمود على نجدة شاور، تخوف من ذلك وقرر هو الآخر أن يبحث على حليف خارجي يضمن به البقاء في كرسي الوزارة، ولا يهم ما سيقدمه له من امتيازات، ولو كانت على حساب البلد والشعب المصري، ولم تكن هناك قوة تضاهي قوة نور الدين محمود يستند إليها ضرغام، إلا القوة الصليبية بجواره في بيت المقدس، فراسلهم يطلب نجدتهم[3]، رغم أنه كان على عداء معهم قبل سنة فقط من ذلك، وعلى الفور تحرك الصليبيون باتجاه مصر من أجل الاستئثار بها [4].

وبالموازاة خرج أسد الدين شيركوه[5] على رأس حملته الأولى، إلى مصر في شهر (جمادى الآخرة 559هـ/1164م) يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب البالغ من العمر يومئذ سبعا وعشرين عاما، وسار على الطريق المحدد للحملة، والذي يمر عبر أراضي لا يسيطر عليها

---

[1] ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ج1، ص 261

[2] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج02، ص 299.

[3] ويليم الصوري: محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين، ص 481.

[4] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج3، ص 400-401.

[5] أسد الدين شيركوه: وهو أسد الدين بن شاذي بن مروان أخو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأكبر، وقد اختلف في أصلهم هل هم من الأكراد على حد قول ابن الأثير، أم هم من العرب على حد قول أحد أبناء صلاح الدين الأيوبي الذي صرح أنهم من أصل عربي، واختلطوا بالأكراد فقط، كان أسد الدين شيركوه أحد أعظم قادة الجهاد الإسلامي في جيش نور الدين محمود، يعود الفضل له في إنقاذ مصر من الغزو الصليبي، كما مهد لعودتها إلى حاضرة الخلافة العباسية، توفي في مصر وهو على وزارتها سنة (567هـ/1171م). أنظر ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص 03-04.

الصليبيون، وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأمينا على حياة أفرادها، قام نور الدين محمود بـ:

- مرافقة الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق حتى لا يتعرض أفرادها للإغارة من الصليبيين.
- قام بمهاجمة المناطق الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق، ليصرف أنظار الصليبيين عن مصر[1].

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه، عبر الصحراء بصحبة شاور، فعبر الكرك[2]، ومر بالشوبك[3]، ثم أيلة[4] فالسويس[5]، قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخيه ناصر الدين، للتصدي لزحفه، وبعد معركة طاحنة تمكن أسد الدين شيركوه من هزيمة ناصر الدين، الذي تراجع منهزما إلى القاهرة، وأسد الدين شيركوه في عقبه يطارده، إلى أن وصل إلى العاصمة المصرية في أواخر جمادى الآخرة، فخرج إليه ضرغام بكل قواته، لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة.

وتحت أسوار القاهرة، دارت رحى معركة طاحنة بين الطرفين، انتهت بانهزام ساحق لضرغام الذي تخلى عنه الجيش والناس والإمام العاضد، فقتل قرب مسجد السيدة نفيسة في شهر (رجب 559هـ/1164م)، كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة، وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[6].

---

[1] ابن سباط الغربي حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار في تاريخ بن سباط، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار جروس برس (طرابلس-لبنان)، د-س-ن، ج1، ص 114.

[2] الكرك: قلعة حصينة جدا في طرف بلاد الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم(البحر الميت) وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج04 ص 453.

[3] الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج .، ص 370.

[4] أيلة: مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم تعد في بلاد الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 292.

[5] السويس: بليد على ساحل بحر القلزم من نواحي مصر وهو ميناء أهل مصر، بينه وبيين الفسطاط سبعة أيام. أنظر ياقوت الحموي، نفس المصدر السابق، ج3، ص 286.

[6] الذهبي شمس الدين: العبر في خبر من غبر، ج2، ص222. أبو الفدا: المصدر السابق، ج2، ص 116.

إن عودة شاور إلى كرسي الوزارة لم يكن ليحدث لو لم يتدخل نور الدين محمود، لكن شاور لم يحفظ عهده الذي وعده لنور الدين محمود، وبمجرد أن زال خطر ضرغام المتحالف مع الفرنج حتى طلب من قوات نور الدين محمود الانصراف عن مصر، وإلا سيستدعي الفرنج لطرده.

والواقع أن مثل هكذا تصرفات ليست بغريبة على أشخاص كشاور أو ضرغام، وهي ليست غريبة على جل حكام مصر من العبيديين، فقد رأينا كيف أن القائمين على السلطة في مصر غدروا بالعالم الإسلامي عندما تحالفوا مع الصليبيين علنا، ولم يسبق عبر تاريخهم أنهم وقفوا إلى جانب المسلمين السنة في حروبهم ضد النصارى، وعلى العكس من ذلك فقد وقف المسلمون السنة إلى جانب الفاطميين عند أول طلب نجدة أرسله الفاطميون، وكان ذلك عندما استنجد الوزير الأفضل بحاكم دمشق طغتكين، فلبى هذا الأخير طلبه على الفور.

ما إن سيطر شاور على الوزارة حتى عاد إلى سوء تصرفاته، فحجر على الخليفة العاضد وأساء معاملة الناس، كما أنه طالب قوات نور الدين محمود بالانصراف، وقد أدت كل هذه التصرفات إلى غضب العامة في مصر، وأسد الدين شيركوه، الذي رفض الانصراف من مصر حتى يحصل على الامتيازات التي وعده بها شاور عند اتفاقه معهم قبل مجيئهم إلى مصر، وكرد فعل على هذا التصرف قام أسد الدين شيركوه بالسيطرة على بلبيس[1].

ث-2- غدر شاور بنور الدين محمود

لما يئس شاور من إبعاد قوات نور الدين محمود عن مصر، راسل ملك بيت المقدس عموري الأول، يطلب منه المساعدة، لطرد أسد الدين شيركوه من مصر، وعرض عليه مقابل ذلك، امتيازات مغرية[2]، وقد لاقت هذه الدعوة ترحيبا كبيرا من الصليبيين وعلى رأسهم ملك بيت المقدس عموري الأول[3]، فقد رأى بأنها فرصة ثانية يستطيع من خلالها احتلال مصر وصرف القوات النورية عنها نهائيا.

---

[1] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة(بيروت)، ط1(1418هـ/1997م)، ج01، ص 430.

[2] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج03، ص 387-388.

[3] عموري الأول: وهو عموري الأول ابن فولك، تولى مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث عام (558هـ/1163م)، عمل على غزو مصر في عدة حملات باءت كلها بالفشل، توفي وهو عائد من القسطنطينية إلى مملكته، ودفن في الجلجلة قرب كنيسة القيامة. أنظر موقع ويكبيديا، (مادة عموري الأول).

غير أن نور الدين محمود هو الآخر، لم يكن ليسمح في مصر، ولا ليدعها تدخل في فلك الصليبيين، ورأى مرة أخرى أيضا أن الفرصة سانحة لامتلاكها، خاصة وأنه قد أقيمت الحجة على حكامها، بحيث نكثوا العهد الذي كان بينهم، وهو طرد ضرغام من كرسي الوزارة وإعادة شاور إليها، فتحرك على الفور من علمه بتجهز الصليبيين للمسير إلى مصر، وأرسل حملة عسكرية من ألفي فارس، أسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه مرة أخرى، وبعث بها إلى مصر في شهر(ربيع الأول 562هـ/1167م)[1].

وقبل أن تستكمل القوات الصليبية استعداداتها، وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء باتجاه مصر، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل سرية صغيرة لتعرقل أسد الدين عن تقدمه، لكن هذا الإجراء جاء متأخرا، فقد كان أسد الدين شيركوه بلغ نهر النيل عند إطفيح[2]، ثم عبر إلى الضفة الغربية، والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة[3]، وعسكر بمواجهة الفسطاط[4].

ولما علم شاور بوصل القوات النورية إلى مصر، ذعر ولم يجد ما يفعله اتقاء لهزيمة مؤكدة[5]، فسارع إلى عرض التحالف مرة أخرى مع الصليبيين من أجل طرد القوات النورية، ولما اتفق الطرفان على صيغة التحالف وقضية الغنائم بعد النصر، التحمت قواتهما في ظاهر القاهرة، واستعدوا لمواجهة أسد الدين شيركوه، لكنهم جبنوا عن مواجهته، وظل كل طرف يحرض الآخر على مباشرة الهجوم، واستمروا على حالهم ما يقارب الشهرين، أغاروا في خلالها مرة واحدة على قوات أسد الدين[6]، عندها قرر أسد الدين شيركوه التوجه إلى الصعيد، تجنبا للدخول في مواجهة هذه القوات الكبيرة، وتتبعته القوات المتحالفة، ثم إنه انزعج وهو يرى الصليبيين يرتادون القصر الفاطمي، فقرر

[1] محمد مؤنس أحمد عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي(السياسة الخارجية للدولة النورية)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (القاهرة)، ط1 (1998م)، ص 90.

[2] إطفيح: بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ في شرقيه. ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج01 ص218.

[3] الجيزة: بليد في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة واسعة وهي أفضل كور مصر... أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 200.

[4] أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر:عفيف دمشقية، دار الفارابي(بيروت)، ط2(1998م)، ص207.

[5] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 488.

[6] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص 428.

مواجهتهم، وجرى اللقاء في البابين[1]، وكان شاور ضمن جيش الصليبيين، وانتهت المعركة بانتصار أسد الدين[2].

وبعد معركة البابين، خرج أسد الدين شيركوه إلى الإسكندرية، حتى يأمن جانب القوات المتحالفة، غير أنهم تتبعوه إلى هناك، وفرضوا عليه حصارا طال أمده، مما اضطره إلى الخروج من المدينة بحثا عن الدعم المادي، تاركا ابن أخيه صلاح الدين[3] بداخلها، واشتد الحصار على المدينة حتى أوشك أهلها على الهلاك، وكان هدف المحاصرين هو صرف نظر العامة عن مساندة القوات النورية[4]، ولما رأى صلاح الدين أنه لن يستطيع الصبر أكثر، أرسل إلى عمه يلتمس منه النجدة العاجلة، فعاد إليه عمه سريعا، وحاول رفع الحصار عنه لكنه عجز عن ذلك، عندها قبل التفاوض معهم، وانتهت المفاوضات بقرار خروجهما من مصر سويا[5]، وجاء في بنود هذه الاتفاقية، أن يتعهد شاور بألا يعاقب رعاياه في الإسكندرية، وفي غيرها من الجهات التي ساندت أسد الدين شيركوه[6].

غير أن شاور غدر مرة أخرى، فبمجرد أن غادر أسد الدين شيركوه مصر، حتى بدأ أتباعه يتتبعون كل من اشتبه في تعاونه مع صلاح الدين، فقبضوا على عدد كبير من الناس، وقتلوا عددا آخر[7]، ثم قام بعد ذلك بإضرام النار في مدينة الفسطاط حتى لا يأخذها الصليبيون، وكان يعتقد

---

[1] البابين: قرية تقع إلى الجنوب من مدينة المنيا بعشرة أميال وهي عند أطلال مدينة هيرموبوليس القديمة وهي من أعمال منية بني خصيب. محمد مؤنس أحمد عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي(السياسة الخارجية للدولة النورية 541-569هـ/1146-1174م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، (1998م)، ص95.

[2] ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ج01، ص 261-262.

[3] صلاح الدين يوسف: هو يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنترة الحسن بن علي... ولد في قلعة تكريت سنة اثنتين وخمس مائة، وكان أبوه نجم الدين واليا عليها، ثم انتقل بابنه يوسف إلى الموصل، ومنها إلى الشام، ونشأ يوسف تنشئة صالحة، ثم شب في خدمة نور الدين محمود، فخرج مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر، وشهد معه المشاهد كلها إلى أن استولوا على مصر، وإليه يعود الفضل في إعادتها إلى حاضرة السنة، كما يعود له الفضل في تحرير القدس من الصليبيين... أنظر تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1418هـ/1997م)، ج01، ص ص 148-149-150.

[4] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص04.

[5] المصدر نفسه.

[6] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص 428.

[7] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 607.

أنهم إنما يريدون خيراتها، وأن سبب طمعهم في مصر كله لأجل خيراتها، فقام بحرق مدينة الفسطاط، بعد أن رحل عنها أهلها، وظلت النار مستعرة بها مدة طويلة[1] على ما سنذكره في الفصل الموالي إن شاء الله.

ث-3- استنجاد العاضد بنور الدين محمود

لما أيس العاضد لدين الله من تصرفات شاور التي أضرت كثيرا بمصر، ودمرتها وجعلتها محل أطماع الأعداء خاصة الصليبيين منها، قرر أن يستعين بقوات نور الدين محمود من أجل التخلص من شاور ومن أطماع الصليبيين في مصر نهائيا، وتحت ضغط العديد من أعيان مصر، وعلى رأسهم الكامل بن شاور، الذي خرج عن سياسة والده، والقاضي الفاضل رئيس ديوان الإنشاء، الذي تولى المفاوضات والمراسلات مع نور الدين محمود، أرسل إليه، خصلا من ضفائر نسائه، وعرض عليه مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين، بأن يمنحه ثلث دخل مصر، إضافة إلى بعض الإقطاعات لقادته، ويسمح لشيركوه بالإقامة في مصر[2].

كان نور الدين محمود ينتظر فقط الفرصة السانحة للتدخل في مصر، للقضاء على شاور نهائيا تمهيدا للقضاء على الدولة الفاطمية، والراجح أنه كان يريد إعادة المذهب السني إليها ولذلك تحرك على الفور من تلقيه الدعوة، لاستدعاء أسد الدين شيركوه من حمص، وأسند إليه مهمة إنقاذ مصر، حيث أذن له أن يختار ألفي فارس، منح كل فارس منهم عشرين دينارا غير راتبه، وأمده بستة آلاف فارس، ومجموعة من الأمراء، كما ندب معه ابن أخيه صلاح الدين[3] وأعطاه مائتي ألف دينار، بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب، ويبدو أن نور الدين محمود من خلال هذه التجهيزات أنه مصمم على الاستيلاء على مصر بشكل نهائي.

خرج أسد الدين شيركوه في شهر (ربيع الأول 564هـ/1168م) إلى مصر، ولما علم شاور بذلك، أرسل إلى الملك عموري يطلب منه التخلي عن جزء من المبلغ المتفق عليه، وينذره في الوقت نفسه باقتراب أسد الدين شيركوه[4]، وعندها أدرك عموري الأول استحالة استيلائه على مصر، وأنه بات من الضروري أن يتراجع عن القاهرة، خشية أن يهاجمه أسد الدين شيركوه،

---

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص12.

[2] محمد مؤنس أحمد عوض: المرجع السابق، ص 98.

[3] ابن كثير: المصدر السابق، ج12، ص 287.

[4] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص 432.

فتراجع إلى بلبيس، وأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها[1]، في حين دخلها أسد الدين شيركوه معززا من أعيان مصر وخليفتها، وعامتها.

أما شاور فإنه انزعج من بقاء أسد الدين في مصر، فقد كان يرى بأنه نافسه على النفوذ خصوصا وأن العاضد قد أظهر ميله إليه، إضافة إلى تردد الناس على خدمته[2]، ثم إن أسد الدين شيركوه طالبه مجددا بتنفيذ اتفاقه القديم الذي تنكر له، عندها قرر شاور وكعادته الاستنجاد بالصليبيين لمساعدته، وحدد لهم مدينة دمياط كمكان لدخولهم الديار المصرية من البر والبحر، ثم دبر مؤامرة للتخلص من أسد الدين شيركوه وأمرائه، من خلال وليمة يقيمها على شرفهم ويدعوهم إليها، غير أنه تريث قليلا في القيام بهذه المكيدة، أو أن ابنه الكامل هدد بكشفه لأسد الدين شيركوه[3]، لكن هذا الأخير علم بما بيته له عدوه، ولم يتخذ أي إجراء مباشر ضده.

خرج شاور في (السابع عشر من شهر ربيع الآخر 564هـ/1169م)، للاجتماع بأسد الدين شيركوه، ولما وصل إلى مقر قيادته استقبله صلاح الدين وعز الدين جورديك في جمع من العساكر، وكان أسد الدين شيركوه في زيارة لضريح الإمام الشافعي، فقرر الذهاب إليه، لكن صلاح الدين عاجله وقبض عليه، وأسره بعد أن جرده من سلاحه، ثم أصدر العاضد أمرا بقتله فقتل[4].

وبمقتله استراحت مصر بل والأمة الإسلامية قاطبة من تصرفاته، فما قام به هذا الأخير طوال فترة حكمه، كاد أن يدخل مصر في فلك الصليبيين كم من مرة، حيث استنجد بهم أربع مرات كاملة، ضد أسد الدين شيركوه وإن كانت الثلاث مرات الأولى تمكن من طرد أسد الدين عن مصر، إلا أنه في فشل في الرابعة، وانتهت هذه المحاولة بإزاحته عن كرسي الوزارة ثم مقتله بأمر الخليفة العاضد نفسه.

والواقع أن محامل شاور على نفسه وعلى مصر والأمة الإسلامية كثيرة، ولا يمكننا حصرها في هذه الأسطر القليلة، وبعد مقتله عرفت مصر تاريخا آخرا أقل ما يمكن أن يقال عنه يشرفها بصفتها دولة إسلامية، حيث أسند خليفتها العاضد، الوزارة إلى أسد الدين شيركوه، فكيف عاشت مصر بعد مقتل شاور ؟

---

[1] أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص 231.

[2] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص435. ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج05، 301.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص14.

[4] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص435.

ث-4- ضم مصر إلى بلاد الشام

كان مقتل شاور آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي تعرضت لها مصر في أواخر العصر الفاطمي، إذ لم يبق للصليبيين من مناصر في البلاد، وصارت البلاد آمنة بوجود أسد الدين شيركوه الذي تولى منصب الوزارة في خلافة العاضد لدين الله، ((وجلس في دست الملك وخلع عليه العاضد العبيدي خلعة السلطنة، وولاه وزارته، وسماه الملك المنصور سلطان الجيوش))[1].

غير أن أسد الدين شيركوه لم يدم طويلا في الوزارة، إذ توفي في (22جمادى الآخرة 564هـ/1169م)، نتيجة إفراطه في الأكل، بعد أن قضى جل حياته في الجهاد ويرجع له الشرف في طرد الصليبيين من مصر، كما مهد لإعادة مصر إلى فلك السنة، فقد كان يدرك أهمية ضم مصر إلى بلاد الشام بوصفها خطوة تمهيدية وضرورية لاسترجاع فلسطين من أيدي الصليبيين[2].

والواقع أن خلافة أسد الدين شيركوه، أيقظت الكثير من الطموحات والخلافات، إذ حدثت إثر وفاته خلافات وتنافسات على الوزارة بين المؤسسة العسكرية الفاطمية، التي أرادت وزيرا مدنيا مصريا تتحكم به، وبين بعض أمراء نور الدين محمود الأتراك الذين رافقوا الحملة مثل قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وعين الدولة الياروقي، وسيف الدين بن أحمد المشطوب وشهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين.

وكان هؤلاء العناصر كلهم قد تطلعوا إلى تولي الوزارة بعد وفاة أسد الدين شيركوه، غير أن العاضد كان يريد صلاح الدين في الوزارة، بعد أن رشحه الفقيه عيسى الهكاري والحارمي والمشطوب[3]، رغم رفض صلاح الدين لهذا المنصب، حيث تحجج بصغر سنه وافتقاره إلى التجربة، اللذين سيرغمانه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية، ويجعلان منه أداة سهلة في يد العاضد يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه.

---

[1] شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 67.

[2] Stanley lane- Poole. M.a: Saladin and the Saracens, color plates by angus McBride, copyright 1986 reed. International books. Ltd, p77-78 :ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص 619.

[3] ابن كثير: المصدر السابق، ج12، ص294.

وخلع العاضد الوزارة على صلاح الدين وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل بتوليه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، وذلك في(25جمادى الآخرة 564هـ/1169م)[1].

لكن الكثير من أعيان مصر في ذلك الوقت، رفضوا تولية صلاح الدين الوزارة، بصفته سني المذهب وهم شيعة، وتخوفوا منه كثيرا، فقررت جماعة منهم الثورة عليه لإزاحته من منصب الوزارة، تمهيدا للقضاء عليه وعلى أتباعه[2]، وكانت أولى هذه المؤامرات هي مؤامرة مؤتمن الخلافة، تلتها حركات عدائية أخرى ضد صلاح الدين، لكنها باءت كلها بالفشل حيث قضى عليها صلاح الدين في مهدها، فكيف حدث ذلك ؟

ث-5- القضاء على مؤامرة مؤتمن الخلافة

تمكن صلاح الدين من استمالة قلوب سكان مصر، بعد جلوسه على كرسي الوزارة وذلك بما بذل لهم من الأموال فأحبوه، كما أنه أحكم سيطرته على كافة أصناف الجند، ما سهل له السيطرة على الدولة كاملة، فتراجع بذلك نفوذ العاضد، وقد أثار كل ذلك حفيظة قائد جند السودان مؤتمن الخلافة، الذي رأى في سلوك صلاح الدين بأنه قضاء تدريجي على الدولة الفاطمية، والراجح أنه كان من الطامعين في خلافة شاور، فبدأ هذا الأخير يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين، وحاول الاتصال بعموري الأول، ملك بيت المقدس لتحريضه على مهاجمة مصر، آملا في حالة الاستجابة، أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويستولي على الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الصليبيين غير أن صلاح الدين علم بخيوط هذه المؤامرة، وقبض على مؤتمن الخلافة وحبسه.

ونتيجة لهذه التدابير الاحترازية التي نفذها صلاح الدين، ثار جماعة من الجند السودانيين المستبعدين على صلاح الدين، حيث عز عليهم ضياع نفوذهم، ومقتل مؤتمن الخلافة، ودخلوا في حرب مع صلاح الدين، ساندهم فيها العاضد ظنا منه أنهم سينتصرون عليه، وينقذونه من قبضته، لكنه تراجع عن قراره بعد أن هدده توران شاه أخو صلاح الدين بإحراق القصر، وبذلك انهزم السودانيون، وقبض عليهم صلاح الدين، ثم عفا عنهم بعد أن طلبوا منه الأمان[3].

---

[1] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص 06.

[2] أمين معلوف: المرجع السابق، ص 218.

[3] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 142.

ولم يتبق لصلاح الدين سوى حرس العاضد من الأرمن، ولذلك أشعل النار في ثكناتهم ثم قبض عليهم، حتى لا يثوروا عليه[1]، وبذلك تمكن من تصفية جيوب المقاومة والخيانة الداخلية التي حالت دون تفرغه لمواجهة الصليبيين.

وكان الصليبيون قد أخذوا بنصيحة مؤتمن الخلافة، الذي طلب منهم المجيء إلى مصر حيث يساندهم هو وكل المناوئين لصلاح الدين، فأخذوا يستعدون لتجهيز حملة كبيرة يقضون بها على صلاح الدين ويستولون على مصر، لكن إمكانياتهم غير كافية لتحقيق هذين الغرضين معا فطلبوا من إخوانهم البيزنطيين عقد تحالف معهم لتحقيق هذه الغاية.

ث-6- صلاح الدين ينقذ مصر الفاطمية من الصليبيين

لم يكن صلاح الدين يعلم بأن الصليبيين ينوون احتلال مدينة دمياط، فقد توقع بأنهم سيهجمون على مدينة بلبيس، ولذلك شحنها بالعساكر، كما قام بتحصين الإسكندرية والقاهرة ظنا منه أن هذه الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها الحملات السابقة[2]، كما أنه بقي في القاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده.

وما إن علم صلاح الدين بوصول القوات المتحالفة إلى دمياط، حتى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين الحارمي، كما أرسل عددا من السفن اتخذت طريقها نحو الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة، وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى نور الدين محمود في دمشق يخبره بما حدث ويقول: ((إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي وساروا في إثري، والفرنج في أمامي، فلا يبقى لنا باقية))[3]، فسير إليه نور الدين محمود العساكر إليه، كما قام بالإغارة على بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام، لتخفيف الضغط عن دمياط، جريا على عادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي[4].

لم تقف القوات الإسلامية المدافعة عن المدينة مكتوفة الأيدي، تجاه محاولات الصليبيين فقامت بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمون بالعساكر لمقاومة الجهود النصرانية

---

[1] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص 624.

[2] محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 164.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 22.

[4] أحمد بن علي الحريري: الإعلام والتبيين، ص 78.

بالفكرة نفسها، كما ردت هذه القوات على اعتداءات المهاجمين بعنف، وأبدى أفرادها تفوقا ملحوظا، في الوقت الذي اختلفت فيه أهواء المتحالفين، وأصبحوا لا يلتزمون بجدية القتال[1].

كانت هذه هي أول محاولة قام بها صلاح الدين لمواجهة العدوان الصليبي على مصر، وهو على رأس الوزارة في مصر، والسبب أن الصليبيين أنفسهم لم يحاولوا احتلال مصر سوى مرة واحدة، وإن كان صلاح الدين لم يشارك بنفسه في عملية الجهاد، إلا أنه ساهم بشق كبير في بعث فكرة الجهاد في مصر، التي غابت طوال فترة حكم شاور، ثم إنه ساهم في الدفاع عن المدينة بإرساله العساكر عبر البر والبحر، وأرسل إلى نور الدين محمود يطلب منه المساعدة وبذلك تمكن من طرد الصليبيين.

ث-7- القضاء على الدولة الفاطمية

يبدو أن حركة الجهاد الإسلامي التي قادها نور الدين محمود، تحت راية دولة الخلافة العباسية، قد حتمت عليه إعادة مصر إلى حظيرة الولاء للعباسيين، لكن إقرار هذه العملية كان يتطلب جرأة من صلاح الدين، وزير العاضد يومئذ فهو لا يزال حديث عهد بها، فقطع الخطبة للفاطميين وإقرارها للعباسيين، يتطلب توطئة وتمهيدا يشمل المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية أخيرا، حتى يتمكن من إحكام قبضته على البلاد.

فمن حيث التدابير العسكرية، فقد كان الجيش الفاطمي لا يزال قائما وبإمكانه خلق مشاكل عديدة، ولذلك عمد صلاح الدين إلى بناء جيشه هناك وعلى حساب المصريين، فقام بإنشاء الفرقة الصلاحية نسبة إليه، ثم انضمت إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها عمه أسد الدين شيركوه، كما استعان بالمماليك الأتراك، لأنه وجد نفسه في أمس الحاجة إليها، عند حدوث أية ثورة ومثال ذلك ثورة السودان، التي تمكن من القضاء عليها بسرعة.

أما من حيث التدابير الاقتصادية، فقد عين صلاح الدين والده على الخزانة، مما أتاح له السيطرة على موارد الدولة[2]، كما استخدم إخوته للتعويض عن الفراغ الذي تركته تنحية الأشخاص الموالين للدولة الفاطمية، والتفت إلى سياسة الإصلاح الاقتصادي، فأبطل المكوس الديوانية التي

---

[1] المصدر نفسه.

[2] تقي الدين المقريزي: الخطط، ج3، ص 405.

كانت الدولة تجبي منها سنويا مائتي ألف دينار، فمال المصريون إليه وأحبوه، كما أطلق حرية التجارة[1].

أما عن التدابير الدينية، فقد اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات منذ أواخر (عام 565هـ/ 1170م) لإضعاف المؤسسة الفاطمية، والمذهب الشيعي الإسماعيلي من جهة وتقوية المذهب السني في مصر من جهة أخرى.

وكانت أولى هذه الإجراءات هي إسقاط عبارة *حي على خير العمل * من الأذان وكان ذلك في العاشر من ذي الحجة، وأمر بأن يذكر في خطبة الجمعة أسماء الخلفاء الراشدين ونزع المناطق الفضية، التي كانت محاريب مساجد القاهرة، والتي تحمل أسماء الأئمة الفاطميين كما أثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين[2].

وفي(شهر محرم عام 566هـ/1170م)، أمر بهدم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق في مصر، وأمر ببناء مدرسة مكانها خصصها للشافعية، كما بنى إلى جوارها درا خصصه للمالكية وهي دار الغزل المعروفة بالمدرسة القمحية، ثم أبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[3].

وبعدها بدأ في التغيير المذهبي، وابتدأه بتغيير رجال القضاء، فعزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين، وأسند قضاء مصر إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الشافعي، وإليه يعود الفضل في انتشار المذهب الشافعي في مصر[4]، كما حرص على نشر المذهب الأشعري بحكم أن صلاح الدين كان متعصبا لهذا المذهب متأثرا بالسلاجقة.

بواسطة هذه الإجراءات تمكن صلاح الدين من السيطرة على النواحي الدينية، وأضحت مسألة قطع الخطبة للفاطميين وإبدالها بالخطبة العباسية مسألة فقط لا أكثر.

ث-8- إقامة الخطبة للعباسيين

رغم أن صلاح الدين كان قد تمكن من إحكام سيطرته على مصر من كل النواحي، وكان بإمكانه قطع الخطبة للفاطميين وإبدالها بالخطبة العباسية، إلا أنه تريث في بداية الأمر، متحججا لنور الدين الذي كان متلهفا إلى تحقيق وحدة المذهب الإسلامي بين بلاد الشام ومصر، بتخوفه

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 15. أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص 43-45.

[2] أبو شامة: المصدر نفسه.

[3] المقريزي: المصدر السابق، ج02، ص 415-416.

[4] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 522.

من ردة فعل عنيفة من عامة مصر، غير أن نور الدين محمود رفض عذره، وأرسل إليه إنذارا نهائيا في (شهر ذي الحجة 566هـ/أوت1171م)، يأمره بإسقاط الخطبة للإمام الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وألزمه على ذلك إلزاما[1].

وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين أمرين صعبين، فإما الإعراض عن تحقيق رغبة نور الدين محمود، وهو القضاء على الدولة الفاطمية نهائيا، وبالتالي الدخول في أزمة مع نور الدين، أو أنه يحقق له رغبته، ويدخل في أزمة مع الشيعة في مصر، وبين هذا وذاك، رأى أن يذعن لمطالب نور الدين، فقطع الخطبة أمر لابد منه، وبالتالي التعجيل بها خير، حتى يحوز حسنتين أولاها إرضاء نور الدين، وثانيها إعادة مصر إلى حاضرة العالم السني بعد غياب دام أكثر من قرنين.

وجاءت الخطوة الحاسمة في (السابع من شهر محرم 567هـ/1171م)، عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي، وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وأعاد السواد شعار العباسيين[2]، وبذلك أعيدت الوحدة المذهبية في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى والوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام، وتسلم صلاح الدين القصر الفاطمي وقبض على أولاد العاضد، وجعل إقامتهم في القصر مع عناية خاصة بهم[3]، وكان العاضد أثناء ذلك مريضا فلم يشأ صلاح الدين، أن يعلم بخبر قطع خطبته، وقال: " فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته "[4].

ولم تكد تمض أيام على قطع الخطبة للفاطميين، حتى توفي العاضد ليلة العاشر من محرم فأمر صلاح الدين بإرسال الكتب إلى البلاد تعلن وفاته، وإقامة الخطبة رسميا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[5].

وبموت العاضد انتهت الدولة الفاطمية من الوجود، بعد طول بقاء دام أكثر من قرنين عرفت فيها أزهى أيامها، حين استحوذت على منطقة المتوسط كاملة في وقت من الأوقات وذاع

---

[1] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 187.
[2] السيوطي: المصدر السابق، ص 350.
[3] ابن كثير: المصدر السابق، ج12، ص 302.
[4] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج06، ص 07.
[5] ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ج1، ص 264. Stanley lane- Poole op- cit, p 85.

صيتها بين مشارق الأرض ومغاربها، وامتدت حتى العاصمة العباسية شرقا وإلى الحجاز وبلاد النوبة جنوبا، ثم تقلصت بعدها لتصبح في مصر وبعض الأماكن في بلاد الشام، ثم ضاعت منها بلاد الشام وصارت في مصر فقط، إلى أن زالت أخيرا.

بعد أن استعرضنا تاريخ العلاقات بين الفاطميين وأهل السنة، اتضح لنا أنها كانت عدائية على طول الوقت، وكانت أكثر عدائية من جانب الفاطميين، فهم لم يرضوا بوجود القوة السنية إلى جوارهم، واعتقدوا بأنها تهدد وجودهم، فعملوا على إزالتها، وكان من نتيجة ذلك أن ضاع جزء كبير من أرض الإسلام، ودخلت في حكم الصليبيين، بسبب تهورهم وحقدهم على أهل السنة.

وفي مقابل ذلك لم يكن أهل السنة على نفس سيرة الفاطميين، إذ لم يعاملوهم بالعداوة إلا دفاعا عن النفس، وقد مرت معنا العديد من الحوادث التي أثبتت هذا الرأي، وأكثر من ذلك فإن العديد من المصادر التاريخية قد ذكرت لنا كيف هب أهل السنة لنجدة الفاطميين عندما طلبوا منهم ذلك، ففي سنة (511هـ/1118م)، عندما عجز الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على مواجهة الصليبيين لوحده، راسل طغتكين حاكم دمشق وهو على مذهب السنة، وقد لبى هذا الأخير طلبه على الفور، وأرسل قوة عسكرية من لمساندته، والتقى الجيشان في عسقلان، وهناك اتحدت القوتان تحت راية طغتكين [1].

وكان من نتيجة هذا التحالف أن أرسل ملك بيت المقدس بلدوين إلى طغتكين، يطلب منه التخلي عن مساندته للمصريين، لكن طغتكين لم يوافق على ذلك، وأصر على مواصلة السير إلى مصر لنجدتها، ولما يئس من ذلك راسل بلدوين إخوانه الصليبيين في الشمال الشامي في كل من أنطاكية وطرابلس، يطلب منهم النجدة فلبوا طلبه ذلك، وأرسلوا إليه قوة عسكرية لمساندته، لكنهم لم يتخذوا إجراء حقيقيا ضد مصر، وظلوا على حالهم مدة ثم افترقوا [2].

وقوفا عند هذه الحادثة، يتبين لنا الفرق بين حكام دمشق السنيين، وحكام مصر الشيعة، فقد لبى حكام دمشق دعوة الفاطميين لأجل إنقاذ مصر من الغزو الصليبي، بمجرد تلقيهم طلب النجدة، ورغم محاولة بلدوين ملك بيت المقدس تحييد الدمشقيين عن المواجهة إلا أنه عجز عن

[1] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 255.

[2] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، 185-186.

ذلك، فقد رفض طغتكين ذلك قطعا، ورأى بأنه لن يتخلّ عن مصر ويتركها تواجه مصيرها أمام الصليبيين، وهو ما لم نره عند الفاطميين الذين بادروا إلى عقد تحالف مع الصليبيين أيام مجيئهم إلى البلاد الإسلامية[1]، ووقفوا موقفا عدائيا من إخوانهم السلاجقة، حتى ضاعت بسبب تصرفهم هذا أغلب بلاد الشام.

وإذا أردنا أن نعرف خلفيات التحالف المصري الدمشقي، فإنه يمكننا القول أنه حدث نتيجة دوافع متعددة نذكر منها:

- الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية، إذ لم تعد قادرة على صد القوات الصليبية لوحدها.
- تغير ذهنية القائمين على السلطة في مصر، فقد أدركوا أخيرا أن العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، لن يستثن إقليما على آخر بحجة الصداقة أو تحالف سابق.
- إدراك القائمين على السلطة في مصر، أنه لا توجد قوة بإمكانها مساندتهم ضد العدوان الصليبي، سوى إخوانهم المسلمين وإن كانوا على خلاف معهم في المذهب، ولذلك عقدوا تحالفا مع صاحب دمشق السني.
- تمتع أصحاب السلطة في دمشق بذهنية عالية، تنبذ فكرة الاختلاف المذهبي، وإدراكها أن وحدة الأرض هي السبيل الوحيد للوقوف في وجه الغزو الخارجي، ولذلك لم يقفوا متفرجين على إخوانهم المصريين الذين خضعوا لمحاولة احتلال صليبي، فقبلوا مباشرة فكرة التحالف معهم لصد هذا الغزو.

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 13، جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص336. سعيد عبد الفتاح عاشور: نفس المرجع السابق، ج1، ص 197-198.محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 428.

المبحث الثالث: علاقة النزارية بالمسلمين السنة

1- علاقة النزارية بالسلاجقة

أ- في بلاد فارس

في وقت نشوء الحركة النزارية ومحاولتها تأسيس دولة لها، كان السلاجقة في أوج قوتهم وذروة توسعهم، وكانوا يدافعون عن المذهب السني وأعادوا للخلافة العباسية هيبتها التي فقدتها على يد البويهيين الشيعة، فأصبحوا حماة الدولة العباسية، وحاملي لواء السنة في وجه الباطنية التي أخذت في الانتشار داخل المجتمع الإسلامي، فاتسمت العلاقات بين النزارية والباطنية والسلاجقة في البداية بالعداء المطلق، خاصة بعد نجاح النزارية في الاستيلاء على قلعة آلموت في عام (483هـ/1090م) بقيادة زعيمهم الحسن بن الصباح، وأصبحوا يشكلون مصدر خطر على أهل السنة المجاورين لهم، فعظم بلاؤهم، وقطعوا الطريق، وخربوا القرى[1].

وكان أول من تنبأ بخطر الباطنية الوزير نظام الملك[2]، بحكم زمالته للحسن بن الصباح في الدراسة، فقال ذات مرة بفراسته عم قريب يضل هذا الرجل[3]، وبتنبؤ نظام الملك بخطر الباطنية وشرهم أسرف في تحذير السلطان السلجوقي ملكشاه منهم وتنبيهه إلى وجوب إعادة ديوان البريد الذي ألغاه السلطان ألب أرسلان حتى تبلغه أخبار الباطنية أولا بأول[4].

ونتيجة لذلك بذل الوزير نظام الملك كل جهوده لاستئصال الباطنية من جذورها، فسعى إلى تجهيز العساكر والجيوش للقضاء عليهم، خاصة وأنه كان يرى مفاسد أعمالهم وخطرهم على المجتمع ومنذ ذلك التاريخ أصبح نظام الملك العدو الأول للحسن بن الصباح وشيعته النزارية الباطنية.

---

[1] الذهبي: دول الإسلام، ج3، ص 130. أنظر خريطة رقم 02.

[2] الوزير نظام الملك: وهو الحسن بن إسحاق بن العباس أبو علي الطوسي، ولد بطوس، وكان من أولاد الدهاقين وأرباب الضياع بناحية بيهق، كان عالي الهمة، إلا أنه كان فقيرا مشغولا بسماع الحديث والفقه، يخدم أبا علي بن شاذان المعتمد عليه ببلخ كاتبا بين يديه، فكان في كل وقت يصادره، فهرب منه إلى داوود بن ميكائيل، وعرّفه خدمته، وأخذ بيده، وسلمه إلى ألب أرسلان... فدبر دولته أحسن تدبير عشر سنين... أنظر سبط بن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج20، ص 435. عمر أنور الزبداني: الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (408/485هـ)، تق: محمد الزحيلي، دار العصماء (دمشق)، ط1 (1438هـ/2017م)، ص 40-41.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، 317.

[4] البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص 68.

وهو ما جعل الحسن بن الصباح يعمل على التخلص منه، واستطاع أن يقضي عليه بفضل أحد الفدائيين واسمه أبو طاهر الآراني الذي اقترب من نظام الملك على هيئة صوفي متظلم، بعد أن كان قد فرغ من إفطاره وخرج إلى خيمته فتقدم إليه ذلك الباطني في صورة مستغيث، وطعنه بخنجر فاستشهد الوزير نظام الملك متأثرا بجراحه[1].

بعد ذلك كانت العلاقات بين النزارية الباطنية وسلاطين السلاجقة، تتسم بالمهادنة أحيانا وبالعداوة أحيانا أخرى، فنرى السلطان السلجوقي ملكشاه يرسل إلى الحسن بن الصباح وشيعته الإمام أبو يوسف يعقوب بن سليمان الخازن، وكان فقيها عارفا بالأصول على مذهب أبي الحسن الأشعري لمناظرتهم فناظرهم، وألف كتابه المسمى بالمستظهري وأجاب على مسائلهم[2].

ويروى أن السلطان السلجوقي ملكشاه (465-485هـ)بعث إلى بن الصباح يدعوه إلى الطاعة ويتهدده ويتوعده، فقال لرسول السلطان السلجوقي الجواب ما تراه، ثم قال لجماعة وقوف بين يديه أريد أن أنفذكم إلى مولاكم في حاجة فمن ينهض لها، فاشرأب كل منهم لذلك، فظن رسول السلطان أنها رسالة يحملها لهم، فأومأ إلى شاب منهم فقال له اقتل نفسك، فجذب سكينا وضرب بها عنقه فخر ميتا، وقال لآخر ارم بنفسك من القلعة، فألقى نفسه فتقطع في الوادي، ثم التفت إلى الرسول وقال: قل له عندي من هؤلاء عشرين ألفا هذا حد طاعتهم لي[3].

وعلى ما يبدو فإن السلطان ملكشاه قد اقتنع من عدم جدوى المهادنة والمناظرة مع الباطنية بعد أن رأى بأن ضررهم لم يتوقف، فقرر أن يواجههم بالسلاح فأرسل أحد قواده واسمه أرسلان تتش في أوائل عام (485هـ/1092م) على رأس جيش كبير لمحاربة الحسن بن الصباح وأتباعه، فحاصر قلعة آلموت معقلهم الرئيسي وضيق عليها الحصار حتى أوشك من بها على الهلاك لقلة الأقوات، فطلب الحسن بن الصباح النجدة من أحد دعاته المسمى بدهدار أبو علي المقيم في قزوين، فقدم على رأس ثلاثمائة رجل من أتباعه الباطنية، لنجدة الحسن بن الصباح

---

[1] عطا ملك الجويني: نفس المصدر السابق، ج3، ص 197. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، 10، ص 204.ابن الجوزي: المنتظم، ج9. ص 66-67. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 139.ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 200. عمر أنور الزبداني: نفس المرجع السابق، ص 79-80.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا بأئمة الفاطميين الخلفاء، ج2، ص 324.

[3] ابن الجوزي: تلبيس إبليس، دار القلم (بيروت)، ط1 (1403هـ/1983م)، ص 107-108.

والذين معه، فألقوا أنفسهم داخل القلعة، وبمعاونة المقيمين فيها أغاروا ليلا على جيش أرسلان تتش فانهزم هو وجيشه، وذهبوا عن آلموت وعادوا أدراجهم إلى ملكشاه[1].

غضب السلطان ملكشاه من هذه النتيجة لكنه أصر على اجتثاث الباطنية، لكنه توفي قبل أن يحقق مطلوبه في ليلة الجمعة منتصف شوال (485هـ/1092م)[2].

بعد وفاة السلطان ملكشاه دب الخلاف داخل البيت السلجوقي وتنافس كل من بركياروق ومحمود ومحمد وسنجر أبناء السلطان ملكشاه على السلطة، وكان الصراع في البداية بين بركياروق ومحمود ثم صفا الجو لبركياروق، بعد أن هزم أخاه في موقعة بالقرب من أصفهان[3]، وأصبح بركياروق سلطان السلاجقة فعين أخاه سنجر واليا على خراسان، ومحمدا واليا على أذربيجان[4].

أ-1- استغلال الباطنية للخلاف داخل البيت السلجوقي

انتهز النزارية الباطنية فرصة الاضطرابات بين أفراد البيت السلجوقي، فحاولوا تحسين علاقاتهم ببعض الأمراء، فتمكنوا من استمالة تاج الدولة تتش أخو السلطان ملكشاه أمير دمشق، والذي كان يطمع في زعامة البيت السلجوقي، ولما قتل استمالوا ابنه رضوان وحاولوا التدخل بين بركياروق وأخيه محمد، عندما دب النزاع بينهم فنصروا بركياروق على أخيه محمد، ودخلوا في جيشه حتى أصبحوا يكونون ربعه[5].

لكن لم يلبث بركياروق إلى أن تنبه إلى خطرهم واستفحال أمرهم، خاصة بعد أن اتهم بركياروق بالميل إلى مذهبهم، فأمر بقتلهم والفتك بهم فأخذوا من خيامهم وأخرجوا إلى ميدان عام، فقتلوا فيه ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف[6]، وتواصل القتل والفتك بالباطنية، حتى أن عدد القتلى منهم بلغ ثلاثمائة[7].

[1] الجويني: نفس المصدر السابق، ص194-195.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 215.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 210. ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج9، ص 74.

[4] محمد عبد العظيمي أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (القاهرة)، ط1 (2001م)، ص 111-112.

[5] محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (471-511هـ/1078-1117م)، دار النفائس(بيروت)، ط3 (1430هـ/2009م)، ص 171-172.

[6] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 323. النويري: نفس المصدر السابق، ج26، ص 354-355.

[7] ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج9، ص120.

أما عن السلطان محمد فلقد كانت علاقته بالنزارية الباطنية على عداء مطلق، إذ لما يئس النزارية من كسب السلطان محمد إلى صفهم استمالوا وزيره سعد الملك الآبي وطائفة من العاملين في بلاطه، لكن ذلك لم يمنع السلطان محمد من محاربتهم، فبدأ أولا بالقبض على وزيره سعد الملك وأخذ ماله وصلبه على باب أصبهان حتى مات وصلب معه أربعة من أعيان أصحابه[1]، ثم حاصر قلعة أصبهان والتي كانت قاعدة زعيم الباطنية عبد الملك بن عطاش، فاستولى عليها في عام (500هـ/1107م)، وقتل بن عطاش وسلخه حيا[2]، ثم استولى على قلعة آلموت عام (524هـ/1130م)[3].

أما السلطان سنجر فلقد اتسمت علاقته بالنزارية الباطنية بالعداء في بادئ الأمر، ثم بالمهادنة، ففي عام (521هـ/1127م) أوقع السلطان سنجر بالباطنية في آلموت، فقتل منهم عددا كبيرا قيل كانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس[4].

ولكن بسبب تهديدات النزارية الباطنية للسلطان سنجر، ونجاح الحسن بن الصباح بحيلة ماكرة في استمالة أحد خدم السلطان، استطاع بواسطته أن يغرس خنجرا مسموما أمام سرير السلطان في الليل وهو نائم، فلما استيقظ ورأى السكين ساوره القلق، فأرسل الحسن بن الصباح على الفور رسولا وحمله رسالة جاء فيها: ((لو لم تكن إرادة الخير بالسلطان قائمة لكان أجدر بذلك الخنجر الذي غرس في الأرض الصلبة أن يغرس في صدر السلطان اللين))، فخاف السلطان ومال إلى مصالحتهم لهذا السبب[5].

وخلاصة القول أن العلاقات بين النزارية الباطنية ومن جاورهم من المسلمين كانت علاقة عداء وحقد استعمل الباطنية فيها كل أنواع الغدر والخيانة والدس بين السلاطين والسلب والنهب وقطع الطريق، ففي عام (498هـ/1105م) تجمع قفل الحجاج مما وراء النهر وخراسان والهند عند

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 437. النويري: نفس المصدر السابق، ج26، ص 363.
[2] الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 29. النويري: نفس المصدر السابق، ج26، ص 361-363.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 666.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 647. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 198.
[5] الجويني: نفس المصدر السابق، ص 205.

الري[1] فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا السيف فيهم، وقتلوا كيف شاءوا، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا لهم شيئا[2].

ب- في بلاد الشام

أما عن الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام فإن أول ظهور لهم كان عام (499هـ/1106م)، حيث تملكوا حصن أفامية[3]، فقطعوا الطريق وأخافوا السبل وانضم إليهم كل مفسد[4]، وكان أول من أظهر هذا المذهب بالشام، هو المنجم الحكيم وأبو طاهر الصائغ أيام الملك رضوان، فمال إليهم خلق كثير بسرمين[5]والجزر[6] وجبل السماق[7]، واستطاع الحكيم المنجم المنجم بشيء من المكر والدهاء أن يستميل الملك رضوان أمير حلب إلى الإسماعيلية الباطنية، فأخذ الملك رضوان يستعين بهم لقلة دينه فكثروا في حلب وأظهروا مذهبهم وأصبح لهم دار دعوة بها[8].

ب-1- مع إمارة حلب

وما زاد في نفوذهم ببلاد الشام هو عطف رضوان ملك حلب عليهم وحمايته لهم، فقد آوى هذا الأخير زعيم الحشاشين ببلاد الشام الحكيم المنجم أبو طاهر الصائغ، وجعل له حضوة كبيرة عنده، وقد استغل الباطنية هذه المكانة، وجعلوا مدينة حلب منطلقا لأعمالهم الإجرامية[9]، بحيث ابتدأوا عمليات الاغتيال بتصفية جناح الدولة أمير حمص سنة (496هـ/1103م)[10]، بعد

---

[1] خوار: مدينة كبيرة من أعمال الري بينها وبين الري نحو عشرين فرسخا. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 394.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 392-393.

[3] أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 227.

[4] الذهبي: دول الإسلام ج2، ص 38.

[5] سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب أهلها من الإسماعيلية. ياقوت الحموي، نفس المصدر السابق، ج3، ص 215.

[6] الجزر: موضع بالبادية وهي كورة من كور حلب.ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 133.

[7] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 230، ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص168-169.

[8] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 227.ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص 205. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 499. ابن العديم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، در الفكر العربي (بيروت)، ص 140-141.

[9] ابن العديم: بغية الطلب، ص 140-141. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ص 205.

[10] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 142.المرجع نفسه، ص 68.

أن أشاع الباطنية وشاية مفادها أن جناح الدولة حسين عازم على أخذ حلب من رضوان، وقد تم قتله وهو في محرابه يصلي يوم الجمعة، إذ وثب عليه ثلاثة من الباطنية كانوا في زي الزهاد وطعنوه بخناجرهم، إلى أن توفي، وقتلوا معه مجموعة من المصلين، ونتيجة لهذا العمل الإجرامي فقد كان في الجامع عشرة من المتصوفة اشتبه في أنهم باطنية فقتلوا كلهم صبرا مظلومين[1].

ونتيجة لهذا العمل الإجرامي انزعج أهل حمص، وفر أكثرهم إلى دمشق، ثم راسلوا حاكم دمشق شمس الملوك يطلبون إنجادهم وتسليم المدينة له لحمايتها من الصليبيين، وبالفعل سار إليها شمس الملوك رفقة ظهير الدين طغتكين على رأس جيش وتسلموها، وكان قد تزامن ذلك مع مجيء الصليبيين إليها مغتنمين فرصة الفوضى التي حدثت بداخلها للسيطرة عليها، غير أنهم انجلوا عنها بعد علمهم بسيطرة شمس الملوك عليها[2]، ولم تمر سوى مدة قصيرة قدرها المؤرخون بخمسة عشر يوما حتى توفي الحكيم المنجم [3]، الذي اعتبر أول من أعلن مذهب الباطنية جهرا ببلاد الشام، وبالرغم من موته إلا أن العمل الإجرامي ظل متواصلا ببلاد الشام.

تولى أمر الدعوة الباطنية بحلب بعد مقتل الحكيم المنجم رفيقه أبو طاهر الصائغ العجمي فاستمر على سياسة سلفه في نشر الأضاليل وبث الرعب وسفك الدماء فاستطاع في سنة (499هـ/1106م) وبمساعدة أحد دعاته أبو الفتح السرميني وبعض من أهل سرمين من أن يقتل خلف بن ملاعب صاحب حصن أفامية وأن يستولي على الحصن ويقيم فيه[4]، لكن بلغ الملك رضوان في سنة (501هـ/1108) أنه لعن في مجلس السلطان بركياروق السلجوقي بسبب

---

[1] ابن القلانسي، نفس المصدر السابق، 142. عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المصدر السابق، ص 68.

[2] ابن القلانسي، نفس المصدر السابق، 142. عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المصدر السابق، ص 68.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 230. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص 168-169. ابن العديم نفس المصدر السابق، ص 121-122-123.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 242. ابن العديم: نفس المصدر السابق ص 129. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص 36.

3 ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 144.

4 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 302. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 499.

[5] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 601-602. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، نفس المرجع السابق، ص 71.

[6] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 187-188.

[7] المصدر نفسه، ص 187.

مشايعته للباطنية، واستعانته بهم وحفظه لجانبهم فأمر أبا الغنائم ابن أخي أبي الفتح السرميني الباطني بالخروج من حلب هو ومن معه من أصحابه فخرج القوم من حلب فتخطفوا وقتل منهم أفراد[1] .

ومع ذلك بقي الملك رضوان يستخدم الباطنية في أغراضه الخاصة ويستعين بهم في أموره، فاستعان بهم مرة أخرى للوقوف إلى جانبه في مواجهة جوسلين الثاني (joucelyn2)صاحب تل باشر سنة (502هـ/1109م)[2]، كما حرضهم أيضا سنة (505هـ/1112م) على قتل ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق[3]، وقد استغلهم هو أيضا (طغتكين) لأجل القضاء على قطب الدين مودود أتابك الموصل سنة(506هـ/1113م)[4]، لم تتح لهم الفرصة إلا شهر ربيع الآخر سنة (507هـ/1114م)، عندما تقدم باطني من موكب قطب الدين مودود وهو خارج من المسجد، وطعنه طعنتين كانت إحداها قاتلة[5].

ب-1-أ- اضطهاد رضوان للباطنية

غير أن نظرة رضوان للباطنية تغيرت عندما بلغه أنهم يريدون اغتياله وأخذ قلعة حلب منه فأدرك خطرهم، وبدأ في اضطهادهم ولكنه توفي سنة (507هـ/1114م)، فملك حلب بعده ابنه ألب أرسلان فأرسل إلى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه كتابا قال فيه: ((كان والدك يخالفني في الباطنية، وأنت والدي، فأحب أن تقتلهم))، فشرع ابن بديع رئيس الشرطة في حلب في الحديث مع الملك ألب أرسلان في شأن الباطنية وخوفه منهم وحثه على قتلهم والإيقاع بهم، فأمره ألب أرسلان بذلك فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ وعلى كل من دخل في مذهبهم وكان عددهم زهاء مائتي نفس، فقتل في الحال أبو طاهر، وإسماعيل الداعي، وأخو الحكيم المنجم

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 242. ابن العديم: نفس المصدر السابق ص 129. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص 36.

[2] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 144.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 302. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 499.

[4] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 601-602. عبد اللطيف عبد الهادي السيد، نفس المرجع السابق، ص 71.

[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 187-188. عثمان عبد الحميد عشري: الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (491-691هـ/1097-1290م)، المكتبة التاريخية، د-س-ن، ص 102-103.

والأعيان منهم، وحبس الباقون واستصفيت أموالهم، وشفع في بعضهم، فمنهم من أطلق ومنهم من رمي من أعلى القلعة وهرب منهم جماعة قاصدين الفرنج وتفرقوا في البلاد[1].

استمرت محنة الباطنية وبقوا متخفين لا يقدر أحد منهم أن يظهر نفسه، إلى أن وفد إلى الشام داعي الباطنية بهرام فعظم أمره، وهو على غاية من الاستتار وتغيير اللباس فكان يطوف البلاد ولا أحد يعرفه، فأخذ يدعو عامة الناس فتبعه الكثير وأقام بحلب مدة عند إيلغازي على ظهير الدين طغتكين أتابك[2] دمشق بأن يجعله لهذا السبب، فقبل رأيه فذهب بهرام إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها وأظهر شخصيته وأعانه أبو طاهر بن سعيد المزدقاني وزير طغتكين فعظم شره واستفحل أمره وصار أتباعه أضعاف ما كانوا عليه حتى كاد أن يملك البلد غير أن بهرام رأى من أهل دمشق فظاظة وغلظة عليه فخاف منهم فطلب من طغتكين حصنا يأوي إليه هو ومن اتبعه فأشار الوزير المزدقاني بتسليم قلعة بانياس[3] إليه، فسلمت إليه فسار إليها وتجمع حوله أصحابه من كل ناحية فعظم شأنه واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين ولاسيما أهل السنة[4].

ب-2- مع إمارة شيزر

عمل الحشاشون جاهدين على الاستيلاء على قلعة شيزر فقد حاولوا ذلك مرتين من قبل، لكن محاولاتهما باءت بالفشل، لكنهم استطاعوا سنة (507هـ/1114م) أن يملكوه من بني منقذ وسبب ذلك هو خروج أهالي الحصن لمشاهدة عيد الفصح عند جيرانهم من النصارى، لكن بني منقذ أدركوا الأمر بعد أن تحصن الباطنية داخل الحصن، واستطاعوا بمعونة النساء من تسلق أسوار الحصن ودخلوا القلعة من جديد وهناك دارت الحرب بين الطرفين انتهت بانهزام الباطنية وقتلوا عن آخرهم على قول ابن القلانسي ((إنه ورد الخبر من شيزر بأن جماعة من الباطنية من أهل أفامية وسرمين ومعرة النعمان ومعرة نصرين، في فصح لنصارى وثبوا في حصن شيزر على غفلة من أهله في مائة راجل، فملكوه وأخرجوا جماعة وأغلقوا باب الحصن، وصعدوا إلى القلعة

---

[1] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 144.

[2] الأتابك: معناه أمير أب أي أبو الأمراء وبمعنى أكبر الأمراء المقدمين وليس للأتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام. القلقشندي: صبح الأعشى، ج04، ص 18.

[3] بانياس: بلدة قرب دمشق، تحت الجبل الذي غربي دمشق، يرى عليه الثلج، وفيه الليمون والأترج. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج01، ص 58.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 342-343. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 632-633. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج03، ص 2.

فملكوها وأبراجها، وكان بنو منقذ أصحابها قد خرجوا لمشاهدة عيد النصارى، وكان هذا أمر قد رتب في المدة الطويلة، كانوا قد أحسنوا إلى هؤلاء المقدمين على الفساد كل الإحسان، فبادر أهل شيزر قبل وصولهم إلى الباشورة، ورفع الحُرَّم أي النساء بالحبال من الطاقات وصاروا معهم وأدركهم الأمراء من بني منقذ أصحاب الحصن وصعدوا إليهم وكبروا عليهم وقاتلوهم حتى ألجأوهم إلى القلعة فخذلوا وذلوا وهجموا إليهم وتكاثروا عليهم وتحكمت سيوفهم فيهم فقتلوهم بأسرهم وقتل كل من كان على رأيهم في البلد من الحشيشية، ووقع التحرز من مثل هذه الحال))[1].

لكن الباطنية ظلوا على حالهم يتكشفون أحيانا ويختفون أحيانا أخرى، إلى أن سنحت لهم فرصة الاستيلاء على حصن مصياف من صاحبه الذي كان واليا عليه من قبل بني منقذ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا إلى الحصن فقتلوه وأخذوا الحصن[2].

ب-3- مع إمارة دمشق

أما في عام (520هـ/1124م)، استفحل خطر الحشاشين على يد بهرام داعيهم آنذاك، وعظم خطبه حتى أنه لم يكن يعرف له مكان رغم نشاطه في كل الاتجاهات، ولما أدرك نجم الدين إيلغازي وظهير الدين طغتكين أن وجوده خطير وليس من الممكن مجابهته، فإنهم منحوه حصن بانياس اتقاء لشره في ذي القعدة (520هـ/1124م)، وهناك كون عصابته من عامة الناس وجهالهم، وطاوعه في عمله هذا الوزير أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني الذي كان قد استوزر للأمير ظهير الدين طغتكين وصار يرسل غاراته على من يعادونه أو يجرحون في ملته، حتى ضاقت بهم صدور الناس وفي ذلك يقول ابن القلانسي: ((... فعظمت المصيبة وجلت المصيبة بظهور آمرهم، وضاقت صدور الفقهاء والمتدينين والعلماء وأهل السنة والمقدمين وأحجم كل منهم من الكلام فيهم والشكوى لواحد منهم دفعا لشرهم وارتقابا لدائرة السوء عليهم لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال ويرافدهم، بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ولا يفل حد شرهم متقدم ولا أمير))[3].

ومن معقله المذكور بدأ بهرام وأتباعه بتصفية كل من وقف ضدهم، وفي أحيان كثيرة كانوا يقتلون من يروا أنه على النهج السوي، ومن ذلك ما فعلوه بصاحب الموصل قسيم الدولة آقسنقر

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 189-191.
[2] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 125.
[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 343.

البرسقي فقتلوه بالمسجد الجامع وهو يصلي الجمعة مع العامة، فخسر العالم الإسلامي بمقتله واحدا من قادة الجهاد ضد الصليبيين والإسماعيلية[1]، ثم حدثته نفسه بقتل برق بن جندل أحد مقدمي واد التيم لغير سبب فخدعه إلى أن تمكن منه فاعتقله وقتله غدرا[2].

وقد أثار هذا العمل الإجرامي ثائرة الضحاك بن جندل أخو برق، وقرر أن ينتقم لأخيه من بهرام وجماعته، فجمع جموعه وزحف بهم إلى بانياس التي قدرت بحوالي ألف رجل، وهناك باغت جيش بهرام فوضع فيهم السيف حتى قتل منهم عددا كبيرا، وعلى رأسهم بهرام نفسه، وقطع رأسه ويده، ومضى بهما بشارة بهلاكهم، أما الذين نجوا من القتل فانهزموا وعادوا فارين إلى بانياس[3].

ويبدو أن بهرام كان عارفا بما ستؤول إليه عمليته تلك، لكنه لم يحتط لذلك جيدا، وكان يعلم أنه سيتعرض للهجوم من أتباع برق بن جندل، لكنه لم يكن يعلم في أي وقت بالضبط، ولذلك جاءت نتيجة الهجوم مباغتة له واستطاعت أن تحدث الهزيمة به وبأتباعه وانتهت في الأخير بمقتله، ولعل هذا ما أشار إليه ابن القلانسي بقوله: ((... فحملت أخاه الضحاك بن جندل وجماعته وأسرته على الطلب بدمه والأخذ بثأره فتجمعوا وتعاهدوا وتعاقدوا ...وقصد ناحية واد التيم للإيقاع بالمذكورين وكانوا مستعدين للقائه مترقبين لحربه... وكان بهرام في خيمته وحوله جماعته من شركائه في جهله وضلالته غافلا عما أحاط به وبطائفته وقد وثبوا عند سماع الضوضاء والصياح إلى أخذ السلاح فأرهقوهم بسيوفهم الماضية وخناجرهم القاضية حتى أتوا على الجميع وقطع رأس بهرام في نفس العام (522هـ/1125م)[4].

بعد مقتل بهرام تولى أمر الباطنية ببلاد الشام صاحب إسماعيل العجمي والذي كان خليفته على بانياس فقام مقامه وجمع فلول الباطنية ورتب أمرهم وبث دعاته في البلاد وساعده في ذلك الوزير أبو علي المزدقاني إذ قام بدمشق مكان بهرام رجلا باطنيا اسمه أبو الوفاء فقوى أمر هذا

---

[1] الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، ص 413. ابن الأثير: نفس المصدر السابق: ج10، ص 633-634.. أبو شامة الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ص 30. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ج4، ص 61.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 352. ابن الأثير: نفس المصدر السابق: ج10، ص 656.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 352-353.ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 656.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 352-353.

الباطني وعلا شأنه وكثر أتباعه حتى أصبح حكمه في دمشق أكثر من حكم تاج الملوك[1] صاحبها[2].

ب-3-أ- استغلال الوزير المزدقاني للباطنية

لم يكتف الوزير المزدقاني بمشايعته للباطنية ومساعدته لهم بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ قام بمراسلة الفرنج على أن يسلم إليهم مدينة دمشق ويسلموا إليه مدينة صور، فاتفقوا على هذا واستقر الأمر بينهم على أن يأتي الفرنج إلى دمشق يوم الجمعة (15ذي القعدة 523هـ/1126) لأخذها، ورتب المزدقاني الأمر كذلك مع الباطنية في دمشق، بقيادة أبي الوفاء على أن يحتاطوا في ذلك اليوم وأن يقفوا على أبواب جامع دمشق، ولا يمكنوا أحدا من الخروج من الجامع حتى يجيء الفرنج ويملكوا المدينة، لكن تاج الملوك بوري صاحب دمشق تفطن إلى هذه المؤامرة، فعزم على التخلص من الباطنية وشرهم، فاستدعى إليه الوزير المزدقاني فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفر[3].

علم باطنية آلموت بما حدث لإخوانهم في الشام وشق عليهم الأمر كثيرا، فعزموا على الانتقام لهم، فندبوا اثنين من الخراسانية الفداوية لقتل تاج الملوك فحضرا إلى دمشق وتدرجا بالحيلة والمكر، إلى أن صارا من المرتبين لحفظ تاج الملوك، ولما تمكنا منه وثبا عليه يوم الخميس 05جمادى الآخرة (525هـ/1131م)، فضربه أحدهما بالسيف طالبا لرأسه، فجرحه في رقبته ولم يتمكن من قتله، وضربه الآخر بسكين فلم يتمكن من قتله، فرمى تاج الملوك بنفسه في الحال عن فرسه سليما، وتكاثر الرجال عليهما وقتلوهما، ثم عولج تاج الملوك فشفي[4].

ب-4- علاقة النزارية بالخلافة العباسية

ورغم ما أصاب النزارية على أيدي القادة المسلمين إلا أنهم لم يتوقفوا عن نشاطهم الإجرامي، ولم تكن لهم أماكن محددة، بل كانوا منتشرين في كافة أرجاء المشرق الإسلامي تقريبا

---

[1] هو تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق، تولى الأمر في دمشق بعد وفاة أبيه سنة 522هـ.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 656. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 2. القلقشندي: نفس المصدر السابق: ج01، ص 121-122.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 656-657. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص 302. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 200. ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 66.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 365-366. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 670.، أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 5.

وقد طالت عملياتهم بالعراق الأمير يل شهر محرم (520هـ/1142م) رغم إحاطته بالحرس، كما قاموا أيضا بقتل لؤلؤ الخادم في نفس السنة[1].

هذا وامتدت أيديهم أيضا إلى قاضي قضاة بغداد زين الإسلام أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي فقتلوه، بعد أن وصلتهم معلومات بأنه عائد من خراسان في مهمة للسلطان سنجر، فعندما نزل بهمذان للصلاة وأخذا قسطا من الراحة، وثب عليه جماعة من الباطنية وطعنوه حتى قتل ثم هربوا دون يتتبع أثرهم أحد خوفا منهم[2]، وفي سنة (524هـ/1127م) تمكن الحشاشون من قتل المعين وزير السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان، ويعود سبب تصفيته إلى عدائه الشديد لهم فقد عمل هذا الأخير على تطهيرهم وتتبعهم، وهو ما جعلهم يحقدون عليه فأرسلوا إليه مجموعة من الباطنية فأجهزوا عليه وقتلوه[3].

كما قتلوا أيضا الخليفة العباسي المسترشد بالله الذي أخرجه السلاجقة إلى أذربيجان سنة (529هـ/1133م)[4]، من أجل ضبط الأحوال ببغداد، لكن هذا الأخير وبينما هو قابع في خيمته إذ أحاط به عدد من الباطنية وقتلوه يوم الخميس (18ذي القعدة 1133م)، واستبشع الناس هذا العمل كونه قد أصاب الخليفة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن قد مر على استخلافه أمور المسلمين سوى عام واحد[5].

وفي سنة (528هـ/1134م) حدث خلاف في مصر بين ولدي الإمام الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد أمير المؤمنين أبي علي الحسن ولي عهد المسلمين وأخوه أبو تراب حيدرة، ونتيجة لذلك انقسمت الأجناد إلى فرقتين مالت إحداها إلى الحشاشين، بينما مالت الأخرى إلى السنة، واستعر القتال بين الطرفين، واستظهر فريق السنة على الحشاشين حتى قتلوا منهم خلقا كثيرا، واستقام الأمر أخيرا لأبي علي الحسن، وصلحت الأحوال واستقامت في مصر بعد ذلك[6].

---

[1] عبد اللطيف عبد الهادي السيد، نفس المرجع السابق، ص 75.
[2] المرجع نفسه، ص 76.
[3] المرجع نفسه، ص 82.
[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 396.
[5] المصدر نفسه، ص 395-396.
[6] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 383-384.

ب-5- علاقة النزارية بالدولة النورية

أما عن علاقة النزارية بدولة نور الدين محمود فإنها لم تختلف عن علاقاتها بكل من رأوا فيه يضر بمصالحهم، ولذلك فإنهم كثيرا ما نصبوا له العداء، ولكن كانت العلاقة في بعض الأحيان تميل إلى التوافق بين الطرفين خدمة لمصالح مشتركة أو ركونا إلى الراحة، أو هدنة من أجل التفرغ لجهات أخرى.

لكن مع بداية دولة نور الدين محمود لم يشأ هذا الأخير أن يدخل معهم في صراعات حفاظا على دولته الناشئة، لكنه اضطر بداية من عام (543هـ/1148م) إلى معاداتهم[1]، وعمد إلى قطع عبارة حي على خير العمل من الأذان وهي العبارة التي يضيفها الشيعة في الأذان، ليتميزوا عن المسلمين السنة[2]، وكان ذلك بدعم من العناصر السنية القيادية، وقد أثار هذا التصرف حفيظة الإسماعيلية النزارية، فتحالفوا مع الصليبيين ضده في معركة إنب في السنة الموالية مباشرة (544هـ/1149م)[3]، ثم توالت من بعد ذلك المواقف العدائية بين الطرفين.

بحيث قاموا سنة (548هـ/1153م)، بإحراق الجامع الكبير بحلب، ونتيجة لذلك عمل نور الدين محمود على إعادة ترميمه وتوسيعه، ثم تواصلت المواجهات بين الطرفين إذ تواجهوا سنة (554هـ/1159م)[4]، وتم على إثر هذه المواجهة تخريب ونهب مدرسة بن عصرون السنية[5]، ويبدو أن حرقهم للمدرسة لم يكن إلا لحقدهم على الدور الذي تؤديه هذه المدرسة من نشر المذهب السني، والتنفير من الباطنية ومذهبهم.

واستمر الخلاف بين الطرفين، إذ كثيرا ما تلقى نور الدين محمود تهديدات بالاغتيال من طرف الباطنية، ولكنهم لم ينفذوا ذلك لأسباب عدة، ثم عادت العلاقات بينهم مرة أخرى إلى الهدوء مع تولي أمر باطنية الشام رجل له شهرة كبيرة وهو سنان راشد (559-589هـ/1163-1193م)، حيث ركن الطرفان إلى الهدوء خدمة لمصالحهم[6].

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص 121.

[2] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 197.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 362-363.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 435.

[5] عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المرجع السابق، ص 84.

[6] ابن واصل: نفس المصدر السابق، ص

هذا وقد أسدى الباطنيون معروفا لنور الدين محمود عندما كانوا يواجهون خصومه الصليبيين أحيانا، ومن ذلك قتلهم لريموند الثاني أمير طرابلس (532-547هـ/1137-1152م)، وكان ذلك بإيعاز من زوجته هوديرن (hodierne)، ابنة بلدوين الثاني وذلك لكثرة الخلافات بينهما، وكان ذلك في سنة (547هـ/1152م)، وبذلك تخلص نور الدين محمود من أحد أكبر خصومه دون مواجهة مباشرة معه[1].

إن المتتبع لتاريخ النزارية لا يكاد يسمع عنهم سوى اغتيالاتهم للشخصيات الكبيرة، سواء من المسلمين السنة أو من الصليبيين وفي أحيان ضئيلة من إخوانهم الفاطميين، وقليلا ما نسمع عن قتلاهم هم خاصة من القيادات، ولعل مرد ذلك إلى إستراتيجيتهم المحكمة والمتمثلة في تنفيذ أوامر رؤسائهم، لكن ذلك لا يعني أنه لم يقتل منهم شخصيات كبيرة، ففي إطار الصراع الذي كان دائرا بينهم وبين نور الدين محمود، قتل زعيمهم علي بن وفا قرب إنب، في (544هـ/1149م)، وفرح المسلمون بمقتله فرحا كبيرا[2].

انتقل سنان من الكهف إلى قلعة مصياف، حيث اتخذها مركزا لقيادته ومنها وجه اهتمامه لإعداد جيل جديد من المحاربين المدربين على الأعمال الفدائية والأمور العسكرية، ورمم القلاع وأمر ببناء قلعة المرقب[3]، واستولى على قلعة العليقة[4] بحيلة بارعة، في هذا الوقت كان نور الدين محمود منهمكا في توحيد الجبهة الإسلامية، وفي أوج انتصاراته على الصليبيين، فلما رأى أن الإسماعيلية يملكون قلاع دولته ويتوسعون في مناطقهم شعر بأنهم خطر عليه، فأخذ يرسل إليهم الحملات العسكرية لتحجيم خطرهم وإخضاعهم، لكن كل هذه الحملات باءت بالفشل فعزم نور الدين على السير إليهم بنفسه على رأس جيش لمحاربة سنان وجماعته، لكنه توفي قبل تحقيق

[1] عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المرجع السابق، ص 85.

[2] المرجع نفسه، ص 87.

[3] المرقب: بلدة وقلعة حصينة تشرف على سواحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح وتع: على محمد البجاوي، دار المعرفة (بيروت)، ط1 (1373هـ/1954م)، ج03، ص 1259.

[4] العليقة: قلعة على جبل مرتفع عال يرى على بعد وهي على نحو ساعة من المينقة. القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص 147.

رغبته سنة (569هـ/1174م)، وخلفه بعده ابنه الصالح إسماعيل، وكان إذاك صغير السن لا يفقه في أمور الحكم والسياسة بحيث لم يتعد سنه في ذلك الوقت إحدى عشرة سنة[1].

وفي (572هـ/1177م) اغتال الحشاشون شهاب الدين بن العجمي وزير الملك الصالح الزنكي في حلب، وكان هذا الأخير وزيرا لنور الدين محمود، غير أن هؤلاء القتلة فشلوا في اغتيال مرافقي الوزير، ويقال بأن سبب اغتيال الوزير هو تحريض سعد الدين كمشتكين، الذي قيل أنه زور توقيع الملك الصالح على ورقة يطلب فيها الملك الصالح من سنان راشد أن يغتال الوزير، وحتى الحشاشين أنفسهم يعترفون بهذا، بحيث قالوا بأنهم يعملون تحت سلطة الملك الصالح، ويبدو أن هذه الاغتيال قد صب في صالح صلاح الدين، بحيث اضطربت على إثره العلاقات بين الزنكيين والحشاشين وهو ما أضعف الجبهتين معا[2].

واستمر النزاع بين الحشاشين والزنكيين، إذ حدث في عام (575هـ/1180م)، أن استولى الملك الصالح على الهجيرة من الحشاشين، ونتيجة لذلك قام سنان راشد بإرسال مجموعة من أتباعه إلى سوق المدينة فأحرقوه وأحدثوا به خسائر فادحة، ولم يتمكن الملك الصالح من معرفة المتسببين في ذلك سوى أنه أدرك بأنها من فعل الحشاشين، ووقف على حقيقة مفادها أنهم على علاقات متينة مع سكان المدينة وإلا كيف يختفون في وقت وجيز ولا يعرف لهم طريق[3].

ب-6- علاقة النزارية بدولة صلاح الدين

وانتقل الملك الصالح من دمشق إلى حلب واستبد به سعد الدين كمشتكين، فخافه شمس الدين بن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم، فسار صلاح الدين في مستهل ربيع الأول سنة (570هـ/1175م) إلى دمشق فملكها، ثم ملك حمص وحماه في نفس السنة[4]، ثم سار إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح إسماعيل، فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا كثيرة ليقتلوا

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق: ج11، ص 405. عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ج2، ص 378-379.محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 100.101.

[2] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 170-171.

[3] المرجع نفسه، ص 171.

[4] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج2، ص 342-343.

صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة من الفداوية فوثبوا على صلاح الدين فجرحوه جراحات مثخنة ثم قتلوا دونه[1].

ويرى بعض المؤرخين كبرنارد لويس أن سبب إقدام سنان راشد على محاولة قتل صلاح الدين ليس فقط بتحريض من سعد الدين كمشتكين، وإنما كان له أساب أخرى، ومنها أن فلول من تبقى من الفاطميين بمصر قد كتبوا إلى سنان راشد يؤكدون له اشتراكهم في عقيدة واحدة، ويحثونه على اتخاذ إجراء ضد صلاح الدين الذي أنهى دولتهم، ورغم أن الفاطميين لم يكونوا على وفاق مع الحشاشين الذين كانوا يرونهم مغتصبين للحق الشرعي في الخلافة، إلا أنه من المحتمل أن تكون هناك فئة ممن أغاضهم الوجود السني بمصر، فراسلوا الحشاشين للقضاء على صلاح الدين، ويمكن أن يكون سنان راشد قد عمل على ذلك خدمة لمصالحه الشخصية[2].

لم يكتف سنان بهذه المحاولة لاغتيال القائد صلاح الدين بل بقي يتربص به، فدبر محاولة ثانية لاغتياله في ذي القعدة من سنة (571هـ/1176م) عندما كان محاصرا لقلعة إعزاز[3]، إذ وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين بيد الباطني، إلا أن الباطني بقي يضرب بالسكين لكن ضربه كان ضعيفا لا يؤثر فأمسك صلاح الدين السكين بكفه فجرحه الباطني، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء باطني آخر فقتل، وجاء ثالث فقتل[4].

بعد هذه المؤامرات عزم صلاح الدين على تطهير بلاد الشام من الإسماعيلية الباطنية والقضاء عليهم فقصدهم في المحرم من سنة (573هـ/1178م) ونهب قراهم، ثم حاصر قلعة مصياف، ونصب عليها المجانيق، وضيق عليها فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي صاحب حماه وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 415- 419. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 56-57. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج5، ص 300.

[2] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 167-168.

[3] إعزاز قلعة من أعمال حلب من العواصم لها رستاق وسوق. وهي أيضا اسم لموضع باليمن. أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعا، عالم الكتب (بيروت)، ط02 (1406هـ/19856م)، ص 307.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 430. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 58. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 293. الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 85.

له: ((إن لم تفعل قتلناك))، فحضر شهاب الدين الحارمي عند صلاح الدين وشفع فيهم وسأله الصفح عنهم، فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم[1].

ركن بعدها صلاح الدين والحشاشين إلى السلم والمهادنة، وفي أحيان أخرى لجأ الطرفان إلى التعاون، لكن تذكر بعض المصادر أن صلاح الدين أرسل إلى الحشاشين مرة يتهددهم فيها بالقضاء عليهم فأجابه رئيسهم برسالة مفادها: ((قرأنا خطابك وفهمنا نصه وفحواه ولاحظنا ما يحتوي عليه من تهديدات لنا بالكلمات والأفعال، ووالله إنه لشيء يدعو إلى الدهشة أن نجد ذبابة تطن في أذن فيل وبعوضة تلدغ تمثالا، كثيرون قبلك قالوا هذه الأشياء ودمرناهم دون أن يشفع لهم شفيع، فهل تبطل الحق وتؤيد الباطل ؟ ((وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ))[2]، إذا كنت حقا قد أصدرت أوامرك بقطع رأسي وتمزيق قلاعي في الجبال الصلدة فإن هذه آمال كاذبة وخيالات واهمة لأن الأساسيات لا تدمرها العارضات كما أن الأرواح لا تدمرها الأمراض، أما إذا عدنا إلى المحسوسات التي تدركها الحواس وتركنا جانبا المعنويات التي تدركها الأذهان فإن لدينا أسوة حسنة برسول الله الذي قال: (لم يقاس نبي مثلما قاسيت) وأنت تعرف ماذا حدث لدعوته وأهل بيته وحزبه، ولكن الموقف لم يتغير والرسالة لم تفشل وحمد الله لا يزال أولا وأخيرا.

إننا مضطهدون ولسنا طغاة محرومون ولسنا حارمين ((وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا))[3]، وأنت تعرف ظاهر أحوالنا وقدر رجالنا، وما يمكن أن يحققوه في لحظة واحدة وكيف يحبون الموت ((قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ))[4]، والمثل الشائع يقول إنك لا تستطيع أن تهدد بطة بإلقائها في النهر، فخذ كل ما في استطاعتك اتخاذه من احتياطات دون الكوارث والفواجع فإنني هازمك من داخل صفوفك، ومنتقم منك في مكانك، وستكون كمن

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 436. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 59. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج5، ص 340. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج01، ص 62.

[2] سورة الشعراء: الآية 227.

[3] سورة الإسراء: الآية 81.

[4] سورة البقرة: الآية 94.

يدمر نفسه بنفسه (وما ذلك على الله بعسير)، عندما تقرأ خطابنا هذا فارتقبنا وترحم على نفسك واقرأ أول النحل وآخر صاد))[1].

وهناك قصة أكثر إثارة يحكيها كمال الدين بن العديم نقلا عن أخيه فيقول: ((أخبرني أخي عليه رحمة الله أن سنان أرسل مبعوثا إلى صلاح الدين رحمة الله عليه، وأمره أن يسلم رسالته دون أحد فأمر صلاح الدين بتفتيشه وعندما لم يجدوا معه شيئا خطيرا أمر صلاح الدين بالمجلس فانفض ولم يعد ثمة سوى عدد قليل من الناس، وأمر المبعوث أن يأتي برسالته، ولكن المبعوث قال: ((أمرني سيدي ألا أقدم الرسالة إلا في عدم حضور أحد))، فأمر صلاح الدين بإخلاء القاعة تماما إلا من اثنين من المماليك يقفان عند رأسه وقال: ائت برسالتك، ولكن مبعوث سنان أجاب: ((لقد أمرت بألا أقدم الرسالة في حضور أحد على الإطلاق))، فقال صلاح الدين: ((هذان المملوكان لا يفترقان عني فإذا أردت فقدم رسالتك وإلا فارحل))، فقال المبعوث: ((لماذا لا تصرف هذين الاثنين كما صرفت الآخرين ؟))، فأجاب صلاح الدين: ((إنني أعتبرهما في منزلة أبنائي وهم وأنا واحد))، عندئذ التفت العبد إلى المملوكين وسألهما: ((إذا أمرتكما باسم سيدي أن تقتلا هذا السلطان فهل تفعلان ؟))، فردا قائلين: وجردا سيفيهما وقالا: ((أأمرنا بما شئت))، فدهش صلاح الدين عليه رحمة الله، وغادر المبعوث المكان وأخذ معه المملوكين، ومنذ ذلك الحين مال صلاح الدين عليه رحمة الله إلى مسالمة سنان والدخول معه في علاقات ودية والله أعلم))[2].

ب-6-أ- استغلال صلاح الدين للباطنية

يبدو أن الإسماعيلية من ذلك التاريخ دخلوا في طاعة صلاح الدين وأصبح يستخدمهم في اغتيال أمراء وملوك الصليبيين، ففي سنة (588هـ/1192م) أوعز صلاح الدين إلى مقدم الإسماعيلية بالشام وهو سنان بقتل المركيس الفرنجي صاحب صور كونراد دي مونتفرات، فأرسل رجلين من الباطنية في زي الرهبان إلى صور ومكثا هناك ستة أشهر يظهران العبادة حتى آنس بهما المركيس ووثق بهما، فلما تمكنا منه وثب عليه الباطنيان فجرحاه جراحا بليغة، وهرب أحدهما

---

[1] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 169-170.

[2] المرجع نفسه، ص 170.

ودخل كنيسة يختفي فيها، فحمل المركيس إلى هذه الكنيسة لمعالجة جراحه فوثب عليه ذلك الباطني فقتله، وقتل الباطنيان بعده[1].

ويرى بعض المؤرخين أن مقتل كونراد دي مونتفرات لم يكن بتحريض من صلاح الدين الأيوبي، وإنما كان بسب الخلاف الذي جرى بينهما، بحيث يقول ستيفن رنسيمان مؤرخ الحروب الصليبية، بأن كونراد اتهم زعيم الحشاشين سنان راشد بأنه قد اعتدى على سفينة له ونهبها، وأنه (سنان راشد) كان يخشى من قيام دولة قوية للصليبيين على الساحل الشامي، وبذلك يضيق الخناق على حكات الباطنية، فقرر قتله والتخلص منه[2].

غير أن بعض المؤرخين المعاصرين يروا عكس ذلك ويعتقدون أن صلاح الدين ليس من شيمه أن يقوم بالاغتيالات ولو كان ذلك على حساب أعدائه، والدليل على ذلك هو الاتفاق الذي جرى بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، في الرملة سنة 587هـ/1192م، كان من بنوده أن يدخل صلاح الدين بلاد الحشاشين ويتسلمها[3].

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 78-79. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج5، ص 381.أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 82.

[2] ستيفن رنسيمان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 111.

[3] عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المرجع السابق، ص 91.

المبحث الرابع: علاقة النصيرية والدروز بالمسلمين السنة

1- علاقة الدروز بأهل السنة

أ- عقائديا

وعلى غرار باقي الحركات الباطنية فقد عمل أهل السنة على التصدي للدروز من الناحية العقائدية منذ أن ظهر مذهبهم إلى الوجود لما رأوا فيه من مفاسد، ففي القاهرة قام بعض العلماء من أهل السنة بالثورة على حسن بن حيدرة الفرغاني الأخرم وهو أول من جهر بدعوى ألوهية الحاكم، فقتلوه لهذا السبب، إذ لم يتقبل المجتمع المصري آنذاك وخاصة أهل السنة منهم فكرة ألوهية البشر، فثاروا عليها، رغم أنها كانت تحظى بتأييد من الخليفة الحاكم آنذاك شخصيا[1].

ثم ثار علماء السنة بعد ذلك أيضا على محمد بن إسماعيل الدَّرَزي، وهو صاحب دعوة التأليه، وكان ذلك عندما أعلن ألوهية الحاكم في جامع الأزهر، فتتبعه أهل السنة يريدون رأسه لكنه نأى بنفسه إلى خارج مصر، وقيل أن الحاكم هو من سهل له أمر الخروج من مصر حتى أنه منحه الدعم المادي والمعنوي، وسيره إلى بلاد الشام التي كانت تخضع لسلطانه، وأمره بنشر الدعوة هناك، ويعود السبب الرئيس في تهريب الدرزي إلى خارج مصر من الخليفة نفسه، هو الثورة التي أحدثها أهل السنة بعدم تقبلهم فكرة حلول الله في جسم الناسوت، رغم أنهم كانوا تحت سلطان من قيل فيه أنه هو الإله، وقد ذكر أن الخليفة الحاكم بأمر الله لما رأى ردة الفعل القوية من جانب أهل السنة، أعلن براءته من هذه الدعوى، لكنه سهل لمن ادعاها بالخروج من مصر[2].

أ-1- فتاوى علماء السنة في طائفة الدروز

أ-1- أ- فتاوى ابن تيمية

وتصدى أيضا أهل السنة لطائفة الدروز بإصدار الفتاوى في جواز التعامل معهم من عدمه، فهاهو الشيخ ابن تيمية يجيب أحد السائلين عن حكم الدروز بأن الدروز كفار باتفاق المسلمين، ولا تحل ذبائحهم، ولا الزواج منهم، ولا يقرون بالجزية لأنهم مرتدون عن الإسلام، ولأنهم لا يؤمنون بالصلاة ولا الزكاة ولا الصوم، كما أنهم لا يحرمون ما حرم الله ولا ينتهون عن

---

[1] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 283. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 75. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 273.

[2] ماكس أوبنهايم: نفس المرجع السابق، ص 45. محمد كامل حسين: نفس المرجع السابق، ص 77. يوسف إبراهيم الشيخ: نفس المرجع السابق، ص93.

نواهيه، وعليه لا يجوز لمسلم أن يعاملهم في حياته اليومية، ولا يجوز له أن يستند إليهم ، ولا أن يأمنهم على أمانة يرعونها، ((وأما الدرزية فأتباع هشتكين[1] الدرزي، وكان من موالي الحاكم، أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة، فدعاهم إلى إلهية الحاكم، ويسمونه الباري، العلام ويحلفون به، وهم من الإسماعيلية القائلين بأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله، وهم أعظم كفرا من الغالية، يقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله، أو مجوسا، وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس، ويظهرون التشيع نفاقا، واللّه أعلم))[2].

ويستطرد الشيخ في كلامه عن الدروز في موضع آخر من فتاويه، فيقول بأنهم كفار وأن من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم، لأنهم ليسوا من جنس أهل الكتاب ولا المشركين بل هم الكفرة الضالون، ((كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم، لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين، بل هم الكفرة الضالون فلا يباح أكل طعامهم، وتسبى نساؤهم، وتؤخذ أموالهم، فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم، بل يقتلون أينما ثقفوا، ويلعنون كما وصفوا، ولا يجوز استخدامهم للحراسة والبوابة والحفاظ ويجب قتل علمائهم وصلحائهم لئلا يضلوا غيرهم، ويحرم النوم معهم في بيوتهم، ورفقتهم، والمشي معهم، وتشييع جنائزهم إذا علم موتها، ويحرم على ولاة أمور المسلمين إضاعة ما أمر الله من إقامة الحدود عليهم بأي شيء يراه المقيم لا المقام عليه. والله المستعان وعليه التكلان))[3].

ب- عسكريا

تجدر الإشارة إلى أن الديانة الدرزية لما ظهرت إلى الوجود في وادي التيم، كانت ديانة منعزلة لا يؤمن بها إلا اليسير من الناس، لكنها استمرت في التطور، حتى اعتنقها الكثير من الشخصيات الكبيرة، مثل الأمراء، فارتفع شأنها وكثر عددها، حتى سارعت بعض القوى المجاورة إلى عقد التحالفات معها.

---

[1] اسمه الصحيح هو نشتكين وليس هشتكين، ولا ندري سبب الخطأ من الشيخ بن تيمية.

[2] أحمد بن تيمية: نفس المصدر السابق، ج35، ص 161.

[3] المصدر نفسه، ص 162.

ب-1- الأسرة الشهابية

وكان من ضمن من اعتنق هذه الديانة العديد من الأسر العربية التي قطنت أرض الشام عبر مراحل متفاوتة، ومن هذه الأسر نذكر أسرة الشهابية التي تنسب إلى مالك الملقب بشهاب وهو من قبيلة مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر المسمى قريشا، وهي إحدى القبائل العربية التي قطنت أرض الشام أثناء الفتح الإسلامي لأرض الشام[1].

لعبت هذه الأسرة دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي عصر الحروب الصليبية، وسبب ذلك أنه لما وقعت الوحشة بين نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، مال الأمراء الشهابيون إلى صلاح الدين لما وفد على بلاد الشام، وساعدوه على محاربة الإفرنج، حتى أنه كان يقدم الكثير منهم في جيشه، ولا ندري سبب إقدام صلاح الدين على ذلك، لكن يبدو أنه افتعل ذلك لاقتناعه بقوتهم وشجاعتهم رغم الاختلاف المذهبي الواضح بين الفريقين[2].

ولما وقع الخلاف ثانية بين نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي ارتأى الأمير منقذ وهو من أسرة الشهابيين، أن ينأى بنفسه عن الخلاف فاستشار أهله في الرحيل حتى لا يضايقهم نور الدين خاصة وأنهم عاضدوا خصمه سابقا، فوافقوه على الرحيل من إقليم حوران[3]، إلى صحراء الجسر اليعقوبي، ولما سمع نور الدين بذلك راسلهم يشكرهم على حسن صنيعهم، وخلع عليهم سنة (569هـ/1173م)، كما طلب منهم العودة إلى مقرهم فأبوا، ثم طلب منهم المسير إليه في دمشق والاستقرار إلى جانبه إلا أنهم اعتذروا وفضلوا سكنى الخيام والبادية، فأقرهم على ما يريدون[4].

ولما علم بهم الإفرنج المقيمون في حاصبيا جمعوا لهم، ونازلوهم تحت زعامة قنطورا (الكونت دوريا)[5]، ورغم أن الموازين لم تكن متكافئة إذ بلغت عساكر الفرنج أكثر من خمسين ألفا، إضافة إلى قوات صاحب قلعة الشقيف الذي أمدهم بما يقارب الخمسة عشر ألفا، وكان عدد الشهابيين

---

[1] طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، مر: فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية (بيروت)، ط1 (1970م)، ج1، ص 35-36.

[2] المصدر نفسه، ص 37.

[3] حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، قصبتها بُصرى. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 317.

[4] طنوس الشدياق: نفس المصدر السابق، ج1، ص 37.

[5] ماكس أوبنهايم: نفس المرجع السابق، ص 70-71.

لا يتعدى الخمسة عشر ألفا إلا أنهم انتصروا على القوات المتحالفة انتصارا كبيرا، وقتلوا عددا كبيرا من القوات الفرنجية كما اسروا عددا لا بأس به، وفر الكونت دوريا ومن معه إلى قلعة حاصبيا، وحاصرهم الشهابيون مدة عشرة أيام، ثم تملكوا القلعة بالسيف، وقتلوا الكونت دوريا وأتباعه، وأرسل رؤوسهم إلى نور الدين محمود، فاغتبط لذلك، وولاّه أميرا على منطقة تلك المنطقة وخلع عليه[1].

ولما توفي نور الدين محمود أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى الأمير منقذ الشهابي يهنيه على نصره ضد الفرنج، وخلع عليه وأقره على البلاد التي افتتحها من الصليبيين، ولأجل ذلك راسله صاحب قلعة الشقيف الإفرنجي المدعو "ذفاتر" يطلب الصلح فقبل منه الأمير منقذ، ثم تلقى الأخير التهاني من إخوانه المعنيين (أسرة معن) أصحاب قلعة الشوف، على إنجازه ضد الإفرنج، ويطلب من الدخول في طاعته، فقبل منه ذلك[2].

تجدر الإشارة إلى أن هذه المعلومات كلها وردت في كتاب الشدياق، وهي معلومات لم ترد في مصادر التاريخ الإسلامي حسبي بحثنا المتواضع فيها وإلى حد علمنا، ولذلك لا ندري صحتها من سقمها غير أننا ذكرناها لأنها الوحيدة المتوفرة لدينا، والشدياق يعد مصدرا مهما في تاريخ الدروز وجبل لبنان عموما، ومصادره التي اعتمدها في التأريخ للمنطقة أغلبها مسيحية وهي غير متاحة للجميع على حد علمنا.

ب-2- الأسرة التنوخية

وهي أسرة عربية تعود أصولها إلى تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن طيء بن تميم بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة المعروف بماء السماء، انتقلت هذه الأسرة إلى بلاد الشام مع بداية القرن (الثالث الهجري، التاسع ميلادي)، واستقرت هناك[3]، ثم اعتنق أمراؤها المذهب الدرزي لما ظهر ببلاد الشام، وأصبح لها دور كبير مع مرور الزمن، حيث لاقت تعاطفا كبيرا من القوى المتصارعة ببلاد الشام سواء الإسلامية أو الصليبية، ولذلك جاء دورها في الساحة السياسية متباينا بين التحالف مع طرف ضد الآخر، ثم نقض العهد مع المتحالَف معه، والتحالف مع خصمه.

[1] طنوس الشدياق، نفس المصدر السابق، ج1، ص 38.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص 38.

[3] المصدر نفسه،ج1، ص 217.

ومن صيغ التحالف الذي عقده الأمراء التنوخيون مع أهل السنة، أن الأمير التنوخي بحتر بن علي الملقب بناهض الدين، تلقى كتابا من سلطان دمشق مجير الدين أبق سنة (542هـ/1147م)، يأمره بتقديم ما هو مقرر عليه من الضياع التي يحكمها، وتقديمها للسلطان، ويحذره من مغبة العصيان، فرضي الأمير بحتر بذلك ولم يبد رفضه للأمر السلطاني[1].

عمل أبو العشائر على مناهضة الفرنج كلما سنحت الفرصة لذلك، فجرت بين الطرفين عدة وقائع كانت أشهرها وأكبرها "معركة رأس التينة" التي حدثت سنة (546هـ/1151)، وانتهت بهزيمة ساحقة للفرنج فقتل منهم خلق كثير، وفر بقيتهم إلى المناطق المجاورة، واستمر أبو العشائر على سياسته العدائية ضد الفرنج إلى أن توفي سنة (552هـ/1157م)[2].

واستمرت الأسرة التنوخية في ولائها للقوى السنية الكبرى، إذ ولى نور الدين محمود سنة (555هـ/1160م)، الأمير التنوخي كرامة بن بحتر الملقب بزهر الدولة، على بعض الإقطاعات في وادي التيم وهي القنيطرة وجلبايا[3] والظهر الأحمر، وبرجا والمعاصر والدامور وشارون ومجدل وكفرعمية، ومنحه عددا وعدة لقاء محاربة الفرنج، واستمر على ذلك وفيا لخدمة نور الدين محمود إلى أن وافته المنية[4].

وفي سنة (557هـ/1162م) راسل الوزير العبيدي ضرغام الأمير التنوخي علي الملقب بزهر الدولة كرامة، يحثه على إبعاد الأمراء عن معاضدة نور الدين محمود لأنه متحالف مع خصمه شاور، فلما أن بلغ ذلك نور الدين محمود حتى ثارت ثائرته على زهر الدولة كرامة وتغير عليه، واستمرت الوحشة بين الطرفين إلى أن توفي زهر الدولة كرامة، تاركا وراءه أربعة من الولد وقع الثلاثة الكبار في كمين للفرنج فقتلوا بينما تمكن رابعهم من الفرار وصار له دور فيما بعد[5].

ترك الأمير كرامة بن بحتر أربعة من الولد، لم يسيروا على خطى والدهم غير واحد منهم، بينما شايع الثلاثة الآخرون الفرنج، حتى غافلوهم يوما وقضوا على ملكهم، ولم يبق إلا الابن

---

[1] صالح بن يحي: تاريخ بيروت وأخبار الأئمة البحتريين من بني الغرب، تع: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية (بيروت)، ط2 (1927م)، ص 45. الشدياق، نفس المصدر السابق، ج1، ص 217.

[2] صالح بن يحي: المصدر السابق، ص 45-46. الشدياق، نفس المصدر السابق، ج1، ص 217.

[3] ذكرها صالح بن يحي باسم "ثعلبايا"، ولا ندري صحة ما قاله، لكننا نرجحه لكونه أقرب إليها تاريخيا وجغرافيا. أنظر صالح بن يحي، المصدر السابق، ص 49.

[4] صالح بن يحي: المصدر السابق، ص 48-49. الشدياق، نفس المصدر السابق، ج1، ص 218.

[5] صالح بن يحي: المصدر السابق، ص 51-52. الشدياق، نفس المصدر السابق ، ج2، ص 508.

حجي الذي لم يسقط في لعبة الفرنج، وشايع صلاح الدين الأيوبي، ولذلك لما افتتح هذا الأخير مدينة بيروت سنة (583هـ/1187م)، التقى الأمير التنوخي حجي، وأقره على ما كان بيد أبيه من قبل وطيب خاطره بذلك، جزاء صدقه ووفائه للسلطان[1].

وبعد أن تمكن الفرنج من الثلاثة الأوائل ساروا إلى حصن عرمون، وكان عليه الأمير التنوخي عرف الدولة علي بن بحتر، والتقى الطرفان في معركة ضارية انتهت بانتصار الأمير على الفرنج، ولما علم به الملك الصالح بن نور الدين محمود راسله يهنئه على نصره، ويقره على إمارة الغرب كما كانت لأسلافه من قبل[2].

ب-3- أسرة أرسلان

وهي أسرة عربية تعود أصولها إلى الأمير أرسلان بن مالك المسلسل بن الملك المنذر الملقب بالمغرور بن الملك النعمان الشهير بأبي قابوس، بن الملك المنذر الملقب بماء السماء اللخمي، استقرت هذه الأسرة ببلاد الشام منذ وقت مبكر[3]، ثم اعتنقت الدرزية كمعتقد ديني لما انتشر هذا المذهب بأرض الشام أواسط القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، واشتهرت هذه الأسرة أيضا بقوتها كمثيلاتها من الأسر العربية، ولذلك لفتت أنظار القوى المتصارعة آنذاك على بلاد الشام، حيث عملت كل قوة على التحالف معها، ومن ذلك أن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله كان قد راسل الأمير الأرسلاني شجاع الدولة عمر بن عيسى بن موسى، لينضم إلى قوات ناصر الدولة بن حمدان أمير دمشق، ويسروا معا لمحاربة شمال بن مرداس في حلب، فسار إليه على الفور الأمير عمر بجيشه، لكنهما انهزما أمام القوات المرداسية، فغضب المستنصر عليهما وأمر بالقبض عليهما من طرف الأمير مظفر الصقلي، فقبض عليهما وسيرهما إلى الخليفة في مصر، وعين مكان الأمير الأرسلاني الأمير شرف الدولة أبا سعيد قابوس بن فاتك بن منصور إمارة بيروت والغرب،

---

[1] Yves gravelle, le probleme des prisonniers de guerre pendant les croisades orientales(1095-1192), mémoire presente pour obtenir la maitrase Es arts en histoire, université de sherbooke (canda), 1999, p34. الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 508.

[2] صالح بن يحي: المصدر السابق، ص 51. الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 508.

[3] الشدياق: المصدر السابق، ج1، ص 128.

لكن المستنصر لم يلبث أن سرح الأمير شجاع الدولة عمر وناصر الدولة بن حمدان، وأعاد الأول إلى منصبه أميرا على إقطاعه الذي كان فيه[1].

وفي سنة (484هـ/1081م) كتب تاج الدين تتش السلجوقي أمير دمشق، كتابا إلى الأمير الأرسلاني شجاع الدولة يستدعيه إلى طاعته ويحثه على غزو الفرنج[2]، ولم يذكر الشدياق إن كان قد وافق الأمير شجاع الدولة على أمر السلطان تتش أم لا، لكن يرجح أنه وافق على ذلك، إذ لم نجد عبر تاريخ الأسر العربية ببلاد الشام، أن رفضت إحداها أمرا من سلطان قوي سواء كان مسلما أو نصرانيا.

توفي الأمير شجاع الدولة سنة (491هـ/1088م)، وخلفه ابنه علي الذي لقب بعضد الدولة شمس المعالي أبي المحاسن، واستمر هو الآخر على سياسة والده، معاديا للفرنج، فأرسل إلى نهر الكلب مجموعة من الرجال يكمنون للأمير بلدوين أخي جودفري ملك بيت المقدس سنة (493هـ/1100م)، لكنه باغتهم وظفر بهم، وواصل طريقه باتجاه بيت المقدس[3]، وفي السنة الموالية أيضا أرسل الأمير عضد الدولة رجالا يعترضون طريق الأمير الصليبي ريموند، عند نهر الكلب، وكان عدد منم أرسلهم عضد الدولة كبيرا، لكنهم انهزموا أمام قوات ريموند بعد أن وصلتها النجدة الملكية من بيت المقدس، فتراجع عضد الدولة إلى بيروت، واستقر بها، ولما أن سمع شمس الملوك دقاق ملك بيت المقدس بهذه الهزيمة، أرسل إلى عضد الدولة يوليه إمارة صيدا وبيروت معا، وأوصاه بالحفاظ على المدينتين فاستقر على ذلك[4].

وكان من نتيجة هذا العداء بين عضد الدولة والصليبيين، أن سار ملك بيت المقدس بلدوين سنة (503هـ/1110م)، إلى بيروت يريد السيطرة عليها فحاصرها وضيق عليها برا وبحرا، لكنه عجز عن تملكها، فراسل بلدوين بعض السكان المحليين من المتنصرين وبعضا من الفرنج المقيمين على السواحل، فأنجدوه، وسار بهم ناحية وادي التيم فقتل به خلقا كثيرا من العامة والأمراء، وأسر عددا آخر[5].

[1] المصدر نفسه، ج2، ص 505.

[2] المصدر نفسه، ص 506.

[3] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 505.

[4] المصدر نفسه.

[5] المصدر نفسه، ص 507.

ثم سار بلدوين إلى بيروت وضيق عليها الحصار مرة أخرى إلى أن دخلها عنوة بعد شهرين من الحصار، وقتل بها خلقا كثيرا بما فيهم أميرها عضد الدولة علي، وفي اليوم الموالي قام بقتل كل الأسرى، وخرج باتجاه مدينة صيدا للسيطرة عليها، وكان عليها الأمير مجد الدولة محمد بن عدي، إذ لما طال عليهم الحصار قرر تسليم المدينة صلحا، وخرج باتجاه وادي التيم واستقر به بعد أن رمم خرابه[1].

وفي سنة (520هـ/1126م) كاتبه ملك دمشق ظهير الدين طغتكين، يقره على إمارته، وحثه على منازلة الإفرنج، فعمل بذلك واستمر على حاله إلى أن قتل في أرض البرج، وخلفه الأمير ناهض الدين أبو العشائر بحتر بن عضد الدولة علي بن عمر، وهو من الأسرة التنوخية، وصارت له هو الآخر هيبة فراسله ملك دمشق مجير الدين أبق سنة (542هـ/1147م)، يقره على إمارته ويحثه على غزو الفرنج[2].

2- علاقة النصيرية بالمسلمين السنة

أ- عقائديا

2-أ-1- نظرة النصيرية إلى عقيدة أهل السنة والجماعة

لم يحدث أن اتفق النصيرية مع أهل السنة في العقيدة، فهم متطرفون في اعتقاداتهم التي لم يقل بها الإسلام، والتي أشرنا إلى بعض منها في سياق تعريفنا للطائفة، ومن ذلك قولهم بألوهية علي بن أبي طالب، وهو أمر لا يقبل عند أهل السنة الذين لا يؤمنون إلا بالله الواحد الأحد الخالق لهذا الكون بما فيه، وقولهم بتناسخ الأرواح أي انتقالها من درجة عليا إلى درجة أدنى، وقد يتدرج الإنسان من درجة البشر إلى درجة الحيوان عقوبة له على سوء عمل قام به في دنياه، وحقيقة الأمر أن مفاسد معتقداتهم كثيرة لا تحصى، فلا يسعنا المقام لعدها الآن، لكننا سنعرج على المعتقدات التي تربطهم بأهل السنة، نزولا عند متطلبات البحث.

ولعل ما يربط العلاقة بين طائفة النصيرية وأهل السنة في جانب العقيدة، هو نظرة الكره والحقد لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جانب النصيريين، وإن كان هذا الموضوع بعيدا نوعا ما عن فترة الدراسة المنحصرة ما بين القرنين الخامس والسادس هجريين، إلا أننا ارتأينا أن

---

[1] المصدر نفسه.

[2] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 507.

نذكرها، لأن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالة الإسلام، وتوقير الصحابة والإقتداء بهم من صلب العقيدة السنية الصحيحة، وهي في حقيقة الأمر صالحة لكل زمان ومكان، وما يدعم هذا القول، هو أنه حدثت بعض المساجلات الكلامية بين الطرفين في هذا الشأن، وصدرت بعض الفتاوى من شيوخ الإسلام في حق النصيريين لأجل تطاولهم على الدين الإسلامي وعلى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

إذا فالنصيريون كغيرهم من فرق الشيعة الغالية، يبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتقدون أن كل من آمن منهم بعد الهجرة لا يعتبر إيمانه كاملا لأنه من قبيل إيمان اليأس... حتى ولو كان فيهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، ويقولون بأن العباس والباقين من قريش وخصوصا الأمويين لم يهاجروا ولم يؤمنوا حقا[2]، والعباس أيضا لم يؤمن إلا بعد أن أسره المسلمون، وهو الذي أنقذ أبا سفيان من الأسر والوقوع في أيدي المسلمين وظل صديقا له حتى الموت[3]، ويعتقدون أن من المسلمين من ظل يعبد الأصنام سرا ويتظاهر بالإسلام خشية من سطوة علي، ومن هؤلاء أبو سفيان وابنه معاوية اللذان أسلما قبل فتح مكة بقليل[4].

لذلك اعتبر النصيريون شتم صحابة رسول الله الغاصبين لحقوق أهل البيت في نظرهم من الفرائض الدينية، ويقول صاحب كتاب تاريخ العلويين: ((وهكذا اتخذ العلويون المسبة لمن خالفوا أهل البيت فريضة إلى يوم الدين، وهم يشملون بالمسبة كل من عادى الرسول، وكل من عادى فاطمة ولو كان صاحب علي، وكل من عادى الحسنين ولو صاحب آباءهم، وكل من عادى بقية الأئمة الإثني عشر، وسبب ذلك في اعتقاد العلويين أن الأئمة الإثني عشر وآباءهم معصومون، فالمخالفة لأحدهم تكون مخالفة للعصمة)).

ويقولون بأن من أسلم من قريش بعد التحاق علي بالنبي لم يكن كامل الإيمان ولو كان ممن لم يعادوا أهل البيت[5]، ومع كره النصيريين للصحابة، إلا أنهم يخصون نفرا منهم ببغضهم الشديد، أمثال سيدنا أبي بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا معاوية رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

[1] تاريخ العلويين، ص 65. سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 95.

[2] تاريخ العلويين، ص 66.

[3] المرجع نفسه، ص 66.

[4] المرجع نفسه، ص 68

[5] المرجع نفسه، ص 116. سليمان الحلبي، نفس المرجع السابق، ص 96.

ومع أن النصيريين يتسمون بالأسماء الإسلامية والأسماء المسيحية كما يقول فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب[1]، إلا أنهم يرفضون رفضا قاطعا أن يتسموا بأسماء هؤلاء الثلاثة، حقد منهم وكرها فيهم، وقد بلغ من كرههم لهؤلاء الصحابة أن يقوم البعض منهم (النصيريون) بتعذيب حيواناته حتى تحل فيه روح أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان رضي الله عنهم[2]، ((وهم متأثرون في الأخذ بهذا الأصل بالديانة البرهمية ، وكانت أصولها شائعة معروفة لدى الفرس))[3].

ولا ندري السبب الواضح في كره النصيريين لهؤلاء الثلاثة، لكننا نعتقد أن ما قام به هؤلاء من بناء لدولة الإسلام وتحطيم المناوئين لها، بدءا بالمرتدين في عهد أبي بكر، ثم الفرس والروم في عهدي عمر وعثمان هو سبب ذلك، فالنصيريون وحسب عقيدتهم الفاسدة لم يرقهم ازدهار الإسلام وانتشاره الواسع، وهو الذي كبح مهندسيهم الأوائل ومنعهم من نشر شرورهم في دولة الإسلام الناشئة، ولذلك كانوا يحقدون عليهم أكثر ممن جاؤوا بعدهم، وما زعمهم لمحبة علي وأبنائه من بعده إلا كذب وتقية منهم، لأن ما مارسوه بعدهم من طقوس مشينة للإسلام إلا دليل على ما نقول[4]، حتى انه قد بلغت بهم الجرأة أن تطاولوا على من يدعون أنه ربهم وهو علي بن أبي طالب شخصيا، فقالوا عن زواجه بأم كلثوم بنت عمر بن الخطاب كلاما بليغا، لا يسعنا المقام لذكره هنا[5].

2-أ-2- نظرة أهل السنة والجماعة إلى عقيدة النصيريين

يعتقد أهل السنة والجماعة أن النصيريين أخطر من اليهود والنصارى، بل وأخطر من الطوائف والأحزاب الإسلامية، والسبب في ذلك أنهم مندسين داخل المجتمعات الإسلامية ولا يظهرون سيء معتقدهم إلا لمن يعرفونه كاتما له، ولذلك يقولون بأن المندسين أشد خطرا لكونهم غير معروفين، وأما الظاهرون فهم معلومون لدى عامة الناس وليس من الصعب التعامل معهم لأن خطرهم واضح جلي[6].

---

[1] فيليب حتي: تاريخ العرب المطول، ج2، ص 539.

[2] ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل، ج04، ص 182.

[3] أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد- الهند)، ط1 (1377هـ/1958م).ص 38. سليمان الحلبي، ص 97.

[4] المرجع نفسه، ص 97.

[5] أنظر الملحق رقم 03.

[6] المرجع نفسه، ص 122.

ولأجل ذلك اجتهد أحد علماء السنة وهو شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمود بن مري الشافعي، في معرفة حكم التعامل مع النصيريين في الحياة اليومية، فأرسل مجموعة من الأسئلة في هذا الشأن إلى الشيخ ابن تيمية يطلب منه إجابة على ذلك، نحاول أن نذكرها على سبيل الاختصار على أننا سنحيل القارئ إلى نص الأسئلة كاملا في ملاحق البحث، مع إجابة الشيخ بن تيمية على ذلك، فيقول المستفتي:

أولا– نص السؤال

- ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد شغب المبطلين في النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسخ الأرواح، وقدم العالم وإنكار البعث والنشور والجنة والنار في غير الحياة الدنيا...؟ [1].
- هل يجوز لمسلم أن يزوجهم أو يتزوج منهم ؟ وهل يجوز أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا ؟ وما حكم الجبن المعمول من أنفحة ذبيحتهم ؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم أيضا ؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا ؟ وهل يجوز استخلافهم في ثغور الإسلام وتسليمها إليهم أم لا ؟ وهل يجب على ولي الأمر قطعهم واستخدام غيرهم من المسلمين الكفاة ؟
- وهل يأثم إذا أخذ في طردهم واستخدام غيرهم ؟ أم يجوز له التمهل مع أنه في عزمه ذلك؟
- وهل يعد مجاهد النصيرية المذكورين مرابطا، ويكون أجره كأجر من رابط في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الإفرنج أم هذا أكثر جزاء ؟
- وهل يجب على من عرف المذكورين ومذهبهم أن يشهر أمرهم ويساعد على إظهار باطلهم وإظهار الإسلام بينهم، فلعل أن الله يجعل ذريتهم وأولادهم مسلمين، أم يجوز له التغافل والإهمال؟ وما أجر المجتهد على ذلك، والمجاهد فيه والمرابط والعازم عليه ؟ [2].

ثانيا– جواب الشيخ ابن تيمية عن السؤال

جاء رد الشيخ بن تيمية على سؤال الفقيه الشافعي، واضحا وقويا وصادما للنصيريين ومن نحى نحوهم، إذ حرم التعامل معهم تحريما قاطعا، ووصفهم بأنهم أكفر من اليهود والنصارى[3]، حتى

---

[1] أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة المنورة)، ط1 (1425هـ/2004م)، ج35، ص 145.

[2] أحمد بن تيمية: نفس المصدر السابق، ج35، ص 148-149.

[3] المصدر نفسه، ص 149.

أنه اتهمهم بأنهم السبب في استحواذ النصارى والتتار على بلاد الإسلام[1]، ولذلك قال بأنه لا يجوز لأي مسلم أن يناكحهم، ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة[2]، ولا تباح ذبائحهم، وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان مشهوران للعلماء،أحدهما يجيزه والآخر لا يجيزه، ولكل منهما أدلته وإن كانت أدلة الذين يحرمون أقوى[3]، هذا وحرم الشيخ أيضا استعمال أواني النصيريين، إلا أذا غسلت من جديد، وأن ذبائحهم ليست حلال وهي في عداد الميتة[4].

كما حرم أيضا دفن الموتى النصيريين في مقابر المسلمين، وكذا الصلاة على ميّتهم، لأنهم منافقون والله سبحانه وتعالى حرم الصلاة على المنافقين[5]، هذا وحرم الشيخ ابن تيمية أيضا استعمال النصيريين على ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم، ورأى بأنه من الكبائر أن يوضعوا فيها، إذ ليس من الصحيح أن يُستأمن الذئب على الغنم، من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة[6] ولذلك يتوجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة فلا يتركون في ثغر، ولا في غير ثغر[7]، وله أن يسارع إلى عزلهم من مناصبهم في في ثغور المسلمين وقت ما علم بذلك، وإلا فهو آثم على تركهم فيه[8].

وأكثر من ذلك يقول ابن تيمية جهاد النصيريين وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، لأنه جهاد المرتدين، لأن المرتدين اخطر من الكفار فهم أبناء العمومة وهم الأدرى بشؤون البلد الداخلية ومكامن قوته وضعفه، وعليه توجب جهادهم وتقدم على جهاد الكفار والمشركين من غير المرتدين[9].

---

[1] المصدر نفسه، ص 150-151.

[2] المصدر نفسه، ص 154.

[3] أحمد بن تيمية: نفس المصدر السابق، ج35، ص 154-155.

[4] المصدر نفسه، ص 155.

[5] المصدر نفسه، ص 154.

[6] المصدر نفسه، ص 155.

[7] المصدر نفسه.

[8] المصدر نفسه، ص 156.

[9] المصدر نفسه، ص 158-159.

هذا وأوجب الشيخ على عامة الناس من أهل السنة أن يكشفوا عن هؤلاء النصيريين إن عرفوهم، ومن لم يكشف عنهم فهو آثم، لأن بقاءهم بين المسلمين مندسين يعد خطرا على الأمة، ولذلك توجب على كل من عرفهم أن يكشف عنهم حتى يؤخذ الحذر منهم، ومن كشف عنهم فهو مأجور على ذلك، ويدخل ذلك في سياق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

وَسئل رحمه الله تعالى عن الدرزية والنصيرية: ما حكمهم؟

فأجاب: هؤلاء الدرزية و النصيرية كفار باتفاق المسلمين، لا يحل أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرون بالجزية، فإنهم مرتدون عن دين الإسلام، ليسوا مسلمين، ولا يهود، ولا نصارى، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، ولا وجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما، وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد فهم كفار باتفاق المسلمين.

فأما [النصيرية] فهم أتباع أبي شعيب محمد بن نصير، وكان من الغلاة الذين يقولون: إن عليا إله، وهم ينشدون:

أشهد ألا إله إلا ** حيدرة الأنزع البطين

ولا حجاب عليه إلا ** محمد الصادق الأمين

ولا طريق إليه إلا ** سلمان ذو القوة المتين

وأما الدرزية فأتباع هشتكين[2] الدرزي، وكان من موالي الحاكم، أرسله إلى أهل وادي تيم الله بن ثعلبة، فدعاهم إلى إلهية الحاكم، ويسمونه الباري،العلام ويحلفون به، وهم من الإسماعيلية القائلين بأن محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله، وهم أعظم كفرا من الغالية، يقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم

---

[1] المصدر نفسه، ص 159-160.

[2] اسمه الصحيح هو نشتكين وليس هشتكين، ولا ندري سبب الخطأ من الشيخ بن تيمية.

أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله، أو مجوسا، وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس، ويظهرون التشيع نفاقا، واللّه أعلم.

ب- عسكريا

أما عن علاقات النصيرية مع من جاورهم من المسلمين السنة عسكريا، فإنها لم تكن ظاهرة للعيان، لأن النصيريين كانوا فرقا متفرقة في الجبال، وسبب ذلك على ما يبدو هو اضطهاد السنة لهم، فهرب من كان من النصيريين في حلب إلى الجبال المجاورة، واستقروا بكثرة في جبل السماق، بعد أن أجلوا عنه سكانه الأصليين وهم الدروز، كما هرب أيضا سكان اللاذقية من النصيريين أمام الضربات المتكررة للمسلمين السنة، واستقروا أيضا بالجبال المجاورة وهي اليوم تسمى باسمهم "جبال النصيرية"، ورغم أن هذا الكلام ليس له أثر في أكثر مصادر التاريخ الإسلامي، إلا أن أبا موسى الحريري يذكره في كتابه العلويون النصيريون[1]، ولا ندري ما كان يقصد من كلمة اضطهاد أهل السنة للنصيريين، كما لا يجزم السيد منير الشريف في كتابه المسلمون العلويون، إن كان سبب هجرة النصيريين إلى الجبال، هو الاضطهاد السني لهم، ولكنه يلمح إلى ذلك بقوله: ((ولا يعرف التاريخ الحقيقي لهذه الهجرة، أما سببها فإن العلويين أنفسهم لا يعلمونه إلا ما ندر، والأغلب أنها كانت بسبب ضغط الشعوبيين هناك على العرب))[2].

غير أنه وإن صح أن المسلمين السنة كانوا يضطهدون النصيريين، فإنه ربما يكون بسبب المعتقد الفاسد لهم (النصيريين)، فقد رأينا سابقا كيف أنهم يسبون الصحابة ويلعنونهم ويصفون كل من يؤمن بهم بأقذع الأوصاف، ولذلك أنف أهل السنة من أن يسمعوا هذا السباب في حق خير من يجب الاقتداء بهم، وهم صحابة رسول الله، فانتهروهم ولا نعتقد أنهم اضطهدوهم.

ولم يعرف تاريخ النصيريين أنهم عاشوا مرحلة قوة مكنتهم من فرض وجودهم في الساحة السياسية خلال القرنين الخامس والسادس هجريين، إلا أنه أتيحت لهم هذه الفرصة لما تولى قيادتهم المكزون السنجاري، فتقووا به وصاروا عندها يغيرون على المناطق المجاورة لهم فهابهم الأعداء[3]، لكن بموت الأخير تشتت أمرهم مرة أخرى وأصبحوا مضطهدين من الأكراد

---

[1] أبو موسى الحريري: العلويون النصيريون (بحث في العقيدة والتاريخ)، ص 209-210.

[2] منير الشريف: المسلمون العلويون من هم وأين هم، مؤسسة البلاغ (بيروت- لبنان)، ط1 (1415هـ/1994م)، ص91.

[3] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 42.

والإسماعيليين والأيوبيين[1]، ويذكر الحريري أن سبب اضطهاد النصيريين على يد هؤلاء هو التعصب الديني، فقد كانوا متحمسين للقرآن، ويعادون الشيعة عامة[2]، ((بعد وفاة السنجاري، عاد النصيريون لينحسروا في الجبال لكثرة المظالم عليهم من كل جانب، فتعرضوا لهجمات الأكراد والإسماعيليين والأيوبيين، هؤلاء كانوا أكثر ظلما عليهم من سواهم، وكانوا متحمسين للقرآن، مشهورين بعداوتهم للشيعة عامة))[3].

ويستطرد الحريري في وصف ما تعرض له النصيريون بالاضطهاد فيقول: ((قال المؤرخون في عهد صلاح الدين والأيوبيين عامة بأنه لم تكن أراضي العلويين تتخلص من نكبة إلا تعقبها أخرى أعظم منها... حتى لم يبق للعلويين أدنى استراحة في جبلهم))[4].

وهذا في اعتقادنا تعصب من الرجل إلى النصيريين، ودليل ذلك هو استعماله لمصطلحات يظهر عليها التعصب مثل مصطلح العلويين، ومصطلح الاضطهاد، والتحمس للقرآن، نقول وحسب بحثنا المتواضع في تاريخ النصيريين، فإننا لم نعثر على اضطهاد من المسلمين السنة لهم، وكل ما وجدناه من صيغ الاحتكاك بين الطرفين كان على عهد الظاهر بيبرس، الذي فرض عليهم بناء المساجد وعمارتها، تأديبا لهم على تصرفاتهم ضد الإسلام، ونحن ليس بوسعنا أن نشرح ذلك لأنه خارج عن نطاق الدراسة.

وأما الوصف الذي أطلقه منير الشريف عن الاضطهاد الذي تعرض له العرب، فكان المقصود منه الأكراد، وهم على الأرجح سنة، فقد رجح أنهم هم من تسبب في ترحيل العرب، وكان يقصد بالعرب النصيريين على الأغلب، ولعله عمم المصطلح على العرب حتى يلقى تعاطفا منهم، ويظهر لهم أنهم وحدة موحدة بغض النظر عن المعتقد.

وأكثر من ذلك يتهم الشريف هؤلاء الذين يسميهم الشعوبيون غير العرب، بأنهم هم سبب الضعف الذي مس البلاد الإسلامية وقت الحروب الصليبية، وقد كان يقصد بهم السلاجقة الذين كانوا شمال بلاد الشام، ((كما أني رأيت من الضروري ذكر هذا التاريخ ليرى العرب أن

---

[1] أبو موسى الحريري: نفس المرجع السابق، ص 211.
[2] نفسه.
[3] أبو موسى الحريري: نفس المرجع السابق، ص 211.
[4] نفسه، ص 211-212.

هؤلاء الحكام الشعوبيين، هم الذين أضعفوا البلاد فطمع بها الفرنج، فنكبت بهم وبالفرنج معا، وليرى العلويون أن السيئات التي أصابتهم هي من غير أبناء عمهم العرب ...))[1].

وهذا في حقيقة الأمر اتهام باطل، فقد ثبت أن السلاجقة هم من دافع عن بلاد الشام، أول الحروب الصليبية، وأن الذين أضعفوا العالم الإسلامي إنما هم الشيعة، وقد ذكرتهم جل المصادر التاريخية، حتى أن من المؤرخين من اتهمهم بأنهم هم من استدعوا الصليبيين إلى أرض الإسلام لما رأوا قوة السلاجقة[2]، على ما نذكره لاحقا.

كانت هذه بعض من جزء من علاقات الباطنية بالعالم الإسلامي السني وهي جزء يسير مما ذكرته المصادر التاريخية، وقد رأينا أنها علاقات عدائية في أغلبها خاصة إن كانت القوة إلى جانب الباطنية، بينما تصبح العلاقات سلمية عندما تصبح القوة إلى جانب المسلمين السنة، وهو ما لاحظناه في العلاقات الدرزية مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي مثلا، وسبب التغير من جانب الباطنية في العلاقات هو استعمال مبدأ المصلحة الشخصية حيث عملوا على حفظ مكانتهم ووجودهم وإن اقتضى الأمر التحالف مع الأعداء.

[1] منير الشريف: نفس المرجع السابق، ص 103.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص 13، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص336.

الفصل الرابع:

علاقة الحركات الباطنية بالعالم المسيحي

المبحث الأول: علاقة المستعلية بالعالم المسيحي قبل الحروب الصليبية

المبحث الثاني: علاقة الفاطميين بالصليبيين

المبحث الثالث: علاقة النزارية بالعالم المسيحي

المبحث الرابع: علاقة النصيريين والدروز بالصليبيين

وكما أن التجاور بين الحركات الباطنية السالفة الذكر مع المسلمين أهل السنة قد ولد احتكاكا في جميع المجالات، فإنه كذلك ولد احتكاكا بينهم وبين المسيحيين الذين كانوا هم كذلك يقيمون ببلاد الشام على وجه الخصوص، ولم تختلف صيغ الاحتكاك بينهما عما كانت عليه مع المسلمين أهل السنة رغم الاختلاف الديني الواضح، وفي ما يلي سنحاول أن نعرج عن أهم العلاقات السلمية والعدائية التي ربطت الطرفين طيلة فترة الجيرة.

المبحث الأول: علاقة المستعلية بالعالم المسيحي قبل الحروب الصليبية

01- علاقة الفاطميين بالبيزنطيين

أ- في بلاد الشام

أ-1- تنافس الفاطميين والبيزنطيين على مدينة حلب

خضعت حلب لسلطان المرداسيين منذ سنة (415هـ/1025م)[1]، عندما تمكن صالح بن مرداس أمير قبيلة كلاب العربية من أن يحسم التنافس بين القبائل لصالحه ويستولي على المدينة، فعاشت المدينة تحت سلطانه أياما زاهية، لكن أوضاعها تدهورت بمقتله سنة (420هـ/1029م)، وسبب ذلك ما وقع من تنافس بين أبنائه (نصر وثمال) على سلطنة المدينة فتمكن نصر من الاستيلاء على قلعة حلب سنة (421هـ/1030م)، بينما بقي ثمال يكافح لأجل الحصول على المدينة، ثم تدخل كبار القبيلة وصالحوا بين الأخوين على أن يقتسما حكم الإمارة معا، بحيث يأخذ نصر حلب بينما يأخذ ثمال منطقة الجزيرة، والسبب في ذلك هو التخوف من تدخل البيزنطيين في المدينة والاستيلاء عليها[2].

وفي ذلك الوقت كان الفاطميون يعملون على السيطرة على المدن القريبة من حلب بعد القضاء على صالح بن مرداس، فاستولوا على حصن عكا، ثم قلعة المينقة، وقد أثار ذلك حفيظة البيزنطيين، بحكم أن القلعة تتوسط الطريق بين حلب وأنطاكية، وهي بذلك تعد تهديدا للممتلكات الإمبراطورية.

ونتيجة لذلك قام قطبان خادم المعروف بالإسبنديلس بمهاجمة أعمال حلب دون علم الإمبراطور رومانوس الثالث، وربما كان يعتقد أن الأخوين المختلفين حول حكم حلب لن يقدرا

---

[1] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 197. الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص390.

[2] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 412. ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 205-206.

على الدفاع عن مدينتهم، لكنه هزم على أيديهما في (27 جمادى الآخرة 420هـ/1029م)، واضطر إلى عقد الصلح معهم[1]، وهو ما أغضب الإمبراطور رومانوس الثالث (romain diogene)، الذي سارع فورا إلى عزل والي أنطاكية، كما جهز جيشا كبيرا من أجل السيطرة على حلب وتأديب ابني صالح بن مرداس، خصوصا وأن هجومات الفاطميين تواصلت بشكل مستمر على ممتلكات الإمبراطورية وبالتالي فإن السيطرة على حلب تكون بمثابة الحاجز الذي يمنع التحرش بهم[2].

لكن بعض المؤرخين يوردون أسبابا أخرى لهجوم رومانوس الثالث على حلب، إذ يذكر ابن العديم مثلا أن سبب الهجوم هو استنجاد نصر بن صالح به بعد رؤية جيش أخيه الذي قرر أن يأخذ منه المدينة، فقرر أن يعطيه المدينة بدل أن يأخذها أخوه منه[3].

بينما يورد مؤرخ آخر وهو بسيللوس (Psellos)، وقد كان هذا الأخير موظفا في قصر الإمبراطور وهو مؤرخ لهذه المرحلة أن من أسباب هجوم رومانوس الثالث على حلب هو محاولته كسب سمعة على غرار ما اكتسبه أسلافه من الأباطرة الذين سبقوه، فقد كان يعتقد أنه من السهل السيطرة على مدينة حلب من أيدي ابني صالح بن مرداس، وهي مدينة لها صيتها في العالم الغربي في ذلك الوقت، وبالتالي فإن السيطرة عليها يكون لها صدى كبيرا في العالم المسيحي آنذاك، وأرسل الحملة التي حشد لها جموعا كثيرة من جنسيات مختلفة، وأمَّر عليهم زوج أخته البطريق قسطنطين كارانتينوس، وأمره لأن يتوجه إلى حلب كما أوصاه بألا يدخل في مواجهة مباشرة مع الحلبيين إلى أن يصل هو بنفسه[4].

بينما يرى الأستاذ محمد سهيل طقوش أن السبب الأكثر واقعية في هجوم رومانوس على حلب يكمن في رغبته في امتلاك حلب من ابني صالح بن مرداس ومنحها لمنصور بن لؤلؤ الذي يعيش تحت حكمهم، فعلى حد قوله كان يريد أن لا يسيطر الفاطميون عليها لأنهم سيزعجون حدوده خاصة أنطاكية، ويتضح ذلك من خطابه الذي أرسله إلى ابني صالح بن مرداس إذ عبر

---

[1] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 412.

[2] المصدر نفسه، ص 413.

[3] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 205-206.

[4] Michel psellos, chronographie ou histoire d'un siècle de byzance (976-1077), les belles letters (Paris), p 41.322 محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق،

لهما عن خوفه وأسفه من أن تخرج المدينة من حكمهما كما خرجت من حكم من سبقوهم ويطلب منهما أن يسلماه المدينة بالأمان[1].

ولما أبى الأخوان تسليمه المدينة، قرر أن يأخذها بالقوة فجهز جيشا كبيرا قدره المؤرخون بثلاثمائة ألف مقاتل[2] وقيل ستمائة ألف مقاتل[3]، لكن أغلب هؤلاء المقاتلين غير مؤهلين للحرب، ويبدو أنه قد عمد إليهم التماسا للكثرة[4]، وفي مقابل ذلك قدر المؤرخون أن عدد مقاتلي نصر بن صالح لم تتجاوز الألفي مقاتل[5]، وبنظرة لهذين الرقمين يتضح لنا أن عدد مقاتلي رومانوس مبالغ فيه إذ لا يمكن لحاكم أن يجهز جيشا بهذا الحجم من أجل قتال جيش صغير كجيش نصر.

وعلى الرغم من أن نصر وأخاه ثمال قد أرسلا إلى رومانوس بن عمهما مقلد يتودد إليه ليثنيه عن الحرب إلا أنه لم يأبه لذلك، وعلى العكس من ذلك فإنه أسر مقلد، وسار به باتجاه حلب، ويبدو أنه كان متيقنا من النصر، على الرغم من نصيحة الكثيرين من أمرائه له إلا أنه أصر على مواصلة الحرب[6]، ووصل إلى مشارف حلب ونزل عند موضع يدعى تُبَّل[7]، وهي على الشمال الشرقي من حلب، لكنه وقع على مكان لا ماء فيه على العكس مما حصل عليه المرداسيون إذ أنهم اختاروا مكانا تكثر فيه المياه، وكان الجو حارا في ذلك الوقت[8].

وما إن نشبت المعركة بهجوم بيزنطي حتى مالت الكفة لصالح المرداسيين الذين شنوا هجوما خاطفا على قوات رومانوس، التي تفتقد للخبرة والثبات، كما أنهم تأثروا بفعل الحرارة وقلة المياه، فاستطاع بذلك المرداسيون من أن يقضوا على أغلب القوات المهاجمة هناك وأسروا قائدها[9].

ويبدو أن الحرب قد حسمت من خلال هذه المعركة فقط إذ أن قوات البيزنطيين ارتبكت نتيجة لهذه الهزيمة، ودب فيهم الخلاف من أجل الزعامة، كما أن الجيش كثرت بداخله الأمراض

---

[1] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 414. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 322.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 192.

[3] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 206.

[4] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 413.

[5] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 179.

[6] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 413-414.

[7] تُبَّل: من قرى حلب ثم من ناحية عزاز بها سوق ومنبر. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 14.

[8] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 323.

[9] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 415.

والأوبئة، وضغط عليه المرداسيون بحملات سريعة خاطفة قتلت الكثير من جنودهم وأسروا عدد آخر، بينما عجز قائد الجيش البيزنطي البطريق قسطنطين دلاسينوس من صد هذه الهجمات، وعليه فقد قرر الإمبراطور رومانوس أن ينسحب واضطر لأن يلبس لباسا مغايرا حتى لا يعرف أمام جنود العدو فيقتل[1].

ولما انسحب الإمبراطور رومانوس من بلاد الشام استغل المسلمون فرصة هربه وبنوا حصونا كثيرة على مشارف أنطاكية منها حصن بنكسرائيل، وبني الأحمر، غير أن نشوة الانتصارات هذه بدأت تعود عليهم وبالا، فقد أراد المسلمون السيطرة على أنطاكية، وحاصروها، لكن القوات البيزنطية بقيادة قبطان نقيطا استطاعوا أن يبعدوهم من أمام أنطاكية، ونتيجة لذلك ارتبك المسلمون، وضاعت عدة حصون ومدن من أيديهم مثل عرقة وعزاز وكان ذلك في شهر (ذي الحجة 421هـ/1030م)[2].

واستطاع القائد قبطان نقيطا أن يستميل إليه نصر بن صالح بن مرداس، وعقد معه هدنة، مما أتاحت له فرصة التفرغ لباقي الحصون المجاورة، فهاجم حصن صافيتا ثم حصن المينقة، هذا الأخير حاصره مدة ثلاث عشرة يوما ثم افتتحه عنوة يوم (15ذي الحجة 421هـ/1030م)، ثم هاجم بعده حصن رفنية، وسبى منه عددا كبيرا من السكان قدر عددهم ما يقارب العشرة آلاف[3].

أ-2- تأليب أمير طرابلس على الفاطميين

وفي غمرة الانتصارات التي يحققها البيزنطيون على حساب المسلمين ببلاد الشام، قرر الإمبراطور رومانوس الثالث أن يؤلب بعض الحكام الأمراء المسلمين ببلاد الشام والتابعين للفاطميين على الدولة الفاطمية، واستطاع أن يتصل بحاكم طرابلس بن نزال وأقنعه بالتخلي عن الفاطميين وفي المقابل أقنعه بدفع جزية سنوية للبيزنطيين، وكان ذلك في سنة (423هـ/1032م)، وهذا في حقيقة الأمر يعد إنجازا كبيرا للإمبراطور، إذ أن تحييد طرابلس يعد إنجازا كون المدينة تعد أول ميناء بحري يفتتح الطريق أمام بقية الموانئ، كما أن هذه المدينة كانت دوما عصية على

[1] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ج1، ص 207. الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 415-416.
[2] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، 418-422.
[3] تدمري: نفس المصدر السابق، 82-83.

الأباطرة الذين سبقوه، وقد أبدى ابن نزال حسن مشاعره تجاه الإمبراطور مباشرة بعد عقد التحالف، فقام بافتداء القائد البيزنطي خيرو سيفاكتس المأسور بحصن عزاز سنة (421هـ/1030)، وأطلق سراحه[1].

ولما تخلى كل من نصر بن صالح أمير حلب وبن نزال أمير طرابلس، عن فكرة الجهاد ضد البيزنطيين، فإن البيزنطيين وجدوا الطريق معبدا لهم ببلاد الشام، وواصلو هجوماتهم على الحصون الإسلامية فاستولوا على الرها في شهر (ذي القعدة 422هـ/1031م)، ثم أغاروا على حران، واستولوا على حصن بنكسرائيل سنة (423هـ/1032م)[2].

ولما رأى الخليفة الفاطمي الظاهر أن بلاد الشام أوشكت على الخروج من سلطته، ودخولها في فلك البيزنطيين استنفر أتباعه في كل من مصر وبلاد الشام للجهاد واسترجاع ممتلكات الفاطميين، فكانت أول حملاته لأجل ذلك على طرابلس، إذ أنه استطاع أن يستردها من البيزنطيين وفر صاحبها ابن نزال إلى حلب، وكان ذلك سنة (424هـ/1033م)، ولكن الإمبراطور رومانوس، ما لبث أن استعادها من الفاطميين بعد معركة بحرية بين الطرفين انهزم فيها الفاطميون، وأعادوا إليها ابن نزال مرة أخرى، لكن سكانها أبوا إلا أن يسلموها للفاطميين ورفضوا أن يكونوا تحت حكم البيزنطيين، فساعدوا الفاطميين للسيطرة عليها[3].

ولما أييس البيزنطيون من استعادة المدينة لجؤوا إلى مفاوضة الفاطميين والتخلي عن العمل العسكري، وتصالح الطرفان على مجموعة من الشروط أهمها:

- يعيد الإمبراطور بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس، ويجددها من ماله.
- ترمم جميع الكنائس في أملاك الفاطميين .
- ترسل القسطنطينية بطريركا إلى بيت المقدس.
- تبقى حلب على ولائها للبيزنطيين ولا يتدخل الظاهر في شؤونها.
- لا تتدخل الحكومة الفاطمية في أي خلاف يجري بين البيزنطيين ومسلمي صقلية.
- يأخذ البيزنطيون أسراهم من الحروب مع المسلمين.

---

[1] المصدر نفسه، ص 83.

[2] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 431-432.

[3] الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 434.

- إعادة حسان بن الجراح الطائي إلى فلسطين مقابل تعهد هذا الأخير بعدم الثورة على الفاطميين مجددا.
- يعطي البيزنطيون حصن شيزر للفاطميين لأنه بين الحصون الإسلامية، مقابل أن يسلم الفاطميون حصن أفامية للبيزنطيين.

كانت هذه هي بعض شروط الصلح ويبدو أنها في أغلبها تصب في صالح البيزنطيين، ولذلك فإن الظاهر لم يقبل ببعض منها، فمثلا لم يقبل بإعادة الكنائس المحولة إلى مساجد إلى ما كانت عليه من قبل، كما أنه لم يقبل بشرط إعادة حسان بن الجراح إلى فلسطين، كما أنه لم يجب على شرط إبقاء حلب تابعة لبيزنطيين كونه رأى بأنها ثغر مهم من ثغور المسلمين لا ينبغي التفريط فيه ولم يقبل أيضا بتبديل حصن شيزر بحصن أفامية[1].

ظلت العلاقات بين الظاهر وورومانوس على حالها، بحيث يتبادلان الكتب، لكنهما لم يتفقا على كل الشروط، إلى أن قتل رومانوس الثالث مسموما في (7ربيع الآخر 425هـ/1034م)، وخلفه ابنه ميخائيل الرابع[2]، هذا الأخير انتهج سياسة عدائية مع الفاطميين، بحيث استغل الفاطميون فرصة توليه عرش الإمبراطورية وسيطروا على طرابلس، وأرسل هو حملة عسكرية إلى الإسكندرية بهدف تخريبها، وظلت العلاقات بين الطرفين تراوح مكانها إلى أن توفي الظاهر[3].

وفي عهد المستنصر بالله الفاطمي تحسنت العلاقات البيزنطية الفاطمية، بعد أن احتكما الطرفان إلى المعاهدة التي أشرنا إليها آنفا، واستقرت الأوضاع في بلاد الشام مدة من الزمن، واستمرت مع وصول الإمبراطور الجديد إلى كرسي الحكم في بيزنطة وهو قسطنطين التاسع، إذ عمل على تأكيد الهدنة التي اتخذها سلفه مع الفاطميين، فجددها سنة (439هـ/1047م)، وكان البيزنطيون قد أدركوا خطر السلاجقة فارتأوا أن لا يفتحوا على أنفسهم جبهة الفاطميين، ونفس الأمر كان يفكر به الفاطميون، ولذلك جددوا هذه الهدنة ليتفرغوا للسلاجقة[4].

تبادل الطرفان الفاطمي والبيزنطي الهدايا بعد هذه الهدنة، كدليل على حسن العلاقة، فأرسل الإمبراطور البيزنطي هدايا متنوعة إلى المستنصر بالله الفاطمي، منها ثلاثون قنطارا من

[1] المصدر نفسه، ص 436-438.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج 8، ص 213.

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 327.

[4]. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 377.

الذهب الأحمر، وكانت مصر في تلك الفترة تعاني من مجاعات شديدة، فاستغل المستنصر هذه الهدية ليحسن بها أوضاع دولته، ثم راسل هذا الأخير الإمبراطور البيزنطي سنة (446هـ/1053م)، يطلب منه مساعدات من القمح[1].

لكن المنية عاجلت الإمبراطور قسطنطين التاسع، وخلفته على كرسي العرش الإمبراطورة تيودورة (447-448هـ/1055-1056م)، فاشترطت على المستنصر أن يعقد معها معاهدة تقضي بمنحه القوة العسكرية اللازمة إن هي احتاجت إليه في أي عمل عسكري على أراضيها، وتعطيه في مقابل ذلك ما طلبه من سلفها من إمدادات القمح، لكن الأوضاع المتردية في الدولة الفاطمية لم تكن لتسمح له بأن يعين الإمبراطورة على ما طلبته، رغم أنه في حاجة ماسة إلى القمح، وانساقت العلاقات بين الطرفين إلى التدهور مرة أخرى، ولكي تغيض الجانب الفاطمي أكثر عملت الإمبراطورة على عقد حلف مع السلاجقة نكاية في الفاطميين[2].

ومن جهة الفاطميين فإنهم واجهوا هذا التصرف من جانب البيزنطيين، بإرسال قوة عسكرية إلى مدينة اللاذقية التابعة لحكم البيزنطيين، فافتتحوها عنوة[3]، ثم سارت القوات الفاطمية بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم إلى أنطاكية واستباح أرجاءها، ثم سار شمالا بعد أن وصلته الإمدادات من مصر وبلاد الشام، فافتتح حصن قسطون قرب أفامية[4].

وكرد فعل من بيزنطة على هجومات الفاطميين، أرسلت الإمبراطورة تيودورة قوة بحرية كبيرة إلى بلاد الشام، تهدف للسيطرة على طرابلس أكبر قواعد الفاطميين ببلاد الشام، فحاصرت المدينة سنة (447هـ/1056م)، لكنها جوبهت بردة فعل قوية من الفاطميين، فاضطرت القوات البيزنطية إلى رفع الحصار عون المدينة والانسحاب منها، فتوجهت إلى الشمال واحتلوا بعض المدن والحصون كحصن الخوابي وأنطرطوس، واستباحوهما، ثم ساروا شمالا واستعادوا مدينة اللاذقية من الفاطميين، واستطاعوا أن يأسروا مكين الدولة القائد الفاطمي والعديد من الأعيان الذين معه

---

[1] ابن أيبك الدواداري: نفس المصدر السابق، ج6، ص 369.

[2] عبد المنعم ماجد: نفس المرجع السابق، ص 76.

[3] محمد بن علي العظيمي الحلبي: تاريخ حلب، تح وتق: إبراهيم زعرور، د-د-ن، (دمشق)، د-ط 1984، 343. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 228.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، 7. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 218.

شهر ربيع الثاني (450هـ/1058م)[1].

أدت هذه الهزائم المتكررة للفاطميين إلى طلب الهدنة مرة أخرى من البيزنطيين، فأرسل المستنصر إلى بيزنطة رسولا يطلب منهم فتح علاقات جديدة، إلا أنه جوبه باستهزاء بيزنطي، جعله يصرف النظر عنهم نهائيا، وظل على حاله في عداء لهم حتى اندلعت الحروب الصليبية[2].

ب- في جزيرة صقلية

اهتم الفاطميون بصقلية منذ أن سيطروا على منطقة المغرب، واستمروا على ذلك طيلة بقائهم ببلاد المغرب، ولما انتقلوا إلى مصر خف اهتمامهم بها، إذ لم يتجاوز الأمر إرسال الولاة إليها وتدعيمهم بما يحتاجون إليه في حدود الإمكان، لكن ذلك لم يكن كافيا لضمان الولاء الصقلي لها، لأن الولاة لم يكونوا على قدر المسؤولية التي تتاح لهم دائما، ولذلك كانوا كثيرا ما يثورون على الولاة الفاطميين، وبلغ بهم أن استعانوا بالقوى الخارجية في كثير من المرات.

ففي سنة (426هـ/1035م) حدثت فتنة داخل صقلية، وسبب ذلك هو العداء القديم الذي استحكم بين الصقليين وسكان إفريقية الذين قطنوا الجزيرة عبر العصور[3]، واستغل بعض المسؤولين في الجزيرة ليراسلوا البيزنطيين من أجل التدخل، وكانت رغبتهم في ذلك هو إخراجها من سلطة الفاطميين والاستقلال بها، وكان البيزنطيون أنفسهم يتطلعون للتدخل فيها من أجل السيطرة عليها وضمها إلى ممتلكاتهم وإعادتها إلى حاضرتهم بعد أن ضاعت منهم لقرون[4].

كان على ولاية الجزيرة خلال هذه الفترة أبو جعفر أحمد الأكحل، الذي تولى زمامها سنة (410هـ/1019م)، غير أنه خرج منها في مهمة، وترك ابنه جعفرا خليفة له، كنه أساء السيرة وعامل سكان إفريقية معاملة سيئة، وقيل أنه استشار سكان صقلية في إخراج الأفارقة من الجزيرة نهائيا لكنه جوبه بالرفض، لأنهم صاروا شعبا واحدا بفعل المصاهرة التي تمت بينهم عبر العصور[5].

لم يحقق جعفر بن أحمد الأكحل أي مطلوب مما كان يرجوه من أهل صقلية، فتخلى عن مشروعه، لكن الفتن لم تتوقف بالجزيرة إذ سرعان ما انتفض أبو حفص على أخيه أحمد الأكحل،

---

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، 7. المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 229.

[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 378-379.

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 383.

[4] المرجع نفسه.

[5] النويري : نفس المصدر السابق، ج24، ص 378-379.

مطالبا بالحكم، وهو ما اضطر الأكحل لطلب المساعدة من البيزنطيين، فوعدوه بذلك، وطلب أبو حفص الدعم من الوالي الزيري المعز بن باديس[1].

استقبل المعز بن باديس هذا الطلب بحفاوة، ورأى في صقلية هدية سهلة ستضم إلى ما يمتلكه في إفريقية، فأرسل على الفور ابنه عبد الله على رأس ستة آلاف جندي لمساعدة أبي حفص ضد أخيه الأكحل، واشترط المعز بن باديس على أبي حفص، أن يعطي إمرة الجزيرة للشخص الذي يوليه هو، وجرت المعركة بين الطرفين، وانتهت بانتصار المتحالفين، وفرار الأكحل عبر مضيق مسينا إلى بيزنطة يطلب العون من إمبراطورها[2].

أدت هذه الفتن الداخلية بجزيرة صقلية إلى تدخل بيزنطية في حملة عسكرية مباشرة أرسلها الإمبراطور ميخائيل الرابع، إذ قام هذا الأخير بإرسال حملتين، كانت أولاها سنة (429هـ/1037م) أسند قيادتها إلى القائد قسطنطين أوبوس، ولم يحقق منها شيئا، بعد أن استبسلت القوات الإفريقية في الدفاع عن الجزيرة، فعاد إلى العاصمة مهزوما، لكنه في مقابل ذلك تمكن من عقد اتفاقية مع الأفارقة تقضي بإطلاق سراح عدد كبير من النصارى المسجونين بصقلية، مقابل الجلاء عنها، فأطلق سراح أكثر من خمسة عشر ألفا من النصارى، وأضحت الجزيرة منذ ذلك الحين في يد بن باديس، بينما انتهى مصير الأكحل بالقتل على يد أنصاره[3].

لكن إمبراطور بيزنطة لم يرض بما آلت إليه النتائج في الجزيرة، ورأى بأنه من الضروري أن يوجه إليها حملة ثانية لتملكها، فأعد لها حملة عسكرية كبيرة أسند قيادتها هذه المرة إلى قائد آخر جورج مانياكس، وهو قائد مشهور بحروبه ضد المسلمين في الجزء الشرقي للعالم الإسلامي[4]، وانضمت إليه قيادات أخرى كبيرة، وانضمت إليهم أيضا بعض القوات النورمانية، انطلقت هذه الحملة سنة (430هـ/1038م)، باتجاه جزيرة صقلية، فسيطروا على مدينة مسينا في طريقهم، إضافة إلى بعض المدن الصغيرة الواقعة على الشريط الساحلي الشرقي للمدينة[5].

---

[1] النويري : نفس المصدر السابق، ج24، ص 378-379.

[2] المصدر نفسه.

[3] المصدر نفسه.

[4] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 384.

[5] المرجع نفسه.

لكن القوات البيزنطية عجزت عن دخول مدينة سرقسطة سنة (431هـ/1040م)، بعد أن تصدى له سكانها المسلمون بقوة، فاضطر القائد البيزنطي إلى رفع الحصار عن المدينة، والانسحاب منها نهائيا، ثم حدث أن عاد القائد جورج مانياكس إلى القسطنطينية، بعد استدعائه من الإمبراطور، فاستعاد المسلمون المدن التي احتلها البيزنطيون، وفشلت بذلك الحملة الثانية على الجزيرة[1].

وبانجلاء البيزنطيين عن الجزيرة عادت الخلافات مرة أخرى إلى صفوف المسلمين، إذ عين بعض السكان عليهم الحسن صمصام الدولة، وهو أخو أحمد الأكحل، لكنه عزل بعدة مدة وجيزة لسوء تصرفه سنة (444هـ/1052م)[2]، وبعزله انتهى حكم الأسرة الكلبية، وهي الأسرة التي عينت على حكم الجزيرة منذ دخولها في فلك الفاطميين، وانتهى حكم الفاطميين لها، وصارت تحت سلطان سكانها الأصليين.

[1] العريني : نفس المرجع السابق، ص 806-807.

[2] النويري : نفس المصدر السابق، ج24، ص 379.

المبحث الثاني: علاقة الفاطميين بالصليبيين

قبل الخوض في تفاصيل العلاقات بين الفاطميين والصليبيين ينبغي علينا أولا أن نقدم تعريفا للحركة الصليبية، ونشرح بعضا من أسبابها كما نشير أيضا إلى أهم النتائج الأولية التي تمخضت عنها وقد ارتأينا أن نقدم هذا التعريف لما تقتضيه طبيعة الموضوع، فالعلاقات الخارجية للدولة الفاطمية مع العالم المسيحي عرفت تطورا ملحوظا خلال الحروب الصليبية، لأن الصليبيين دخلوا في صدام مباشر مع الفاطميين من أجل السيطرة على البلاد الإسلامية، وكان من الطبيعي أن يكون هناك رد فعل من جانب الفاطميين للدفاع عن ممتلكاتهم، أو من أجل استغلال الوضع والاستحواذ على مناطق أخرى، غير أراضيهم الحالية.

1- ماهية الحركة الصليبية

أ- تعريف الحروب الصليبية

هي حركة استعمارية[1] استيطانية، آمن بها قوم حضروا مسلحين من بلاد الغرب، وانتزعوا قطعة من بلاد الشرق، أقاموا عليها دولة تنعموا بخيراتها، واستغلوا من استبْقَوا من أهلها، ودأبت دولتهم هذه على القتال والانتصار والتوسع إلى أن قابلتها قوة شرقية معاكسة، نمت وتعاظمت حتى كسرت شوكتها بعد ثلاثة أجيال، ثم استأصلتها بعد فترة لم تتجاوز القرنين من الزمن[2].

ب- أسباب الحروب الصليبية

تعددت أسباب الحروب الصليبية واختلفت باختلاف ووجهات نظر المشاركين فيها، غير أن أغلب المؤرخين أكدوا أن الأوضاع المتردية في أوربا في كل المجالات هي من غذتها وسرعت في اندلاعها، فكيف حدث ذلك ؟

ب-1- الأسباب الغير مباشرة

- كانت الطبقة الشعبية قبيل فترة الحروب الصليبية، تعاني من الفقر والمجاعة والظلم[3]، وكان من الطبيعي أن تلبي هذه الفئة أي نداء ترى فيه متنفسا لها من حالتها، ولذلك فما إن أعلن البابا

---

[1] محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م)، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية)، ط1 (1995)، ص 14. المطوي محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي(بيروت)، ط2 (1982)، ص27. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية(بيروت) ط3(1981)، ص 39.

[2] الشارتري فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس، تر: زياد جميل العسلي، دار الشروق (بيروت)، ط1(1990)، ص13.

[3] السيد محمود: تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، ط1(2002م)، ص 14.

أوربان الثاني عن ميلاد الحركة الصليبية، حتى انضمت إليه جموع كثيرة من هذه الطبقة، وانضاف إليهم بعض الأشراف والإقطاعيين الطامعين في تكوين الممالك والإمارات[1].

- كما أن سوء الأوضاع الاقتصادية في أوربا كان له دور في تدعيم الحروب الصليبية، إذ أن العديد من الأقاليم في أوربا كانت تعاني مجاعات خاصة فرنسا، كما أن تدهور الوضع الأمني في غرب أوربا كان له كبير الأثر في اضطراب الزراعة والتجارة، مما اضطر الأهالي إلى اللجوء إلى الهجرة، هربا من صعوبة الحياة[2].
- وقد كان للشعور الديني، دور كبير في تغذية الروح الصليبية، فقد كان كثير ممن شاركوا في الحروب الصليبية تدفعهم عاطفة دينية، كما استعمل البابا أوربان الثاني في خطبه جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية، فزيادة على إعلانه غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية، أعلن أنه أعفى حماة الصليبية من جميع التكاليف المدنية[3].

ب-2- الأسباب المباشرة

- تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاجقة، واستنجاد إمبراطور بيزنطة أليكسوس كومينين (Alexis comnene) بالبابا والأمم النصرانية لإنجاده[4].

[1] J.collin de plancy: Legendes des coroisades depwis les premiers temps jusqu a nos jours, bibliotheque sant libere (2008), paris, p02. محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 19-20.

[2] تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين محمود، الدار العربية للكتاب (تونس)، ط1(2009)، ص 56. محمود السيد: المرجع السابق، ص 14-15.

[3] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 35-36. Walter porges: the clergy and other noncombatants on the first crusade: A study based chiefly on the contemporary narrative and epistolary sources, Chicago, Illinois, (1942), p 04-05. باركر أرنست: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار النهضة(بيروت)، ط2، د-س-ن، ص 23. tood Patrick Upton: sacred topography western sermon perceptions of Jerusalem the holy sites and Jews during the crusade(1095-1193), proquest information andlerning company(usa), (2007), p 36 جوزيف نسيم يوسف: نفس المرجع السابق، ص 154 مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه، د-حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958، ص 17-18.

[4] المرجع نفسه، ص 31. محمود السيد: المرجع السابق، ص 12.

- زوار بيت المقدس النصارى وادعاؤهم مضايقة المسلمين لهم، وانتهاكهم لحرمات الأماكن النصرانية المقدسة[1]، وهو في حقيقة الأمر افتراء منهم على المسلمين، لأن المسلمين لم يضايقوهم حقيقة، سوى ما قام به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، عندما ضايق أهل الذمة وأصدر في حقهم المراسيم، وهدم كنيسة القيامة[2]، لكن ذلك كان قبل مدة طويلة من بداية الحروب الصليبية، وبالتالي فلا يمكننا أن نقبله عذر لإعلان الحروب الصليبية.
- يذكر بعض المؤرخين المسلمين، أن من أسباب هجوم الصليبيين على الشرق الإسلامي هو مراسلة الفاطميين لأمم الإفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة[3] لأنهم تغلبوا عليهم وافتكوا منهم بعض مدنهم في بلاد الشام، زيادة على الخلافات المذهبية ما بين أهل السنة والشيعة وكانت على أشدها في تلك الأزمنة، لذلك كانوا يتحينون فرصة مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، لاستعادة ممتلكاتهم[4].

وفي ذلك يقول السيوطي ((وفي سنة تسعين... جاء الفرنج فأخذوا نيقية، وهو أول بلد أخذوه، ووصلوا إلى كفرطاب واستباحوا تلك النواحي، فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم وانزعجت الملوك والرعية، وعظم الخطب، فقيل: إن صاحب مصر لما رأى قوة السلجوقية واستيلائهم على الشام كاتب الفرنج يدعوهم إلى المجيء إلى الشام ليملكوها...))[5].

ت- بداية الحملات الصليبية

ما إن أعلن البابا أوربان الثاني في كليرمونت (Clermont- ferrand) في 27 نوفمبر (1095م/488هـ) عن ميلاد الحركة الصليبية[6]، حتى بدأت استعدادات التنفيذ والتي تولاها دعاته، غير أنهم سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة وكان أغلبهم

---

[1] قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت)، ص 22.

[2] محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 31.

[3] ذكر ذلك المؤرخين ابن الأثير في الكامل، ج9، ص 13، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ص336.

[4] الغامدي مسفر بن سالم بن عريج: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر، ديوان المطبوعات الحديثة، د-س-ن، ص 118-119.

[5] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 335-336.

[6] رينيه غروسّيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، تر وتع: أحمد إيبش، دار الكتب الوطنية (أبو ظبي)، ط1(2014م)، ص 32.

من فرنسا وإيطاليا وألمانيا[1]، وخرجوا في شكل مجموعات غير منظمة فأثاروا الفوضى في طريقهم، غير أنهم تعرضوا لنكسة انتهت بمقتل أغلبهم إذ لم ينج من أصل عشرين ألفا سوى ثلاثة آلاف[2].

ثم تلت هذه الحملة حملة أخرى كانت أثر دقة وتنظيما سميت بالحملة النظامية قوامها الأمراء الإقطاعيون وتشكلت من أربعة جيوش إذ تولى بوهيمند (Bohémond) وابن أخته تانكرد (Tancred) قيادة القوات النورماندية، أما القوات البروفنسالية فكانت تحت قيادة ريموند الرابع(raymond4) كونت تولوز، والقوات الفرنسية تحت قيادة إتيين (Etienne de blois) كونت بلوا، وهيو(Hugh de ibelin) كونت فرماندو الابن الأصغر لهنري الأول (henri roi de France) ملك فرنسا وروبرت الثاني(Robert lepieus roi) كونت فلاندر، أما جودفري دي بوايون(Godefroy de bouillon) دوق اللورين، وأخوه بلدوين (Baudouin) فقد قادا قوات اللورين السفلى[3]، وسلكت كل هذه الجيوش طرقا مختلفة على أن اللقاء كان متفقا عليه عند أسوار القسطنطينية[4].

ث- النتائج الأولية للحملة الصليبية الأولى

خلفت الحملة الصليبية الأولى نتائج كارثية على العالم الإسلامي، إذ سقطت أغلب مدنه بسهولة، بسبب الضعف والفرقة التي كانت تعاني منها أغلب الدول الإسلامية، ومن المدن التي سقطت بأيدي الصليبيين نذكر:

---

[1] مجهول: المصدر السابق، ص ص 18-19-20. ويليام الصوري: الحروب الصليبية، تر وتع: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1(1992م)، ج1، ص 108. جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 156-157. Walter Saladin and the fall of the : op.cit, 15-16. Stanley lane- Poole. M.a :porges kingdom of Jerusalem, copyright, G. P. putnam's sons, enterd at stationers, hall(London), 1898.

[2] جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 164-165. محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 424.

[3] بطرس توديبو: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، تر: حسين محمد عطية، تق: جوزيف نسيم، دار المعرفة الجامعية(الإسكندرية)، ط1 (1999)، ص75. Alan.v. Murray: from Clermont to Jerusalem, the crusades and crusader societies(1095-1500), turnhut; brepols, (1998), p 29-30. جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 178

[4] الصوري ويليام: المصدر السابق، ج1، ص 147. جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 160-161.

ث-1- احتلال بلاد الأناضول

كانت بلاد الأناضول تحت سلطان السلاجقة لما داهمتها جموع الصليبيين، ولم يستطع حكامها أن يصمدوا بقواتهم المحدودة أمام الحصار الذي فرضه عليهم الصليبيون، فسقطت أغلب مدنهم، وكانت أبرزها نيقية[1] التي سقطت سنة (490هـ/1097م)، ثم الرها[2] سنة (491هـ/1098م) وأسسوا بها أول إمارة صليبية في البلاد الإسلامية[3]، ثم سار الصليبيون جنوبا باتجاه أنطاكية وضربوا عليها حصارا[4] دام أكثر من تسعة أشهر، ثم سقطت بأيديهم واستباحوها سنة (491هـ/1098م)، وأسسوا بها إمارة صليبية ثانية[5].

ث-2- احتلال فلسطين

بعد أن تمكن الصليبيون من احتلال أنطاكية توجهوا جنوبا صوب بيت المقدس لاحتلالها، وكانت هدفهم منذ بداية الحملة، وفي طريقهم احتلوا مدنا عدة كمعرة النعمان[6] وكفرطاب، ثم استولوا على قلعة مصياف وبعدها بارين[7] رفنية[8] والبقيعة وحصن الأكراد في شهر (صفر492هـ/ (صفر492هـ/ 1099م)، كما دخلت مدينة حمص في طاعتهم طوعا[9].

ثم سار الصليبيون باتجاه بيت المقدس، واحتلوا الرملة التي وجدوها خالية من سكانها[10]، وفي يوم الثلاثاء في (14رجب492هـ/1099م) وصلوا إلى أسوار بيت المقدس، وأعلنوا الحصار

---

[1] نيقية: تقع هذه المدينة على مسافة يسيرة من خليج نيقوميديا، وقد اشتهرت بمناعتها وحصانتها، نظرا لمتانة أسوارها والبحيرة الكائنة في جنوبها. أنظر جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 228. ألبرت فون آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس (1095-1120م)، تر: محمد حمدان أحمد، دار الإعصار العلمي (دمشق)، ط1 (1437هـ/2016م).

[2] مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص 28-29. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 96.

[3] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 51-53.

[4] الحريري أحمد بن علي: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تح وتع: سهيل زكار، دار الملاح، ط1(1401هـ/1981م)، ص 62-63. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 107.

[5] علي بن أحمد الحريري: نفس المصدر السابق، ص 63.

[6] الجندي محمد سليم: تاريخ معرة النعمان، تح وتع: عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة السورية (دمشق) 1994، ج1، ص 143. بطرس توديبو: المصدر السابق، ص 260-263. مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص 97-98-99-100.

[7] بارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، المصدر نفسه، ج1، ص 320-321.

[8] رفنية: هي بلدة عند طرابلس من سواحل الشام، وهي كورة من أعمال حمص، نفسه، ج3، ص55.

[9] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص67-68. مجهول: المصدر السابق، ص 113.

[10] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 69-70.

عليها في اليوم الموالي[1]، وكان عددهم يقرب من الأربعين ألفا، غير أن المدينة استعصت عليهم في في بداية الأمر لكنهم استطاعوا دخولها بعد غارات مستمرة، وكان ذلك في يوم الجمعة في (23شعبان 492هـ/1099م)، بعد حصار دام نيفا وأربعين يوما، ((ولبث الإفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس الشريف أسبوعا قتل في المسجد الأقصى ما يزيد عن السبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وساداتهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في هذا الموضع الشريف...))[2] ، هذا ولم يستثن هؤلاء الغوغاء لا النساء ولا الأطفال، وكانت بحق مذبحة مروعة خاض الصليبيون فيها حتى أكعابهم، في دماء القتلى[3]، وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى، تبعوهم دون أن يراعوا حرمته وأجهزوا على كل من احتمى به، حتى لقد فاض المسجد كله بدمائهم[4].

بعد أن تمكن الصليبيون من احتلال بيت المقدس، عينوا بلدوين(Baudouin) حاكم الرها ملكا عليها[5]، وقرروا مواصلة احتلال مدن فلسطين تمهيدا لاحتلال باقي مدن الشام المتبقية، ولذلك توجهوا صوب إقليم الجليل وهو من الأقاليم الواسعة في فلسطين، يقع إلى الشمال من بيت المقدس، ويمتد إلى قرب حمص[6]، فاحتلوه في فترة وجيزة[7]، ثم احتلوا المدن المجاورة له كنابلس[8]، كنابلس[8]، وطبرية وبيسان[9] سنة (492هـ/1099م).

---

[1] ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 217.

[2] مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان) (1420هـ/1999م)، ج1، ص 307.

[3] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 47.ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 237.

[4] بطرس توديبو: المصدر السابق، ص 317-318. المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 118-119. معلوف أمين: الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر: عفيف دمشقية، دار الفرابي (بيروت)، ط2(1998م) ص13. عمران محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية، ص 33.

[5] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 103-104.هانس إبرهارد ماير: المرجع السابق، ص131.

[6] ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 157-158.

[7] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج1، ص 304.

[8] نابلس: هي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل أرضها حجر، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ...، أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج05، ص248.

[9] راغب السرجاني: قصة الحروب الصليبية، ص115.

ثم توجه الصليبيون إلى مدينة حيفا فاحتلوها سنة (494هـ/1100م)[1]، واستمروا في احتلا باقي المدن، فاحتلوا مدينة أرسوف سنة (495هـ/1101م)[2]، ثم احتلوا قيسارية واستباحوها[3]، ومنها ساروا إلى عكا فاحتلوها سنة (497هـ/1104م)[4].

ث-3- احتلال المدن الساحلية الشامية

لم يكن الصليبيون مهتمين بالمدن الشامية كاهتمامهم ببيت المقدس، ولذلك لم يحرصوا على احتلالها في بداية الأمر رغم أنهم احتلوا المدن الواقعة في طريقهم إلى فلسطين، غير أنهم اهتموا لها بعد أن تمكنوا من فلسطين، وابتدأوا بمدينة طرابلس فاحتلوها سنة(502هـ/1109م)[5] بعد محاولات عديدة انتهت كلها بالفشل[6]، ثم اهتم الصليبيون لأمر بيروت، فاحتلوها بعد حصار حصار طويل[7]، واستباحوها وقتلوا حاكمها عضد الدولة التنوخي[8]، ثم توجه الصليبيون إلى مدينة مدينة صيدا، وضيقوا عليها لكنهم عجزوا عن دخولها[9]، واستمروا على ذلك عدة مرات إلى أن تسلموها من أهلها سنة (503هـ/1110م)[10]، وسار بعدها الصليبيون إلى مدينة صور فأغاروا عليها عدة مرات لكنهم لم يتمكنوا منها[11]، ثم سلمها أهلها بعدما يئسوا من الحصار وكان ذلك في سنة (518هـ/1125م)، ويعزو ابن تغري بردي سبب سقوطها إلى تفريط الفاطميين فيها حيث يقول: ((أن سبب سقوطها هو زيادة النكاية في المسلمين من صاحب مصر))[12].

---

[1] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 161. فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 81. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 282.

[2] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 218-219. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 308.

[3] ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 309. محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 35.

[4] ابن الوردي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 14.

[5] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 145. ويليام الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 532-533.

[6] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 140.

[7] الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عثمان: دول الإسلام، حققه وعلق عليه، حسن إسماعيل مروة قراءة وقدم له محمود الأرناؤوط، دار صادر (بيروت)، ط1(1999م)، ج2، ص08.

[8] المصدر نفسه، ص 268-269. فوشي الشارتري: ص 145-146، كان شاهد عيان.

[9] ستيفن رنسيمان: المصدر السابق، ج2، ص 148-149.

[10] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص171.

[11] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج5، ص 181.

[12] المصدر نفسه، ص 181.

2- موقف الفاطميين من الاحتلال الصليبي لبلاد الشام

لم يبد الفاطميون أي حماس في رد العدوان الصليبي عند بدايته على أرض الإسلام، بل على العكس بادروا إلى مباركته بتقديم الدعم المادي والمعنوي للصليبيين نكاية في السلاجقة، فقد كانوا يروهم أعداء منذ أن سطع نجمهم في أرض الشام، ولذلك اعتقدوا في الوجود الصليبي ببلاد الشام فرجا ودعما لهم[1]، فوقفوا متفرجين على أرض الشام وهي تستباح من الفرنج.

غير أنهم فوجئوا بعدم التزام الصليبيين بالعهد المتفق عليه معهم، وهو التوقف عند حدود ممتلكات السلاجقة، ووجد الفاطميون أنفسهم أمام حتمية المواجهة المباشرة معهم، لكن الأوان كان قد فات، ولم تكن محاولاتهم في صد العدوان الصليبي إلا لحفظ ماء الوجه، حتى لا يقال عنهم أنهم تركوا ملكهم يضيع دون مقاومة، وسنحاول الآن أن نعرج على أهم ردود الفعل الفاطمية على العدوان الصليبي لأرض الشام، منذ بدايتها إلى ما بعد سقوط بيت المقدس، والتي تجسدت على عدة أوجه، شملت الميادين السياسية والعسكرية ثم الاقتصادية كحل أخير.

أ- سياسيا

أ-1- التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة

أ-1-أ- السفارة الأولى

سارع الفاطميون إلى عرض خدماتهم على الصليبيين منذ أن وصلوا إلى مدينة أنطاكية التابعة للسلاجقة، حيث أرسل الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي سفارة إلى الأمراء الصليبيين في شهر (صفر491هـ/1098م)[2]، وانتهى الاجتماع بعقد الطرفين اتفاقا على العمل سوية من أجل القضاء على النفوذ السلجوقي في بلاد الشام، وهذه بعض من بنود الاتفاق:

- تحتفظ مصر ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.
- يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية، على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
- يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة[3].

---

[1] ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ج1، ص230. أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص 159.

[2] ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 118.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ج1، ص 197-198.محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 428.

ويبدو أن الأفضل قد استند في تفكيره هذا إلى بض السوابق التاريخية، فقد اعتقد بأن الصليبيين لن يتجاوزوا حدود الدولة البيزنطية، التي وصلتها أيام صحوتها في القرن العاشر الميلادي، وهي مدينة أنطاكية خصوصا وأن كلا من الإمبراطور نقفور فوقاس (Nicephore phocas) ويوحنا زمسكيس(John tzimiskes) قد سعيا لتحقيق ذلك كم من مرة، فخيل إليه (الأفضل) أن الصليبيين لم يأتوا إلا لتلك الغاية[1].

والواقع أن هذه السفارة، لم تؤد إلى النتائج التي خطط لها الأفضل، غير أنها أدت إلى نتيجة في صالح الصليبيين، وهي وقوفهم على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين والسلاجقة في بلاد الشام، ولذلك قرروا الزحف إلى بيت المقدس، بعد أن تمكنوا من السيطرة على أنطاكية[2].

ويبدو أن موقف الفاطميين السلبي، من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال الشام أثار استياء المسلمين ونقمتهم، حتى أن بعض المؤرخين، وجهوا لهم أصابع الاتهام بأنهم هم من راسل الصليبيين للمجيء، وذلك للقضاء على خصومهم السلاجقة، وعبر ابن الأثير عن ذلك بقوله: ((وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأقسيس (أتسز حاكم بيت المقدس) إلى مصر وحصرها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين))[3].

ويعجب المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي من امتناع الأفضل عن النهوض لمساعدة المسلمين أمام أنطاكية وهو قادر على ذلك ((ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال...))[4]، ثم يشرح كيف خرجت عساكر المسلمين في العراق وبلاد الشام لصد زحف الصليبيين ((... كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج...))[5].

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ج1، ص 197. مسفر بن عريج الغامدي: المرجع السابق، ص 120.

[2] الذهبي شمس الدين: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1405هـ/1985م)، ج2، ص 74.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص416.

[4] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج5، ص 147-148.

[5] المصدر نفسه.

غير أن الحقيقة التي ربما جعلت الأفضل يتقاعس عن مساندة السلاجقة، هي الخصومة المذهبية التي كانت بين الطرفين، فقد انزعج هذا الأخير كثيرا وهو يرى قوة السلاجقة تستولي على أراضي الشام بما فيها التابعة لنفوذ الفاطميين، ولذل ك وجد الأفضل الفرصة سانحة لما جاء الصليبيون ليتحالف معهم من أجل القضاء على المذهب السني من أرض الشام، ويخلو له الجو هناك لينفرد به ويوسع سلطان الروافض.

ومن ناحية أخرى، فإن هناك ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين (Alexis comnene) نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية، في طريقهم إلى الشرق، بأن يجتهدوا في محالفة الفاطميين في مصر، لأنهم سيكونون لهم سندا، ضد السلاجقة في بلاد الشام وشمال العراق[1].

ويبدو أنهم استجابوا لتلك النصيحة، فأرسلوا سفارة إلى القاهرة صحبت السفارة الفاطمية لدى عودتها، غير أنه لم يلبث أن اتضح أنه لم يكن لدى أعضائها السلطة للتفاوض، بل عقدوا العزم على أن يسيروا إلى بيت المقدس ويستولوا عليه، إنما أكدت هذه السفارة حرص الصليبيين مع الفاطميين للقضاء على العدو المشترك[2].

بالإضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة بالتصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوب بلاد الشام، ظنا منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة، وكان له ذلك بحيث استطاع في شهر (رمضان491هـ/1091م)، أن يحتل بيت المقدس الذي كان تابعا للسلاجقة[3]، كما قام قبله باستباحة مدينة صور التي خرجت عن طوعهم وكان ذلك في شهر(ربيع الأول491هـ/1098م)[4].

---

[1] محمد سهيل طقوش: المصدر السابق، ص429.

[2] ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 118. محمد سهيل طقوش: المصدر السابق، ص429.

[3] مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان)، (1420هـ/1999م)، ج1، ص306.

[4] ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 08. عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف (القاهرة)، ط2، د-س-ن، ص66-67.

أ-1-ب- السفارة الثانية

لما أدرك الأفضل بن بدر الجمالي أن الصليبيين لم يتوقفوا عند الحدود المتفق عليها في السفارة الأولى ارتبك ولم يعرف ما يفعل ولذلك بادر بمراسلة الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين(Alexis comnene)، يسأله إن كان هؤلاء يعملون لصالحه أم لا فرد عليه بالنفي[1]، وهنا قرر أن يرسل إليهم سفارة ثانية تحمل هدايا نفيسة وأموالا ضخمة، والتقت بهم قرب مدينة طرابلس، وعرضت على الصليبيين أن يحجوا إلى بيت المقدس ويزوروا كنيسة القيامة في شكل مجموعات من مائتي وثلاث مائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين كما طالبهم بالتوقف عن الزحف جنوبا وأن موافقتهم على تلك الشروط تعني أن يصبح الفاطميون سندا لهم، وأنه في حال الرفض سوف تواجههم جيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[2].

رفض الصليبيون الاقتراح، وردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيحجون كجيش واحد وليس كجماعات بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي، وأقسموا على انتزاع الضريح المقدس من أيدي الفاطميين، وهددوا السفارة الفاطمية بغزو مصر، وكان معنى ذلك بداية الصدام المسلح بين الطرفين، وشكل الاستيلاء على بيت المقدس الشرارة التي أشعلت نار الحرب بينهما[3].

ب- عسكريا

ب-1- مقاومة حامية بيت المقدس

بدأ الأفضل بن بدر الجمالي يعد العدة لمواجهة الصليبيين فور علمه بنواياهم، وكان من جملة ما قام به أولا أن قام بتعزيز الحامية الفاطمية في بيت المقدس لتستطيع مجابهة الحصار، في انتظار أن يلحقهم بالمدد من مصر، ولذلك بدأ قائد حامية بيت المقدس المدعو افتخار الدولة، فور تلقيه الأوامر من مصر بتحصين المدينة والاستعداد للحصار متخذا عدة إجراءات منها الوقائية ومنها الدفاعية، وهي:

- قام بردم الآبار التي تقع خارج المدينة، وسم بعضها.
- أبعد قطعان الماشية إلى مواضع آمنة.

---

[1] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج1، ص 406.

[2] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج1 ص394.

[3] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 431.

- ملأ مخازنه بالمؤن، وصهاريجه بالماء بما يكفيه لوقت طويل.
- طرد كافة النصارى من المدينة، وهو إجراء سديد، لو تمعنا فيه جيدا، إذ لا يرتجى منهم فائدة، خصوصا وأنهم ممنوعون من حمل السلاح، كما لا يمكنه الوثوق بهم إذا نشبت الحرب، فقد يقفون إلى جانب إخوانهم النصارى، وهذا وسيؤمن خروجهم المؤن لمن تبقى من السكان.
- أرسل سفارة إلى مصر يطلب النجدة[1].

كانت هذه هي التدابير التي اتخذتها الحامية الفاطمية ببيت المقدس، وإن كانت قد قاومت الحصار لبعض الوقت، إلا أنها لم تصمد طويلا، ووقعت المدينة في أيدي الصليبيين ليفعلوا بها الأفاعيل كما كنا أشرنا إليه سابقا، وعن سبب الهزيمة التي تعرضت لها هذه الحامية، فهو وبلا شك بسبب قلتها بالمقارنة مع جيش العدو، كما أن تباطؤ وصول المساعدات الفاطمية التي أرسل في طلبها، كان له هو الآخر دور في هذه الهزيمة[2]، وليس بوسعنا هنا أن نلوم أيا من الطرفين، فالأول لم يتقاعس في الدفاع عن المدينة، رغم محدودية جيشه وعتاده، والثاني كان قد أرسل المساعدة لكنها وصلت متأخرة.

ب-2- معركة عسقلان

عندما وصلت أنباء سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين، إلى خليفة بغداد المستظهر (487-512هـ/1094-1118م)، أرسل إلى السلطان السلجوقي بركياروق يخبره بالأمر، ويدعوه إلى نصرة المسلمين في بلاد الشام، لكن هذا الأخير لم يقم بأي عمل جدي يحقق هذه الرغبة[3]، لسبب بسيط وهو أن المدينة تابعة للنفوذ الفاطمي، وبالتالي فعلى الفاطميين أن يتحملوا تبعات خيانتهم للسلاجقة، أثناء وقوعهم تحت الحصار الصليبي في أنطاكية، والمدن التي قبلها.

يبدو هذا التصرف غير سليم تماما من جانب أهل السنة في حق بيت المقدس إذ ليس من الصحيح أن نستحضر العداء القديم في الوقت الذي نحن في حاجة ماسة لأن نكون وحدة متماسكة، ولو أن السلطان السلجوقي لبى نداء الخليفة العباسي، وتوجه إلى بيت المقدس لنصرته لربما سار التاريخ طريقا غير الذي نعرفه، لكن تحجج السلطان بعدم مشاركة الفاطميين محنتهم في

[1] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 116.
[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص 146.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 438.

بيت المقدس بسبب الخصومة السابقة، عجل بسقوط بيت المقدس أعظم وأكبر مدينة في بلاد الشام من جميع النواحي، والحقيقة التاريخية تقتضي منا كمؤرخين أن نصوب من أصاب ونخطّئ من هو مخطئ، ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن ننسى ما قام به الفاطميون من أجل تدنيس الإسلام، وتركه يستباح من طرف النصارى الغاصبين، وجرائمهم في ذلك لا تحصيها الإحصاءات.

والحقيقة أن هذا الخلاف الذي كان بين بغداد والقاهرة، قد أسهم في ذلك الوقت في خسارة أنطاكية وبيت المقدس، بالإضافة إلى بعض المدن الإسلامية الأخرى، كبيت لحم واللد والرملة ويافا[1]، والواقع أن الأفضل بدأ بتجهيز جيشه للمسير إلى فلسطين، لنصرة بيت المقدس المحاصرة من طرف الصليبيين، وخرج به من مصر ليحول دون استيلائهم عليه، ولكنه وصل إلى عسقلان في (14رجب) وكان قد فات الأوان[2]، كما أنه أضاع كثيرا من الوقت في عسقلان ينتظر وصول الأسطول الفاطمي عن طريق البحر، إضافة إلى النجدات العربية التي وعد بها[3]، مرتكبا خطأ عسكريا كبيرا، إذ في الوقت الذي كان فيه قابعا في عسقلان، اكتشف الصليبيون أمره، فبادروا بالهجوم على معسكره صبيحة(22رمضان)، في سهل المجدل الواقع شمال عسقلان[4].

وكان كشافته قد وقعوا في الخطأ، عندما أعلموه بأن الطريق خالية، ولم يكونوا على علم بأن الصليبيين قريبين منهم[5]، ولذلك فعندما نشبت المعركة بدا ضعف جيشه جليا، فقد عجز عن مقاومة الصليبيين، والراجح أن عدم استعدادهم للحرب في ذلك الوقت بالضبط، هو سبب هذا الضعف، ولذلك فلم تمض إلا مدة وجيزة حتى حلت بهم الهزيمة، وولوا هاربين إلى ناحية عسقلان، أما الأفضل فقد ركب سفينة أعادته إلى مصر[6]، ((وحكي أن الذين قتلوا من أهل عسقلان من شهودها، وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس...))[7].

---

[1] المرجع نفسه.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 21.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص137.

[4] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 122. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 295.

[5] راغب السرجاني: نفس المرجع السابق، ص 115.

[6] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 120. تقي الدين المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 161.

[7] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 137.

أكدت هذه الهزيمة أنه ليس بمقدور الفاطميين أن يستردوا ما فقدوه من الأراضي، لكن ذلك لا يعني أن باستطاعة الصليبيين الاستيلاء على جميع نواحي فلسطين، لأن البحرية الفاطمية لا تزال تسيطر على ساحل بلاد الشام، ولكن ما علمه الصليبيون من خلال احتكاكهم بالجنود الفاطميين، هو أن الفاطميين ليسوا بقوة الأتراك، مما أعطاهم الثقة بالنصر[1].

كان جودفري دي بوايون(Godefroy de bouillon)، يأمل بعد هذا الانتصار على الفاطميين في الاستيلاء على عسقلان، لذلك ضرب الحصار عليها، ولما أدركت حاميتها أنه ليس بوسعها الصمود أمام القوات الصليبية فضلت الاستسلام، تجنبا لمذبحة جديدة كالتي حدثت في بيت المقدس ولذلك قرر قائدها أن يدخل في مفاوضات مع ريموند الصنجيلي (Raymond) لتسليم المدينة إليه[2]، ويكون قائد الحامية، قد استند في تفكيره هذا، إلى ما فعله افتخار الدولة قائد حامية بيت المقدس عندما طلب الأمان من الصليبيين، فأعطوه الأمان وسمح له ولرجاله بالخروج سالمين من بيت المقدس.

على كل حال، قبل الصليبيون فكرة قائد الحامية، لكنهم لم يسيطروا على المدينة، بعد أن دخلوا في خلافات فيما بينهم، فقد كان ريموند الرابع(Raymond4) يبحث عن تأسيس إمارة له، وكان يحلم بمدينة عسقلان لتحقيق رغبته هذه، ليواجه تعنتا من جودفري (Godefroy de bouillon)، الذي كان يريد هو الآخر الاستئثار بها، ونتيجة لهذا الخلاف انسحب ريموند الرابع(Raymond4) من الحصار، ليترك جودفري(Godefroy) لوحده فرأى هذا الأخير، أنه لن يستطيع مواصلة الحصار لوحده، فانسحب هو الآخر، بعد أن فرض على أهلها عشرين ألف دينار، ولم يدفعوا منها شيئا[3].

وهكذا أدى النزاع الداخلي بين ريموند(Raymond4) وجودفري(Godefroy) إلى ضياع عسقلان من أيدي الصليبيين لمدة تزيد على نصف قرن، تلى ذلك أن عرضت مدينة أرسوف الصغيرة أن تستسلم لريموند وكان قد هاجمها بعد انصرافه من أمام عسقلان، فتصدى له جودفري من جديد، بوصفها تتبع بيت المقدس[4].

---

[1] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص441.

[2] تقي الدين المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 160.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 137.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 223.

ب-3- مقاومة حامية عسقلان

لكن الصليبيين لم يكونوا ليرتاحوا في بيت المقدس وما جاورها ما دامت عسقلان لا تزال تحت سلطان المسلمين، وهي تتوسط الطريق بين مصر وفلسطين، إذ كثيرا ما كانت الجيوش القادمة من مصر صوب فلسطين تتخذ منها معبرا تتزود منه بالمؤونة، أو تتخذها ملاذا قريبا تفر إليه إذا ما تلقت هزيمة من جانب الصليبيين، ولأجل كل ذلك قرر الصليبيون التضييق عليها من أجل السيطرة عليها سواء بالحصار، أو بالحملات الخاطفة لكنهم في كل مرة يعودون بالفشل الذريع، والسبب في ذلك هو ما كانت تتمتع بها حاميتها من قوة وصبر أهلها لأن تتبوأ مكانة في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في وقت عجزت كبرى القوى الإسلامية عن مواجهتهم، وما قامت به هذه الحامية في سبيل الدفاع عن نفسها وعن بعض المدن الإسلامية المجاورة نذكر:

ب-3-أ- الإغارة على بيت المقدس ويافا

يبدو أن العسقلانيين كانوا يترقبون كل ما يحدث في المدن المجاورة لهم، ولذلك فإنهم اغتنموا فرصة خروج بلدوين إلى طبرية، في سنة (519هـ/1115م) في مهمة خاصة به[1] واضطرته الظروف للبقاء مع جميع قواته هناك[2]، ليخرجوا في عسكر ضخم إلى الإقليم الجبلي ومن ثم إلى بيت المقدس لمحاصرته، الذي لم تكن به قوات صليبية كافية للدفاع عنه، وبالنظر إلى ضيق الوقت قاموا بغارات خاطفة على المناطق المجاورة لبيت المقدس، واستمروا على ذلك بضعة أيام[3].

وفي نفس السنة خرج بلدوين(Baudouin)، إلى أنطاكية لنصرة إخوانه الصليبيين بعد أن جمع لهم طغتكين جموعه للهجوم على المدينة، فاغتنم العسقلانيون هذه الفرصة، ليخرجوا بجيش كبير لمحاصرة يافا، وكان في مساعدتهم هذه المرة أسطول فاطمي مؤلف من سبعين سفينة، ويبدو أنه كان يريد احتلال كافة المدن الساحلية التي يمر بها، أما الجيش البري المكون من آلاف كثيرة من الجند فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة[4].

ولما وصلوا إلى المدينة، أحاطوا بها من كل جانب، وبدأوا بالإغارة عليها، وأقاموا عليها سلالم لتسلق الأسوار، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فقد كان القيمون على السور حريصين على

---

[1] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 146.

[2] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 302.

[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 155.

[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 303. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 358.

ألا يدعوا الأعداء يتسلقون السور، ولذلك راحوا يرمونهم بالسهام حتى ردوهم عن الأسوار، ولم يتمكنوا من دخولها، إلا أنهم أحدثوا بالمدينة أضرارا بالغة، حيث تداعت أجزاء من السور، كما احترق جزء من أبواب المدينة.

وأخيرا وبعد أن أدرك الفاطميون، أنهم لن ينالوا من المدينة منالا، قرروا الانسحاب وكانت قد هبت ريح مواتية لسير السفن فانسحبوا، ولكن هذا الانسحاب كان خطة اتخذها الفاطميون لإيهام أهل يافا بأنهم رحلوا نهائيا، فعادوا مرة أخرى بعد عشرة أيام، ولم يشعر بهم أحد إلى أن ظهروا أمام المدينة فجأة، إلا أنهم لم يتمكنوا منها مرة أخرى، بعد أن استمات أهلها استبسالا كبيرا، وما ساعدهم على الصمود، هو علمهم باقتراب الملك بلدوين(Baudouin) منهم، الذي جاء لمساندتهم، إضافة إلى قلة أعدائهم هذه المرة بالمقارنة مع المرات السابقة[1].

كانت هذه هي المحاولات التي قامت بها الحاميات الفاطمية لمواجهة الصليبيين، وإن كانت قليلة إلا أنها محاولات تحسب لهم، فإذا نظرنا إلى ما فعلته حامية عسقلان عندما خرجت إلى بيت المقدس مرة، ومرتين إلى يافا، نجد أنها قد أدت واجبها، وإن كانت محاولاتها محدودة، إلا أنه لا يمكننا أن نغمطها حقها، ونفس الشيء مع حامية بيت المقدس، التي اتخذت في البداية التدابير اللازمة، لمواجهة الحصار المحتمل، إلا أنها عجزت عن الصمود، واستسلمت ويحق لها ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار المجازر الشنيعة التي ارتكبها الصليبيون بأهل القدس، فلو أنها لم تستسلم للاقت نفس المصير، ولن يفيدها ذلك شيئا.

ب-4- معركة الرملة الأولى

ما إن تمكن بلدوين(Baudouin) من السيطرة على قيسارية، حتى وصلت إليه أنباء أن خليفة مصر قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه وهو المملوك سعد الدولة القوامسي، في أواخر (رمضان494هـ/1101م) على رأس مجموعة من العسكر إلى ناحية عسقلان، وقد أمره أن يتقدم بسرعة لقتال الصليبيين، حتى يباغتهم ويتيسر له القضاء عليهم بسهولة تامة، ويقال أنه كان في جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان، وعشرون ألفا من العسكر المشاة[2].

---

[1] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 156.

[2] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 223.

ولذلك قام الملك بلدوين(Baudouin)بمغادرة قيسارية على جناح السرعة، فقد كان يتخوف من استيلاء هذا الجيش على بيت المقدس، بالنظر إلى كثرته، ولما وصل إلى الرملة أقام بها ما يقرب الشهر، ثم عاد أدراجه إلى يافا، إذ لم يظهر الجيش الفاطمي[1]، والراجح أن القائد الفاطمي كان متوقفا ينتظر المدد، من المناطق والمدن المجاورة، وفي ثامن ذي القعدة خرج سعد الدولة باتجاه الرملة حيث لم يستطع التراخي أكثر، وربما يكون قد تخوف من غضب الأفضل، فقرر الدخول في المعركة لوحده، وعبأ صفوف جيشه للقتال، ثم أغار على بعض المدن الصليبية[2].

ولما علم الملك بلدوين(Baudouin)بما حدث أمر باستدعاء قواته، وكانت قليلة بالمقارنة مع ما جاء به الفاطميون، غير أنه غامر بنفسه وخرج بهذه القلة، لمواجهة القوامسي، وكان مجموع ما معه من الجيش، ألف فارس وعشرة آلاف راجل[3].

ولما اتضح أن الجيش الفاطمي قد أخذ في الاقتراب، أمر بلدوين(Baudouin) بتقسيم قواته إلى ست فرق وجعل أمامهم راهبا يحمل بيده الصليب، ثم اندفع إلى ساحة المعركة، وحدث أن اصطدمت فرقة من جيشه بمقدمة الجيش الفاطمي، فاضطربت وأجبرت على الفرار فتتبعهم عدد كبير من الفاطميين، وراحوا يعملون فيهم السيف، حتى قتلوا معظمهم[4].

بينما بقيت الفرق الأخرى تقاتل القوات الفاطمية، إلى أن كسرت ميمنة وميسرة الفاطميين وبقي القوامسي مع نفر قليل من جيشه في القلب، ثم كبا به فرسه فسقط واستشهد[5]، وفرت الفئة التي كانت ثابتة معه، فتتبعتها القوات الصليبية، تقتل كل من لحقت به، إلى أن وصل إلى مشارف عسقلان، ((ولم يوقفه عن الذبح المروع إلا دخول الليل، وإذ ذاك نفخ الملك في البوق مستدعيا رجاله، فعادوا إلى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعا لقانون الحرب، وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه في ذلك الموضع ولما أحصى

---

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 443.

[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 180.

[3] ابن القلانسي، نفس المصدر السابق، ص 140. بينما يذكر وليام الصوري بأن مجموع من معه هو مائتان وستون فارسا، وتسع مائة راجل، ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج01، ص 224.

[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص226. .

[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 140.

رجالنا كان المفقودون منهم سبعون فارسا، وأكثر منهم الجند المشاة على أن الخسارة الحقيقية لم تعرف))[1].

هذا وكانت القوات الفاطمية التي تتبعت فلول الفرقة الهاربة من جيش بلدوين (Baudouin)، قد أوغلت في مطاردتهم حتى بلغت مدينة يافا، ثم وقفت أمام المدينة لتعلن في صوت عالي أن الجيش الصليبي قد هلك رفقة قائدهم، ما أدخل البلاد في دوامة من الفوضى، حتى أن القيمين على يافا راسلوا تانكرد(Tancred) أمير أنطاكية، يستصرخونه لنجدة المملكة[2].

ثم لما قفلوا راجعين، اصطدموا بالجيش الصليبي وهو عائد إلى المدينة، ففروا منه وراح هذا الأخير يطاردهم، ويقتل كل من وصلت إليه يديه، ويعترف ويليام الصوري Gullaume de) tyr(، بشجاعة هؤلاء في الدفاع عن أنفسهم، فيقول: ((استبسلوا في قتالهم حفاظا على حياتهم، وهجموا على خصوم ملتهم، وكان قتال اليأس في الأحياء المجاورة استعملت فيه السيوف، وأحيط بالعدو إحاطة سدت عليه مسالك النجاة، فهلك الكثيرون من رجاله، أما البقية الذين أفزعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار))[3].

كانت هذه هي المعركة الثانية للجيش الفاطمي بعد معركة عسقلان الأولى، والتي انتهت كسابقتها بانهزام ساحق للفاطميين، في مقابل انتصار آخر للصليبيين، وبدراسة دقيقة لسير العمليات العسكرية، فإنه يمكننا أن نستنتج عدة استنتاجات وهي:

- أن عدد الجيشين الفاطمي والصليبي، الذين أوردهما الصوري(Gullaume de tyr) يقع فيهما لبس كبير، فقد أورد أن الجيش الفاطمي فاق الواحد والثلاثين ألف مقاتل، بينما لم يتعد الجيش الصليبي الذي انتصر انتصارا ساحقا، الألف ومائتين، وهو مبالغ فيه من حيث العدد، فليس من العقل أن تتغلب تلك القلة على قوة الفاطميين الكبيرة.
- وعن سبب مبالغة الصوري(Gullaume de tyr) في هذا الأمر، ففي اعتقادنا هو أمر نفسي بحت، فقد كان يفتخر بإنجازات الصليبيين، كما انه ربما قصد من وراء ذلك إضفاء نوع

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 226.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 181.
[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 227.

من القدسية على العمل الصليبي.

- والراجح أن عدد الجيش الصليبي الذي أورده ابن القلانسي هو الصحيح، فقد أورد ما مجموعه بين الرجالة والخيالة، إحدى عشر ألفا، بينما لم يورد عدد الجيش الفاطمي بالضبط، وإن أخذنا بالعدد الذي أورده الصوري(Gullaume de tyr)، وإن كان مبالغا فيه، فإننا سنقبل بنتيجة المعركة على اعتبار أن أعداد الجيشين متقاربين بالمقارنة مع ما أوردهما في السابق.
- وما يمكننا استنتاجه أيضا، هو أن الجيوش الصليبية كانت تخرج دائما منتصرة، في حين أن الفاطميين كانوا يخرجون منهزمين دائما، وسبب ذلك على ما يبدو هو أن الوضعية النفسية التي يدخل بها كل جيش إلى المعركة، فالمتفائل الباحث عن النصر بأي ثمن، ليس كمن يقاتل مكرها، وإلا فكيف تنهزم الجيوش الفاطمية بمجرد دخولها أرض المعركة، أو أن التخطيط العسكري عند الصليبيين، هو أفضل منه عند الفاطميين.

ب-5- معركة الرملة الثانية

لم يستطع الوزير الأفضل أن يسكت على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين، وما اشتهرت به مصر من موارد ضخمة هيأت له أن يجهز جيشا كبيرا يستطيع بواسطته استئناف القتال، واحتشد الجيش الذي بلغ عدد أفراده عشرين ألفا في عسقلان في (25رجب 495هـ/1102م)، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل، ثم انطلق إلى اللد والرملة ويازور، ومن هناك اتجه لتهديد يافا وبيت المقدس[1].

كان بلدوين(Baudouin) قد استعد هو الآخر، فحشد جموعه التي قدرها ابن القلانسي بسبع مائة ما بين فارس وراجل[2]، ويبدو أنه اغتر بانتصاره السابق، أو أن كشافته ضللته، أو لاعتقاده بأن الفاطميين ليسوا إلا فئة قليلة، فاستخف بهم وعزم على أن يتولى بنفسه القضاء عليهم دون أن يلجأ إلى استدعاء القوات الاحتياطية، فخرج من بيت المقدس قاصدا الرملة، وفي الوقت الذي كان يسير فيه على غير تعبئة باغتته القوات الفاطمية بين يازور والرملة[3].

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص 40-41. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 352.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 141.

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 444.

وربما اعتقد المسلمون بأن تلك الثلة من القوة العسكرية ليست إلا طليعة لجيش ضخم آت على أعقاب الملك، فاختاروا أن يباغتوها فورا قبل أن يلحق بها بقية الجيش، ولذلك عندما نشبت المعركة، لم يستطع بلدوين(Baudouin) الثبات أمام الجموع الإسلامية، فانهزم هو وجيشه[1]، ولقي عدد كبير من الفرسان مصرعهم في ساحة المعركة، وتمكنت جماعة من الفرسان أن تشق لها طريقا في صفوف المسلمين حيث التحقت بيافا، أما الملك وكبار أعوانه، فاتخذوا طريقهم إلى حصن الرملة الصغير حيث حاصرهم الجيش الفاطمي.

وقد كان بإمكان الجيش الفاطمي أن يستولي على الرملة بسهولة، لو أنه استغل سوء عوامل الدفاع عنها، كما بإمكانه القبض على الملك الصليبي، لكن حلول الظلام جعل الجنود الفاطميين يؤجلون اقتحامهم لها صباح اليوم التالي، وهو ما يسر لبلدوين(Baudouin) الفرار من الرملة ليلا بعد أن تنكر، واتجه إلى يافا، وهاجم الجيش الفاطمي المدينة صباح اليوم التالي، واقتحمها وقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين[2].

ولم يلبث الجيش الفاطمي أن حاصر يافا برا في الوقت الذي كانت فيه مطاردة بلدوين(Baudouin)جارية، في حين حاصرها أسطول فاطمي بحرا، فاضطر بلدوين (Baudouin) إلى تغيير وجهة سيره، واتجه إلى أرسوف شمال يافا حيث تجمع رجاله من جديد، وتمكن من دخول يافا بعد ذلك عن طريق البحر مخترقا الحصار البحري[3].

ووصلت إلى ميناء يافا آنذاك مائتا سفينة، تقل أعدادا كبيرة من الجند والحجاج الإنكليز والفرنسيين والألمان، بعد أن شقت طريقها إلى داخل الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمي فجندهم بلدوين(Baudouin) في قواته، وبذلك حصل على معونة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها، وبعد تنظيم هذه القوات، خرج بهم في ثامن شعبان، لمجابهة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة (يافا) وبعد ساعات قليلة، من نشوب المعركة انهزم الفاطميون وتراجعوا إلى عسقلان[4].

والواقع أن القوات الفاطمية افتقدت إلى وضع الخطط العسكرية الناجعة وتحديد الهدف الذي يخدم القضية الإسلامية، إذ كان بوسع سرية من العساكر أن تفتح بيت المقدس عقب معركة

[1] عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 87.

[2] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 232. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 352.

[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 127.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص 41.

الرملة دون أن يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر، ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أفراد الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة ((فقال قوم: نقصد البيت المقدس ونتملكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة بيت المقدس، فندبهم بغدوين للغزو معه))[1].

وما إن علم الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي، حتى أسرع بإرسال حملتين إحداهما برية بقيادة المملوك تاج العجم، وتألفت من أربعة آلاف فارس، والأخرى بحرية بقيادة القاضي بن قادوس[2]، لكن انعدام التنسيق العسكري بينهما، جعل الجيش البري يتوقف في عسقلان، وفي الجهة المقابلة، كان بلدوين قد أرسل رسالة عاجلة إلى كل من تانكرد(Tancred)، الوصي على أنطاكية، ودي بورج أمير الرها، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة، بعد أن سمع بتحركات الفاطميين الأخيرة، ولم تلبث أن وصلت إلى يافا في (17ذي القعدة/01سبتمبر)، نجدة بقيادة أميري أنطاكية والرها، وقد بلغ عدد أفرادها خمسمائة من الفرسان، وألفا من المشاة[3]، ثم حذا الأفضل حذوه، فطلب الوزير الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ولكن دقاق اعتذر عن ذلك ولم يحضر[4].

ب-6- معركة الرملة الثالثة

والحقيقة أن الوزير الأفضل لم يتخل عن مواصلة الجهاد، وإن كان يعاب عليه عدم الخروج بنفسه على رأس الجيش للقتال، ويبدو أن الأوضاع الداخلية المتردية في مصر آنذاك، والتي كانت تسودها المؤامرات، كانت وراء عدم مغادرته مصر، وقام بمحاولة أخرى في شهر (ذي الحجة498هـ/1105م) مختلفة في النهج والأسلوب، فأرسل حملة بحرية، تعدادها عشرة آلاف فارس وراجل، إلى بلاد الشام بقيادة ابنه شرف المعالي احتشدت في عسقلان[5]، وهناك انقسم الجيش قسمين، فسار قسم إلى يافا، بينما سار الآخر إلى الرملة وكان الأفضل قد أرسل إلى الأتابك ظهير الدين طغتكين، الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص56.

[2] المصدر نفسه .

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 446.

[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 41.

[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 142.

تتش في شهر (رمضان497هـ/جوان1104م)، يطلب مساعدته، رغم من الاختلاف المذهبي، والراجح أنه كان يريد تطويق الصليبيين من الشمال والجنوب، فقبل طغتكين هذا العرض، بعد أن رفضه في البداية[1]، غير أنه لم يكن بوسعه أن يرسل إليه جيشا كبيرا على أنه أرسل قوة عسكرية قوامها ألف وثلاثمائة من الرماة، بقيادة أصبهذصباو وجهارتكين[2]، ويعد ذلك أول عملية تحالف، اتحد فيها المسلمون ضد الصليبيين عدوهم المشترك[3].

ومن الجانب الآخر، فإن بلدوين(Baudouin) ما إن سمع بأخبار هذه الحملة حتى بادر بالزحف إلى يافا على رأس جيش كبير، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما واجب النفاذ، يأمر فيه قوات كل المدن التابعة لمملكة بيت المقدس، بالتجمع في يافا، فاستجابوا له بسرعة[4]، وبلغ عدد القوات الصليبية، بوصول هذه الإمدادات خمسمائة فارس وألفا جندي من المشاة، وجعل في مقدمة الجيش بطريرك بيت المقدس، يحمل في يده الصليب، ويحث الجنود على القتال، ويعدهم الرحمة الغفران[5]، كما انضم إليه أرتاش أخو دقاق، المطالب بعرش سلطنة دمشق[6]، غير أنه أنه لما رأى اقتراب الفاطميين من الرملة قرر ترك يافا، والتوجه إلى الرملة.

ثم إن الجيش الفاطمي عمد إلى مناوشة الصليبيين، حتى يتسنى للأسطول البحري الانتقال إلى يافا أين يجتمع بقوات ظهير الدين طغتكين، ويطبقوا كلهم على الصليبيين، وفي الرملة اصطدم الجيشان الإسلامي والصليبي، حيث دارت رحى معركة ضارية استبسل فيها الطرفان استبسالا كبيرا، ثم انتهت بانتصار بلدوين، وكان الذي ساعد بلدوين على الانتصار، هو المساعدة التي تلقاها من الأسطول البندقي الذي وصل بُعيد بداية المعركة، عندما كان الأسطول الفاطمي يهم بالانسحاب من يافا، فانقضوا على مؤخرته، ثم ما لبثوا أن حاصروه ثم ودمروه[7].

---

[1] نفسه، ص148.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص85.

[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 448.

[4] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 180. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 432.

[5] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 262.

[6] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص، 142.

[7] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص198. ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 359.

كان هذا ما قاله الشارتري، لكنه لا توجد أية رواية أوردت ذلك، فحتى ويليام الصوري (Gullaume de tyr) الذي نجده في كل مرة يتغنى بانتصارات الصليبيين، لم يورد هذه الرواية، وبالتالي فإن صدقها مشكوك فيه ولعل ما زاد من التشكيك فيها هو ما قاله بالحرف الواحد: ((ولكن أقدام المهاجمين في السفن تلطخت بالدماء، وهكذا تم الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الطائلة، وبعد أن طرحت الجثث خارج السفن، كنت ترى البحر وقد امتد احمرار مياهه لبعد أربعة أميال))[1]، تبدو هذه الرواية غير منطقية تماما، ولو كانت حقيقية لما تغاضى عنها المؤرخون.

وعلى كل حال، فإن صباو فر مع عساكره الأتراك عائدا إلى دمشق، بينما تراجع الجنود الفاطميون إلى عسقلان، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة، وأصيب الجيش الفاطمي بخسائر فادحة حيث قتل ألف ومائتان من جنوده ولقي حاكم عسقلان مصرعه[2]، ووقع القائدان السابقان لعكا وأرسوف في الأسر، وعاد الأسطول الفاطمي إلى صور وصيدا وطرابلس، كما تكبد الصليبيون خسائر مماثلة في الأرواح[3].

وحسب ما ذكره ابن الأثير فإن سبب الهزيمة التي مني بها الفاطميون والسلاجقة معا، هو الاختلاف الذي حدث بينهما، حيث يقول: ((وكان الأفضل قد سير ولده شرف المعالي في السنة الخالية إلى الفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم، ثم اختلف المصريون والعرب وادعى كل واحد منهما أن الفتح له، فأتاهم سرية الفرنج، فتقاعد كل فريق منهما بالآخر حتى كاد الفرنج يظهرون))[4].

هذه هي الرواية الوحيدة التي ذكرت سبب الهزيمة، ولا ندري صحتها من عدمها، لكن كل ما يمكننا قوله هو أن هذه الحملة الفاطمية، فشلت في تحقيق هدف الفاطميين، كما أنهت جهودهم لاستعادة فلسطين، على الرغم من أنهم ظلوا يهددون الصليبيين بين حين وآخر، ولكن في نطاق محدود، فما حدث من غارة صغيرة قاموا بها في أوائل عام (500هـ/1106م)، أوشكت أن تحقق النجاح، فقد هاجم بضعة آلاف من الفرسان الفاطميين معسكرا للحجاج بين يافا

---

[1] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص199.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 142.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص85.

[4] المصدر نفسه، ص85.

وأرسوف، وقتلوا النازلين فيه، ثم توجهوا إلى الرملة، وهاجموا يافا وقصدوا بيت المقدس، لكن بلدوين عجل بالسير نحو الجنوب، وكان آنذاك في الجليل فانسحب الفاطميون إلى عسقلان[1].

وقام الفاطميون في العام التالي، بشن غارة على الجليل، صدها بلدوين(Baudouin)، وتوغلوا في عام (504هـ/1100م)، حتى بلغوا أسوار بيت المقدس لكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا، وجرت في السنوات العشر التالية غارات مماثلة بين حين وآخر، ومع أنها تقل عن سابقاتها في الأهمية، فإنها أزعجت حياة الحجاج النصارى في السهل الساحلي والنقب[2].

ب-7- معركة بيروت

وعن اهتمام الفاطميين لأمر بيروت عندما سقطت في أيدي الصليبيين، فإنه جاء واضحا منذ بداية الأمر، من خلال استماتة الحامية الفاطمية يوم الجمعة (21شوال 503هـ/13 أفريل1110م) عندما هاجمها بلدوين(Baudouin) بقواته المتحالفة مع القوات الجنوية، فاشتد القتال بين الطرفين واستبسلت الحامية، حتى قتل قائد الأسطول الفاطمي، وخلق كثير من المسلمين[3]، ولم ير الإفرنج من ما تقدم وتأخر حربا أشد من هذه، إلى درجة أن القتال استمر بشكل متواصل ليل نهار حتى ملك الصليبيون المدينة بالسيف، وفشلت السفن الفاطمية التي قدمت من صور وصيدا في اختراق الطوق البحري الذي وضعه الصليبيون حول المدينة، وحاول عضد الدولة التنوخي (وهو في الأصل قائد درزي) الهرب مع جماعة من أعوانه، لكنه وقع في الأسر، وقتله الصليبيون، ونهبت بيروت، وسبي من كان فيها، وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا[4].

ثم خرجت من مصر، نجدة فاطمية أخرى لمساعدة بيروت، قوامها ثلاث مائة فارس لكنها وقعت في كمين نصبه الصليبيون عند نهر الأردن، ولم تفلح هذه المساعدات ولا الحامية الفاطمية في صد الصليبيين عن هذه المدينة، فوقعت أخيرا في أيديهم، وبذلك ضاعت مدينة أخرى من أهم المدن الإسلامية من قبضة الفاطميين[5].

---

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 449.

[2] ستيفن رنسيمان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 148.

[3] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 87.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 268-269. فوشيه الشارتري: ص 145-146، كان شاهد عيان.

[5] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص171.

وعن ردة فعل الفاطميين من سقوط مدينة صور، فيمكننا القول بأن الأفضل قد أقدم على خطوة تحسب له في بداية الأمر، أي قبل سقوط المدينة بيد الصليبيين، وإن لم تكن هذه الردة بإرسال الجيوش إلا أنها كانت في صالح المدينة، وكان ذلك بسماحه لعز الدين أنوشتكين، وهو النائب عنها يومئذ، بأن يسلمها إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة(506هـ/ 1112م)، حتى يتولى حمايتها والدفاع عنها[1].

وسبب إقدام الأفضل على هذه العملية، هو الأزمة الاقتصادية التي كانت مصر تعاني منها في هذه الفترة، نتيجة تفشي الوباء بها تلك السنة والسنة التي قبلها، وهو ما منعه من إرسال المؤن والذخائر[2]، ويبدو أن الأفضل رأى أن بقاء صور بيد المسلمين سواء الفاطميون أو غيرهم خير من سقوطها بيد الصليبيين، وبهذه الطريقة نجح الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، في قطع الأمل على الصليبيين في الاستيلاء على صور، بعد تسليمها إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق[3]، الذي وافق من جانبه على بقاء الدعوة فيها للفاطميين، ويبدو أن ظهير الدين طغتكين قد أبقى الدعوة بصور للفاطميين، بقصد الحصول من مصر على ما يحتاجه من المؤن والذخائر، التي كانت تصل إلى مدن الساحل الشامي.

ب-8- معركة صيدا

وفيما يخص مدينة صيدا، فقد اهتم الفاطميون والسلاجقة، الذين تناوبوا على حكمها بتحصينها، حيث قام الوالي الفاطمي سعد الدولة الأفضلي بعمارة برج فيها في عام (491هـ/ 1098م)، كما حصنها أميرها مجد الدولة التنوخي في عام (494هـ/1101م)، مما جعلها تقوى على الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت.

ولما قرر بلدوين (Baudouin)السيطرة عليها، وجد الفاطميين أمامه، حيث أرسل الأفضل إلى المدينة خمسون سفينة بحرية، فاصطدمت في معركة بحرية، مع السفن الإيطالية المتحالفة مع بلدوين وهزمتها، وفقد بلدوين بذلك عنصرا مهما من المساندة، يضاف إلى ذلك، أن الأنباء أتته باقتراب العسكر الدمشقي الذي خرج لنجدة المدينة وتعداده خمسة عشر ألف مقاتل، فأدرك

---

[1] ابن أيبك الدوداري: نفس المصدر السابق، ج06، ص 476.

[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 171.

[3] محمود السيد: نفس المرجع السابق، ص111.

عندئذ أن العملية فاشلة، وآثر الانسحاب ومن معه إلى عكا[1].

ولما أدركوا أنهم لا طاقة لهم بمواجهة القوات الفاطمية والدمشقية، التي كانت في طريقها إليهم قرروا محاصرتها برا وبحرا، في ثالث ربيع الآخر، لقطع الإمدادات عنها، ومع ذلك قام أسطول فاطمي أبحر من صور بمهاجمة السفن النرويجية، وكاد أن يبيدها كلها، لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة، ومهاجمتها من جهة البحر[2]، وعجزت السفن الفاطمية أن تمد أهل صيدا بما يحتاجونه من عدة وعتاد[3].

كان هذا آخر ما قام به الأفضل بن بدر الجمالي، في سبيل وقف الزحف الصليبي على بلاد الشام، ذلك أن العلاقات بينه وبين الخليفة الآمر الفاطمي قد توترت، وتعرض الأفضل لبعض الفتن الداخلية، تلك الفتن التي صرفته عن الاهتمام بأمر الصليبيين في بلاد الشام[4].

ولما كان الأفضل بن بدر الجمالي قد لجأ إلى محاولة التحالف مع حكام دمشق السنيين لوقف زحف الصليبيين، فقد أغضب ذلك الخليفة الآمر بالله وغلاة الشيعة بمصر، مما أدى إلى قيامهم بتدبير قتله بيد بعض الباطنية الذين كانوا ((يكرهونه لأسباب تضييقه على إمامهم... وترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهى عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها))[5].

وقد كان مقتل الأفضل بن بدر الجمالي سنة(515هـ/1122م)، بداية لتخلص الخليفة الآمر من القيود التي كانت مفروضة عليه، وبدأ في تحقيق طموحه لا من أجل جهاد الصليبيين وإنما من أجل الحد من نفوذ الوزراء العظام، فاختار في وزارته بعد مقتل الأفضل، أبو عبد الله البطائحي[6] واستبد الخليفة الآمر بالأمور عنه[7] .

---

1 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 269.

2 ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 490.

3 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 269.

4 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 590.

5 ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص 61.

6 أبو عبد الله البطائحي: هو السيد الأجل المأمون، تاج الخلافة عز الإسلام، فخر الأنام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين، أبو عبد الله محمد بن الأجل نور الدولة أبي شجاع الآمري، تولى الوزارة بعد موت الأفضل، وخلع عليه في الثامن من ذي الحجة، من سنة خمس عشرة وخمس مائة. ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 50.

7 ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص73.

أما الخطوات التالية التي اتخذها الخليفة الآمر ووزيره البطائحي، فهي العمل على التخلص من سيف الدولة مسعود الوالي بمدينة صور، من قبل ظهير الدين طغتكين، ففي سنة (516هـ/1122م) وردت إلى مصر شكايات من أهل صور، ضد واليهم سيف الدولة مسعود فما كان من الخليفة الآمر ووزيره البطائحي إلا أن سيرا أسطولا بقيادة وحشي بن طلائع، ومعه التعليمات بإلقاء القبض على الوالي بصور، وإرساله إلى مصر، ففعل ذلك[1].

وعلى ما يبدو فقد وصلت إلى آذان الخليفة الآمر، أنباء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في بلاد الشام، فما كان منه إلا أن أمر بتجهيز حملة عسكرية في السنة التالية(517هـ/ 1123م) إلى عسقلان لحصار الصليبيين في يافا، في الوقت الذي سيرا فيه الأسطول بالبحر، ولكن هذه الحملة لم تستطع النيل من الصليبيين[2].

ثم إن الصليبيين لما علموا بخروج سيف الدولة مسعود، من صور إلى مصر واعتقاله هناك تحرك فيهم طمع الاستيلاء عليها، ((وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها))[3] في سنة(518هـ/1124م)، فلما أحس واليها أنه ليس باستطاعته مواجهة الخطر الصليبي، أرسل إلى الخليفة الفاطمي، يشير عليه بأن ترد ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين ((فاقتضى الرأي أن ترد إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها))[4]، ورضي ظهير الدين طغتكين أن ترد ولاية ولاية صور إليه، لكنه جعلها في أيدي أناس فاسدين لم يقدروا على حمايتها وضايقها الصليبيون، عندها طلب طغتكين من الفاطميين المساعدة فأبوا ذلك[5]، وربما كانوا منشغلين بالدفاع عن مدينة مدينة الإسكندرية التي تعرضت لحملة بحرية قام بها البنادقة، بالإضافة إلى عدم مبالاة الخليفة الآمر بجهاد الصليبيين في بلاد الشام[6].

وعلى كل حال فقد أدى عدم إرسال الفاطميين نجدة للوالي بصور إلى مراسلته لظهير الدين طغتكين، يعرض عليه تسليم صور إلى الصليبيين بالأمان، فاستقر الرأي على ذلك، وأرسل

---

[1] ابن أيبك: نفس المصدر السابق، ج6، ص 49.
[2] مسفر بن سليمان بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 131.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 227.
[4] ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، ص 87.
[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 211.
[6] الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 132.

ظهير الدين طغتكين إلى الصليبيين بشأن تسليم صور إليهم، وإعطاء الأمان لمن بها من المسلمين فوافق الصليبيون على ذلك، وفتحت صور أبوابها للصليبيين في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة (518هـ/1124م) وانتهى الأمر إلى خروج أهلها وتفرقهم في البلاد[1].

ومن هنا يمكننا القول بأن سقوط صور بيد الصليبيين، كان بسبب إهمال الخليفة الفاطمي الآمر، لأمر الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين بالشام، بالإضافة إلى الانقسام الداخلي في صفوف الفاطميين ففي بداية سنة (519هـ/1125م) قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون البطائحي وقتله[2]، وسبب ذلك على ما يبدو هو الانتفاضة التي قام بها بعض المصريين، متهمين الآمر بالتهاون في أمر الجهاد، فوقع ظنه أن الوزير هو من دبر أمر هذه الانتفاضة وقتله.

كانت هذه المساعدات العسكرية التي قدمتها الدولة الفاطمية، لبعض مدن الشام، وكما تبين لنا فالدولة الفاطمية، لم تقدم المساعدات العسكرية لأي مدينة لم تكن تابعة لها كما هو الحال بالنسبة للسلاجقة، الذين لم يتوانوا في تقديم المساعدات سواء للمدن التابعة لهم أو حتى التابعة للفاطميين، وفي مقابل ذلك فقد كان الفاطميون يجتهدون في اختلاق الدسائس لكسب بعض المدن كما حدث مع مدينة صور، آخرة مرة.

ولما لم تكن للمساعدات العسكرية أهداف ملموسة، فإن القيمين على الدولة الفاطمية وعلى رأسهم الوزير الأفضل بن بدر الجمالي راحوا يستعملون كل الطرق لوقف الزحف الصليبي، ومن هذه الطرق تقديم المساعدات الاقتصادية لأهالي المدن حتى يتقووا بها ويتقوا شر الحصار، فكيف كان ذلك؟

ت- اقتصاديا

كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي حريصا على تقديم المساعدات الاقتصادية لأهل الشام، ولذلك جاءت عملية تقديم هذه المساعدات على مرحلتين، حيث كانت الأولى منها ترفق مع المساعدات العسكرية، عندما كانت الدولة الفاطمية تتمتع بنوع من الرخاء، بالمقارنة مع بلاد الشام التي كانت تعاني من الحروب والحصار الصليبيين، أما الثانية فقد اضطر إليها الوزير الأفضل، بعد أن عجز عن تقديم المساعدات العسكرية لأهالي الشام.

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 209.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 234.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المساعدات، وإن كانت على مرحلتين عندما كان الأفضل متحكما بزمام السلطة في مصر، إلا أنها كادت تنعدم بعد مقتل الأفضل، لما عُرف عن الآمر وتقاعسه عن الجهاد كما أشرنا إليه قبل قليل.

ومن المساعدات الاقتصادية التي قدمها الأفضل في هذه المرحلة، نذكر أنه عندما أرسل حملة بحرية بقيادة القاضي بن قادوس[1]، باتجاه بلاد الشام لكنها لم تأت بفائدة، غير أن الأسطول الفاطمي كان يحمل معه الكثير من المؤن التي أدت إلى رخص الأسعار، وانتعاش السكان بيافا وغيرها من مدن الساحل للصمود في وجه الصليبيين[2].

ولما حاصر الصليبيون بيروت سنة(503هـ/1109م)، قام الأفضل بإرسال أسطول بحري يتألف من تسع عشر سفينة، ومعه الميرة والذخائر والمؤن، واصطدم بالأسطول الصليبي المحاصر للمدينة، وتغلب عليه، وأسر بعض قطعه، وتمكن من دخول الميناء، حيث وزعت تلك المؤن على السكان وهو ما أعطى السكان الأمل في الصمود والدفاع عن مدينتهم[3].

كما أن الأفضل بن بدر الجمالي، لم ينزعج لأمر تسليم مدينة صور إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة (506هـ/1112م)، نظرا لما كانت تمر به مصر من شدة اقتصادية نتيجة تفشي الوباء بها تلك السنة والسنة التي قبلها، ويكون قد رأى أن بقاءها بيد المسلمين سواء الفاطميون أو غيرهم خير من سقوطها بيد الصليبيين، ثم إن الأفضل جهز في سنة (507هـ/ 1113م) أسطولا إلى صور محملا بالمؤن والميرة والعتاد فرخصت بها الأسعار وتحسنت أحوال سكانها، ((وزال طمع الإفرنج عنها))[4].

والواقع أن انتهاج الأفضل لسياسة الدعم الاقتصادي، لأصحاب البلاد الأصليين بغية تقويتهم للدفاع عن بلادهم، جاء بعد أن ضاعت منه كبريات المدن الشامية، فوقف بعدها موقف المدافع عما تبقى بيد ولاة الفاطميين بالشام، لكنه في المقابل شجع السكان كثيرا على مواصلة القتال والوقوف بصلابة في وجه الصليبيين.

---

[1] القاضي ابن قادوس: هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس الدمياطي، كان كاتب الإنشاء بالديار المصرية وهو شيخ القاضي الفاضل، وكان الفاضل يسميه ذا البلاغتين. أنظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص 235.

[2] مسفر بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 125.

[3] ابن العبري غريغوريوس الملطي: مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة (1992م)، ص132.

[4] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 171.

غير أن هذه السياسة فشلت أيضا في وقف الزحف الصليبي، لعدم وجود تنسيق بين المدافعين أنفسهم، وتأخر الأسطول المصري في الوصول إلى بلاد الشام، في بعض الأحيان نظرا لبعد المسافة بين مصر وبلاد الشام، مما أدى إلى انهيار قوة المدافعين، كما حصل لأهل طرابلس سنة (503هـ/1109م)، وهي المدينة التي سقطت بيد الصليبيين بعد صمودها للحصار أكثر من سبع سنين[1].

إذا كانت هذه هي المساعدات الاقتصادية التي بادر بها الأفضل، لأهالي الشام، وإن كانت مساعدات محتشمة، فإن من جاؤوا بعده لم يقدموا مثلها ولا أقل منها، وربما بادروا إلى أسوأ منها حيث تباطأ الخليفة الآمر في إرسال المساعدات لأهل صور عندما كانوا محاصرين من طرف الصليبيين، حيث يقول في هذا الشأن ابن الأثير: ((وتواترت المكاتبات إلى مصر باستدعاء المؤن، فتمادت الأيام إلى أن أشرف أهلها على الهلاك ولم يكن للأتابك طغتكين قدرة على دفع الفرنج، ويئس من مصر فراسل أهلها الفرنج وطلبوا الأمان على نفوسهم وأهاليهم وأموالهم، ومن أراد الخروج خرج ومن أراد الإقامة أقام))[2].

3- موقف الفاطميين من العدوان الصليبي على مصر

أ- العدوان الصليبي على مصر

بعد أن تمكن الصليبيون من إحكام سيطرتهم على فلسطين وأغلب بلاد الشام، راحوا يوجهون أنظارهم إلى مصر، للسيطرة عليها وضمها إلى ممتلكاتهم، وقد كانت هذه الأخيرة مصدر قلق كبير لهم، حيث كانت أغلب الحملات العسكرية الموجهة ضدهم، تخرج منها بحكم أن أغلب المدن التي استولى عليها الصليبيون في كل من فلسطين وجنوب بلاد الشام تابعة لها، ولذلك وجهوا إليها عدة حملات عسكرية، اختلفت في قوتها وزمن خروجها.

أ-1- في عهد بلدوين الأول(Baudouin1) (1101-1118م)

تطلع الصليبيون منذ عهد مبكر إلى غزو مصر، ففي عام (492هـ/1099م) ناقش قادة الحملة الصليبية الأولى اقتراحا بمهاجمة الفاطميين في مصر، لأن هذا البلد يملك مفاتيح بيت المقدس، إلا أنهم تريثوا في ذلك ورأوا بأنه من الضروري احتلال بقية المناطق المجاورة لبيت المقدس،

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر ، ص 165.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص228.

لتأمينها، ومن ثم الانتقال إلى مصر، ولذلك انشغلوا بما تبقى لهم من أرض فلسطين وبلاد الشام، ولما تمكنوا من ذلك بدأوا تحركاتهم على مصر.

ولم تكن المبادرة من الجانب الصليبي فقط، فقد عمل الفاطميون أيضا على استغلال أية فرصة تسنح لهم من أجل مهاجمة الصليبيين، ولذلك قاموا بمهاجمة بيت المقدس سنة (507هـ/1113م)، مستغلين فرصة انهماك الملك الصليبي بلدوين(Baudouin) بالحرب مع المسلمين شمالا في بلاد الشام، لكنهم لم يحققوا منه مطلوبا، وعادوا من حيث أتوا[1]، ثم عاودوا هجوما آخر على يافا سنة (509هـ/1115م)، ولم يحققوا منه ما تمنوه، فعادوا مرة أخرى إلى مصر بلا فائدة[2].

ويعزى السبب في فشل الفاطميين في تحقيق مبتغاهم، إلى عوامل عدة:

- عمل بلدوين (Baudouin) على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي، عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة، ولا يخفى ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية، بالإضافة إلى عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق، وقطع الطريق البري الذي يربط بينها وبين بلاد الشام والعراق والحجاز[3].
- شيد حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على كل وادي عربة.
- بنى في عام (510هـ/1116م) قلعة حصينة في أيلة على ساحل خليج العقبة للتحكم في طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام.
- أقام قلعة في جزيرة فرعون الواقعة تجاه أيلة، مما مكن الصليبيين من الإشراف على شبه جزيرة سيناء[4].

ولم يبق أمامه سوى مهاجمة مصر، فقاد قوة صغيرة مؤلفة من مائتين وستة عشر فارسا وأربعمائة راجل، وعبر الصحراء من غزة إلى العريش حتى وصل إلى الفرما الواقعة على ساحل

---

[1] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 161.

[2] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج3، 227.

[3] سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار الأحد (بيروت)، ط1 (1977م)، ص 188. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 463.

[4] سعيد عبد الفتاح عاشور: نفس المرجع السابق، ص 189. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 463.

البحر المتوسط داخل الحدود المصرية، فاستولى عليها وأحرق مساجدها، ثم مضى في توغله حتى وصل إلى مصب نهر النيل، لكنه لم يتمكن من التوغل أبعد داخل الأراضي المصرية، بفعل قلة قواته، ولمرضه المفاجئ الذي ألم به، إذ انتابته حمى بعد أكلة سمك[1].

وفي سنة (511هـ/1118م)، حاول الصليبيون في بيت المقدس توجيه حملة عسكرية إلى مصر بهدف الاستيلاء عليها، لكنهم أحجموا عن ذلك عندما علموا باتحاد الفاطميين مع حكام دمشق السنيين[2]، ولذلك عمل بلدوين(Baudouin3) ملك بيت المقدس على مداهنة طغتكين حاكم دمشق، من أجل تحييده عن الفاطميين، لكنه فشل في ذلك، فقرر عندها التخلي عن فكرة غزو مصر، وأرجأ ذلك إلى فرصة أخرى[3].

ركن بعد هذه الفترة كل من الصليبيين والفاطميين إلى الهدوء، وانشغل كل طرف بمواقعه، إلى منتصف القرن السادس هجري، عندما استغل الملك بلدوين الثالث(Baudouin3) غزو مصر في عام (555هـ/1161م)، منتهزا فرصة الفوضى التي عمتها عقب مقتل الفائز، غير أنه عجز عن تحقيق مبتغاه، بعد أن واجهته الحكومة الفاطمية التي كانت لا تزال تتمتع بنوع من القوة، لكنها في مقابل ذلك تعهدت بتقديم جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[4]، لكن هذه الجزية لم يجر دفعها مطلقا.

وباعتلاء الملك عموري الأول(Amoury1) (558-569هـ/1163-1174م) عرش المملكة في بيت المقدس، بدأ العمل الجدي ضد مصر، فقد كان هذا الأخير يرغب في توسيع مملكته على حساب مصر، كما أنه كان يرغب في الاستيلاء على المنافذ البحرية التجارية، التي تتمتع بها مصر على طول البحر الأحمر والبحر المتوسط، بهدف توسيع التجارة الخارجية للمملكة[5]، يضاف إلى ذلك، ظهور تهديد جديد للمملكة من جهة الشمال، وهو شخصية نور الدين محمود زنكي، الذي حمل على عاتقه لواء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، فقد أظهر الملك

---

[1] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج5، ص 171
[2] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 255.
[3] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، 185-186.
[4] الصوري ويليام: المصدر السابق، ج3، ص387. ، ستيفن رنسيمان: المصدر السابق، ج2، ص 592.
[5] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 476.

عموري الأول(Amoury1) قلقا واضحا من هذا الرجل، ورأى في اتحاده مع مصر إيذانا بزوال ملكه، ولذلك من الضروري التعجيل باحتلال مصر، فكيف بدأ ذلك؟

أ-2- في عهد عموري الأول(Amoury1)

أ-2-أ- الحملة الأولى على مصر

كان بلدوين الثالث(Baudouin3) قد هدد بغزو مصر في عام (555هـ/1161م)، منتهزا فرصة الفوضى التي عمتها عقب مقتل الفائز، لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[1]، لكن هذه الجزية لم يجر دفعها، فاتخذ خلفه عموري الأول(Amoury1) هذه الحادثة ذريعة لاحتلال مصر، وأعلن الحرب عليها، فسار إليها في حملة عسكرية شهر (ذي الحجة عام 558هـ/1163م)، مستغلا الفوضى الواقعة بين أرباب السلطة فيها[2]، ولما علم بذلك ضرغام أرسل فرقة عسكرية لتعترض طريقهم عند العريش لكنها عجزت عن تنفيذ مهمتها أمام القوة الصليبية فعادت منهزمة إلى بلبيس[3]، وتبعه الصليبيون إلى هناك وضيقوا الحصار على المدينة حتى كادت تسقط في أيديهم[4]، ثم اهتدى ضرغام إلى حيلة ماكرة وهي تفجير السدود لتفيض الطرق المؤدية إلى القاهرة، وبالفعل نجحت خطته في منع القوات الصليبية من التقدم، وقفلت عائدة إلى بيت المقدس خائبة[5].

أ-2-ب- الحملة الثانية

وبعد مرور سنة واحدة على هذه الحملة الفاشلة (559هـ/1164م)، جاءت فرصة ثانية إلى الملك عموري الأول(Amoury1) لاحتلال مصر، وإن كانت هذه الفرصة جاءت من أهل الدار أنفسهم، إذ تلقى هذا الأخير دعوة من عدوه السابق ضرغام، فقد طلب منه أن يعينه على قوات غريمه شاور الذي كان قبله في كرسي الوزارة، وأزاحه هو منها بعدما رأى منه تضييقا على الخليفة العاضد لدين الله، وعلى الوزير الأسبق طلائع بن رزيك، فاستعان شاور بقوات نور الدين

[1] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج3، ص230.

[2] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص 592.

[3] بلبيس: وهي مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشر فراسخ عن طريق الشام، يسكنها عبس بني بغيض...، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج02، ص 479.

[4] المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص 299.

[5] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج3، ص 400-401.

محمود لاستعادة منصبه، ولما علم بذلك ضرغام لم يجد من يؤمن له منصبه سوى القوات الصليبية[1]، وهو يتوهم في ذلك خطأً، إذ ليس من السليم الوثوق بالعدو ولو كان عدوا لعدوك.

استغل عموري الأول فرصة استنجاد ضرغام به، وزحف إلى مصر لنجدته، لكنه وصل متأخرا إذ كانت القوات النورية قد سبقته وقضت على ضرغام ونصبت مكانه شاور على كرسي الوزارة، فعاد أدراجه إلى بيت المقدس، لكنه سرعان ما تلقى دعوة ثانية من مصر وكان صاحبها هذه المرة الوزير شاور الذي غدر بقوات نور الدين محمود، بحيث طلب منهم الرحيل عن مصر بعد أن نفذوا مهمتهم التي جاؤوا من أجلها وهي إعادته إلى كرسي الوزارة، ولما رفضوا الجلاء عن مصر بحجة أنه لم يف لهم بما وعد، تخوف منهم وقرر استدعاء الصليبيين لطردهم[2].

وعلى الفور عقد الملك عموري الأول(Amoury1) مجلسا حربيا في بيت المقدس حضره كبار المملكة، وتقرر فيه تلبية دعوة شاور، بعد أن أكد لأعضاء المجلس أنه باستطاعته تنفيذ حملة على مصر، دون أن يخل بأمن مملكته، خصوصا وقد وصلت جموع من الحجاج لزيارة بيت المقدس، ومن الممكن أن يستفيد منهم في المجهود الحربي، وقرر بأن يتولى بوهيموند الثالث(Bohemond3) أمير أنطاكية إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[3].

وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر (رمضان559هـ/1164م)، واتصل فور وصوله إلى فاقوس[4] بشاور، واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين خلالها عن مواقعه[5]، وفجأة قرر عموري الأول(Amoury1) الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر بعد أن تلقى أنباء سيئة من بلاد الشام، بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود ففضل العودة للدفاع عنها، كما أنه أدرك في الوقت نفسه أنه لن يستفيد شيئا من حملته

---

[1] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج02، ص 299.

[2] أبو شامة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية الصلاحية، مطبعة وادي النيل (القاهرة)، (1287هـ/1870م)، ج01، ص 330.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 462.

[4] فاقوس: اسم مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى، أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 232.

[5] ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 465-466.

هذه، طالما أن أسد الدين شيركوه لا يزال متمنعا داخل أسوار بلبيس، وحتى أسد الدين شيركوه الذي أدرك هو الآخر صعوبة موقفه، بعد أن بدأت أقواته بالنفاذ قرر قبول عرض الأعداء بالدخول في المفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[1].

وفعلا تم الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء، بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان أسد الدين شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[2].

وقد أسفرت هذه الحملة عن عدة نتائج، فقد تمكن عموري الأول(Amoury1) من إرغام أسد الدين شيركوه على الانسحاب من مصر، والتخلي عن المواقع التي دخلت تحت سيطرته، وفي المقابل نالوا قدرا كبيرا من النفوذ المادي والمعنوي عند شاور، فهم الذين ساندوه وأجبروا أسد الدين على الانسحاب، وفي مقابل ذلك استفاد المسلمون السنة من هذه الحملة، إذ استغل نور الدين محمود فرصة التحام قواته في مصر بقيادة أسد الدين شيركوه بالجيش الصليبيين ليفتتح مدنا أخرى شمالا ببلاد الشام[3].

لم يستفد لا نور الدين محمود، ولا عموري الأول(Amoury1) من حملتهما على مصر، غير أنهما وقفا على حقيقة ما تعانيه مصر من تردّ في الأوضاع الداخلية، كما أنهما أدركا أن الفرصة مواتية للاستيلاء على مصر في وقت قريب، ولذلك وجب التحضير للحملة المقبلة من أجل الاستحواذ عليها.

أ-2-ت- الحملة الثالثة

كان للخيانة الأخيرة التي أحدثها شاور بقوات نور الدين محمود، كبير الأثر في نفسيتهم، ولذلك قرروا تأديبه من خلال حملة يرسلونها إلى مصر ليقضوا عليه[4]، ولما علم شاور بذلك، أرسل

---

[1] المصدر نفسه.

[2] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 595.

[3] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص485.

[4] joseph francois Michaud, the history of the croisades, new york, vol 1, p 294.

ابن سباط الغربي حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار في تاريخ بن سباط، عني به وحققه: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس (طرابلس)، د-ط، ج1، ص 117.

إلى عموري(Amoury1) يطلب مساعدته، وهو ما رآه عموري الأول(Amoury1) فرصة ثمينة للانقضاض على مصر.

خرج عموري الأول (Amoury1)من بيت المقدس شهر (ربيع الأول 562هـ/1167م) متوجها إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، ولما علم به شاور، وعلم بمجيء أسد الدين شيركوه أيضا، انضم إلى القوات الصليبية لمواجهة أسد الدين شيركوه.

أ-2-ت-1- معركة البابين

استعدت القوات الصليبية وقوات شاور المتحالفة معها، للالتحام بقوات أسد الدين شيركوه، وإجبارها على مغادرة مصر، وظل الجيشان مدة شهرين يراقب كل منهما الآخر، ثم حدث أن اجتازت قوى التحالف النيل إلى جزيرة الوراق في رأس الدلتا على الضفة الغربية، وفاجأت وحدة من جيش أسد الدين شيركوه[1].

وبعد دراسة الوضع العسكري، أدرك أسد الدين شيركوه، أن قوى التحالف، تفوقه عددا وعدة، خصوصا بعد وصول قوات صليبية إضافية وصلت حديثا من بيت المقدس، مما شجع عموري الأول (Amoury1)على الثبات، ولم يسع أسد الدين شيركوه حينها سوى الانسحاب من المنطقة وتوجه إلى الصعيد ملتزما النيل، فاقتفى عموري الأول(Amoury1) وشاور أثره، وتركا قبل مسيرهما قوة عسكرية لحماية القاهرة بقيادة الكامل بن شاور وهيو أبلين (Hugh de ibelin)[2].

على أن دخول هيو(Hugh de ibelin) إلى القاهرة، والسماح للصليبيين بالتردد على القصر، أقلق الدوائر الإسلامية الحاكمة، عندئذ لم يسع أسد الدين شيركوه إلا أن يدخل في المعركة، فقام بعبور النيل من جديد على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا في مصر الوسطى وعسكر في الأشمونين وجرى اللقاء بينه وبين قوى التحالف في البابين القريبة من الأشمونين، حيث حشرت القوى المتحالفة جيشه وضيقت الخناق عليه[3].

[1] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص485.

[2] ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ج1، ص 262.

[3] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 125.

والتحم الخصمان في معركة طاحنة في(25جمادى الآخرة 562هـ/1167م)، وكر الصليبيون على قلب العسكر النوري، في محاولة لضربه وزعزعة الجناحين، فتقهقر صلاح الدين متظاهرا بالهزيمة، وفق الخطة الموضوعة، وتخلى عن مواقعه، فتبعه الملك الصليبي وفرسانه في عملية مطاردة، عندئذ التف أسد الدين شيركوه بجناحي الجيش على جيش التحالف، ووجد عموري الأول(Amoury1)نفسه محصورا من جميع الجهات، ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم، بينما وقع آخرون في الأسر ومنهم هيو(Hugh de ibelin) سيد قيسارية، وأرنولف (Arnulf) صاحب تل باشر، واضطر الملك الصليبي إلى التراجع بمن تبقى من جيشيهما إلى القاهرة وانضما إلى حاميتها.

أ- 2- ت-2- حصار الإسكندرية

أدرك أسد الدين شيركوه أن بقاءه حيث هو غير مأمون، في ظل خيانة شاور وقرر التوجه إلى الإسكندرية، للتحصن بها، وخاصة أن سكانها قد كرهوا شاور، وأنفوا من استعانته بالصليبيين أعداء دينهم ووطنهم، وإحساسهم بخطورة الحملات الصليبية البحرية جعلهم يرحبوا بمقدمه ويُبدوا استعدادهم لمساندته طائعين، فدخلها بغير قتال[1].

أما عموري الأول فقد أعاد تنظيم صفوف قواته، وتقوّى بما وفد عليه من إمدادات، وخرج بهم إلى الإسكندرية، فألقى عليها الحصار، وساندته السفن الصليبية من جهة البحر[2]، وخشي أسد الدين شيركوه أن يحصره الصليبيون مع جميع قواته داخل الإسكندرية، فترك صلاح الدين ينوبه فيها وترك معه ألف جندي، في حين توجه هو على رأس القسم الآخر من الجيش، عائدا إلى الصعيد في شهر شعبان، مجتازا معسكر عموري الأول(Amoury1) ، الذي اشتد غضبه، وأراد أن يمضي لمطاردته غير أن شاور نصحه بالتروي وترك شيركوه وشأنه، لأن استعادة الإسكندرية أهم من ذلك[3].

---

[1] ابن الوردي: المصدر السابق، ج2، ص 70.

[2] محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 112.

[3] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 04.

وفي الوقت الذي توغل فيه أسد الدين شيركوه في الصعيد حتى قوص[1]، اشتد حصار الصليبيين للإسكندرية، حتى أشرفت المدينة على المجاعة، وضاعف عموري الأول(Amoury1) حصاره ليستسلم الأهالي ويضعف روحهم، لينصرفوا عن نصرة صلاح الدين[2].

ومع أواخر شهر رمضان ينتهي وجد صلاح الدين نفسه في موقف عصيب، فأرسل إلى عمه يلتمس منه النجدة العاجلة، واضطر أسد الدين شيركوه نتيجة ذلك إلى العودة شمالا حيث عسكر في بركة الحبش في ظاهر الفسطاط، بهدف مهاجمتها وامتلاكها في محاولة لتخفيف الضغط عن الإسكندرية، غير أن مقاومة هيو أبلين(Hugh de ibelin) أفسدت عليه الخطة، وإذ ذاك أدرك صعوبة امتلاك مصر، وأنه لم يعد بوسعه عمل أكثر مما عمل، فقرر التفاوض مع الجانب الصليبي للاتفاق على حل يرضي الطرفين[3].

وقد اختلفت المصادر فيمن بدأ بالصلح، حيث يذكر ابن الأثير، أن الصليبيين كانوا البادئين في طلب الصلح، إذ أنه لما اشتد حصار الصليبيين لصلاح الدين سار أسد الدين شيركوه من قوص إليهم، فجاءته رسلهم ((يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج ألا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام))[4].

بينما يقول الصليبيون أن أسد الدين شيركوه كان هو البادئ بطلب الصلح، بعد أن قام بإرسال أحد الأسرى الصليبيين، وهو أرنولف(Arnulf) صاحب تل باشر، إلى عموري الأول(Amoury1) يعرض عليه عقد الصلح، مقابل الجلاء عن مصر، وعرض عليه مجموعة من الشروط وهي:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.

---

[1] قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج04، ص 413.

[2] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 126.

[3] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 126.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 05.

- لا يتعرض له الصليبيون في الطريق[1].

ولما تدارس الملك وقادته بحضور شاور، هذه الشروط، وجدوها تتوافق مع بنود الاتفاقية المبرمة بين عموري الأول(Amoury1) والعاضد من قبل، وقرروا قبول العرض، وتحددت الشروط النهائية على الشكل التالي:

- وضع مدينة الإسكندرية في يد الملك عموري الأول(Amoury1).
- تبادل الأسرى بين الجانبين.
- إطلاق سراح الجند النوري الموجودين داخل الإسكندرية.
- تغادر جميع القوات النورية والصليبية مصر[2].

والواقع أن إذعان عموري الأول(Amoury1) وقبوله لمشروع الصلح مع أسد الدين شيركوه كان اضطراريا، فقد رأى بأن مصلحته تقضي التفرغ لتأمين مدنه ببلاد الشام، التي تعرضت لهجومات نور الدين محمود، بينما رحب أسد الدين شيركوه بهذا الصلح لأن أدرك استحالة امتلاكه مصر وهو بهذا الضعف.

ودخل عموري الأول(Amoury1) مدينة الإسكندرية في شهر شوال، في حين غادرها صلاح الدين تاركا وراءه فراغا وسط السكان، وقبل خروجه التقى بعموري الأول(Amoury1)، الذي أعجب به كثيرا، حتى قام بإمداده ببعض المراكب لنقل جرحاه إلى بلاد الشام[3]، وفي شهر ذي القعدة غادر صلاح الدين وعمه مصر، في حين تأخر عموري الأول(Amoury1) لبضعة أسابيع، لأنه مر بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرر الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة ليشارك في شؤون الحكم.

---

[1] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، 219.

[2] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 493.

[3] أبو شامة: المصدر السابق، ص 427.

والراجح أن فكرة تملك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير عموري الأول(Amoury1) السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو يريد العودة إليها بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعا في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[1]، وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول(Amoury1).

أ-2-ث- التعاون الصليبي البيزنطي لاحتلال مصر

يبدو أن مستقبل مصر، بعد هذه الأحداث، صار مرهونا بما ستسفر عنه المنافسة القائمة بين نور الدين محمود وعموري الأول(Amoury1)، غير أن الكفة كانت راجحة لعموري الأول(Amoury1)، كونه ترك حامية عسكرية من فرسانه، في مصر تراقب ما يجري في داخلها، ولتدافع عنها في حال تعدت عليها أية قوة خارجية، لكن عموري الأول (Amoury1)كان يرغب في العودة إلى مصر والاستيلاء عليها، في أقرب فرصة تتاح له، إلا أنه أدرك صعوبة تحقيق ذلك لوحده، فعمل على التحالف مع الإمبراطور البيزنطي مانويل (Manuel)، ولم يطلب المعونة من إخوانه الصليبيين لتخوفه من أطماعهم[2].

وافق الإمبراطور البيزنطي على طلبه، فقد كان هذا الأخير يرى أن مصر كانت ضمن أملاك الإمبراطورية فيما سبق، وآن الأوان لاسترجاعها ومما زاد في توثيق هذا التحالف، هو إقدام عموري الأول(Amoury1) على مصاهرة مانويل (Manuel) بأن تزوج بابنة عمه ماريا[3].

وإذا كان الرجلان قد اتفقا مبدئيا على التحالف، فقد كان لابد من إقامة معاهدة تكون كفيلة بتحديد معالم هذه العملية، ولذلك فقد أرسل عموري الأول(Amoury1) صديقه ويليام الصوري(Gullaume de tyr) إلى القسطنطينية للتباحث مع الإمبراطور، وخوله صلاحية الموافقة على ما يبرم من اتفاق بينهما وانتهت المباحثات بينهما، بعقد معاهدة تتلخص شروطها في:

- قيام البحرية البيزنطية بالتعاون مع القوات البرية الصليبية بغزو مصر.

---

[1] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج05، ص 333.

[2] هانس إبرهارد ماير: المرجع السابق، ص 220.

[3] المرجع نفسه.

- على أن تحصل الإمبراطورية على جزء معين من أرضها واقتسام الغنائم التي تسلبها الحملة.
- كما اتفق الطرفان أن تكون القيادة العليا للجيشين الصليبي والبيزنطي بإمرة عموري الأول[1].

أ-2-ج- حملة عموري الرابعة على مصر

والواقع أن الملك عموري الأول(Amoury1)، لم ينتظر وصول مبعوثه إلى الإمبراطور لينهض على رأس جيشه، ويزحف إلى مصر تحت إلحاح من بها من الصليبيين، فقد ترامى إلى مسامعهم ما تم من الاتفاق، بين عموري الأول(Amoury1) ومانويل(Manuel) بشأن احتلال مصر، وخشوا أن يشاركهم البيزنطيون في ثرواتها، فكتبوا إلى عموري الأول(Amoury1) يستدعونه للاستيلاء عليها، كما شجعوه على اغتنام فرصة انهماك نور الدين محمود في نزاعه مع شهاب الدين مالك العقيلي، صاحب قلعة جعبر[2].

ولعل ما ساعده في ذلك أيضا، هو انضمام جماعة كبيرة من الفرسان الأوربيين، الذين وصوا إلى فلسطين حاجين إلى بيت المقدس، وكانوا متحمسين جدا للدفاع عن النصرانية، استغلهم كبار مملكة بيت المقدس، ليضغطوا على الملك حتى يقوم بهذه الحملة.

اضطرت كل هذه المستجدات الملك عموري الأول(Amoury1)، لعقد مجلس حربي تباينت فيه آراء الزعماء الصليبيين حول إعلان الحرب فورا أو التريث إلى وصول القوات البيزنطية، وكان الملك عموري الأول(Amoury1) قد رأى بأنه من الأحسن الاكتفاء بسياسة الحماية ما دامت مصر تدفع الجزية، تجنبا للدخول في الحرب مع أهل مصر، ونور الدين الذي لن يسكت عن احتلال مصر، بينما أصر الباقون على الدخول في الحرب، بل والتعجيل بها بالنظر إلى الضعف الظاهر لصاحبها وهو شاور[3].

عاد ويليام الصوري(Gullaume de tyr) إلى بيت المقدس حاملا معه المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين، ليجد أن الملك عموري الأول(Amoury1) قد خرج على رأس حملته إلى مصر، وحتى يصرف نظر نور الدين محمود عنه، أشاع بأنه سوف يهاجم حمص[4]، إلا أن نور

---

[1] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 495.
[2] ابن الوردي: المصدر السابق، ج2، ص 72.
[3] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص 613.
[4] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 128.

الدين علم بمقصده، ((فكاتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم العساكر للنهوض إلى عموري ودفعه عن قصده))[1].

ولم يعلم القيمون على الدولة الفاطمية بأمر هذه الحملة، ولذلك فإنهم استفسروا عن دواعي مجيئها، ليجيبهم عموري الأول(Amoury1) بأنه خرج لتأديب شاور لتوقفه عن دفع الجزية المقررة عليه للصليبيين، وقال لهم إنه إن حصل على الجزية فإنه سيتراجع، لكنه واصل سيره حتى وصل إلى بلبيس في شهر صفر[2].

أ-2-ج-أ- احتلال بلبيس

والواقع أن الملك عموري الأول(Amoury1) لم يكن يتوقع أن تغلق أبواب المدينة في وجهه، ليعسكر فيها بجيشه، فقرر أن يضرب الحصار عليها، لكنه ما لبث أن اقتحمها بعد ثلاثة أيام من الحصار والمقاومة الشديدة، وذلك لقلة المدافعين عنها، وأسفر دخولهم هذا عن حدوث مذبحة مروعة في حق الأهالي، فقتلوا كل من صادفوه من النساء والشيوخ والأطفال، وهدموا البيوت، وخربوا بالمدينة كاملة[3].

أ-2-ج-ب- الزحف نحو القاهرة

مكث عموري الأول(Amoury1) في بلبيس مدة خمسة أيام، ثم خرج منها متوجها نحو القاهرة، ولما علم به أهالي القاهرة، قرروا التصدي له والدفاع عن أنفسهم حتى لا يحدث لهم ما حدث مع أهل بلبيس، وبعد عشرة أيام وصل إلى مكان قريب من القاهرة، وعسكر عند بركة الحبش جنوب الفسطاط، إلا أنه لم يتلق أية مساعدة من المصريين الذين هجروا منازلهم بناء على دعوة شاور، الذي فقد الأمل في إمكان حصول تفاهم مع عموري الأول(Amoury1)، ولو أن الملك الصليبي أحسن السيرة مع أهل بلبيس، لتملّك مصر والقاهرة بسرعة[4].

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 12.
[2] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص 430. ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص 614.
[3] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص431. شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 67.
[4] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 12.

ووصل أثناء ذلك أسطول صليبي إلى بحيرة المنزلة، معظم بحارته من أوربا، فانقضوا على مدينة تنيس[1]، غير أنهم لم يستطيعوا التقدم لمساندة الصليبيين المعسكرين حول القاهرة، فقد اعترضتهم الحواجز الملقاة في عرض النهر، فانهار الملك عموري الأول(Amoury1) نتيجة لذلك، لأنه علق آمالا كبيرة على هذا الأسطول لحصار القاهرة من جهة البحر[2].

كان في ذلك الوقت قد سير نور الدين محمود جيشا إلى مصر الذي تحرك تنفيذا لرغبة الخليفة العاضد الذي طلبه من أجل طرد الصليبيين، وتخليصه من الوزير شاور، فما إن علم عموري الأول(Amoury1) باقتراب القوات النورية حتى تحرك بجيشه إلى مدينة فاقوس، لمباغتته والقضاء عليه قبل أن يتمكن من دخول مصر[3]، لكن خطته هذه انهارت تماما، عندما علم أن أسد الدين شيركوه قد اخترق الصحراء إلى القاهرة، متجاوزا إياه من ناحية الجنوب، وفعلا دخل القائد النوري القاهرة في (السابع من ربيع الآخر 564هـ/ 08جانفي 1169م) دون مقاومة، وسط ترحيب الخليفة العاضد والسكان بقدومه الذين رأوا فيه منقذا لهم من بطش شاور.

وقد كان مجيء أسد الدين شيركوه هذه المرة أيضا بادرة خير على مصر وسكانها، فبمجرد وصوله واستقراره بمصر، حتى قرر عموري الأول(Amoury1) التراجع عنه، بعد أن أدرك أن سيطرته على مصر أمر مستحيل، فأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها[4].

أ-3- الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة على دمياط

والواقع أن عموري الأول قد انزعج كثيرا من تملك نور الدين محمود لمصر، حيث أدرك أن الوحدة بين مصر والشام أصبحت مسألة وقت لا أكثر، وبالتالي فالخطر اقترب أكثر من ذي قبل بمملكته، بعد أن أحاطت القوات الإسلامية بها من الشمال الشرقي والجنوب الغربي كما أن سيطرة نور الدين محمود على الثغور البحرية في شمال مصر، مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من

---

[1] تنيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج01، ص 51.

[2] أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص 229-230.

[3] المرجع نفسه، ص 230.

[4] محمد مؤنس أحمد عوض: المرجع السابق، ص 98.

موانئ الدلتا من شأنها أن تهدد سيادة الصليبيين البحرية، بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى سيادة المسلمين.

وعندئذ رأى عموري الأول أن يستعين بالغرب الأوربي، فأرسل إلى بعض ملوك أوربا يطلب مساعدتهم[1]، غير أنه لم يحصل على شيء، فاضطر مرة أخرى إلى طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطي مانويل(Manuel)، واقترح عليه تجديد الاتفاقية السابقة، بهدف غزو مصر، وهو ما رحب به مانويل (Manuel)، لأنه هو الآخر انزعج من الوحدة التي تمت بين بلاد الشام ومصر، ورأى بأنها انقلاب خطير في توازن القوى بالشرق، فعرض على عموري الأول(Amoury1)، تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية[2].

وبدأ التجهيز لهذه الحملة من الجانبين، حيث قام الإمبراطور البيزنطي في أواخر عام (564هـ/1169م)، بإعداد أسطول بحري ضخم يتألف من مائة وخمسين سفينة حربية، مسلحة تسليحا جيدا، وستين سفينة كبيرة لنقل الخيول، إضافة إلى مجموعة أخرى من السفن تحمل المؤن وآلات الحرب[3].

وحمل الأسطول من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قدرها الإمبراطور لإنجاز المهمة، ثم خرج (منتصف شوال564هـ/1169م)، متوجها إلى قبرص بقيادة أندرونيقوس كونتوستيفانوس، وفي طريقه وجد سفينتين مصريتين، قبض عليهما وأسرهما وعندما وصل إلى قبرص، أرسل قائده عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء صور، تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند عموري الأول(Amoury1) ، وتخبره أن الأسطول البيزنطي في قبرص متوقف، ينتظر استعداداته، غير أن الملك عموري الأول(Amoury1) أبطأ في تجهيز قواته، لانهماكه بتنظيم شؤون دولته ولما فرغ من ذلك دعا الأسطول البيزنطي للقدوم إلى عكا في (محرم 565هـ/ 1169م)، حيث أعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع في عسقلان، وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط[4].

---

[1] أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص 228.

[2] هانس إبرهارد ماير: المرجع السابق، ص 221.

[3] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 510.

[4] هانس إبرهارد ماير: المرجع السابق، ص 231.

أ-3- أ- حصار دمياط

خرج الجيش الصليبي من عسقلان في شهر (محرم 565هـ/1169م)، واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما، فوصل إلى بحيرة تنيس حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره هناك، ثم خرجا معا بمحاذاة الشاطئ إلى مدينة دمياط، فوصلاها في (الأول من صفر)، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، في حين لم يتمكن الأسطول من التوغل في النيل بسبب وجود السلسلة الحديدية التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة، وبالتالي لم يكن بوسع أفراده أن يمضوا إلى دمياط ليمنعوا ما يرد إليها من عساكر ومؤن عن طريق فرع النيل[1].

تريثت القوات المتحالفة مدة ثلاثة أيام في شن هجومها، وهو ما سمح للحامية بالداخل أن تعزز إمكاناتها[2]، ثم إن كونتوستيفانوس طلب من عموري الأول(Amoury1) ، أن يبدأ بالهجوم على المدينة في مثل هذا الوقت وقبل أن تمتن استحكاماتها جيدا، وهو ما رفضه عموري(Amoury1) ، مبديا تخوفه من استحكاماتها وسرعة التدابير المتخذة لشحنها بالجند والمؤن، وقرر أن يشيد أبراجا للحصار، وبذلك ضاع أمل المتحالفين في الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهد أكبر حتى يتمكنوا من اقتحامها، كما لم يتمكن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة، وبذلك أصبح عاجزا عن تقديم المساعدة العسكرية المطلوبة للقوات الصليبية البرية[3].

وإلى هنا رأى قادة الحملة أن يجتمعوا لتقديم حل نهائي لهذه المعضلة، فبينما رأى كونتوستيفانوس أن تقوم القوات كلها على جميع الأسوار، أحجم عموري الأول(Amoury1) عن ذلك ورأى فيها خطرا شديدا، ووقع بعدها بعض القادة الصليبيون في سوء الظن بكونتوستيفانوس، حيث رأوا أن اندفاعه إلى احتلال المدينة، هو رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الإمبراطور في الغنائم، وما لبثت أن نفذت أقوات الصليبيين تماما، ولم تجد القوات الصليبية ما تأكله سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار

---

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 12.

[2] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص 625.

[3] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 511.

نفذت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام، وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعا في الوقت الذي توافرت فيه المؤن في المعسكر الصليبي[1].

وما زاد من سوء الوضع العسكري، هو هبوب رياح قوية مصحوبة بأمطار غزيرة، أغرقت المعسكر الصليبي، فاستغل المسلمون هبوب هذه الرياح الجنوبية وأنزلوا سفينة نفاطة بين قطع الأسطول البيزنطي المكدس في النيل شمالي دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة، وكانت هذه العملية بمثابة بداية فشل الحملة، ومعها هزيمة القوات المتحالفة، كما أن هذه الحالة السيئة لقوات التحالف، أعطت أهالي المدينة الثقة في أنفسهم، وتحولوا للهجوم عليها[2]، عندها شعرت القوات المتحالفة بضرورة العودة إلى بلادها حتى لا يهلكوا جوعا أو قتلا، وقرر عموري الأول (Amoury1) عقد هدنة مع المسلمين، ليعود إلى بلاده سريعا بعد تفاقم الوضع بها، نتيجة لهجمات نور الدين محمود[3]، وبذلك عادت القوات المتحالفة إلى بلادها عن طريق عسقلان في (28ربيع الأول 565هـ/1169م)، أي بعد أن مكثت أمام دمياط أكثر من خمسين يوما دون أن تحقق شيئا من أهدافها، وجرى حرق كل أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين[4].

والواقع أن هذه الحملة قد أسفرت عن نتائج جد طيبة للمسلمين، حيث وضعت حدا لطموحات الصليبيين في مصر، وأبانت لهم أن مصر صارت في موقع قوة، وصار بإمكانها تهديد الصليبيين في بيت المقدس، كما أثبتت للقائمين على الدولة الفاطمية، أن دولتهم تعيش أيامها الأخيرة، بعد أن أدركوا أن الوحدة المصرية الشامية وشيكة وفي وقت قريب، وبالتالي فالقضاء على المذهب الشيعي هو العثرة الوحيدة الحائلة دون إتمام مشروع الوحدة.

ومما سبق اتضح لنا أن العلاقات الفاطمية الصليبية تميزت بالسلم والمهادنة والتحالف عند بدايتها، وذلك لجهل القيمين على سلطة مصر بخلفية العدوان الصليبي، فقد تبادر إلى ذهن الفاطميين، أن الصليبيين لن يتجاوزوا حدود شمال الشام، ورأوا في الوجود الصليبي هناك، فرصة ثمينة من أجل القضاء على السلاجقة السنة أعداؤهم الحقيقيين على حد زعمهم، ولم يكتفوا

[1] محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 115.

[2] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6ن 06.

[3] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج02، ص627.

[4] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 22.

بالتحالف مع الصليبيين فقط، وإنما استغلوا فرصة انهماك السلاجقة بالحرب مع الصليبيين لينقضوا عليهم من الجنوب، فاقتصوا منهم أجزاء واسعة من جنوب الشام.

لكن الفاطميين تغيرت نظرتهم إلى الصليبيين، بمجرد أن تجاوز الصليبيون الحدود المتفق عليها مع الفاطميين، فأرسلوا سفارة إلى الصليبيين وأخرى إلى الإمبراطور البيزنطي، يطلبون منهم التوقف عن المسير أكثر باتجاه الجنوب، ولما أبى الصليبيون ذلك، قرر الفاطميون الدفاع عن ممتلكاتهم بالقوة العسكرية، فدخلوا في حرب مع الصليبيين استمرت طويلا، وخلال الأيام الأولى للوجود الصليبي بجنوب بلاد الشام، دافع الفاطميون دفاعا مستميتا على ممتلكاتهم، بكل الطرق خاصة العسكرية والاقتصادية.

ثم آلت العلاقات بين الطرفين إلى الهدوء والسكينة، ولم تتعد المناوشات بين الطرفين، حد الإغارة الخاطفة التي لا طائل منها، وكانت هذه الفترة هي الأطول في تاريخ العلاقات بين الطرفين، فقد استمرت ما يفوق الربع قرن.

وابتداء من منتصف القرن السادس هجري الثاني عشر ميلادي (06هـ/12م)، عادت العلاقات بين الطرفين إلى التوتر، فقد استغل الصليبيون الذين كانوا يتمتعون بنوع من القوة مقارنة بالفاطميين، فرصة التقاتل بين الزعماء داخل البيت الفاطمي من أجل كرسي الوزارة، ليتدخلوا في مصر، لكنهم انجلوا عنها خوفا من قوات نور الدين محمود التي جاءت من أجل نجدة مصر، ثم عادوا إليها في عهد شاور، ولم يتمكنوا منها، رغم أنهم كادوا أن يستولوا عليها، لكن التدخل السني الذي قاده نور الدين محمود أنقذ مصر من الوجود الصليبي، رغم محاولاتهم المتعددة من أجل السيطرة عليها.

وما يلاحظ على هذه الفترة الأخيرة، هو أن الوجود الصليبي في أرض مصر لم يكن يتواجد بحد القوة، وإنما كان يتم بالاستعانة من بعض رجال السلطة الفاطميين أنفسهم، وبالتالي فإن الفاطميين هم من أوجدوا الصليبيين بمصر بمحض إرادتهم، وإحقاقا للحق، نقول أنه لو لم تتدخل القوات السنية، لدخلت مصر في حوزة الصليبيين إلى دهر غير معلوم، خصوصا وأن الدولة الفاطمية كانت تعيش أضعف أيامها في تلك الفترة.

كما أن التدخل السني بقيادة نور الدين محمود، كان له الأثر البعيد في تغير خارطة العالم الإسلامي، فاتحاد بلاد الشام بمصر طوّق الوجود الصليبي، كما أن خيرات مصر، زادت في قوة

المسلمين، فاستطاع المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي بعد ما يقرب من عشرين عاما، أن يستعيدوا بيت المقدس من الصليبيين.

ولذلك يمكننا القول أن الفرقة التي عاشها العالم الإسلامي تحت مسمى الشيعة في مصر والسنة في بلاد الشام، هو من أسس للوجود الصليبي بالبلاد الإسلامية، وأطال في عمره ما يقرب القرنين من الزمن.

المبحث الثالث: علاقة النزارية بالعالم المسيحي

إذا كانت العلاقات الفاطمية بالعالم المسيحي قد امتدت عبر تاريخ الدولة الفاطمية في المشرق الإسلامي أي منذ منتصف القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي وإلى غاية سقوط الدولة الفاطمية، فإن إخوانهم النزارية لم يفتتحوا العلاقات مع العالم المسيحي إلا في زمن الحروب الصليبية والسبب في ذلك هو أن النزارية لم تظهر إلى الوجود إلا مع نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، وهي الفترة المتزامنة مع بداية ظهور الحروب الصليبية، ولذلك فإن جل العلاقات بين النزارية والعالم المسيحي كانت مع الصليبيين، ولم تكن لها علاقات واضحة مع الإمبراطورية البيزنطية آنذاك رغم تواجدها.

وعن تاريخ العلاقات بين النزارية والصليبيين فقد ذكر جل المصادر التاريخية أنها كانت في أغلب أوقاتها على وفاق، رغم ما يحدث مرة على مرة من اختلاف لا يفسد للود قضية، ولأن النزارية قوة عسكرية فتاكة وسرية كانت تعيش في جسم الدولة الإسلامية، فإن الصليبيين قد راقهم التحالف معهم لاستغلالهم في خدمة مصالحهم، وفي مقابل ذلك سعى النزارية أيضا إلى نيل مبتغاهم وتحقيق أهدافهم من خلال التحالف مع الصليبيين، فأغلب أعداهم مشتركة سواء المسلمون السنة أو حتى الشيعة، ومن صيغ هذا التحالف نذكر:

1- تحالف نزارية الشام مع الصليبيين

بدأ نشاط النزارية بمدينة دمشق منذ سنة (507هـ/1113م)، حيث قاموا في هذه السنة باغتيال أول شخصية إسلامية بالمدينة وهو قطب الدين مودود بصحن جامع دمشق[1]، ثم ركنوا إلى الهدوء بعد المجزرة التي تعرضوا لها في حلب على يد ألب أرسلان، فقد اكتشف هذا الأخير مدى خطرهم، ولذلك أحدث فيهم مقتلة عظيمة انتهت بإبادة أغلبهم بينما فر الباقي منهم إلى المدن المجاورة[2]، ثم عادوا إلى النشاط ببلاد الشام عامة لما تولى أمرهم الداعي بهرام، فقد عمل هذا الأخير على عقد تحالفا مع إيلغازي صاحب حلب مقتضاه أن يسمح له بالنشاط ببلاد الشام دون مضايقات، ويبدو أن قبول إيلغازي بهذا الاتفاق هو التخوف من بطش الحشاشين الذين

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 298-299.

[2] ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 375.

كانوا يقتلون كل من لا يوافقهم على رأيهم[1]، غير أن إيلغازي لم يستطع رؤيتهم ينشطون بالقرب منه، فاقترح على أتابك دمشق تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين أن يستضيفهم عنده فوافق على ذلك، وكان ذلك بإيعاز من وزيره المزدقاني كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وتولى أمرهم هناك الداعي أبو الوفاء[2]، الذي ابتدأ نشاطه بممالأة الصليبيين ومعاداة أهل السنة من المسلمين.

عمل أبو الوفا الكردي في خضم سياسته الداعمة للصليبيين، على محاولة تسليم مدينة دمشق لهم، وكان ذلك بالاستعانة بوزير تاج الملوك بوري حاكم دمشق المدعو المزدقاني، فقد شايع هذا الوزير الباطنية ودعا بمذهبهم، وتآمر معهم على تسليم المدينة للصليبيين سنة (523هـ/1131م)، فراسلوهم وحددوا لهم ميقاتا معلوما لتسلم المدينة، وهو يوم الجمعة (15 رمضان) وقت الصلاة، مقابل أن يحصلوا هم على مدينة صور، لكن تاج الملوك كان قد علم بهذه المؤامرة، فقبض على وزيره وقتله، ثم نادى بقتل الباطنية، فتتبعهم الناس حتى قتلوا منهم عددا كبيرا قدره المؤرخون بستة آلاف نفر[3].

ولم يكن الصليبيون قد علموا بما حدث للباطنية، فجاؤوا على موعدهم المحدد، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتملكوا المدينة، لأن القائمين عليها كانوا قد حصنوها جيدا، واستعدوا لمجيء الصليبيين، فانصرفوا عنها، وأغاروا على ما يجاورها من أراضي، لكنهم انهزموا أمام عسكر تاج الملوك، حتى أنه غنم منهم الكثير من الدواب، وأسر من جنودهم ما يربو عن الثلاثمائة أسير[4].

ولما علم الداعي إسماعيل زعيم النزارية في بانياس بما حدث لإخوانه في دمشق، آثر إتباع سياسة تضمن له رأسه، فراسل ملك بيت المقدس بلدوين الثاني سنة(524هـ/1129م)، يعرض عليه تسليم مدينته لهم مقابل السماح له ولأتباعه من الباطنية إلى بلادهم، ويأمن على نفسه من القتل، وقبل الصليبيون طلبه، فتسلموا الحصن، وضاع بذلك معقل آخر من معاقل المسلمين، كان إلى وقت قريب تحت سلطة المسلمين، وصار بفعل التهور الباطني، في حوزة النصارى الصليبيين[5].

هذا وسعى ملك بيت المقدس بلدوين الثاني(Baudouin2) إلى إقامة تحالف مع نزارية

---

[1] محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، ص 281-282.

[2] محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، ص 282.

[3] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص2-3. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 250.

[4] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص2-3. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 250.

[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ص ج9، ص 250. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 355-356.

الشام، وهدفه من ذلك أن يستغل تحركاتهم من أجل بث الرعب والفوضى داخل المجتمع الإسلامي، كما كان يسعى إلى التخلص من بعض القادة المسلمين من خلال تحريضهم على القتل بالمال[1]، ولتحفيزهم على ذلك قام بزيارة مجاملة إلى معاقل الباطنية في بلاد الشام رفقة هنري (Henri) صاحب شامبانيا، ويذكر أسامة زكي زيد أن الزيارات التي قام بها القادة الصليبيون، لم يكن هدفها استغلال الباطنية فحسب وإنما هو تخوفهم من خناجر الباطنية[2]، واستدل على ذلك، باعتذار الملك عموري الأول (Amoury1)، لشيخ الجبل سنان راشد عندما هاجمت فرسان الداوية الصليبية، بعض قلاع الباطنية وتخريبها[3].

ومن صيغ تحالف الطرفين نذكر أنه عندما فشل الصليبيون في حملتهم الثانية على مدينة الرها، قام ريموند(Raymond) صاحب أنطاكية بالمسير إلى حلب من أجل الاستيلاء عليها سنة(544هـ/1149م)، وتحالف مع زعيم الباطنية ببلاد الشام علي بن أبي الوفا الكردي، فوافقه هذا الأخير على ذلك، لعداوته مع نور الدين محمود، غير أن نور الدين واجههم قبل أن يبدأوه بالهجوم، واستطاع أن يلحق بهم هزيمة كبيرة في منطقة يغرى وهي قرب بحيرة العمق[4].

بعد أن تمكن نور الدين من إلحاق الهزيمة بالصليبيين وحلفائهم من الباطنية، توجه تلقاء حصن إنب[5] الخاضع للصليبيين، وقرر أن يستعيده منهم، وهو ما استدعى من ريموند(Raymond) الملك الصليبي، أن يطلب الدعم من الباطنية، فوافقه زعيم الباطنية علي بن الوفا على المساعدة، لكنه نصحه بعدم المغامرة بمواجهة قوات نور الدين محمود التي تفوقهم عددا، فلم يأبه ريموند(Raymond) لذلك، وقرر الدخول في الحرب، لكن الظروف الجوية لم تسر في صالحه، فقد هبت ريح قوية محملة برمال أعاقت الخيول بالصليبية والباطنية، ولم تتوقف الرياح إلا وجيش الصليبيين قد أشرف على الهلاك، وقتل في المعركة ريموند على يد أسد الدين

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 478.

[2] عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، شركة طبع الكتب العربية (القاهرة)، ط1 (1318هـ/1900م)، ص 63.

[3] أسامة زكي زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، تق، جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط01 (1980م)، ص 220.

[4] المرجع نفسه.

[5] إنب: حصن من أعمال إعزاز من نواحي حلب، أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 258.

شيركوه، كما قتل زعيم الباطنية النزارية علي بن الوفا الكردي، وعدد كبير من أتباعهما[1].

ظلت العلاقات بين الباطنية النزارية والصليبيين تتراوح بين الوفاق أحيانا والاختلاف أحيانا أخرى، طيلة حكم شيوخ الجبل، فقد عمل شيخ الجبل سنان راشد هو الآخر على التقرب من الصليبيين، خدمة لمصالحه، إذ عرف عنه أنه كان شديد العدائية للمسلمين السنة، ولذلك أرسل إلى ملك بيت المقدس عموري الأول (Amoury1)، سنة (569هـ/1172م)، يطلب منه التحالف معه ضد المسلمين السنة، وطلب منه في مقابل ذلك أن يعفي الباطنية من الجزية السنوية التي فرضها عليهم فرسان الداوية، مقابل أن يدخل الباطنية النزارية في المسيحية[2].

وافق الملك الصليبي على هذا العرض، وكانت نيته أن يستفيد من خدمات الباطنية، فهو يعرف جيدا أنهم لا يدينون بمعتقد، ولا تهمهم المسيحية، وإنما كانوا يتقربون منه فقط من أجل رفع الأعباء الضريبية عنهم، ولذلك وافق الملك على الفور قبول التحالف معهم، فأرسل إلى فرسان المعبد يطلب منهم إعفاء الباطنية من الجزية المفروضة عليهم، وتعهد لهم في مقابل ذلك أن يدفعها هو بنفسه، غير أن الأمور لم تسر على نحو ما أراده، فقد وافقه فرسان المعبد على طلبه ظاهريا فقط، لكنهم قرروا أن يقتلوا رسول شيخ الجبل، من أجل إحداث قطيعة بينهم وبين الملك الصليبي، وقد فعلوا ذلك بعد أن شكوا في أن الملك الصليبي، لن يدفع لهم ما كان مقررا على الباطنية، وهدفوا من عملهم هذا إلى أن تبقى ضريبتهم على الباطنية سارية المفعول، واتفقوا مع أحد كبار فرسانهم يدعى ولتر دي مينسيل (Walter de monseille)، ليقتل رسول الباطنية، فأرسل جنديين من أتباعه، اعترضا الرسول وقتلاه قرب طرابلس ذبحا بالسيوف[3].

أثرت هذه الحادثة على معنويات الملك عموري الأول(Amoury1)، فأرسل إلى مقدم الداوية يطلب منه تقديم قاتل الرسول الباطني، إلا أنهم رفضوا ذلك، وأعلموه أنه ليس من صلاحياته التصرف فيهم، وأنهم إنما عملوا ذلك خدمة لمصالحهم، وهو ما اضطره للمسير إليهم على رأس قوة لتأديبهم، والقبض على قاتل الرسول الباطني، وتمكن أخيرا من القبض عليه وسجنه،

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور: ج2، ص 622. حسن حبشي: نور الدين والصليبيون(حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري)، دار الفكر العربي (بيروت)، د-س-ن، ص 79-81. برنارد لويس: الحشاشون (فرقة ثورية في تاريخ الإسلام)، تر: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي (القاهرة)، ط2 (2006م)، ص 125-126.

[2] أسامة زكي زيد: نفس المرجع السابق، ص 242.

[3] المرجع نفسه، ص 244.

ثم أرسل إلى زعيم الباطنية يعتذر منه، واستطاع أن يقنعه ببراءته من هذا العمل، كما عرض عليه مقابل ذلك أن يمضي الطرفان في عملية التحالف، لكن سنان راشد أبى ذلك[1]، غير أنه قبل منه اعتذاره، وصدق روايته في أنه ليس هو من أمر بقتل رسوله[2].

وفي سنة (593هـ/1197م) قام هنري(Henri) صاحب شامبانيا بعد تتويجه ملكا على بيت المقدس بزيارة مجاملة لأراضي الباطنية، ولما علم به شيخ الجبل، خرج لاستقباله بنفسه، وكان ذلك لدواعي عدة، منها أنه كان يرغب في فتح علاقات ودية مع الصليبيين من خلال هذه الزيارة، إضافة إلى أنه كان يرغب في إظهار قوة الباطنية أمام الملك الصليبي، ففي أثناء هذه الزيارة، قام شيخ الجبل باستعراض قوته أمام الملك، فأراه أهم قلاعه، ثم استدعى بعضا من فدائييه أمامه، وأراه من خلالهم كيف أنهم مستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل مولاهم الشيخ، فأمر بعضا منهم برمي أنفسهم من أعلى البرج ففعلوا، ثم أمر آخرين بقتل أنفسهم بخناجرهم ففعلوا، وقد ترك كل هذا أثرا بالغا في نفسية الملك هنري(Henri)[3]، ثم عرض عليه خدماته، وقال له بأنه مستعد لاغتيال أي شخص يريده الملك، فقط عليه أن يطلب منه ذلك[4].

يبدو مما سبق أن شيخ الجبل كان يرغب من خلال استعراضاته هذه، أن يوصل إلى ذهن الملك الصليبي أن الباطنية لا يزالون على قوتهم وبأسهم، ولذلك عليه أن يقرأ حذره منهم إن أراد مواجهتهم، كما أظهر له أيضا مدى طاعة فدائييه له، وأنهم مستعدون لفعل كل ما يطلبه منهم ولو كان ذلك على حساب أرواحهم، فقد كان هذا إشهارا وإنذارا للملك الصليبي في آن واحد، جعلته يرتعب من قوتهم حتى أنه ترجى شيخ الجبل بأن يمنع فدائييه من قتل أنفسهم[5].

2- المواجهة العسكرية

رغم أن العلاقات بين النزارية والصليبيين امتازت في غالب الأحيان بالتوافق والسلمية، انجرت عنها فترات تحالف بينهما خدمة للمصلحة المشتركة في وأد المشروع الإسلامي الجهادي بزعامة السلاجقة أحيانا، ونور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي أحيانا أخرى، إلا أنه حدثت

---

[1] أسامة زكي زيد: نفس المرجع السابق، ص 246.

[2] سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 708-709. فيليب حتي: نفس المرجع السابق، ج2، ص 247.

[3] أسامة زكي زيد: نفس المرجع السابق، ص 249-250.

[4] سعيد عاشور: نفس المرجع السابق، ج2، ص 872-873.

[5] أسامة زكي زيد: نفس المرجع السابق، ص 249.

بين الطرفين بعض المناوشات نتيجة التداخل في المصالح، وانجر عن ذلك حدوث معارك في بعض الأحيان، واغتيالات في أحيان أخرى ومن أمثلة ذلك نذكر:

عمل الصليبيون في إطار سياستهم التوسعية ببلاد الشام، على تملك كل القلاع والحصون التي تصلها أيديهم، والتي يروا فيها مصلحتهم أو التي تشكل خطرا عليهم، ولذلك لم يستثنوا في توسعاتهم الأعداء ولا الأصدقاء، وكانت من ضحاياهم حصون وقلاع النزارية وأبرزها قلعة سرمين التي كانت تدين بمذهب الإسماعيلية النزارية حيث فر قاضيها أبو الفتح السرميني لما علم بمجيء الصليبيين، وتركها لهم فاحتلوها سنة (499هـ/1105م)[1]، بينما انتقل هو إلى حصن أفامية واستولى عليه بالتنسيق مع أبي طاهر الصائغ زعيم النزارية في حلب[2]، غير أن الصليبيين واصلوا مضايقتهم للنزارية ببلاد الشام إذ لم يرقهم أن تبقى أفامية تحت حكمهم، فسار إلى أمير أنطاكية تانكرد(Tancred)، وضيق عليها حتى سقطت في يديه يوم (13 محرم 500هـ/1106م)، وقتل زعيمها أبو الفتح السرميني مع ثلاثة من أتباعه بينما قبض على أبي طاهر الصائغ، ثم أطلق سراحه، وتم ترحيل كل السكان من الحصن إلى أنطاكية[3].

وحتى النزارية كانوا يستغلون الفرص التي تتاح لهم من أجل السيطرة على القلاع والحصون الخاضعة للصليبيين، ومن ذلك أنهم قاموا سنة (531هـ/1136م)، باسترجاع حصن الخريبة[4] من الصليبيين، حيث قاموا بطرد الحامية الصليبية عنه وأعادوا السيطرة عليه[5]، ومن أمثلة الصراع بين الطرفين أيضا أن الملك الصليبي بلدوين الثالث(Baudouin3) كان قد انتهز فرصة مرض نور الدين محمود سنة (552هـ/1157م)، وقرر الاستيلاء على حصن شيزر الذي كان تحت سلطة الباطنية النزارية، فقتلوا عددا من أهله، لكنهم جوبهوا برد فعل قوي من طرف الباطنية، واستطاعوا أن يخرجوهم من الحصن[6]، وفي سنة (524هـ/1129م) شن أمير أنطاكية بوهيموند هجوما

---

[1] محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، ص 277-278.
[2] ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 363- 364.
[3] المصدر نفسه، ص 364. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 242.
[4] الخريبة: حصن بساحل الشام. أنظر ياقوت الحموي: المشترك وضعا والمفترق صقعا، ص 155.
[5] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص125.
[6] ابن القلانسي، نفس المصدر السابق، ص 349.

عنيفا على بعض معاقل الباطنية النزارية، ومن أبرزها حصن القدموس، الذي سقط بأيديهم مدة وجيزة ثم استعاده النزارية منهم بعد مدة وجيزة[1].

3- تصفية القادة الصليبيين

عمل النزارية للمحافظة على كيانهم ببلاد الشام كل ما تمليه عليهم الأعراف السياسية، فقد رأينا سابقا كيف أنهم لجأوا إلى عقد التحالفات مع القوى الكبرى سواء الإسلامية أو الصليبية، كما عمدوا أيضا إلى استعمال القوة العسكرية للدفاع عن ممتلكاتهم، غير أنهم أبدعوا في سياسة التصفية الجسدية في حق الأعداء، فقد عرف عنهم أنهم يقتلون كل من تسول له نفسه ويعاديهم أو يحاول الضغط عليهم، ولذلك لجأوا إلى هذه السياسة في إطار التعامل مع الصليبيين، غير أنهم لم يسرفوا فيها بالقدر الذي عملوا به مع قادة المسلمين السنة، ولذلك لم يكن ضحايا النزارية من الصليبيين إلا العدد اليسير، ومن أمثلة ذلك نذكر:

قام النزارية سنة (547هـ/1152م) بقتل الأمير ريموند الثاني (Raymond2) صاحب طرابلس، ولم تذكر المصادر سبب قتله، غير أن هذه التصفية خلفت ردود فعل قوية من جانب المجتمع الصليبي وخاصة فرسان الداوية الذين عزموا على تأديب النزارية، ولذلك تتبعوا معاقلهم وقتلوا منهم عددا كبيرا، كما احتلوا أجزاء واسعة جدا من ممتلكاتهم، وفرضوا على الباقين جزية سنوية يدفعونها للقادة الصليبيين[2].

هذا واغتال النزارية أيضا المركيز كونراد دي مونتفرات(Conrad de Montferrat) صاحب صور وملك بيت المقدس، نذكر منها ما ذكره ابن الأثير حيث ذكر هذا الأخير أن صلاح الدين الأيوبي أقام مع سنان راشد الدين عقدا يقوم بموجبه سنان بقتل ريتشارد قلب الأسد الذي قاد حملة صليبية جديدة إلى الشرق الإسلامي، إضافة إلى اغتيال المركيز كونراد دي مونتفرات (Conrad de Montferrat) مقابل الحصول على عشرة آلاف دينار، فقام باغتيال المركيز كونراد بينما أعرض عن اغتيال ريتشارد، وسبب ذلك هو تخوفه من تفرغ صلاح الدين له بعد التخلص من أعدائه الصليبيين[3].

---

[1] أسامة زكي زيد: نفس المرجع السابق، ص 223.

[2] المرجع نفسه، ص 226.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 213-214.

المبحث الرابع: علاقة النصيريين والدروز بالصليبيين

1- علاقة النصيريين بالصليبيين

أ- عقائديا

لم يشر المؤرخون إلى أن هناك علاقات بين النصيريين والمسيحيين في الجانب العقائدي، غير أن بعضهم خمّن إلى أن النصيريين يكونون قد اقتبسوا من النصرانية بعض المعتقدات، كالمتعلقة بالأعياد أو ثالوث العبادة، في حين يقول آخرون بأنهم لم يأخذوا حقيقة من النصرانية، وإنما ابتدعوا عقيدتهم الخاصة من خلال المزج بين عقائد شتى وانتهاجها على أساس أنها العقيدة الصحيحة التي جاء بها الإسلام الصحيح، وفيما يلي سنشير إلى أهم نقاط التشابه التي أشار إليها المؤرخون على أساس أن النصيريين قد اقتبسوها من النصرانية:

يذكر بعض المؤرخين أن أصل تسمية النصيريين بهذا الاسم مشتق من النصرانية، وذلك لأنهم يسكنون إلى جانب النصارى، ويمارسون الكثير من الطقوس النصرانية، حتى أنهم يتعايشون معهم كما لو أنهم إخوانا لهم[1]، غير أن النصيريين يكرهون هذه التسمية ويعتقدون أنها عنصرية ألصقها بهم العثمانيون ليميزوهم عن باقي السكان هناك[2].

ومن الحجج التي اعتمدها المؤرخون في أن هناك تواصلا عقائديا بين النصيريين والمسيحيين هو أن النصيريين يحتفلون بكثير من الأعياد النصرانية ويعظمونها على غرار عيد الفصح والمسيح، وعيد الغطاس، وعيد السعف، وعيد العنصرة، وعيد القديسة بربارة ومريم المجدلانية[3]، كما يحتفل النصيريون أيضا بعيد الصليب، بحيث يجعلونه تاريخا لقطف الثمار وبدء الزراعة، ويجعلون منه تاريخا لبدء المعاملات مع بعضهم كدفع أجور العمال والرعاة وما إلى ذلك، وفي هذا العيد يتوجهون إلى المعارض المقامة في الأديرة لشراء ما يحتاجونه من مستلزمات الحياة، ومن ذلك مثلا معرض دير الحميراء في تل كلخ، ومعرض دير مار إلياس في صافيتا[4].

---

[1] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام (السياسي والديني والثقافي والاجتماعي)، دار الجيل (بيروت)، ط 14 (1416هـ/1996م)، ج 4، ص 253.

[2] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 33.

[3] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 461. مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 331-332.

[4] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 74.

إن احتفال النصيريين بكل هذه الأعياد ليدل دلالة واضحة على التأثر بمعتقدات النصارى، حتى ليُخيّل إلينا أحيانا أنهم نصارى لكثرة ما يحتفلون بهذه الأعياد، فهم لا يتركون عيدا من أعياد النصارى إلا ويحتفلون به.

غير أن بعض المؤرخين يرون في هذا أمرا عاديا ولا علاقة له بالتأثر والتأثير العقائدي، فها هو عبد الرحمن بدوي يفسر الأمر على أنه مجرد احتكاك اجتماعي بين الطرفين هو ما أفضى إلى هذا التأثر، إذ أن نفس الشيء يحدث في مصر بحيث نجد الكثير من المصريين المجاورين للمسيحيين يحتفلون بأعياد النصارى مع أنهم مسلمون، ((لكن ينبغي أن نلاحظ أن هذه الأعياد الشعبية ذات الطابع المسيحي لا تدل على شيء بالنسبة إلى عقائدهم، إنما هو التجاور مع النصارى هو الذي أدى إلى هذه الاحتفالات الشعبية من جانب النصيرية ببعض الأعياد المسيحية، تماما كما هي الحال في مصر حتى اليوم، إذ يحتفل المصريون المسلمون شعبيا بعيد الغطاس وعيد سبت النور...))[1].

وعليه فإن ما جاء به المؤرخان لامانس وديسو، من أن النصيرية لها جذور نصرانية استنادا إلى ما رآه من تأثر نصيري بالأعياد النصرانية، هو من قبيل التدليس لا أكثر، ((فمن الجهل الفاضح الاستناد إلى الأعياد الشعبية النصيرية للاستدلال منها على أصل أو تأثير مسيحي، كما ذهب إلى ذلك لامانس وديسو))[2].

وبنظرة فاحصة لما جاء به كل من عبد الرحمن بدوي وكل من لامانس وديسو، فإننا نرجح صحة ما جاء به عبد الرحمن بدوي، لأن النصيريين لم يحتفلوا بأعياد النصارى فحسب، وإنما هم يحتفلون كذلك بالأعياد الفارسية كالنيروز وعيد المهرجان، كما يحتفلون بأغلب الأعياد الإسلامية سواء الشيعية فقط، أو التي يشترك فيها أهل السنة والشيعة[3]، ومن هنا نعتقد أن فكرة تأثر العقيدة النصيرية بالمسيحية مستبعد من هذه الناحية على الأقل.

غير أن هناك ما يوصل العلاقة بين النصيريين والنصارى من جهات أخرى، فنجد أنفسنا عندها حيارى لأننا في بداية الأمر نفينا صفة التواصل العقائدي من خلال الاشتراك في الأعياد،

---

[1] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 461.

[2] عبد الرحمن بدوي: نفس المرجع السابق، ص 462.

[3] منتجب الدين العاني: نفس المصدر السابق، ص ص 95ـــ100.

لنقع في أدلة أخرى تربط الطائفتين ببعضهم البعض، ومن هذه الأدلة أن النصيريين كثيرا ما يسمون أبناءهم بأسماء نصرانية، مثل يوحنا وهيلانة[1]، ولا نعتقد أن هذا يأتي من فراغ فلو لم يتأثر النصيريون بالنصارى وأعجبوا بهم ما كانوا ليسمون أبناءهم بهذه التسميات، كما أن هناك دليل آخر يوحي إلى أن النصيريين كانوا متأثرين بالنصارى، إذ نجدهم يقدسون الثالوث المكون من الحروف (ع م س)، الذي يعني علي ومحمد وسلمان الفارسي، وفي هذا الشأن يقول مصطفى الشكعة: ((فللعقيدة عند هذه الفئة من الغلاة هيكلان: هيكل شبه نصراني يتمثل في التثليث الذي يتضح في عقد (ع م س)، وآخر إسلامي، ولعل من القرائن التي تفسر لنا ذلك احتفالهم الكامل بالأعياد المسيحية... وليس من شك في أن هذه الناحية من السلوك في ضوء هذه القرائن متأثرة بالمسيحية وبعض العادات الفارسية))[2].

ومما سبق يمكننا القول أن النصيريين حقيقة لهم تأثر بالعقيدة النصرانية، ولذلك أخذوا منها هذه المعتقدات، غير أنه ما يجب أن نشير إليه أيضا هو أنهم لم يتأثروا بالنصرانية فحسب وإنما تأثروا بالفارسية أيضا، ولذلك جاءت عقيدتهم خليطا من العقائد الثلاث التي ذكرناها، لكنهم كانوا أكثر تأثرا بالنصرانية والإسلامية من الفارسية.

ب- عسكريا

ب-1- مساعدة النصيرية للصليبيين

أما بالنسبة للعلاقات بين النصيرية ومن جاورهم من المسلمين فلا توجد هناك أية علاقات مباشرة بين الطرفين، على الرغم من الاختلاف العقائدي بينهما، ووجود التجمعات النصيرية داخل المحيط الإسلامي السني، فقد كان النصيرية معتصمين بالجبال منعزلين عمن حولهم، ومنكمشين في قراهم الجبلية، أو متفرقين منطوين على أنفسهم في المدن أو السواحل[3]، ونلاحظ أن النصيرية نزلوا إلى السواحل من جبالهم أثناء الحروب الصليبية وحروب التتار، وبعد اندحار هؤلاء نجدهم يرجعون إلى جبالهم[4].

---

[1] سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 33.

[2] مصطفى الشكعة: نفس المرجع السابق، ص 332- 333.

[3] المرجع نفسه، ص 305.

[4] محمد الخطيب: الحركات الباطنية، ص 330.

استغل النصيريون فرصة مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، ليعلنوا انضمامهم إليهم وتقديم المساعدة لهم نكاية في المسلمين السنة، إذ تذكر المصادر أنهم كانوا ينزلون من جبالهم إلى السواحل من أجل ملاقاة الصليبيين وتقديم العون لهم[1] .

وفي أنطاكية لما اشتد حصار الصليبيين لها وأدركوا أنهم لا يقدرون عليها استبد الملل والتعب بالجنود الصليبيين فبدأوا بالانسحاب خفية، عندها اتصل الزعيم النصيري فيروز الذي كان موكلا بحراسة أحد أبراج المدينة من قبل الأمير ياغيسيان بالقائد الصليبي بوهيموند وعرض عليه تسليم البرج إليه ليدخل منه إلى المدينة والسيطرة عليها ، وبالفعل تم الاتفاق بين الطرفين واستغل الصليبيون فجر اليوم الموالي ليتسلقوا السور من جهة برج فيروز، ومنه استطاع الصليبيون السيطرة على بقية الأبراج، واستباحوا المدينة بعدها، ونهبوا كل ما وقعت عليه أعينهم وأيديهم، وبفضل هذا الخائن وقعت إحدى أكبر المدن الشامية وأمنعها في يد الصليبيين [2].

هذا وقد حاول النصيريون أن يغتالوا القائد صلاح الدين الأيوبي بالتنسيق مع الصليبيين، لكنهم عجزوا عن تحقيق ذلك، ويعقب محمد كرد علي على هذه الحادثة بقوله: ولو وفقوا إلى قتله، لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين في دعة ومجد، وما أكثر الأدعياء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم، فإذا لم ينالوا رغباتهم ساروا على العمياء لحظ أنفسهم فقط))[3].

وها هو الشيخ ابن تيمية يستعرض تاريخهم وخطيئتهم في أنطاكية في خضم فتاويه عنهم: ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائما مع كل عدو للمسلمين فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل انقهار النصارى ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى النصارى على ثغور المسلمين... فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك[4] .

---

[1] يوسف إبراهيم الشيخ عيد: نفس المرجع السابق، ص 254.

[2] المرجع نفسه، ص 255. سليمان الحلبي: نفس المرجع السابق، ص 109. عبد الله الأمين: دراسات في الفرق ، ص 128.

[3] محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري (دمشق)، ط3 (1403هـ/1983م)، ج2، ص 49.

[4] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج35، ص 150-151.

ويظهر جليا في أن الفرق الباطنية كانت تستغل أي فرصة تسنح لها من أجل الانتقام من المسلمين السنة، ولذا دائما ما كانوا يلجأون إلى التحالف مع أي عدو للمسلمين السنة وهذا ما بينه فيليب حتي في سياق حديثه عن مثل هذه الفرق: ((ثم إن العناصر الإسلامية المنشقة من شيعة وإسماعيلية ونصيرية عمدوا في مناسبات عديدة على نقض ولائهم بتقديم العون إلى الإفرنج))[1].

وأما الشيخ محمد أبو زهرة فيصرح في حديثه عن تاريخ النصيرية في الحروب الصليبية بقوله: ((كانت النصيرية عند الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي عونا للصليبيين ضد المسلمين، ولما استولى الصليبيون على البلاد الإسلامية قربوهم وأدنوهم، وجعلوا لهم مكانا مرموقا، وعندما توحدت الجبهة الإسلامية في وجه الصليبيين على يد قادة الجهاد الإسلامي أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي اختفى هؤلاء عن الأعين واعتصموا بجبالهم، واقتصر عملهم على تدبير المكايد والفتن والفتك بكبراء المسلمين وقوادهم العظام، ولما أغار التتار بعد ذلك على الشام مالأهم أولئك النصيريون كما مالأوا الصليبيين من قبل، فمكنوا للتتار من الرقاب، حتى إذا انحسرت غارات التتار قبعوا في جبالهم قبوع القواقع في أصدافها لينتهزوا فرصة أخرى))[2].

ب-2- المواجهة العسكرية المباشرة

لم تشر أغلب المصادر التاريخية إلى أنه كان هناك صدام مباشر بين النصيريين والصليبيين، إذ كل ما ذكر عن علاقة الطرفين ببعضهما البعض أنهما كانا على وفاق دائم، أو أن الصليبيين كانوا أكثر سيطرة على النصيريين ومعاقلهم ببلاد الشام، ولعل السبب في ذلك واضح لكل ذي نظر فاحص، فالنصيريون وكما ذكرنا في عديد المرات كانوا متفرقين في الجبال بعيدين عن السياسة ومتطلبات الحكم، غير أن هذا الأمر لم يكن عاما على كافة النصيريين فقد جاء في كتاب تاريخ العلويين في بلاد الشام لإيميل عباس آل معروف أن هناك العديد من الأسر العربية التي كان لها السلطان على بعض الأقاليم كانت تعتقد بالنصيرية منها من كان في سر من أمره ومنها من أعلن ذلك.

[1] إبراهيم العيد شيخ: نفس المرجع السابق، ص 256. فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج2، ص 259.
[2] محمد أبو زهرة: نفس المرجع السابق، ج01، ص 64.

ومن هذه الأسر نذكر، أسرة بني عمار في طرابلس الشام، وأسرة آل الجمالي التي كانت تتولى أمر مصر، وأسرة آل شاور، والوزير المصري طلائع بن رزيك، وقاضي صور محمد بن عبد الله بن أبي عقيل[1]، إضافة إلى أسر وشخصيات أعرضنا عن ذكرها لبعدها عن الموضوع.

غير أن هذه الأسر والعائلات لم تعمل باسم النصيرية في مناصبها، فأسرة بدر الجمالي على قوتها ونفوذها لم تجهر بنصيريتها وظلت تعمل على إعلاء سلطان الفاطميين في كل مكان وصلت إليه جيوشهم، ونفس الأمر بالنسبة لأسرة آل شاور والوزير طلائع بن رزيك.

أما عن أسرة بني عمار في طرابلس فقد كان لها رأي مغاير، إذ عملت هذه الأسرة على فرض قوتها منذ أن تولى أمرها القاضي أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار سنة (493هـ/1100م)[2]، ففي سنة (495هـ/1102م)، أرسل هذا الأخير إلى حاكم دمشق دقاق وحاكم حمص الأمير جناح الدولة، يحرضهم على قتال ريموند (Raymond)الأمير الصليبي، مستغلا بذلك فرصة انهزامه أمام قوات قلج أرسلان، إذ لم يبق معه من قواته إلا ثلاث مائة من الجند، وافقه الأميران على اقتراحه، وساروا إلى القوات الصليبية، غير أنهم انهزموا أمامها رغم قلتها، بينما انتصر بنو عمار في بادئ الأمر ثم انهزموا بعد انهزام حلفائهم، وتبعهم ريموند وحاصرهم داخل المدينة[3].

استمر حصار مدينة طرابلس من طرف القوات الصليبية على أمل السيطرة عليها في أقرب فرصة تتاح لهم، ولكي يدرس مداخلها ومخارجها ابتنى ريموند (Raymond) خارج أسوارها برجا وجعل عليه مراصد يراقب من خلالها المدينة، فخرج إليه الملك أبو علي بن عمار، وأغار على ذلك البرج وأضرم به النار، ما أغضب ريموند الصنجيلي فارتقى إلى أعلى البرج يعاين خسائره، فانخسفت به إحدى ألواحه فسقط ومات متأثرا بجراحه[4].

واستمر بنو عمار يدافعون عن مدينتهم دفاعا مستميتا، إذ أن صاحب اللاذقية من الفرنج لما علم بموت ريموند الصنجيلي(Raymond) أرسل مددا وميرة إلى العساكر الفرنجية المحاصرة

---

[1] إيميل عباس آل معروف: العلويون في بلاد الشام منذ فجر الإسلام إلى تاريخنا الحاضر، دار الأمل والسلام (لبنان)، ط1 (2013م)، ج1، ص ص 457 ــ 473.

[2] النويري: نفس المصدر السابق، ج 28، ص 168.

[3] المصدر نفسه.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 95-96. النويري: نفس المصدر السابق، ج28، ص 170.

لطرابلس، ليشجعهم على مواصلة الحصار، فخرج جماعة من أهل طرابلس واقتتلوا مع هذه القوة قتالا شديدا حتى ظفروا بقطعة بحرية فرنجية فأخذوا ما بها وأسروا جنودها[1].

لم يتوقف الصليبيون عن محاصرة المدينة زهاء الخمس سنين، وهو ما اضطر القائم عليها يومئذ وهو القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، إلى الخروج ناحية بغداد طالبا النجدة، وترك على المدينة ابن عمه ذا المناقب، ورتب له المدينة ترتيبا لا يحتاج من ورائه إلى شيء لمدة لا تقل عن الستة أشهر، غير أنه وبخروجه أظهر ابن عمه العصيان، وأعلن الولاء للفاطميين[2].

وفي سنة (502هـ/1109م)، عاد فخر الملك بن عمار من بغداد إلى دمشق، ومنها سار إلى جبلة فأطاعه أهلها، وكان قد أمر بالقبض على ذي المناقب لما علم بفعلته، فقبض عليه وأرسل إلى حصن الخوابي، بينما قبض الوالي الجديد في طرابلس من قبل الفاطميين وهو شرف الدولة بن أبي الطيب على بقايا بني عمار وأسلهم إلى مصر[3]، فانتهى دور بني عمار من مدينة طرابلس، وانتهت حروبهم ضد الصليبيين في هذه المدينة.

ولما فرغ الصليبيون من مدينة طرابلس، ساروا إلى بانياس فملكوها، ثم توجهوا إلى جبلة وهي دار ملك بني عمار النصيريين بعد طرابلس الشام، فاقتتلوا معهم، لكن فخر الملك لم يكن يومئذ بنفس قوته التي كان عليها من قبل، إذ لم يستطع الصمود، فارتحل إلى شيزر ومنها إلى دمشق، تاركا المدينة بيد الصليبيين يفعلون بها ما شاؤوا[4]، وانتهى بذلك شرف النصيريين في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، تاركين التاريخ يسجل لهم السقطات والمؤامرات في حق الإسلام وأرضه إلى متأخر الزمان.

2- علاقة الدروز بالعالم المسيحي

أ- عقائديا

قد يستغرب القارئ لو قلنا بأن هناك علاقات عقائدية بين الدروز والعالم المسيحي، لأن الطرفين مختلفين اختلافا كليا، فالدروز ينتسبون إلى الإسلام، بينما العالم المسيحي يدين بالنصرانية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نجد بين الطرفين احتكاكا عقائديا سواء توافقا أو

[1] المصدر نفسه.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 120.

[3] المصدر نفسه، ص 121. إيميل عباس: نفس المرجع السابق، ج1، ص 460-461.

[4] النويري: نفس المصدر السابق، ج28، ص 172.

اختلافا، لكن حقيقة الأمر أنه توجد هناك احتكاكات عقائدية بينهما، حتى ليُخيّل إلينا أحيانا أنهما كل لا يفترق، وفي أحيان أخرى نجد الفرق واضح وتكثر المسابّات بين الطرفين خاصة من جانب الدروز، حتى يخيّل إلينا أن بين الطرفين عداوة قديمة متأصلة، وقد ظهرت أولى هذه الاحتكاكات منذ ظهور الدرزية كمعتقد ديني إلى الوجود، ونرى ذلك في مجموعة من الرسائل التي ألفها مهندسو المذهب وهم حمزة بن علي وبهاء الدين السموقي، يذكرون فيها أوجه التقارب بين الطائفتين، وفي أحيان أخرى أوجه التنافر والاختلاف، ومن ذلك نذكر:

ففي رسالة خبر اليهود والنصارى التي كتبها حمزة بن علي[1]، يذكر أن قوما من أهل الذمة (نصارى ويهود)، ذهبوا إلى الحاكم بأمر الله وهو في إحدى مقابر القاهرة المسماة القرافة، وطلبوا منه الأمان ليسألوه عن أمور في الدين، فأعطاهم الأمان ثم سألوه عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم لم يكونوا ينتظرونه هو حقا، وإنما النبي الذي كان مبشرا به سيكون بعد أربع مئة سنة، وهذا في حقيقة الأمر مقصود من كاتب الرسالة، إذ أنه أراد أن يلمح إلى أن المقصود بالرسالة النبوية هو الحاكم بأمر الله وليس محمد صلى الله عليه وسلم، فالحاكم جاء بعد أربع مئة سنة كما كتب صاحب الرسالة، وقد ذكر أن من اتبع رسالة محمد إنما كان بحد السيف، ولذلك فإنه قد آن الأوان لنقض الشريعة المحمدية، والإيمان بشريعة الحاكم بأمر الله الذي ظهر في الزمن الموقوت[2].

والواقع أن هذا اللقاء لم تأت به أي من المصادر التاريخية، إلا صاحب هذه الرسائل، الذي يبدو أنه تعمد ذكر هذا الأمر حتى يعطي الحاكم الشرعية عند اليهود والنصارى لا أكثر، ولذلك نعتقد أنه لم يجر أصلا، فقد ذكرنا سابقا في سياق حديثنا عن علاقة المستعلية بأهل الذمة أن الحاكم بأمر الله كان يضطهدهم كثيرا، ويفرض عليهم لباسا معينا وأماكن معينة يمشون فيها، وهو ما اضطر الكثير منهم إلى الفرار خارج مصر[3]، فكيف بعد هذا الاضطهاد يأتينا صاحب هذه الرسائل ويقول بأن أهل الذمة التقوا الحاكم وأمنهم على أنفسهم ليكلمهم في أمر دينهم.

---

[1] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ج1، ص 37.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص 39-40. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج 2 ص 772 – 773.

[3] تقي الدين المقريزي: الخطط، ج1، ص 351. الأنطاكي: نفس المصدر السابق، ص 282-283.

وفي الرسالة الموسومة بالمسيحية يتوجه كاتبها وهو بهاء الدين السموقي للنصارى، بكل أنواع السباب والشتائم، لأنهم لا يعملون بوصية المسيح ، ولا يحذرون من المسيح الضال الكذوب، ولا يقرون بالمسيح الحق الذي ظهرت علاماته في جميع أنحاء العالم، ويقصد بالمسيح الحقيقي حمزة بن علي، وليس المسيح الذي يعتقدونه في عيسى بن مريم، ويكذب دعوى أن المسيح لا يظهر إلا عند النصارى كما يعتقدونه هم، بل سيظهر للعالم كله، فيقول: (إن عقولهم تصور لهم أن السيد المسيح لا يظهر إلا عندهم، ولا ينتظر مجيئه سواهم، مع أن المسيح سيظهر للعالم كله والسيد – أي حمزة – قد عرف أن ظهوره لخلاص الأمم من الخطيئة، فتنبهوا أيها الجهلة من مراقد الغفلة، وارجعوا إلى الحق مع أولياء السيد قبل انقضاء المهلة، فقد دارت الأدوار وظهر توحيد الأب من حيث العالم)[1] .

وأما الرسالة الثالثة الموسومة (القسطنطينية)[2] والتي أرسلت إلى قسطنطين الثامن إمبراطور الروم (961-1028م)، فقد حملت توددا وتقربيا من النصارى أراد من خلالها كاتبها وهو بهاء الدين، أن يكسب حب البيزنطيين وكنيستهم فوصف كبار رجال الكنيسة بالقديسين، وأوضح لهم مكامن التقارب بين العقيدة الدرزية والمسيحية، حتى انه قال لهم بأن الفار قليط[3] الذي أعلن عن قدومه المسيح عيسى بن مريم هو نفسه حمزة بن علي، وأن على المسيحيين أن يؤمنوا بأن حمزة وديانة التوحيد التي دعا إليها هو الفار قليط، الذي أعلن عن مجيئه المسيح، ثم يعطيهم تأويلات لبعض من آيات الكتاب المقدس والتي تنطبق تماما مع يعتقده الدروز في عقيدة التوحيد[4].

ولما لم ينل بهاء الدين من رسالته الثالثة إلى ملك بيزنطة شيئا، كتب رسالة أخرى سماها (التعقب والافتقاد لأداء ما بقي علينا من هدم شريعة النصارى الفسقة الأضداد)[5] إلى ميخائيل إمبراطور الروم عام (425هـ/1034م)، عنّف فيها النصارى ووصفهم بأقذع الأوصاف، سبب ذلك على ما يبدو هو عدم حصوله على مراده من رسالة التودد الأولى التي أرسلها إلى الإمبراطور

---

[1] حمزة بن علي وآخرون: المصدر السابق، ج2، ص 400. عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج2 ص773- 774.

[2] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ج2، ص 382.

[3] الفار قليط: هو محمد، وهو أحد أصحاب النواميس (نوح وإبراهيم وموسى)، الذين ظهروا قبل السيد المسيح. أنظر حمزة بن علي وآخرون: رسائل الحكمة، ج2، ص 386.

[4] عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج 2، ص 796.

[5] حمزة بن علي وآخرون: نفس المصدر السابق، ج2، ص 417.

السابق قسطنطين الثامن، وتدهور العلاقات الواضح بين الطائفتين، فقد اشتكى بهاء الدين من الاضطهاد الذي مارسه البيزنطيون على دعاة التوحيد[1].

والدروز يعتقدون أن المسيح الذي صلب ، هو (المسيح الكذب) ابن يوسف النجار ، وهذا ما ورد في (رسالة السؤال والجواب).

س: وكيف الإنجيل الذي عند النصارى، وماذا تقول عنه ؟

ج: الإنجيل حق، من قول السيد المسيح الذي هو سلمان الفارسي في دور محمد، وهو حمزة بن علي، والمسيح الكذب هو الذي ولد من مريم لأنه ابن يوسف النجار.

س: وأين كان المسيح الحق لما كان المسيح الكذاب مع التلاميذ ؟

ج: كان معه من جملة تلاميذه، وكان ينطق بالإنجيل، وكان يعلم المسيح ابن يوسف ويقول له: اعمل ما هو كذا أو كذا، حسب مرسوم دين النصرانية، وكان يسمع منه كل قوله، ولما خالف قول السيد المسيح الحق ألقي في قلب اليهود بغضه فصلبوه .

س: وكيف صار بعد الصلب ؟

ج: وضعوه في قبر وجاء المسيح الحق وسرقه من القبر، وطمره في البستان، وقال للناس: إن المسيح قام من الموتى .

س: ومن الذي قام من القبر، ودخل للتلاميذ والأبواب مغلقة ؟

ج: المسيح الحي الذي لا يموت، وهو حمزة، عبد مولانا ومملوكه[2].

ومما سبق يظهر لنا أن الدروز إنما كتبوا رسائلهم تلك سواء من أجل التقريب بينهم وبين النصارى أو التي حملت تقريعا في حقهم، كل ذلك لأجل إيهام الناس أن حمزة بن علي هو المسيح، وكل هدفهم من ذلك هو توسيع دائرة المؤمنين بهم، فقد رأينا كيف أنهم ينتسبون إلى الإسلام عند المسلمين وينتسبون للمسيحية عند النصارى، وإذا رأوا نفورا وإعراضا من هؤلاء تحولوا

---

[1] عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج 2، ص 795-796.

[2] محمد أحمد الخطيب: عقيدة الدروز (عرض ونقد)، رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض)، إشراف الأستاذ زيد بن عبد العزيز الفياض، د-س-ن، ص 258.

عليهم وكتبوا في حقهم رسائل السباب والشتم والطعن في الدين وما إلى غير ذلك، وكل هذا دليل واضح على سوء معتقدهم الذي لن يؤمن به إلا أمثالهم من رعاع الناس.

ب- عسكريا

لم يصلنا من تاريخ العلاقات بين الدروز والصليبيين خلال القرنين الخامس والسادس هجريين، إلا النزر اليسير ولعل السبب في ذلك هو ضعف الدروز وتشتتهم في أنحاء كثيرة من أرض الشام مثلهم مثل إخوانهم النصيريين، وهو ما جعلهم ينأون بأنفسهم عن الصراع السياسي في بلاد الشام، فاكتفوا بجبالهم ومارسوا حياتهم العادية هناك لا يهتمون لغيرها، لكن هناك من المؤرخين من أشار إلى بعض الاحتكاك بين الدروز والصليبين، وإن كان في حالات نادرة جدا، فمثلا أشار أغلب مؤرخي ذلك العصر إلى ما حدث بين بعض القيادات الدرزية والصليبيين من حروب لكنهم لم يشيروا إلى أن هذه القيادات هي درزية، ولو أننا لم نعتمد على مؤلّف الدرزي طنوس الشدياق المسمى أخبار الأعيان في جبل لبنان، ما كنا لنكتشف شيئا من العلاقات بين الطرفين، وعليه فإننا سنعرج الآن على ما وجدناه عن تاريخ هذه العلاقات بناء على ما ورد في هذا المؤلّف.

وكانت العلاقات بين الدروز والصليبيين قد تباينت بين العداء أحيانا والتوافق أحيانا أخرى، غير أن العدائية كانت أكثر، ذلك أن الأسر العربية التي تبنت المذهب الدرزي ببلاد الشام لم يرقها أن ترى الوجود الصليبي يعيث خلال بلاد الشام، ولذلك كانت كثيرا ما تواجهه بحملات عسكرية قوية تنتهي بخسائر فادحة في حق الصليبيين ومن أمثلة ذلك نذكر:

ب-1- المواجهة العسكرية المباشرة

أشرنا سابقا إلى أن العديد من الأسر العربية ببلاد الشام تبنت المذهب الدرزي كمعتقد ديني، ومن هذه الأسر نذكر الأسرة الأرسلانية، والأسرة التنوخية والأسرة الشهابية، وقد لعبت هذه الأسر الثلاث دورا كبيرا في مواجهة العدوان الصليبي على بلاد الشام، ففي سنة (493هـ/1090م) أرسل الأمير الأرسلاني عضد الدولة شمس المعالي أبي المحاسن إلى نهر الكلب مجموعة من الرجال يكمنون للأمير الفرنجي بلدوين (Baudouin) أخي جودفري (Godefroy) ملك بيت المقدس، غير أنه باغتهم وظفر بهم، وواصل طريقه باتجاه بيت

المقدس[1]، ثم عاود الأمير عضد الدولة في السنة الموالية الكرة وأرسل عددا كبيرا من الرجال لاعتراض طريق الأمير الصليبي ريموند، عند نهر الكلب، غير أنهم انهزموا أمامه مرة أخرى، والسبب في ذلك هو أنه الأمير الصليبي كان قد تلقى دعما من مملكة بيت المقدس استغلها في قلب الموازين لصالحه[2].

أدت هذه الهزيمة بالأمير الأرسلاني عضد الدولة إلى التراجع ناحية بيروت، واستقر بها، ولما سمع به شمس الملوك دقاق ملك دمشق، أرسل إليه يوليه إمارة صيدا وبيروت معا، وأوصاه بالحفاظ على المدينتين فاستقر على ذلك[3].

وكان من نتيجة هذا العداء بين عضد الدولة والصليبيين، أن سار ملك بيت المقدس بلدوين سنة (503هـ/1110م)، إلى بيروت يريد السيطرة عليها فحاصرها وضيق عليها برا وبحرا، لكنه عجز عن تملكها، فراسل بلدوين بعض السكان المحليين من المتنصرين وبعضا من الفرنج المقيمين على السواحل، فأنجدوه، وسار بهم ناحية وادي التيم فقتل به خلقا كثيرا من العامة والأمراء، وأسر عددا آخر[4]، ثم سار إلى بيروت وضيق عليها الحصار مرة أخرى إلى أن دخلها عنوة بعد شهرين من الحصار، وقتل بها خلقا كثيرا بما فيهم أميرها عضد الدولة علي، وفي اليوم الموالي قام بقتل كل الأسرى، وخرج باتجاه مدينة صيدا للسيطرة عليها، وكان عليها الأمير مجد الدولة محمد بن عدي، إذ لما طال عليهم الحصار قرر تسليم المدينة صلحا، وخرج باتجاه وادي التيم واستقر به بعد أن رمم خرابه[5].

ب-1-أ- الأسرة التنوخية

عملت الأسرة التنوخية هي الأخرى على مناهضة الصليبيين كلما سنحت الفرصة لذلك، ففي سنة (546هـ/1151م) جرت بينها وبين الصليبيين معركة عسكرية كبيرة في مكان يدعى "رأس التينة"، انتهت بانهزام ساحق للصليبيين وقتل منهم خلق كثير وفر الباقي منهم إلى المناطق

---

[1] طنوس الشدياق: نفس المصدر السابق، ج2، ص 506.

[2] المصدر نفسه.

[3] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 506.

[4] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 507.

[5] المصدر نفسه.

المجاورة، واستمر أمير هذه الأسرة المدعو أبو العشائر على سياسته العدائية للصليبيين إلى أن وافته المنية سنة (552هـ/1157م)[1].

تولى إمارة الأسرة التنوخية بعد وفاة الأمير أبي العشائر، كرامة بن بحتر ولقب بزهرة الدولة سنة (555هـ/1160م)، وقد كان هذا الأخير على وفاق مع نور الدين محمود، وفي عداء تام مع الصليبيين[2]، واستمر على سياسته هذه إلى أن توفي تاركا وراءه أربعة أبناء، شايع الثلاثة الكبار منهم الفرنج وماتوا بحيلة منهم، بينما شايع أصغرهم المدعو حجي صلاح الدين وأقره على ما كان بيد أبيه من قبل وطيب خاطره بذلك، جزاء صدقه ووفائه للسلطان[3].

وأما الصليبيون فإنهم لما انتهوا من الأبناء الثلاثة، ساروا باتجاه حصن عرمون، وكان عليه الأمير التنوخي عرف الدولة علي بن بحتر، والتقى الطرفان في معركة ضارية انتهت بانتصار الأمير على الفرنج، ولما علم به الملك الصالح بن نور الدين محمود راسله يهنئه على نصره، ويقره على إمارة الغرب كما كانت لأسلافه من قبل[4].

ب-1-ب- الأسرة الشهابية

لعبت هذه الأسرة دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي عصر الحروب الصليبية، وسبب ذلك أنه لما وقعت الوحشة بين نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، مال الأمراء الشهابيون إلى صلاح الدين لما وفد على بلاد الشام، وساعدوه على محاربة الإفرنج، حتى أنه كان يقدم الكثير منهم في جيشه، ولا ندري سبب إقدام صلاح الدين على ذلك، لكن يبدو أنه افتعل ذلك لاقتناعه بقوتهم وشجاعتهم رغم الاختلاف المذهبي الواضح بين الفريقين[5].

ولما ارتحلوا سنة (569هـ/1173م) من إقليم حوران باتجاه صحراء الجسر اليعقوبي[6]، قرر الصليبيون المقيمون بحاصبيا مهاجمتهم معتقدين أن الأمر سهلا خاصة وأن هؤلاء الدروز كانوا قد فروا من الصراع الدائر بين نور الدين محمود وصلاح الدين، وربما يكون الصليبيون قد اعتقدوا أن

[1] المصدر نفسه، ج1، ص 217.
[2] المصدر نفسه، ص 218.
[3] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 508.
[4] الشدياق، نفس المصدر السابق، ج2، ص 508.
[5] المصدر نفسه، ص 37.
[6] طنوس الشدياق: نفس المصدر السابق، ج1، ص 37.

الشهابيين لن يجدوا من يدعمهم ما داموا بعيدين عن القوتين السابقتين، فساروا إليهم تحت زعامة قنطورا (الكونت دوريا)[1]، وجرت بين الطرفين معاركة طاحنة انتهت بانتصار الشهابيين، رغم قلتهم فقد كان عددهم خمسة عشر ألفا، بينما بلغ عدد القوات الصليبية أكثر من خمسين ألفا وأُسر عدد كبير من الصليبيين، بينما فر الكونت دوريا ومن معه إلى قلعة حاصبيا، وحاصرهم الشهابيون مدة عشرة أيام، ثم تملكوا القلعة بالسيف، وقتلوا الكونت دوريا وأتباعه، وأرسلت رؤوسهم إلى نور الدين محمود، فاغتبط لذلك، وأقر الشهابيين على ما هم عليه[2].

ولما توفي نور الدين محمود أرسل صلاح الدين الأيوبي إلى الأمير منقذ الشهابي يهنئه على نصره ضد الفرنج، وخلع عليه وأقره على البلاد التي افتتحها من الصليبيين، ولأجل ذلك راسله صاحب قلعة الشقيف الإفرنجي المدعو "ذفاتر" يطلب الصلح فقبل منه الأمير منقذ، ثم تلقى الأخير التهاني من إخوانه المعنيين (أسرة معن) أصحاب قلعة الشوف، على إنجازه ضد الإفرنج، ويطلب من الدخول في طاعته، فقبل منه ذلك[3].

ب-2- تحالف الدروز مع الصليبيين

لم تكن العلاقات الدرزية مع الصليبيين على اختلاف دائم، فقد سجلت كتب التاريخ بعضا من صيغ التفاهم والتحالف بينهما، وإن كانت في حالات نادرة جدا، إلا أنها كانت موجودة، فالدروز كانوا يعمدون إلى سياسة المهادنة والمداهنة عندما يشعرون أنهم ضعفاء لا يستطيعون الرد على أنفسهم، ولذلك كانت أكثر فترات تحالفهم مع الصليبيين في الأيام الأولى لمجيء الصليبيين إذ أنه لم تكن هناك قوة عسكرية كبيرة تحميهم إن هم رفضوا الرضوخ لهم، غير أنهم غيروا نظرتهم إلى الصليبيين في قادم الوقت، لما لمع نجم الجهاد الإسلامي على عهد نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، ففي هذه الفترة كانت مواقف الدروز من الصليبيين عدائية، ومن صيغ التحالف الذي جرى بين الطرفين نذكر:

ففي عام (495هـ/1102م) ولى شمس الملوك دقاق ملك دمشق عضد الدولة التنوخي على مدينة صيدا، وأمره بتحصين مدينتي صيدا وبيروت، فحصنهما ثم أرسل الأمير مجد الدولة

[1] ماكس أوبنهايم: نفس المرجع السابق، ص 70-71.
[2] طنوس الشدياق، نفس المصدر السابق، ج1، ص 38.
[3] المصدر نفسه، ج1، ص 38.

محمد بن عدي إلى صيدا لينوب عنه فيها، فظل بها إلى أن سقطت بيد الصليبيين عام (504هـ1111م)، فخرج منها وصالحهم عليها بالأمان[1].

استمر الأمراء الدروز على هذا الحال في علاقاتهم مع الصليبيين بين مصالحة معهم ومساعدة لهم بما يحتاجون إليه من متطلبات الحرب في أحيان أخرى، ولم ير منهم عكس ذلك، فهاهو الأمير التنوخي بحتر بن شرف الدولة علي، يهادن الصليبيين تمهيدا لتسليمهم منطقة الغرب، وبالفعل سقطت منطقته بيد الصليبيين نتيجة هذه المهادنة[2]، وبعد وفاة الأمير بحتر ورثه ابنه زهر الدولة أبو العز كرامة، هذا الأخير الذي غير من سياسة أجداده الذين تواطؤوا مع الصليبيين، ليعلن هذا الأخير مساندته لنور الدين محمود الذي كان يجتهد في توحيد البلاد الإسلامية ضد الوجود الصليبي، ويذكر المؤرخ نديم حمزة في كتابه التنوخيون أجداد الموحدين الدروز، أن زهر الدولة لم يكن ليساند نور الدين محمود لو لم يكن مضطرا لذلك، ويستنتج إلى أن هذا الأخير كان قبل دخوله في طاعة نور الدين متواطئا مع الصليبيين[3].

يبدو من قول نديم حمزة الأخير عن متقلب التنوخيين في الوقوف إلى جانب القوي، أن هؤلاء لم يكونوا على قوة تسمح لهم بمواجهة أي من القوى المتصارعة، ولذلك فإنهم اجتهدوا في الحفاظ على كيانهم ولو كان ذلك بالتحالف مع أعداء الإسلام، وبالتالي يمكننا القول بأن نواياهم في خدمة الإسلام والبلاد الإسلامية ما هي إلا ذريعة يتذرعون بها أمام العالم الإسلامي وما هذه الخيانات إلا دليل على ما نقول.

ونظرة فاحصة لمجمل تاريخ الدروز في الحروب الصليبية تبين لنا أن كل أيامهم كانت إلى جانب الصليبيين، بحيث التزموا معهم جانب السلم حفاظا على أنفسهم وفي أحيان أخرى على إقطاعاتهم، وكل ما يحسب لهم في التاريخ الإسلامي هو ما قام به زهرة الدولة أبو العز كرامة الذي أعلن ولاءه لنور الدين محمود وهو يجابه بقواته جموع الصليبيين.

---

[1] إبراهيم العيد شيخ: نفس المرجع السابق، ص 259.

[2] المرجع نفسه، ص 259.

[3] إبراهيم العيد شيخ: نفس المرجع السابق، ص 259.

الفصل الخامس:

أثر الحركات الباطنية على العالم الإسلامي

المبحث الأول: الآثار السياسية

المبحث الثاني: الآثار الدينية

المبحث الثالث: الآثار الاجتماعية

المبحث الرابع: الآثار العسكرية

ولد التصادم بين الحركات الباطنية المسلمين السنة آثار كبيرة كانت أغلبها سلبية على أهل السنة، وشملت مختلف الميادين السياسية والدينية والاجتماعية، واستمر هذا التأثر طيلة التجاور الباطني السني، لكنه كان أكثر حضورا أيام الاحتلال الصليبي لبلاد الشام وتهديده لمصر، حيث انشغل أهل السنة بجهاد الصليبيين، ولم يكن بمقدورهم فتح جبهات عدائية ثانية، وهو ما لم ينظر بمثله الباطنية، لأنهم كثيرا ما رأوا في الوجود الصليبي دعما لهم، ومنقذا لهم في أحيان أخرى، وفيما يلي سنعطي بعض الأمثلة على صيغ التأثير الباطني على العالم الإسلامي.

المبحث الأول: الآثار السياسية

1- تصفية رجال السياسة

أثرت الحركات الباطنية في العالم الإسلامي تأثيرا بالغا، وخاصة حركتي النزارية والمستعلية، وكان للنزارية الأثر الأكبر في ذلك، فقد عملت هذه الأخيرة على تصفية الشخصيات الإسلامية وخاصة السنة منها، ولم يسلم منهم أي شخص يرون فيه تهديدا لهم سواء كان رجل دين أو سياسة، وتميز عهد النزارية أغلبه بالرعب وعدم الثقة حتى أن كثيرا من الشخصيات السنية لم يكونوا يعلمون حقيقة حتى أكثر المقربين منهم وهو ما حدث لصلاح الدين الأيوبي، ونحاول الآن أن نعطي لمحة عن أهم الشخصيات التي تعرضت للتصفية الجسدية من طرف الحركات الباطنية المذكورة:

أ- تصفية الخلفاء

اجتهدت الباطنية وخاصة النزارية منها في تصفية كل من يقف في طريقها مهما كان وزنه ولذلك قاموا باغتيال الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة (529هـ/1135م)، وكان ذلك عندما سار هذا الأخير لتصفية خلاف مع السلطان مسعود بن ملكشاه ابن أخي السلطان سنجر، فقد كان الخليفة المسترشد قد عين مسعود على كرسي السلطنة، واستغل مسعود منصبه ليقوم بأعمال لم ترق للخليفة، فأرسل إليه يطلب منه أن يعود عنها، لكنه أبى ذلك، واجتهد الخليفة في تصفية الخلاف بكل الطرق مع مسعود وديا، لكن الأمر لم ينجح معه، ولما أدرك الخليفة أن السلطان لن يرتدع عن مساوئه، سار إليه على رأس جيش وفي نيته تأديبه بالقوة، وجرت بين الطرفين معركة انهزم فيها الخليفة المسترشد، ووقع في الأسر[1].

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 396.

ورغم أن الخليفة كان قد أعلن عن سوء نواياه ضد مسعود بأن قرر قتله، إلا أن مسعود لم يشأ أن يعامل الخليفة معاملة قاسية، فاجتهد في تكريمه، بأن جعل له خيمة خاصة، وأوكل إليه من يخدمه، لكن يبدو أن مسعود لم يدرس إمكانية أن يتعرض الخليفة للأذى عندما جعل خيمته التي وضعه فيها منفصلة عن بقية خيام العسكر، فكانت أقل حماية من الأعداء وخاصة الباطنية، وكان بالإمكان أن يدخلوا إليها بسهولة، خصوصا وأنه معروف عنهم بأنهم يستطيعون الدخول حتى إلى الأماكن الأكثر حراسة.

فدخل عليه مجموعة من الباطنية قيل بأنهم يتجاوزون العشرة نفر، وقاموا بقتله، ثم نكلوا بجثته، بحيث قطعوا أنفه وأذنيه وتركوه مجردا من ثيابه رفقة مجموعة من خدامه في ذلك اليوم، ولم يتمكن هؤلاء الباطنية من الفرار إذ سرعان ما تم القبض عليهم واعدموا جميعا، ثم أحرقت جثثهم[1]، ولم تذكر المصادر انه كان يتحرش بالباطنية من قبل، بل ذكر عنه انه كان عالما بأمور الدين والاختلافات المذهبية ولعل ذلك ما ذكره ابن القلانسي بقوله: ((كان عالما تقيا فاضلا، حسن الخط بليغا نافذا في أكثر العلوم، عارفا بالفتوى واختلاف الفقهاء فيها))[2].

ولم يتوقف الباطنية عند حد قتل الخليفة المسترشد، رغم ما يمثله منصب الخليفة لدى العالم الإسلامي كونه منصب روحي قبل آن يكون سياسيا، فعمدوا بعده مباشرة على قتل ابنه الذي خلفه على كرسي الخلافة، وهو الخليفة الراشد، وكان مقتله في أصبهان في السابع والعشرين من شهر رمضان عام (532هـ/1137م) ودفن هناك بأصبهان[3].

لم يتوقف الباطنية عند حد قتل الخلفاء السنة، بل امتدت أيديهم إلى إخوانهم المستعلية، وقتلوا خليفتهم الآمر بأحكام الله سنة (524هـ/1130م) بالقاهرة، على يد مجموعة من عشرة أشخاص وقد اعتبروا ذلك ثأرا لمقتل خليفتهم الحقيقي المغتصب حقه في خلافة الشيعة، وهو نزار

---

[1] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 178-177. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 283.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 397.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 419. ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تح: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة (بغداد)، د-س-ن، ص 55. الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 53.

بن المستنصر بالله، وقد ذكر عنه أنه كان شديد الكراهية للباطنية النزارية، حتى أنه خلع على من أتاه برأس بهرام داعي النزارية ببلاد الشام[1].

ب- تصفية الأمراء والسلاطين

اشتهر عن الباطنية النزارية أنهم كانوا لا يسمحون لأي شخص أن يقف في سبيل طموحاتهم، ولذلك كان أكثر ضحاياهم هم من المسلمين السنة، فقد عرف عن الأمراء والسلاطين السنة أنهم لا يداهنون أعداءهم وخاصة من الباطنية، ولذلك كان لزاما على الباطنية أن يقفوا في وجه كل من يهددهم، ولذلك جاء تاريخهم دمويا كثيرا في حق الأمراء والسلاطين السنة ومن هؤلاء نذكر:

ففي شهر رمضان عام (488هـ/1095م) تعرض السلطان السلجوقي بركياروق، لمحاولة اغتيال فاشلة على يد أحد الباطنية، بحيث قام هذا الباطنية بطعن السلطان لكن طعنته لم تكن قاتلة، فقبض عليه، وتم استنطاقه فأقر على مجموعة من أعوانه، وقتلوا فيما بعد جميعا[2]، ولم تتوقف محاولات الباطنية في قتل بركياروق لوحده، فاغتالوا سنة (490هـ/1097م) أرعش النظامي بالري[3]، ثم اغتالوا الأمير برسق في نفس السنة، وهو من أصحاب الزعيم السلجوقي طغرلبك[4].

ورغم أن القادة المسلمين كانوا كثيرا ما يحتاطون من هجمات الباطنية، بأساليب مختلفة كلبس الدروع واختيار الحرس والخدم من الموثوقين، إلا أن هجمات الباطنية ضدهم لم تتوقف، وكان الباطنيون يتحينون الفرص، بل عرف عنهم أنهم يصبرون لأجل تنفيذ المهمة الشهور بل والأعوام، حتى أذا لاحت لهم الفرصة استغلوها في لمح البصر، ففي أواخر رمضان من عام (493هـ/1100م) اغتال الباطنية رئيس شحنة أصبهان الأمير بلكابك سرمز، رغم احتياطاته المفرطة من الباطنية، فقد تعود على التدرع دوما، حتى انه كان لا ينزع درعه إلا عند نومه، ورغم

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 255. المقريزي: اتعاظ الحنفا: ج3، ص 128. برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124. عبد الرحمن بدوي: مذهب الإسلاميين، ج2، ص 367.

[2] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 128.

[3] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 210.

[4] المصدر نفسه.

ذلك فقد قتل على يد الباطنية عند أول فرصة أتيحت لهم، وكان ذلك عندما نزع درعه للاستراحة، فوثبوا عليه وقتلوه[1] .

واغتال الباطنية أيضا قائدا كبيرا من قادة المسلمين وهو الأمير مودود بن زنكي صاحب الموصل سنة (507هـ/1113م)، وكان ذلك بجامع دمشق، فقد ذكر عنه أنه لما فرغ من جهاده ضد الصليبيين رفقة مجموعة أخرى من القادة وهم سكمان القطبي صاحب تبريز[2]، وأحمديل صاحب مراغة، والأمير إيلغازي صاحب ماردين[3]، وكان قد حقق مجموعة من الانتصارات على الصليبيين ثم أذن لأصحابه بأن يستريحوا حتى موعد الربيع ليواصلوا جهادهم، فدخل ليصلي الجمعة كما ذكرنا آنفا، فاقترب منه باطني في هيئة سائل ثم غرز سكينة بيده في قلبه فخر قتيلا، ورغم محاولة أصحابه له بأن يفطر إلا أنه أصر أن يموت على حاله، حتى يلقى ربه على ما هو عليه[4] .

ولم يعرف عن سبب قتله من يد الباطنية، إذ أنه لم يذكر عنه أنه كان عدائيا ضدهم، ولا أنه توعدهم، لكن هناك بعض المصادر تعزو سبب قتله إلى أنهم تخوفوا منه فقتلوه، وهو قول ابن الأثير: ((إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وبعد مقتل الأمير مودود جاء كتاب من الفرنج إلى المسلمين فيه: إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها)) [5]

ثم اغتال الباطنية في الأول من المحرم عام (510هـ/1116م)، الأمير أحمديل بن إبراهيم، وكان ذلك في دار السلطان السلجوقي ببغداد، فقد اقترب منه سائل يطلب حاجة منه، فقربه أحمديل إليه، ولم يشعر بسوء نواياه فقام بطعنه، لكن لم يستطع قتله، ثم اقترب باطني آخر وطعنه عدة طعنات وقبض عليهما، ثم جاء باطني ثالث، وتمكن من قتله أخيرا[6].

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 30. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 136.

[2] تبريز: من أشهر مدن أذربيجان وهي قصبتها، وهي مدينة حصينة ذات أسوار محكمة. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 13.

[3] ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل بالجزيرة. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 39 القزويني: نفس المصدر السابق، ص 259.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 187.

[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 149. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 151. ابن العبري: نفس المصدر السابق، ص 346-347.

[6] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 162. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 315.

وبمقتله خسرت الأمة الإسلامية آنذاك رجلا كبيرا، عرف بجهاده ضد الصليبيين، وله عليهم وقعات كثيرة، وكان ملازما لمودود في غزواته ضد الإفرنج، ولعل ما يلاحظ على طريقة مقتل كل من مودود وأحمديل يكتشف أن كلا الرجلين كانا قريبين من الرعية، وملازمين لهم، فقد رأينا أنهما قتلا بنفس الطريقة، وهو تقرب الباطنيين منهم على أساس أنهم يطلبون حاجات لهم، ولما يجدوا في الأميرين استجابة لهم ينقضون عليه غدرا فيفتكون بهم.

هذا واغتال الباطنية أيضا قائدا آخر من القادة المسلمين الذين شهد لهم التاريخ أنهم أدوا ما عليهم في جهادهم ضد الصليبيين، وضد كل من يسيء للإسلام، وهو قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل سنة (520هـ/1126م)، ولم يكن مقتله في معركة ضدهم، وإنما كان غدرا بالمسجد، فقد قتل وهو يصلي صلاة الجمعة، وكان قد عرف عن قسيم الدولة أنه رجل جهاد بأتم معنى الكلمة بحيث واجه الصليبيين في وقعات عديدة، وله عليهم انتصارات كثيرة[1].

وجاء في رواية ذكرها مؤرخون عدة أنه قبل موته رأى في ما يرى النائم، أن مجموعة من الكلاب كانت قد هاجمته، فقضى على بعضها بينما استطاعت أخرى أن تتمكن منه لكثرتها، ولما أصبح صباح الجمعة قص على أصحابه رؤياه فنصحوه بألا يخرج للصلاة في ذلك اليوم والأيام التي تليها لكنه أبى ذلك، وقال بأنه لن يتأخر عن صلاة الجمعة مهما كانت الظروف، ولما دخل المسجد أخذ مكانه في الصف الأول على عادته، وهو يفتتح المصحف وقعت عينه على قوله تعالى ((وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا))[2] ، وبينما هو على حاله إذ وثب عليه مجموعة من الباطنية بعدد الكلاب التي رآها، وقتلوه غدرا، وبموته فقدت الأمة الإسلامية رجلا عظيما كان سيفا على الباطنية والصليبيين على حد وصف ابن العديم[3].

وامتدت أيدي الباطنية النزارية أيضا إلى رجل آخر من خدام الإسلام سنة (524هـ/1130م)، واسمه نصر خان بن محمد خان، وكان قد تولى إمارة سمرقند بأمر من

---

[1] عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المرجع السابق، ص 77.

[2] سورة الأحزاب: الآية 38.

[3] ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 429. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 236. النويري: نفس المصدر السابق، ج27، ص 16-17. ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج9، ص 254 (ذكر أنه قتل سنة 519هـ)، وكذلك ذكره بن كثير في البداية والنهاية أنه قتل خلال هذه السنة وليست السنة الموالية لها. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 167.. ابن العبري: نفس المصدر السابق، ص 352.

السلطان السلجوقي سنجر، فقتله أحد الباطنية بمعاونة رئيس الشرطة في سمرقند، ولما علم والده بذلك عظم عليه الأمر، واستجاش معه ابنه الثاني الذي في بلاد التركستان فحضر، ثم توجها إلى سمرقند فلما قاربا على المدينة خرج العلوي ورئيس الشرطة لاستقباله، فهجم على العلوي وقتله في الحال وقبض على رئيس الشرطة[1].

وفي يوم الخميس 05جمادى الآخرة (525هـ/1131م)، وثب مجموعة من الباطنية على تاج الملوك بوري صاحب دمشق، وضربوه بالسكاكين لكنهم لم يستطيعوا قتله، وكان هؤلاء الباطنية من المقربين منه، فقد أرسلوا من مقر القيادة بآلموت، من أجل الانتقام لإخوانهم الذين قتلهم تاج الملوك في دمشق، وكان تاج الملوك كما أشرنا إلى ذلك سابقا، قد نادى بقتل الباطنية وعلى رأسهم الوزير المزدقاني بعد أن عاثوا فسادا في المدينة، وبعد أن تواطؤا سرا مع الصليبيين من أجل تقديم المدينة لهم[2].

لم يستطع الباطنيان اللذان طعنا تاج الملوك من قتله، لكنهما قتلا دونه، وتذكر المصادر أن سبب نجاته منهم، هو أنه كان راكبا فرسه فلما طعن تماسك حتى لا يسقط، ولما تجمع حوله حرسه ارتمى على الأرض بين أجناده، فاحتمى بهم، بينما تم الإحاطة بالباطنيين، وقبض عليهما فقتلا، بينما شفي هو بعد أن عولج لأيام[3].

وإذا كان الباطنية قد عجزوا عن قتل تاج الملوك سنة (525هـ/1131م)، فإنهم استطاعوا بعدها بأربع سنوات أن يقضوا على ابنه شمس الملوك إسماعيل سنة (529هـ/1135م)، وقد ذكر عنه أنه كان شديدا على الصليبيين وعلى الباطنية[4]، وهو ما جعل الباطنية تقدم على قتله، فهم لا يقتلون إلا من يرون فيه مهددا لهم [5].

وفي سنة (534هـ/1139م) قام الباطنية في مدينة الري باغتيال المقرب جوهر، وهو أحد خدم سنجر السلجوقي، وقد حدث أن اعترضه جماعة من الباطنية في هيئة نسوة يستغثن به،

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 253.

[2] المصدر نفسه. محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، ص 283.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 365-366. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 253.، أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 5.

[4] الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 30-31.

[5] ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص 148.

فتوقف عندهم يسمع منهم لكنهم غدروا بهم كعادتهم وقتلوه ونتيجة لذلك ثار عليهم أحد مماليكه وهو المدعو عباس، وقصد الباطنية فقتل منهم الكثير، وظل على حاله يغزوهم كلما رأى منهم ما يسوء إلى أن مات[1]، كما قاموا في شهر رمضان من عام (538هـ/1143م) بقتل السلطان داود بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، على يد مجموعة من الباطنية، ثم فروا إلى وجهة مجهولة[2].

وعمل الباطنية أيضا على محاولة تصفية القائد صلاح الدين الأيوبي، وكانت المحاولة الأولى سنة (570هـ/1174م) عندما عمل صلاح الدين على توحيد بلاد الشام كلها تحت راية واحدة من أجل التصدي للصليبيين، ونتيجة لذلك شعر الباطنية أنهم مهددون بعمل صلاح الدين فعملوا على التخلص منه، بأن أرسلوا إليه مجموعة من الفدائيين لاغتياله، لما كان محاصرا لحلب التابعة للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، لكنهم عجزوا عن الوصول إليه، ويعود الفضل في نجاته إلى أحد أمراء جيشه المدعو خمارتكين، فقد عرفهم هذا الأخير لأنه كان قد عاشرهم من قبل، فسألهم عن سبب وجودهم هناك فهجموا عليه، وجرحوه ولم يتمكنوا من الوصول إلى صلاح الدين، الذي كان محاطا بعدد من الحرس، فقتلوا كل الباطنية الذين حضروا لقتله[3].

ثم حاولوا مرة ثانية اغتيال صلاح الدين لما كان محاصرا لقلعة إعزاز، فهجم عليه رجل من الباطنية وضربه على رأسه لكنه لم يتمكن من اغتياله، كونه كان محتميا بالمغفر تحت القلنسوة، واستمر ذلك الباطني يضرب وصلاح الدين ممسك به، فكان ضربه ضعيفا إلى أن قتل على يد أصحاب صلاح الدين، ثم هجم باطني ثاني على صلاح الدين فقتل وجاء ثالث قتل، بينما فر الرابع بعد أن رأى أصحابه يقتلون فتبعه الجنود وقتلوه[4].

ومن ضحايا الباطنية أيضا رجل يدعى أبو صالح بن العجمي وهو من أعيان مدينة حلب، قتله الباطنية سنة (573هـ/1178م) قتل الباطنية أحد أعيان مدينة حلب، وكان من المقربين من

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 315. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 258. أبو الفدا نفس المصدر السابق، ج3، ص 15.

[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 258. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 15.

[3] يوسف إبراهيم الشيخ عيد: نفس المرجع السابق، ص 200. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 57. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج5، ص 300.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 44-45. الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 85.

نور الدين محمود، فلما مات هذا الأخير صار أبو صالح مقدما في دولة إسماعيل الصالح بن نور الدين محمود، قتله الباطنية وهو يصلي في جامع حلب الكبير[1].

ت- تصفية الوزراء

لم يتوقف النشاط الإجرامي للباطنية عند حد الأمراء والسلاطين والخلفاء، بل إنهم كذلك كثيرا ما قاموا بتصفية الوزراء الذين رأوا فيهم تهديدا لمشاريعهم، ونتيجة لذلك راح ضحيتهم العديد من الوزراء العظام، وخصوصا الذين تبنوا راية الجهاد ضد الصليبيين وضد الباطنية، وكان أول الوزراء الذين راحوا ضحية لعمليات الباطنية هو الوزير السلجوقي نظام الملك شهر ربيع الأول من عام (485هـ/1092م)، عندما خرج في زيارة لولايات الدولة في بلاد فارس، وفي طريق عودته إلى بغداد العاصمة اقترب منه صبي ديلمي يدعى أبو طاهر الآراني في صورة مستغيث، وطعنه بسكين أردته قتيلا وكان ذلك في شهر رمضان، ثم قبض على الباطني وقتل من فوره[2].

وبمقتله خسر العالم الإسلامي رجلا كبيرا خدم الإسلام والمسلمين، وقد عرف عنه أنه كان شديد العداء ضد الباطنية، فقد قام هذا الأخير بالتصدي لهم بكل الطرق، واشتهر عنه انه قام ببناء المدارس النظامية التي تدرس الشريعة الإسلامية على منهج السنة النبوية الصحيحة، واختار لها أشهر العلماء والمحدثين، وكان يهدف من وراء ذلك التصدي للفكر الباطني الذي انتشر بشكل كبير في أوساط العالم الإسلامي، وكان جزاؤه أن قتل على أيدي الباطنية كما ذكرنا .

وبعد مدة وجيزة عمل الباطنية على تصفية وزير سلجوقي آخر في منتصف شهر صفر من عام (495هـ/1101م) وهو الأعز أبو المحاسن عبد الجليل بن محمد الدهستاني كان السلطان بركياروق قد استوزره على أصبهان، قتله الباطنية لما كان رفقة السلطان محاصرين لأصبهان، تقدم إليه شاب باطني وطعنه عدة طعنات أودت بحياته، ورغم أنه كان مع مجموعة من الأصحاب إلا أنهم فروا وتركوه يواجه مصيره مع ذلك الباطني[3].

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 85.

[2] ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص09، أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج1، ص 35. ابن العديم: بغية الطلب، ص 86-87. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 192.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 50. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 167.

واغتال الباطنية أيضا الابن الأكبر لنظام الملك، واسمه فخر الملك أبو المظفر، وكان وزيرا للسلطان السلجوقي سنجر بنيسابور، وقتل وهو صائم على يد متظلم باطني كان قد اقترب إليه يطلب منه قضاء حاجة له، واغتالوا أيضا خلف بن ملاعب صاحب أفامية بحيلة اعملوها له وصدقهم في فيها، وكان ذلك عندما تقرب منه باطنيان يحملان أمتعة إفرنجية وفرسا وبغلة، وقالوا له بأنهما لقيا فارسا إفرنجيا فقتلاه واستوليا على ما يملك فجازاهما بتقريبهما منه، وما شعر بهم إلا وهم ينقبون الجدار بيتهن وقتلوه[1].

وحاول الباطنية أيضا أن يغتالوا الوزير أبا نصر بن الوزير نظام الملك، وكان ذلك عندما خرج للصلاة فوثب عليه جماعة من الباطنية وطعنوه عدة طعنات لكنها لم تكن قاتلة، وفر الباطنية لكنهم وقعوا في الأسر ثم قتلوا عندما وشى بهم صديق لهم، وهو تحت تأثير المخدر، بينما عولج الوزير وشفي من جراحاته، وكان قد حدث ذلك في شعبان من عام (503هـ/1109م)[2].

وقتل الباطنية وزيرا آخر من وزراء السلاجقة يدعى الكمال أبو طالب السيرمي، كان قد استوزر للسلطان السلجوقي محمود، تم قتله أثناء زيارته لهمذان سنة (516هـ/1122م)، وفي مكان ضيق سار أصحابه أمامه فاسحين له المجال حتى يأتي بعدهم في راحة، لكنه تعرض هناك لطعنات من مجموعة من الباطنية أودت بحياته، وذبح بعدها ونكل بجثته، وكان أصحابه قد تركوه يصارع جراحه وتوجهوا هم لمطاردة الباطني الذي طعنه، وبينما هم كذلك إذ وثب عليه باطنيان آخران وفعلا به ما فعلا ولم يتم القبض على قاتليه بينما قبض على باطنيان آخران كان حاضرين في عملية الاغتيال فقتلا نكاية في زملائهما[3].

وممن قتل من الوزراء على يد الباطنية معين الملك أبو نصر أحمد بن الفضل وزير السلطان السلجوقي سنجر سنة (521هـ/1127م)، وكان ذلك على يد باطني يخدم عنده في إسطبل حيواناته، وفي غفلة منه كان الوزير يوما يتفقد دوابه، إلى أن تقرب منه ذلك الباطني وطعنه طعنات عدة انتهت بوفاته، وقد ذكر عنه أنه كان رجلا سويا له أعمال في مواجهة الباطنية والصليبيين،

[1] ابن العديم: نفس المصدر السابق، ص 493. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 242.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 137. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 147.

[3] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 164. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 328.

ولذلك عمل الباطنية على تصفيته حتى لا يهدم مشاريعهم فقضوا عليه، وبمقتله فقد العالم الإسلامي رجلا كبيرا[1].

واغتال الباطنية أيضا الوزير عضد الدولة أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[2] سنة (573هـ/1168م)، اقترب منه ثلاثة من الباطنية في صورة مستغيثين، وهو في طريقه إلى الحج، فطعنه الأول منهم طعنة لم تكن قاتلة، ثم طعنه الثاني، ووصل ثالثهم وفعل ما فعل أصحابه، ولم يصل إليه المنجدون إلا وهو ميت، وجرح على إثر هذه الحادثة مجموعة ممن كانوا في موكبه، ثم قبض على الباطنيين وقتلوا جميعا[3].

ومن الوزراء الذين طالتهم أيدي الباطنية أيضا، الوزير الفاطمي الأفضل بن بد الجمالي، فقد تم اغتياله سنة(515هـ/1121م)[4]، على يد ثلاثة فدائيين أرسلوا إليه من حلب[5]، ثأرا منه لعزل خليفتهم نزار من الخلافة، وكان قد أحدث فتنة داخل الإسماعيلية عندما غير ولاية العهد من الابن الأكبر وهو نزار إلى الابن الأصغر للخليفة وهو المستعلي، وهو ما أدى إلى انقسام الإسماعيلية إلى قسمين، ظلا متفرقين ومختلفين طوال فترة عهدهما.

هذا واغتال الباطنية المستعلية في مصر الوزير الفاطمي العادل بن السلار[6] سنة (548هـ/1153م)، إذ وثب عليه ربيبه نصر بن عباس الصنهاجي، وهو نائم وكان ذلك بتدبير

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 344. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 244. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 226.

[2] المستضيء بأمر الله: وهو الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله، ولد سنة ست وثلاثين وخمس مائة، بويع بالخلافة يوم وفاة أبيه في ثامن ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مائة، توفي شهر شوال سنة خمس وسبعين وخمس مائة. أنظر جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص 349-352.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 88. شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام ومشاهير الوفيات الأعيان، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت- لبنان)، ط1 (1417هـ/1996م)، ج40، ص18.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص207.محمد سهيل طقوش: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، دار النفائس (بيروت)، ط1، (1435هـ/2014م)، ص 227.

[5] ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ص 222. برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 124.

[6] العادل بن السلار: وهو الملك العادل علي بن السلار الكردي ثم المصري، وزير الظافر، أقبل من ولاية الإسكندرية إلى القاهرة ليأخذ الوزارة بالقهر، فدخل وحكم...فقتل ابن مصال سنة أربع وأربعين، وكان بن السلار سنيا شافعيا شجاعا مقداما... لكنه جبار عنيد، ظالم شديد، صعب المراس، وكان زوج أم عباس بن باديس، فقتله نصر بن عباس هذا على فراشه بالقاهرة في المحرم، وولي عباس الملك. أنظر ابن العماد الحنبلي: نفس المصدر السابق، ج6، ص 246.

من الخليفة الفاطمي الظافر، وقد كان هذا الأخير كاره لهذا الوزير الذي وصل إلى كرسي الوزارة بالقوة ((كل ذلك والظافر منحرف عنه، كاره له، مضمر له الشر، فعمل على قتله...))[1]، وأكثر من ذلك هو على مذهب أهل السنة على حد تعبير أسامة بن منقذ الذي كان قد عاشره وقاتل معه أيام إقامته بمصر[2].

وقد ذكر ابن الأثير أن مقتل الوزير بن السلار، كان بتدبير من أسامة بن منقذ نفسه[3]، وهو ما لم يلمح إليه أسامة في معرض حديثه عن الحادثة، ولا ندري سبب إقدامه على هذا التدبير علما أنه كان على مذهب أهل السنة كما أقر بذلك، كما أنه كان مقربا منه لدرجة أنه قد وضعه في بيته ((ودخل ابن السلار القاهرة، ودخل دار الوزارة، واتفق الجند على طاعته، وأحسن إليهم، وأمر أن أبيت أنا وأصحابي في داره، وأفرد لي موضعا في الدار أكون فيه))[4]، وحتى ابن الأثير لم يذكر سبب تدبير أسامة هذه المكيدة لابن السلار، وكل ما جاء في كلامه ((في هذه السنة (548هـ/1153م)، قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله، قتله ربيبه عباس بن أبي الفتوح بن يحي الصنهاجي، أشار إليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ، ووافق عليه الخليفة الظافر بالله...))[5].

وعلى كل حال فقد أدى مقتل هذا الوزير إلى تدهور الوضع في مصر، وكثرت الفتن ((واختلفت الأهواء في مصر فتمكن الفرنج من عسقلان))[6]، لأنها تعد بوابة مصر من الجهة الشرقية، وكانت صامدة أمام الهجمات الصليبية على مدار نصف قرن كامل[7]، وقد فتح سقوطها الباب لهجمات الصليبيين على مصر فيما بعد، حتى كادت أن تسقط بأيديهم لو لم تتدخل القوة السنية ممثلة في القوة النورية، وأبعدت الخطر عنها.

---

[1] أسامة بن منقذ الكناني الشيزري: الاعتبار (مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية)، تح: عبد الكريم الأشتر، دار المكتب الإسلام (بيروت)، ط2 (1424هـ/2003م)، ص 61.

[2] أسامة بن منقذ: نفس المصدر السابق، ص 59.

[3] ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 389.

[4] أسامة بن منقذ: نفس المصدر السابق، ص 59.

[5] ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 389.

[6] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 27. ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 389.

[7] محمد عبد الله المقدم: الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، دار العالم العربي (القاهرة)، ط1 (2008م)، 313-314.

2- ظهور مشكلة الوصاية والوراثة

أدت الاغتيالات الباطنية للشخصيات السياسية إلى ظهور مشاكل سياسية متعددة أبرزها مشكلة الوراثة والوصاية في أحيان أخرى، وكانت هذه الظاهرة منتشرة بين كل الأسر الحاكمة، لكنها كانت أكثر انتشارا في الجانب الإسلامي من الجانب الصليبي، ذلك أن الصليبيين كانت لهم من القوانين والأعراف ما يسهل انتقال السلطة من طرف إلى آخر بشكل سلس دون اللجوء إلى العنف، في حين لم يكن ذلك متوفرا عند المسلمين إلا في حالات نادرة جدا، ولأجل ذلك ظهرت هذه المشكلة، وفي كثير من الأحيان أدت بالدولة إلى الزوال، أو إدخالها في أتون الحرب الأهلية، وفيما يأتي سنعطي أمثلة على بعض تلك الحالات التي جرت في العالم الإسلامي، وحتى الصليبي الذي يكون له علاقة بالجانب الإسلامي.

أ- في الجانب الإسلامي

في سنة (497هـ/1104م) اغتيل حاكم دمشق دقاق بن تتش، وكان سيخلفه ابنه تتش، لكن يدا خارجية تدخلت في الموضوع ممثلة في شخص طغتكين، وخلعت تتش هذا، وجعلت في مكانه عمه الأصغر أرتاش بن تتش، ويبدو أن طغتكين كان يسعى من خلال هذا التدخل أن يتحكم في زمام الأمور بدلا من أرتاش، وما كان ليقوم بمثل هذا في حياة دقاق، وقد كان من تبعات هذا التدخل أن فر أرتاش من إمارته بعد أن شعر أن طغتكين يضمر في نفسه أمرا، ويبدو أنه تخوف من تحكم طغتكين في رقبته، فتركها له[1]، وبالفعل تحكم بها طغتكين في ظل عدم وجود قوة سلجوقية كبيرة تردعه، وكانت النتيجة النهائية لهذا التدخل هو خضوع دمشق لحكم جديد غير الذي كان عليها من قبل، والذي سيكون له كبير الأثر عليها فيما بعد.

عانت أسرة طغتكين من مشكل الوصاية مثلما عانى السلاجقة قبلهم، وذاقت من نفس الكأس التي سقتهم بها، فبمجرد أن توفي طغتكين، حتى ظهر مشكل الوراثة بين أبنائه، واستغل أطراف خارجيون الوضع ليعملوا بهم ما يخدم مصالحهم، ذلك أن الوزير الباطني المزدقاني قام بفرض الوصاية على تاج الملوك بوري، حتى أنه لم يعد بإمكانه التنفس إلى بأمر الوزير، ولم يجد بدا منه، خاصة وان هذا الوزير كان على علاقة متينة بالنزارية في دمشق وبأميرهم هناك أبو الوفاء[2]،

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 145.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 250.

لكنه لم يدم طويلا إذ سرعان ما تفطن بوري لهذا الخطر، فقام بتصفية المزدقاني[1]، ونادى بقتل الباطنية في دمشق كما ذكرنا ذلك سابقا.

ومن مظاهر الوصاية التي فرضت على الأمراء، ما حدث للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي، فبعد ممات والده استبد به سعد الدين كمشتكين، واستغل صغر سنه ليفعل به ما تمليه عليه مصالحه، فقام بمراسلة زعيم الباطنية راشد الدين سنان باسم الملك الصالح إسماعيل، يطلب منه مساعدة في القضاء على الوزير بن العجمي ومساعديه، وكان له ذلك إذ لبى له راشد الدين سنان طلبه، وأرسل مجموعة من الفدائيين لتنفيذ المهمة، فقتلوا الوزير وكان ذلك سنة (573هـ/1177م)[2].

أدت هذه الحادثة إلى ثورة في دولة الملك الصالح، إذ لما أدرك كبار الدولة حقيقة الكتاب الذي أرسله كمشتكين، وأنه مزور باسم الملك الصالح، قرروا أن يثوروا ضدهم، وكانوا قد حملوا عليه من قبل عديد التجاوزات، فأخبروا الملك الصالح بحقيقة الكتاب، وأن ما قام به كمشتكين، هو من قبيل تحقيق المصلحة الشخصية لا أكثر، وأوغروا صدره بضرورة التخلص منه لأنه لا يليق به كملك أن يترك مملوكا لأبيه أن يتصرف فيه بتلك الطريقة، فقالوا له ((أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر))[3]، ونتيجة لذلك تحرك الملك الصالح، وقام بعزل كمشتكين من الساحة، وسلبه كافة الصلاحيات[4].

3- الآثار الإيجابية

أ- تصفية القادة الصليبيين

تبين لنا مما سبق أن كل ما قام به الباطنية من اغتيالات في العالم الإسلامي كانت له آثار سلبية، إلا أنهم كانوا قد تركوا أثرا إيجابيا على العالم الإسلامي بعض الحالات وهي قليلة جدا، فمثلا مما يحسب للباطنية على العالم الإسلامي أنهم قاموا سنة (547هـ/1152م)، باغتيال ريموند الثاني أمير طرابلس، وكان ذلك بإيعاز من زوجته هوديرن (hodierne)، ابنة بلدوين

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 223. محمد عبد الله المقدم: نفس المرجع السابق، ص 293.

[2] ابن العديم: زبدة الحلب، ص375.

[3] ابن واصل: نفس المصدر السابق، ج2، ص 63.

[4] محمد عبد الله المقدم: نفس المرجع السابق، ص 296.

الثاني وذلك لكثرة الخلافات بينهما، فكانوا بذلك قد أسدوا معروفا نور الدين محمود، بأن خلصوه من أحد أكبر خصومه دون مواجهة مباشرة معه[1].

ومن آثارهم التي نعتقد أنها إيجابية أيضا هو أنهم خلصوا العالم الإسلام من شخصيتين كبيرتين كانت لهما جولات في مواجهة العالم السني، وهما الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي سنة (515هـ/1121م) [2]، الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، والذي تم اغتياله سنة (524هـ/1130م)[3]، وكان قد عرف عنه أنه شديد على أهل السنة، وأنه كان متغاليا في التشيع، إضافة إلى ذلك كان الباطنية قد خلصوا العالم الإسلامي من شخصية شيعية أخرى لعبت دورا كبيرا في ضياع مدن كثيرة من العالم الإسلامي، فقد تم اغتياله هو الآخر نتيجة حقده على النزارية وحرمانهم من الجلوس على كرسي الخلافة، كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

وكتعقيب على هذه الأعمال التي تركت أثرا إيجابيا في العالم الإسلامي فإننا إحقاقا للحق، نقول بأن الباطنية لم يفعلوا ذلك حبا في العالم الإسلامي السني، وإنما فعلوه خدمة لمصالحهم، فلو أنهم كانوا يريدون خدمة العالم الإسلامي لما فعلوا ما فعلوه به من اغتيالات تفوق كل وصف، فقد ركزوا جهودهم ضد كل الشخصيات الإسلامية السنية، التي تشكل تهديدا مباشرا لهم، فقاموا باغتيالات كثيرة في حقهم، ولذلك فإننا نقول بأن اغتيالهم لأعداء الإسلام الذين ذكرناهم كان لأجل مصالحهم الشخصية لا غير.

---

[1] عبد اللطيف عبد الهادي السيد: نفس المرجع السابق، ص 85.

[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 323. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 81.

[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 171. ابن ميسر: أخبار مصر، ص 110.

المبحث الثاني: الآثار الدينية

01- إفساد العقيدة الصحيحة

كان لظهور الحركات الباطنية بالعالم الإسلامي كبير الأثر في إفساد المعتقد عند أغلب المناطق التي انتشرت بها، وقد كانت هذه المناطق إلى وقت قريب تدين بمعتقد السنة الصحيح وهي في وحدة من أمرها على الأقل من جانب المعتقد، لكن وبمجرد أن ظهرت هذه الحركات ونشطت في داخل جسم الدولة الإسلامية حتى تفرق أمر المسلمين، وطمع فيهم الأعداء من النصارى وحتى الملاحدة، ومن المناطق التي خرجت من طوع السنة ودخلت في حوزة الباطنية نذكر:

أ- مصر وجنوب بلاد الشام

أ-1- مصر

منذ أن استقر عبيد الله بإفريقية حتى راح يوجه نظره إلى مصر، فقد كان يريد إقامة خلافة علوية تضم جميع بلدان العالم الإسلامي، ويبدو ذلك جليا في رسالة أرسلها إلى القرامطة جاء فيها: ((أنا أحلف أيها المؤمنون بأجلّ ما يحلف به، أن فيما تلقيته مما أطلعنا الله عليه من غيبه الذي استأثر به، وآثر بعلمه أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا يحزنون أنه لا بد وأن تحل ولايتنا خضراء بني أمية بالشام، وزوراء بني العباس بالعراق ويكون لنا من الخلفاء مثل ما كان لبني أمية في العدد))[1].

كانت رغبة عبيد الله السيطرة على مصر، ومن بعدها بلاد الشام، ثم الخلافة العباسية[2] كبيرة، ولذلك قام بتوجيه أول حملة عسكرية إلى مصر في(301-302هـ/914-915م)، غير أنها فشلت، ثم أتبعها بحملة أخرى عام(306-309هـ/919-921م)، وفشلت هي الأخرى[3]، ثم توقفت بعدها الحملات فترة بسبب الفتن الداخلية، لتعود أثناء خلافة القائم، لكنها لم تحقق

[1] المقريزي تقي الدين: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، (1991م)، ج4، ص 570.

[2] جمال الدين عبد الله محمد: الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب، وانتقالها إلى مصر، إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة (القاهرة)، (1411هـ/1991م)، ص93.

[3] المراكشي بن عذارى: المصدر السابق، ج01، ص 171.

مبتغاها[1]، غير أنها أفلحت أخيرا في عهد المعز لدين الله، الذي أرسل حملة جديدة إلى مصر بقيادة جوهر الصقلي[2] في(14ربيع الآخر358هـ/969م) وتمكنت من السيطرة على الإسكندرية[3].

ولما رأى سكان مصر ضعفهم وقوة خصمهم، قرروا الدخول في المفاوضات، تجنبا لحرب غير متكافئة، وبعد مباحثات بين الطرفين تقرر إعطاء الأمان للمصريين، مقابل السماح للجيش الفاطمي بالعبور إلى الفسطاط، وهو ما حدث[4]، وهناك وضع أساس مدينة القاهرة[5] وفي يوم الجمعة(20شعبان358هـ/969م) صلى جوهر الصقلي في الجامع العتيق، صلاة الجمعة، وقطعت الخطبة للعباسيين، وأقيمت للفاطميين[6]، وظل جوهر في مصر يحكم بالنيابة عن المعز، إلى أن تمكن هذا الأخير من ترتيب أموره ببلاد المغرب، ثم انتقل إلى مصر، في (07 رمضان 362هـ/973م)، ومنذ ذلك الحين أضحت مصر دار الحكم الفاطمي، وغدت القاهرة عاصمة لها بدلا من المنصورية في إفريقية[7].

أ-2- جنوب الشام

بعد أن تمكن الفاطميون من السيطرة على مصر، قرروا التوجه إلى الشرق للسيطرة على بلاد الشام، وذلك لتأمين مصر من غزوات القرامطة، ولتوسيع رقعة دولتهم خاصة على حساب الخلافة العباسية، في خطوة أخرى للقضاء عليها نهائيا إن تيسر لهم الأمر، ولذلك جهز جوهر الصقلي، منذ مطلع عام (358هـ/969م)، جيشا كثيفا وأرسله إلى بلاد الشام تحت قيادة مساعده الكتامي

---

[1] الكندي محمد بن يوسف: تاريخ ولاة مصر، مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت) ، (1407هـ/1987م)، ص305-307.

[2] جوهر الصقلي: هو جوهر بن عبد الله القائد أبو الحسين الصقلبي، الرومي، الكاتب مولى المعز لدين الله أبي تميم معد وفاتح مصر...، أنظر المقفى الكبير: لتقي الدين المقريزي، ج3، ص84.

[3] يوسف بن الوكيل الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الشمشتاوي، دار الآفاق العربية (القاهرة)، (1419هـ/1999م)، ص 55-56. ابن عبد الظاهر محي الدين أبو الفضل عبد الله: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حققه وعلق عليه أيمن فؤاد السيد، مكتبة الدار العربية (القاهرة) (1417هـ/1996م)، ص 13.

[4] جلال عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1 (1387هـ/1967م)، ج2، ص 11.

[5] ابن عبد الظاهر: نفس المصدر السابق، ص 14.

[6] المقريزي: اتعظ الحنفا، ج1، ص 114-116.

[7] سيمينوفا.ل.أ : تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق حسين بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1 (2001)، ص 39.

جعفر بن فلاح[1]، حيث تمكن من الاستيلاء على الرملة[2]، ثم طبرية[3] في (رجب359هـ/970م)[4]، (رجب359هـ/970م)[4]، ثم واصل زحفه باتجاه دمشق[5]، التي وصلها في (ذي الحجة359هـ/970م)، ودخلها بعد معركة دامية مع سكانها، وصلى بجامعها في (محرم360هـ/970م)[6]، ثم حذف اسم الخليفة العباسي المطيع[7] وأقامها للمعز[8]، وبذلك تم الاستيلاء على جنوب بلاد الشام.

ثم إن أتباعه عاملوا السكان معاملة قاسية، فثاروا عليه بعد أن تحالفوا مع القرامطة و بني بويه والحمدانيين[9]، وبعد معركة دامية تمكنوا من هزيمته وقتله في شهر(ذي القعدة 360هـ/971م).

ب- الحجاز واليمن

ب-1- الحجاز

لم يتوقف الفاطميون عند هذا الحد من احتلال أراضي الدولة العباسية وتحويل معتقدها من الإسلام السني الصحيح إلى معتقد الباطنية، بل توجهوا جنوبا إلى أرض الحجاز واليمن،

---

[1] جعفر بن فلاح الكتامي: هو أبو الفضل جعفر بن فلاح الكتامي، من قبيلة كتامة المغربية، كان له دور مشهود في مصر، والشام، في عهد الحكم بأمر لله...، ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، (1990)، ص 14.

[2] الرملة: هي إلى ثمانية فراسخ من قيسارية، وهي مدينة كبيرة بها سور حصين من الحجر والجص، مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد، ومنها إلى شاطئ البحر ثلاثة فراسخ، (حوالي 20كلم)...، أنظر ناصر خسرو علوي: نفس المصدر السابق، ص 65.

[3] طبرية: على بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر فرسخا (حوالي 58 كلم)، في عرض فرسخين، أو ثلاثة، بها عيون جارية حارة...، أنظر أبو القاسم بن حوقل النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة (بيروت)، ط1 (1992م)، ج1، ص 173.

[4] المقريزي: نفس المصدر السابق، ص123.

[5] دمشق: هي أجل مدينة بالشام في أرض مستوية، قد دحيت بين جبال تحتف بها إلى مياه كثيرة، وأشجار وزروع قد أحاطت بها...، أنظر ابن حوقل: نفس المصدر السابق، ج1، ص174.

[6] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج7، ص 362.

[7] الخليفة العباسي المطيع: هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد، أمه أم ولد، ولد سنة إحدى وثلاثمائة، وبويع له بالخلافة بعد خلع المستكفي، في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة... أنظر تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار بن حزم، (1424هـ/2003م)، ص 315.

[8] سرور محمد جمال الدين: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس هجريين، دار الفكر العربي (القاهرة)، د-ط، ص 19.

[9] أيمن سيد فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر (تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية (1413هـ/1992م)، ص 85-86.

وعملوا جاهدين على السيطرة عليهما، ولذلك عمل المعز لدين الله الفاطمي جاهدا للسيطرة على الحجاز أولا، فقد كان يرى بأن من تقام له الخطبة في مكة والمدينة يكون قد تملك العالم الإسلامي[1]، وكانت أرض الحجاز تحت سلطان العباسيين، واستطاع سنة (348هـ/958م)، أن يدخلها تحت سلطانه، فصار يدعى له على منابرها، وفرضت العقيدة الباطنية على الحجازيين[2].

ورغم أن العباسيين استطاعوا إعادة الخطبة لهم بعد عام واحد[3] إلا أنهم لم يحافظوا عليها وعادت مرة أخرى إلى سلطة الفاطميين سنة (363هـ/974م)، وكان ذلك عن طريق تحريض القبائل العربية للثورة على حجاج العراق، وهو ما اضطر حكام الحجاز للرضوخ لأوامر المعز لدين الله الفاطمي[4]، ورغم أن أهل الحجاز كانوا ينقلبون على الحكم الفاطمي كلما سنحت لهم الفرصة الفرصة لا أنهم لم يتحرروا نهائيا منهن كون أن الحكام الفاطميون كانوا يستعملون القوة دوما لإعادتهم إلى سلطانهم وإلى معتقدهم، ولعل ذلك ما فعله معهم الخليفة الفاطمي العزيز، عندما ثار عليه أهل الحجاز وقطعوا خطبته، بحيث أرسل إليهم جيشا، أعاد به الدعوة له بالقوة[5].

استمر الصراع بين العباسيين والفاطميين على أرض الحجاز، فيمن يتولى زعامتها، لكن الفاطميين كانوا الأقدر على تملكها، رغم رفض العامة من الناس لمذهبهم، إلا أن القائمين على السلطة في الحجاز، كانوا يعتقدون في قوة الفاطميين درعا يحميهم من غوائل القرامطة، ولذلك أصروا على ولائهم للفاطميين، واستمروا على ذلك طيلة خلفاء الدولة الفاطمية الأقوياء، لكنهم قطعوها على عهد المستنصر بالله الفاطمي سنة (462هـ/1070م)، فقد عجز هذا الأخير عن تقديم الدعم المادي لأشراف الحجاز، وهو ما جعلهم ينفرون منه، وينزلون تحت طوع العباسيين الذين أغدقوا عليهم بالأموال[6].

وظلت الأوضاع في منطقة الحجاز على ما هي عليه تارة للعباسيين، وأخرى للفاطميين، لكن غلب عليها الوجود الفاطمي الذي دام ما يفوق القرن من الزمان، عاشه أهل الحجاز تحت

---

[1] محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين، ص 231.
[2] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج1، ص 101.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج7، ص 323.
[4] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 140-141.
[5] عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر السابق، ج 4، ص65.
[6] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 375.

سلطة الباطنية الجائرة، يتمذهبون بالإسماعيلية رغما عنهم، ولعل السبب في ذلك هو رغبة أمراء مكة في البقاء على كرسي الإمارة، فقد رأينا كيف أنهم كانوا يرضخون لمن يدفع أكثر، أو لمن له أكبر قوة عسكرية، ولا يهم بما يدعو أهلهم للسنة أو للتشيع.

ب-2- اليمن

استطاع الفاطميون في وقت قصير أن يستولوا على أقاليم واسعة كانت تحت سلطان العباسيين وتدين بمذهب السنة الصحيح، ولم يتبق لها في شبه جزيرة العرب سوى اليمن وما يليه من ناحية الشرق، ولذلك عملوا جاهدين لكي يدخلوه هو الآخر تحت سلطانهم، لكنه كان بعيدا عليهم جغرافيا، ورغم ذلك لم يهملوه.

دخل اليمن تحت سلطان الفاطميين طواعية بدءا من سنة (453هـ/1061م) كتب علي بن محمد الصليحي إلى المستنصر العبيدي صاحب مصر يستأذنه في إظهار الدعوة له في اليمن فأذن له بذلك وخطب الصليحي في اليمن باسم الإمام الإسماعيلي المستنصر واستمر علي بن محمد في فتوحاته حتى دخل مكة المكرمة وضم إليه إقليم الحجاز بكامله واستعد للمسير إلى العراق وانتزاعه من أيدي العباسيين ولم تمض سنة (455هـ/1063م) إلا وقد استولى علي بن محمد الصليحي على كامل اليمن[1].

واستمرت دعوة الفاطميين باليمن طيلة عهود الصليحيين، إلى أن توفي الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، عنها انفصل اليمنيون عن الفاطميين سياسيا بينما ظلوا على معتقد الإسماعيلية الباطنية، فقد رفضوا قبول خلافة ابن عم الحافظ لدين الله، الذي لم يخلف ولدا ذكرا يتولى الخلافة بعده، على رأي الفاطميين في مصر، بينما اختلق أهل اليمن قصة مفادها أن الآمر خلف امرأة حاملا ولدت طفلا ذكرا، وهو من يتولى الخلافة بعد أبيه[2]، ورغم أن أغلب المصادر تشي إلى أن هذه خرافة لا يقبلها، عقل إلا أن الصليحيين، أضفوا عليها نوعا من الصدقية، واتخذوا هذا الطفل خليفة يتبعونه.

---

[1] اليماني يحي بن الحسين: نفس المصدر السابق، ج1، ص 253-254. عمارة اليمني: نفس المصدر السابق، 118-119. عبد الواسع بن يحي الواسعي اليماني: تاريخ اليمن المسمى (فُرجة الهموم والحزَن في حوادث وتاريخ اليمن)، المطبعة السلفية (القاهرة)، ط1 (1346هـ)، ص 172.

[2] محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص 50.

ونعتقد أن اختلاق هذه القصة مفادها أن أهل اليمن كانوا يبحثون عن الاستقلالية عن الفاطميين، ولذلك أدرجوا هذه القصة التي لم يؤمن بها أقرب المقربين من السلطة الفاطمية، ونتج عن ذلك أن انفصل الصليحيون عن الفاطميين سياسيا، لكنهم ظلوا على معتقدهم الباطني.

ت- شمال بلاد الشام والعراق

ت-1- شمال بلاد الشام

ظل شمال بلاد الشام عصيا على الفاطميين رغم محاولاتهم المتكررة، ولم يتمكنوا من مدنه إلا على أجزاء يسيرة، لكنها خرجت من طوعهم بسرعة، ومثال ذلك دمشق التي احتلها الفاطميون شهر (محرم360هـ/970م)[1]، لكنها عادت إلى حاضرة السنة بعد أن استعادها السلاجقة، ومع ظهور الإسماعيلية النزارية خرجت مدن أخرى في شمال بلاد الشام من حاضرة السنة ودخلت تحت معتقد الباطنية النزارية، ومن أمثلة ذلك حصن أفامية وحلب، وسرمين والجزر وجبل السماق وبانياس وقلعة العليقة وقلعة المرقب وحصن القدموس، وقلعة الكهف، ثم حصن الخريبة سنة (531هـ/1136م).

دانت كل هذه القلاع والحصون لمعتقد الباطنية النزارية الفاسد، وكانت قبل ذلك تدين بمذهب السنة، وتعيش في رغد من أمرها، ويبدو أن سبب اعتقاد هذه القلاع والحصون لمذهب الباطنية لم يكن عن رغبة نفسية، وإنما تخوفا من غدرات النزارية التي انتهجت أسلوب التقتيل في حق كل من يرفض مذهبها، وقد نتج عن كل هذا أن تفرق أمر الشام في أغلبه بين الباطنية النزارية في شماله، والباطنية المستعلية في جنوبه، والباطنية الدروز والنصيرية في وسطه، ولم يبق لأهل السنة إلا أماكن محدودة جدا في شماله كما ذكرنا ذلك آنفا.

ت-2 - العراق

رغم أن العراق كان معقل الخلافة العباسية ومركزها، وموطن قوتها لان العاصمة كانت به، إلا أنه لم يسلم هو الآخر من دعوة البواطن، وصار مذهب الإسماعيلية يدعى به جهارا في مدن العراق، وكان الحاكم بأمر الله قد استمال إليه قراوش بن المقلد أمير بني عقيل، المسيطر على الموصل، فخرج على طاعة الخليفة العباسي القادر في عام (401هـ/1010م)، وقام بنشر الدعوة

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج7، ص 362.

الفاطمية في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة وأقامها للخليفة الحاكم الفاطمي[1].

واستطاع الفاطميون بفضل دعاتهم، أن يقضوا على الخلافة العباسية وينهوها من الوجود لمدة سنة كاملة، فقد ذكر الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته، أنه أيد ثورة أبي الحارث أرسلان البساسيري، الذي ثار على الخليفة العباسي، ومستعينا بالأموال والذخائر التي أمده بها الوزير الفاطمي اليازوري[2]، واستطاع البساسيري أن يستولي على بغداد، ويقيم الخطبة بها للمستنصر الفاطمي لمدة عام سنة (450هـ/1058م)[3].

وكان أول من أيده ودعا لصاحب مصر هم أهل الكرخ[4]، وألزم البساسيري الخليفة العباسي القائم بأمر الله بكتابة كتاب أشهد عليه العدول ((بأنه لا حق لبني العباس، ولا له من جملتهم في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء عليهم السلام))، وأرسل الكتاب إلى خليفة مصر المستنصر وظل الكتاب هناك مدة طويلة إلى أن أعاده صلاح الدين الأيوبي إلى العباسيين بعد سيطرته على مصر[5].

ولو أن الفاطميين اهتموا بالبساسيري وقدموا له الدعم بعد نجاحه في إنهاء الخلافة العباسية، لزال الوجود السني من المشرق الإسلامي، ولأصبح يدعى بمذهب الباطنية في جل مساجد العالم الإسلامي، لكن سوء الأوضاع الداخلية في مصر، وفطنة السلاجقة وغيرتهم على

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 63.

[2] المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي: نفس المصدر السابق، ص 100-101. ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 80. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج04، ص 26-27.ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 15-17-21. ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، ص 195. المقريزي: الخطط، ج01، ص 335.

[3] المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي: نفس المصدر السابق، ص 178-180. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 87-90. ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج08، ص 191-197. ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ص 67-69، ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 439-445-.640- 645. ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص18-19.سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج04، ص 70. ابن خلكان: وفيات الأعيان: نفس المصدر السابق، ج01، ص 191. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، ج01، ص 15. النويري: نفس المصدر السابق، ج23، ص 223.

[4] ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج8، ص 192.

[5] المقريزي: الخطط، ج01، ص 439.

الخلافة العباسية حالا دون بقاء الدعوة الباطنية بالعراق، وسرعان ما أعاد السلاجقة الدعوة لبني العباس بعد سنة من زوالها [1].

ث- في بلاد فارس

خضعت أرض فارس للخلافة العباسية منذ عصورها الأولى، وظلت تدين بمذهب السنة الصحيح مدة من الزمن، لكنها تعرضت لحركات مذهبية شيعية استمرت هي الأخرى وقتا لكنها لم تكن واضحة ولم يدم لها سلطان، إلى أن ظهر على مسرح الأحداث عنصر سني وحد أغلب بلاد فارس تحت سلطان السنة وهم الأتراك السلاجقة[2]، لكن ومع منتصف القرن الخامس الهجري، بدأ نشاط الإسماعيلية النزارية في بلاد فارس تحت زعامة رجل يدعى بن عطاش، ثم خلفه في الدعوة رجل آخر استطاع هذا الأخير أن يتملك أغلب أرض فارس وهو الحسن بن الصباح.

ولعل ما ساعد ابن الصباح على نشر دعوته بسهولة، هو بعد هذه المنطقة عن مقر الخلافة العباسية وصعوبة تضاريسها، ولذلك قام في أول نشاطه بشراء قلعة يقال لها الرودبارد في ناحية الديلم، ثم استولى على قلعة أصبهان التي ابتناها السلطان ملكشاه[3]، واستولى بعدها على مجموعة من القلاع والحصون أهمها قلعة آلموت سنة (483هـ/1090م)[4]، إضافة إلى قرى وقلاع أخرى، ولم تدم مدة طويلة حتى وصلت حدود دولة الباطنية النزارية في بلاد فارس من بحر قزوين شمالا إلى أصفهان وطبس جنوبا، ومن جبال الطالقان شرقا إلى حدود أذربيجان مع الري غربا.

أصبحت أغلب بلاد فارس تخضع للباطنية النزارية، وتدين بمذهب الباطنية بعد أن كانت تدين بمعتقد السنة إلى وقت قريب، ففسد أمرها وأصبح مفروضا عليها أن تعتقد بالباطنية وإلا

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 108.ابن ظافر: نفس المصدر السابق، ص 68-76. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص ص 68-99-100. سبط بن الجوزي: نفس المصدر السابق، ص 179-180 ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 43. الذهبي: العبر، ج3، ص 266. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج04، ص 65. المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 315. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج05، ص 87-101-102.

[2] فرهاد دفتري: الإسماعيليون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامية، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي، ط 01 (2008)، بيروت، ص 148-149.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 315-316. ابن كثير: البداية والنهاية ج12، ص 167. أبو الفدا: المختصر، ج2، ص 214.

[4] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 200. القلقشندي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 120.

سيكون خاتمة أمرها سوءا، وسنرى فيما سيأتي كيف أن النزارية كانوا يفتكون بكل من لا يدين بمذهبهم، حتى أنهم قتلوا قرى بكاملها ذنبها أنها تعتقد بمعتقد السنة الصحيح وتنبذ الباطنية.

تبين لنا مما سبق أن العالم الإسلامي كان إلى غاية منتصف القرن الرابع الهجري، أغلبه أمة واحدة تدين بمذهب السنة الصحيح وتخضع للخلافة العباسية إلا في بعض المناطق المحدودة، لكن أغلب المشرق الإسلامي كان تحت سلطان العباسيين على الأقل من الناحية الروحية، لكن وبظهور الباطنية الإسماعيلية في مصر، حتى ظهر التضعضع في جسم الخلافة العباسية، وفُرض على أقاليمها أن تدين بمعتقد الباطنية الفاسد، وتقلصت مساحتها التي كانت إلى وقت قريب تصل إلى بلاد فارس شمالا واليمن جنوبا والمغرب الإسلامي غربا، كلها تحت مذهب السنة، لتصبح أغلبها تدين بالباطنية رغما عنها ولم يبق من السنة إلا عاصمة الخلافة العباسية، وبعض الأجزاء من بلاد الشام.

وكان من نتيجة هذا التفرق في المذاهب أن أصبح كل طرف يسعى لفرض نفسه على الآخر، ولو اقتضى الأمر التحالف مع الأعداء لتحقيق ذلك[1]، وأضحى بسبب ذلك العالم الإسلامي عرضة للاحتلال النصراني فطمعت فيه الإمبراطورية البيزنطية واحتلت أجزاء من شمال الشام، ثم جاء الصليبيون وسيطروا على ما تبقى من بلاد الشام، وهددوا مصر في عديد المرات.

2- تعطيل حركة الجهاد الإسلامي

لقد كان للنشاط الباطني في العالم الإسلامي أثرا سلبيا جدا على عملية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وذلك بشغل الجبهة الإسلامية المجاهدة عن أداء واجبها الجهادي، وجاء ذلك على عدة أوجه، منها قتل قادة الجهاد، وبالتالي تعطيل الجيوش الإسلامية وبث الفرقة داخلها، وفي أحيان أخرى التحالف مع الأعداء ضد المجاهدين، وفتح جبهات إضافية موازية للجبهات الصليبية ضد الجبهة الإسلامية المجاهدة.

وهنا نحاول أن نعرج على أهم الأعمال التي قام بها الباطنية من أجل عرقلة عمليات الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، فقد قامت الباطنية بمختلف طوائفها وخاصة النزارية والمستعلية منهم، بتصفية أغلب القادة المسلمين الذي اشتهروا بجهادهم ضد الصليبيين، وقد كان تركيزهم على

[1] مثال ذلك تحالف الفاطميين مع الصليبيين ضد السلاجقة كما أشرنا إلى ذلك آنفا، وتحالف النزارية مع الصليبيين أيضا لنفس الغاية.

هؤلاء الأشخاص، لأنهم وكما ذكرنا ذلك سابقا كانوا يهددونهم في وجودهم، فقد عرف عن هؤلاء القادة أنهم كانوا شديدي العداء للباطنية، لأنهم رأوا فيهم عقبة أمام عملية الجهاد، إما لأنهم على معتقد سيء لا يقبل بالجهاد كفرض ديني، وبالتالي لابد من مسالمة الصليبيين والعيش إلى جانبهم أو تحت حكمهم، أو لأنهم يرون في الصليبيين أصدقاء لهم، على اعتقاد أن عدو العدو صديق، فهم أصدقاء لهم ما داموا أعداء للمسلمين السنة.

قام الباطنية باغتيال الأمير مودود بن زنكي صاحب الموصل سنة (507هـ/1113م)، وقد عرف عنه أنه كان من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين، فاغتاله الباطنية دون سبب يذكر، فقط لأنهم تخوفوا منه على حد قول ابن الأثير: ((إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه، وبعد مقتل الأمير مودود جاء كتاب من الفرنج إلى المسلمين فيه: إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها[1])).

ومن قادة الجهاد الإسلامي الذين اغتيلوا على أيدي الباطنية نذكر أيضا الأمير أحمديل بن إبراهيم سنة (510هـ/1116م)، وهو الآخر عرف عنه أنه من المجاهدين ضد الصليبيين، كان لا يفارق مودود في خرجاته الجهادية، كما اغتالوا مجاهدا آخر ضد الصليبين، وهو قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل سنة (520هـ/1126م)، وقد اشتهر عنه أنه كان منافحا عن الإسلام، ورافضا للوجود الصليبي بالبلاد الإسلامية[2].

هذا واغتال الباطنية أيضا قائدا كبيرا من قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وهو شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري سنة (529هـ1135م)، وقد ذكر عنه أنه كان شديدا على الصليبيين وعلى الباطنية[3]، ما جعلهم يغتالونه[4].

ومن قادة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين الذين تعرضوا لمحاولة الاغتيال نذكر القائد الكبير صلاح الدين الأيوبي، فقد حاول الباطنية اغتياله عدة مرات لكنهم لم يفلحوا في ذلك، فقد

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 149-150. ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 151.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 236. وذكر ابن كثير أنه قتل سنة خمس مائة وتسع عشرة. انظر بن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 167.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 389. الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 32. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص 576.

[4] ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص 148.

جرحوه عدة جراحات في المحاولة الأولى سنة (570هـ/1174م)[1]، وجرحوه في المحاولة الثانية أيضا لكنهم لم يقتلوه[2].

ورغم أنهم لم يتمكنوا من اغتياله إلا أنهم أثروا على معنوياته كثيرا، مما اضطره في المحاولة الثانية أن يتوقف عن عملية الجهاد ويتوجه إلى معاقل الباطنية ويحاربهم، ورغم أنه اضطرهم في الأخير أن يطلبوا الرحمة منه، إلا أنهم عرقلوه عن مواصلة جهاده، فضيع وقتا وجهدا كبيرين في مواجهتهم، بدل أن يواجه الصليبيين، أو يوحد البلاد الإسلامية التي كانت على وشك أن تتوحد تحت سلطته[3].

واغتال الباطنية أيضا الوزير معين الملك أبو نصر أحمد بن الفضل وزير السلطان السلجوقي سنجر، وكان هذا الأخير معروفا بجهاده ضد الصليبيين[4].

كان هذا ما قام به النزارية في حق قادة الجهاد الإسلامي، وحقيقة الأمر أن تأثير هم كان كبيرا على عملية الجهاد الإسلامي، فقد قتلوا كبار قادة الجهاد الإسلامي، وكثيرا ما أوقفوا حركة الجهاد بعد هذه الحوادث، لما تمثله هذه القيادات من مكانة روحية لدى المجاهدين المسلمين وبالتالي فمقتلهم أضعف الروح المعنوية للجهاد الإسلامي.

أ- أثر المستعلية في عرقلة الجهاد الإسلامي

ومن جانبها أثرت طائفة المستعلية على سيرورة الحركة الجهادية التي تبنتها بعض الأنظمة السياسية، وكذا بعض القادة المسلمين، بحيث عطلت قوة عسكرية كبيرة كان بالإمكان أن يزج بها في مجابهة الصليبيين، وهي القوة المصرية وما يتبعها من قوى الإمارات الشامية التي كانت خاضعة للحكم الفاطمي عشية العدوان الصليبي، وأكثر من ذلك أنها وقفت بل وتحالفت مع الصليبيين في أحيان كثيرة ضد جهاد السلاجقة.

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 68. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص 57. ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج5، ص 300.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب ج 2، ص 44-45. سبط ابن الجوزي: نفس المصدر السابق، ج21، ص 230. أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج2، ص 350.

[3] محمد سهيل طقوش: تاريخ القرامطة والزنج والحشاشين، ص 277-278.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 324. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 647. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 232.

ومن أوجه عرقلة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين على يد الفاطميين، نذكر: أنهم قد وقفوا إلى جانب الصليبيين لما بدأوا باحتلال الأراضي السلجوقية، وكان ذلك على وجهين هما:

الوجه الأول: عقد تحالف مع الصليبيين، وكان من تأثيرات هذا التحالف أن تفرغ الصليبيون لحرب السلاجقة، وبالتالي تخوف الصليبيين من توحد المسلمين لم يعد موجودا، يضاف إلى ذلك أن الصليبيين كانوا قد استفادوا من دعم مادي قدمه الفاطميون إليهم[1]، استغلوه في حصارهم لبعض مدن الشام وللتخفيف من معاناة الجنود الصليبيين.

الوجه الثاني: استغل الفاطميون فرصة مجيء الصليبيين إلى البلاد الإسلامية لينتقموا من السلاجقة، وكان انتقامهم بالسيطرة على بعض المدن التابعة للسلاجقة، وهي صور[2] وبيت المقدس[3]، ورغم أنها كانت قبل استيلاء السلاجقة عليها تابعة للفاطميين، إلا أنه لم يكن من المعقول أن يستغلوا فرصة انشغال السلاجقة بالجهاد ضد الصليبيين لينقضوا عليهم من الخلف، فهم بذلك قدموا خدمة جليلة للصليبيين ما كانوا ينتظرونها، وهي وقوفهم على مدى الخلاف السائد بين المسلمين آنذاك.

وكان من تبعات هذا العمل أن عجز الفاطميون فيما بعد على مجابهة الصليبيين لوحدهم، فقوتهم لم تكن كافية لردهم، فهم بذلك عطلوا الجهاد في وقت كانوا فيه في موقع قوة، ولما ضعفت قوتهم صارت عملية جهادهم غير مجدية، فضاعت بذلك مدن الشام كلها بسببهم، وعرقلوا جهاد السلاجقة ضد الصليبيين[4].

وعرقل الفاطميون أيضا عملية الجهاد الإسلامي التي أعلنها القائد نور الدين محمود، وكان ذلك عندما قرر هذا الأخير أن يوحد كلا من مصر وبلاد الشام تحت راية واحدة، حتى يستطيع أن يتقوى بهما على قوات الصليبيين، لكنه تعرض الخديعة من طرف الفاطميين عدة مرات، لأنهم رأوه محتلا لبلادهم، مثله كمثل الصليبيين.

---

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 428.

[2] ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 08.

[3] مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان)، (1420هـ/1999م)، ج1، ص306.

[4] ابن ميسر: المصدر السابق، ص 38.

ومن أوجه العرقلة الأخيرة لعملية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين هو استنجاد الوزير الفاطمي ضرغام بالصليبيين، ضد أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، اللذين أرسلهما نور الدين محمود لمساندة الوزير شاور للعودة إلى كرسي الوزارة الذي سلبه منه الوزير ضرغام، فلما علم هذا الأخير بمجيء القوة النورية راسل الصليبيين يطلب منهم النجدة رغم خلافه معهم[1].

وقد لبى الصليبيون الدعوة مباشرة لأنهم رأوا فيها فرصة للسيطرة على مصر، خصوصا وأنهم تلقوا تحفيزات من ضرغام، بأن يدفع جزية سنوية يقررها الملك الصليبي، وأن تدخل مصر في تبعية للصليبيين[2]، وأجبر الإمام العاضد على توقيع هذا الاتفاق[3]، ومباشرة بعدها خرجت القوة الصليبية باتجاه مصر للسيطرة عليها[4].

ولما تأخرت الحملة الصليبية القادمة صوب مصر، كان أسد الدين شيركوه قد تقدم باتجاه العاصمة للسيطرة عليها وإعادة شاور إلى الوزارة، عندها أرسل ضرغام قوة عسكرية تحت زعامة ناصر الدين أخوه تصد أسد الدين، لكنها انهزمت وولت أدراجها إلى القاهرة، لتنتهي المعركة هناك بمقتل ضرغام وأخوه ناصر الدين على يد أسد الدين شيركوه، في شهر (رجب 559هـ/1164م)، وأعاد شاور إلى كرسي الوزارة[5].

ورغم أن أسد الدين قد عمل على تثبيت الأوضاع في القاهرة، وإعادة الوزير شاور إلى منصبه إلا أن هذا الأخير لم يرد له الجميل، وعمل على محاولة طرده من مصر، فهدد أسد الدين إن هو لم ينجل عن مصر، بأن يستنجد بالصليبيين، ولما أبى أسد الدين ذلك، راسل شاور الصليبيين، واتفق معهم على المجيء إلى مصر وطرد أسد الدين مقابل الحصول على امتيازات منها:

- يؤدي له مبلغ سبعا وعشرين ألف دينار.

---

[1] ابن واصل: نفس المصدر السابق، ج01، ص 158-159.

[2] المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج03، ص 276.

[3] المصدر نفسه. هانس إبرهارد ماير: المرجع السابق، ص 218.

[4] عبد الملك بن حسين بن عبد الملك: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي أحمد معوّض، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط01 (1419هـ/1998م)، ج04، ص 05.

[5] الذهبي شمس الدين: العبر في خبر من غبر، ج2، ص222. أبو الفدا: المصدر السابق، ج2، ص 116.

- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الإسبتارية[1] الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، ولعل في ذلك تحريضا لهم على المجيء.
- يتكفل بنفقات علف أفراسهم[2].

وعلى الفور تحرك عموري الأول (Amoury1) باتجاه مصر لتنفيذ ما اتفق عليه، ولم يكن هدفه مساعدة المصريين، وإنما الاستئثار بخيرات مصر[3]، ولما علم نور الدين محمود بذلك أرسل دعما إلى أسد الدين في شهر(ربيع الأول 562هـ/1167م)[4]، ثم سارع شاور إلى لقاء الملك الصليبي على أسوار القاهرة[5] عندما وصلته أنباء هذا الدعم، وقرر أن يعطيه مبلغ أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على الفور، وتم الاتفاق على ذلك بموافقة الخليفة نفسه[6].

والحقيقة أنهم عجزوا عن مجابهة أسد الدين رغم عسكرتهم بجانبه مدة تفوق الشهرين، لم يسجل فيها التحام بين الطرفين عدا غارة واحدة نفذتها القوات المتحالفة ضد جيش أسد الدين شيركوه[7] عندها قرر هذا الأخير أن يتوجه جنوبا خوفا من الدخول في معركة غير متكافئة، وتبعه

[1] الإسبتارية: هي تحريف للفظ الأجنبي Hospitalliers، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين الذين سكنوا ديرا في بيت المقدس، بجوار دير سان ماري، وقد أقيم بجواره بيمارستان (مستشفى) في المدة قبل الحروب الصليبية، بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم، ولما قامت الحروب الصليبية تطوع أفراد هذه الطائفة في المساهمة في هذه الحرب ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات، وكانوا موضع احترام جودفري دي بوايون، ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق عليهم بالأموال، ثم أصبحوا يؤلفون قوة حربية كبرى، اشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية. ويليام الصوري: المصدر السابق، ج03، ص 383.

[2] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج03، ص 387-388.

[3] ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج01، ص 149.

[4] محمد مؤنس أحمد عوض: المرجع السابق، ص 90.

[5] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 488.

[6] هانس إبرهارد ماير: المرجع السابق، ص 219.

[7] أبو شامة: المصدر السابق، ج01، ص 428.

المتحالفون[1]، لكن أسد الدين لم يرض بوجود الصليبيين داخل القصر الفاطمي يتحكمون في أمور مصر كيفا شاؤوا فقرر مواجهتهم، وتمكن من الانتصار عليهم في معركة البابين[2].

3- تصفية علماء الدين

ومن الآثار السلبية التي تركتها الحركات الباطنية في جسم العالم الإسلامي، هي التخلص من كل الشخصيات التي تؤثر عليها، وكما حدث مع رجال السياسة من اغتيالات، حدث كذلك مع رجال الدين، إذ أسهبت هذه الحركات في كل من تسول هل نفسه من رجال الدين وينتقدهم، ولأجل ذلك راح ضحيتهم الكثير والكثير من هؤلاء، وكانت أكثر الاغتيالات من طرف الباطنية النزارية، وبدرجة أقل الباطنية المستعلية، بينما لم يكن للنصيرية والدروز كبير أثر في هذه العمليات.

أ- تصفية الأئمة

اغتالوا في سنة (492هـ/1099م) إمام الحرمين الشريفين المدعو أبو القاسم بن إمام الحرمين بنيسابور[3]، ثم قاموا بعدها بسنتين فقط سنة (494هـ/1101م) باغتيال أحمد بن الحسين الحسين البلخي دون أن يقترف خطأ في حق الباطنية، لكن سبب قتله هو أن صاحب كرمان المدعو تيرانشاه، كان على مذهب السنة ثم تغير إلى معتقد الباطنية على يد أحد الباطنية المدعو أبو زرعة، وكان هذا أبو زرعة قد حسن له مذهب الباطنية، فاعتنقه ثم قام باغتيال الفقيه البلخي، عندما خرج من عنده ذات ليلة بحيث تبعه مجموعة من الباطنية وقتلوه[4].

وفي سنة (496هـ/1103م) عمدوا إلى قتل الواعظ أبو المظفر بن الخجندي بالري، وكان هذا الأخير يعظ الناس في الجامع، ولما انتهى من درسه ونزل على كرسيه وثب عليه أحد الباطنية وقتله، وقتل الباطني على الفور وكان أبو المظفر هذا عالما فاضلا، وفقيها شافعيا مدرسا، وكان الوزير نظام الملك يزوره ويعظمه[5]، كما قاموا أيضا باغتيال واعظ آخر يدعى أبو جعفر بن المشاط المشاط وهو من شيوخ الشافعية، كان تلميذا عند الخجندي، وتمت تصفيته بنفس الطريقة التي قتل

---

[1] المصدر نفسه.

[2] ابن ظافر الأزدي: المصدر السابق، ج01، ص 261-262.

[3] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 135.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 36-37.

[5] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 139. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 37.

بها شيخه، إذ لم يقترف أي خطأ في حق الباطنية، فبعد نزوله من كرسي الوعظ بجامع الري اقترب منه باطني وطعنه بسكين وقتله[1].

واغتال الباطنية أيضا أحد شيوخ الشافعية المدعو عبد الواحد بن إسماعيل أبو المحاسن الروياني ببلاد العجم، وكان ذلك في صلاة الجمعة سنة (502هـ/1109م) بطبرستان، وهو الآخر كان على مذهب الشافعية بل إنه كان أحد شيوخهم، وقد ذكر عنه أنه كان عالما كبيرا، ألف كتبا عديدة في المذهب الشافعي وكان يقول رحمه الله لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي[2]، واغتال الباطنية أيضا سنة(523هـ1129م) الفقيه عبد اللطيف بن الخجندي رئيس الشافعية بأصبهان، وقد ذكر عنه أنه كان عالما كبيرا، وله سلطة واسعة على الناس، بحيث لا يرد له طلب ولا يخالف له رأي[3].

ب- تصفية القضاة

نال القضاة في العالم الإسلامي وخاصة السنة منهم حظهم من الاغتيالات من طرف الباطنية كونهم شكلوا خطرا على مشاريع الباطنية، ومن هؤلاء المغتالين نذكر القاضي أبو العلاء صاعد بن أبي محمد النيسابوري هجم عليه باطني وهو بجامع أصبهان فقتله سنة (502هـ/1108م)[4].

وقتلوا في نفس السنة أيضا قاضي أصبهان عبيد الله بن علي الخطيبي بهمذان، لأنه كان كثير القدح فيهم، وأظهر أمرهم لعامة الناس، وجرح في مذهبهم، ولذلك انتدب له الباطنية أحد فدائييهم، دخل بينه وبين أصحابه، وطعنه بسكين فأرداه قتيلا، وكان ذلك في يوم جمعة، وقد ذكر عنه أنه كان يحتاط لأمر الباطنية كثيرا، لكنه لم يتمكن من النجاة منهم وكان مصيره كمصير كل من يجابه الباطنية[5].

---

[1] ابن الأثير: المصدر نفسه، ص 37.

[2] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 146. تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناوي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1383هـ/1964م)، ج7، ص 195.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 252.

[4] المصدر نفسه، ص 133.

[5] المصدر نفسه، ص 133.الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص 14.

واغتالوا أيضا القاضي محمد بن عبد الرحمن أبو العلاء قاضي نيسابور، في يوم عيد الفطر بجامع أصبهان سنة ((502هـ/1108م))، إذ وثب عليه رجل باطني وطعنه بسكين وقتله، وقتل الباطني على الفور[1]، كما اغتالوا أيضا قاضي القضاة زين الإسلام أبو سعد محمد بن نصر بن منصور الهروي، وكان قد نال حظوة كبيرة عند السلاطين السلاجقة، قتل بعد عودته من مهمة أرسله فيها الخليفة إلى خراسان، ففي طريق عودته استراح بجامع همذان، وهناك وجد مجموعة من الباطنية قد كمنوا له، واغتالوه ثم فروا إلى وجهة مجهولة[2].

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 134.

[2] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص 14.

المبحث الثالث: الآثار الاجتماعية

01- قطع الطريق وترويع السابلة

أ- قطع الطريق

رغم كل ما فعله الباطنية بشخصيات العالم الإسلامي من اغتيالهم وترويع من حولهم من المسلمين، إلا أنهم لم يتوقفوا عند ذلك الحد بل إنهم عمدوا إلى ترويع المسلمين السنة في كل مكان ولذلك دمروا البنية الاجتماعية للعالم الإسلامي حتى إنه لم يعد يعرف الصديق من العدو وصار كل الناس يشكون في بعضهم[1].

ومن الأعمال التي قام بها الباطنية في حق المجتمع الإسلامي هو قطع الطرق وترويع السابلة، ومن ذلك ما فعلوه بتجار التركمان الذين وفدوا على نيسابور سنة (556هـ/1161م) من بلاد فارس، فبعد أن أتم هؤلاء التجار من بيع ممتلكاتهم بالسوق، وأثناء عودتهم على بلادهم اعترضهم الباطنية بالليل، ووضعوا فيه السيف وهم في نومهم، وقتلوا منهم الكثير ثم أخذوا منهم أموالهم ومتاعهم وعادوا إلى قلاعهم[2].

واستولوا أيضا على قافلة من كرمان[3] كانت قد مرت بأرضهم بمكان يدعى قاين، إذ وثب الباطنية على أهل هذه القافلة وقتلوا من وجدوا بها من الرجال ثم غنموا كل ما وجدوه في القافلة من أموال، ولما علم بهم أهل كرمان جمعوا جموعهم وقصدوا معقل الباطنية بقاين، ودخلوا معهم في حرب انتهت بانهزام أهل كرمان، وعادوا أدراجهم من حيث أتوا[4].

ونتيجة لهذه الأعمال الوحشية في حق المجتمع الإسلامي أصبح الناس لا يأمنون على أنفسهم من غوائل الباطنية، واحتاطوا لذلك باختلاق أساليب خاصة بحيث ذكر أن الناس كانوا يحفرون سراديب داخل بيوتهم يخبئون بداخلها متاعهم وأموالهم وكانوا يفعلون ذلك كل ليلة فإذا أصبحوا عادوا وأخرجوا متاعهم واستأنفوا حياتهم على ما عهدوا إليه من قبل، وهاهو ابن طباطبا يذكر ذلك بقوله: حدثني الملك إمام الدين يحي بن الافتخاري قال: أذكر ونحن بقزوين، إذا جاء

---

[1] أنظر الملحق رقم (05).

[2] ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 453.

[3] كرمان: ولاية مشهورة، وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة وهي بين فارس ومكرن وسجستان وخراسان. أنظر البغدادي: مراصد الاطلاع، ج3، ص 1160.

[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 314.

الليل جعلنا جميع مالنا من أثاث وقماش ورحل في سراديب لنا في دورنا، غامضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئا خوفا من كبسات الملاحدة (الباطنية) فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك، ولأجل ذلك كثر حمل القزاونة للسكاكين وكثر حمله للسلاح[1].

وقاموا أيضا باقتحام إحدى قرى قوهستان، ولم يكن بها سوى النساء والأطفال الصغار، فقاموا بقتل من استطاعوا قتله، ونهبوا الممتلكات، وأحرقوا ما لم يقدروا على حمله، وسبوا من لم يقتلوه من الأطفال والنساء، وهو عمل لا ينبغي أن يقوم به من له عقل يفكر به[2].

وكان قاضي قضاة قزوين يلبس تحت ثيابه في كل وقت درعا باستمرار خوفا من أن تطاله يد الباطنية فتغتاله[3].

ب- اختطاف الناس

عمل الباطنية على قتل كل من تسول له نفسه ويعاديهم، ولذلك فإنهم كلفوا كل شخص منهم بمهمة خاصة، فمنهم من كلف بقتل الشخصيات، ومنهم من كلف بقتل العوام من الناس، غير أن قتل العوام لم يكن بمثل ما تتم مع الشخصيات، فقد مورس على العوام من الناس وسيلة خاصة، تبتدئ باختطافه من مكان تواجده كالشوارع والحارات، ثم يؤخذ إلى مكان مجهول وهناك تمارس عليه كل أنواع التعذيب ثم يقتل في الأخير، وقد ذكر في هذا الشأن أن المخطوف يستعمل عليه أسلوب الترويع، بحيث يسير إلى حتفه مع خاطفه ولا يمكنه أن يتكلم أو يوحي لأي شخص بأنه مختطف، وإذا حدث وأن نطق بذلك فإن مصيره هو الموت على يد خاطفه.

ويذكر المؤرخون أن الرجل إذا طال غيابه ولم يعد في المساء فإن أهله يقيمون عليه العزاء ويعلنون موته إلى أن يظهر أو يكون كما توقعوا، ويصور لنا المؤرخ ابن الأثير صورة لما فعله الباطنية بمؤذن خطفوه فيقول: ((وأخذوا في بعض الأيام مؤذنا، أخذه جار له باطني فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره، وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون وهو لا يقدر أن يتكلم خوفا منهم))[4].

---

[1] محمد بن علي بن طباطبا المدعو (ابن الطقطقا): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر(بيروت)، د-س-ن، ص31.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج11، ص 238. الذهبي : دول الإسلام، ج02، ص 69-70.

[3] برنارد لويس: نفس المرجع السابق، ص 106.

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 314.

ولذلك عاش المجتمع الإسلامي أياما كثيرة في خوف وفزع، وصاروا لا يثقون حتى في أقرب مقربيهم، حتى أنه وصل الأمر إلى قطع الأرحام وتفكك المجتمع كثيرا نتيجة لهذه الأعمال الإجرامية، وأصبح الناس لا يمشون منفردين خوفا من غائلة الباطنية، فكان على الرجل إن قرر الخروج أن يصطحب معه مرافقا له حتى يحتمي به أو يعرف مصيره على الأقل إن هو تعرض لمكروه[1].

وقد عرف عنهم أنه استعملوا أساليب عدة في الاختطاف، فمثلا كانوا يضعون رجلا يدعي أنه ضرير، فيطلب هذا الضرير من الرجل المطلوب أن يوصله إلى وجهة محددة، فإذا أوصله ذلك الرجل إلى وجهته، يجد أمامه جماعة يكمنون له، عندها يأخذونه إلى مكان خاص بهم، وهناك يفعلون به ما يفعلون وينتهون بقتله في أغلب الأحيان[2].

غير أن أمرهم انكشف على عندما دخل أحد الرجال إلى بيت أحد أصدقائه وهو من الباطنية واكتشف ثيابا لم يألفها من قبل، ولما خرج من هناك أخبر الناس بما رآه، فثارت العامة على ذلك الرجل وداهموا منزله، ثم أعلنت الحرب على كل الباطنية الذين تم التعرف عليهم، فقتل الكثير منهم وأحرق العدد الآخر منهم أيضا، ونقص بذلك شرهم على الأمة الإسلامية[3].

ت- قتل الحجاج

لم يتوقف الباطنية عند حد قتل العوام من الناس بل راحوا إلى أبعد من ذلك، فقد كانوا كثيرا ما يقطعون الطريق أمام الحجاج ويقتلونهم، فيكونون بذلك قد نهجوا نفس منهج إخوانهم القرامطة الذين كانوا يستغلون عزلة الحجاج فيقتلونهم ويستولون على متاعهم، ومن الأعمال الإجرامية التي قام بها الباطنية النزارية ضد الحجاج، هو هجومهم على حجيج ما وراء النهر سنة (498هـ/1105م)، عند منطقة الري[4]، وأحدثوا فيهم قتلا وتشريدا كبيرين، ثم سيطروا على متاعهم كاملا[5].

---

[1] إبراهيم الشيخ عيد: نفس المرجع السابق، ص 221.

[2] ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص 107. عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص 96.

[3] ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص 107.ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 37.

[4] خوار الري: قرية من أعمال بيهق من نواحي نيسابور. أنظر ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص 394.

[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 84.

كما قاموا أيضا بالإغارة على وفد حجاج خراسان سنة (522هـ/1128م)، واقتتل الطرفان قتالا كبيرا، لكن كانت الغلبة لصالح الباطنية بعد أن هلك أمير الحجاج في المعركة، ثم أخذ الحجاج الباقون أسرى بينما تم قتل البعض منهم، وأخذت كل أموالهم ودوابهم كغنائم حرب، ثم قام شيخ من الباطنية في صباح اليوم الذي تلى المعركة وأجهز على كل الجرحى من الحجاج، فقد كان ينادي بصوته يا مسلمين ذهب الملاحدة، ومن أراد المساعدة ساعدته، فكان كل من يرفع رأسه يقتله، حتى لم يبق من الجرحى أحد على قيد الحياة[1].

وبالنظر إلى مجريات الأحداث يتبين لنا أن الباطنية لم يكن هدفهم من قتل العزل من المسلمين غيرة على مذهب، أو دعوة لمعتقد ما، وإنما هو لهدف اقتصادي محض، إذ أنهم كانوا يقتلون من يعرفون أنهم يمتلكون متاعا يستحق المخاطرة، ولذلك اجتهدوا في البحث عمن يمتلكون المتاع ليغيروا عليهم فيقتلونهم، وعلى العكس من عمليات الاغتيالات التي كانت تتم في حق الشخصيات الكبيرة فإن ذلك كان بسبب التهديدات التي تشكلها تلك الشخصيات على مذهب الباطنية ووجودهم السياسي، بينما لا يشكل وفد من الحجيج أو سكان قرية معزولة في وسط جموع من الباطنية أي تهديد لهم، ولذلك فإن فكرة الإغارة على العزل من الحجيج والقرى، ما هو إلا لسبب اقتصادي، تدعمه النزعة المذهبية.

وأدت هذه الأوضاع المتردية إلى نفور الناس من بعضهم، حتى أن الكثير من الناس كانوا قد استغلوا فرصة التواجد الباطني لكي يتخلصوا من خصومهم، وكان ذلك إما بتحريض الباطنية عليه، أو اتهامه بالانتماء إلى الباطنية فيقتل على أيدي المسلمين[2].

ونتيجة لهذا الوضع دائما فإن الكثير من أهل الحل والعقد من المسلمين كانوا قد التزموا جانب الصمت خوفا من أن تطالهم أيدي الباطنية، وهناك من صدح بالحق فيهم وكانت نتيجته أن لقي مصرعه على أيديهم، وهناك من تكلم عنهم إيماء فقط خوفا منهم، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى قوة الباطنية وتغلغلهم في أوساط المجتمع الإسلامي، مما أدى إلى عدم وضوحهم لعامة الناس (أنظر الملحق رقم 2).

---

[1] الذهبي: دول الإسلام، ج02، 68. الذهبي: العبر، ج03، ص 16،

[2] إبراهيم الشيخ عيد: نفس المرجع السابق، ص 224.

2- حرق الممتلكات

أ- إحراق جامع حلب الكبير

لكن مع بداية دولة نور الدين محمود لم يشأ هذا الأخير أن يدخل معهم في صراعات حفاظا على دولته الناشئة، لكنه اضطر بداية من عام (543هـ/1148م) إلى معاداتهم[1]، وعمد إلى قطع عبارة حي على خير العمل من الأذان وهي العبارة التي يضيفها الشيعة في الأذان ليتميزوا عن المسلمين السنة[2]، وكان ذلك بدعم من العناصر السنية القيادية، وقد أثار هذا التصرف حفيظة الإسماعيلية النزارية، فتحالفوا مع الصليبيين ضده في معركة إنب في السنة الموالية مباشرة (544هـ/1149م)[3]، ثم توالت من بعد ذلك المواقف العدائية بين نور الدين محمود والباطنية النزارية.

بحيث قاموا سنة (548هـ/1153م)، بإحراق الجامع الكبير بحلب، ونتيجة لذلك عمل نور الدين محمود على إعادة ترميمه وتوسيعه، ثم تواصلت المواجهات بين الطرفين إذ تواجهوا سنة 554هـ/1159م[4]، وتم على إثر هذه المواجهة تخريب ونهب مدرسة بن عصرون السنية، ويبدو أن حرقهم للمدرسة لم يكن إلا لحقدهم على الدور الذي تؤديه هذه المدرسة من نشر المذهب السني، والتنفير من الباطنية ومذهبهم.

ب- حرق مدينة الفسطاط

إن حرق مدينة الفسطاط وكما أشرنا إليه سابقا لم يكن بأيد أعداء مصر، وإنما كان من أبنائها أنفسهم، فقد ذكر أن وزير العاضد لدين الله وهو شاور، كان قد عمد إلى إحراقها، نكاية في الصليبيين حسب رأيه، وحدث ذلك عندما راسل أعيان مصر القائد الفرنجي عموري الأول[5]، يستنجدون به لينقذهم من تصرفات شاور، فجاء هذا الأخير على رأس قوة عسكرية، وفي طريقه

[1] ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، ص 121.
[2] ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 197.
[3] المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج01، ص 53.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 434.
[5] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص 12.

إلى القاهرة، احتل مدينة بلبيس، وانتهك فيها كل الحرمات من تقتيل ونهب، ثم سار باتجاه مدينة الفسطاط، وفي نيته السيطرة عليها.

ولما علم به شاور، قرر أن يقطع الطريق أمامه لكن بطريقة مختلفة عما هو مألوف، فهم لم يقم بمجابهته عسكريا، ولم يستنجد بقوى أخرى تساعده على ذلك، وإنما قام بإضرام النار في مدينة الفسطاط، في تاسع صفر، بعد أن أمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، كما أمر بنهب المدينة كاملة حتى لا يجد الصليبيون ما ينهبونه فيها، وتذكر المصادر أن سكان المدينة خرجوا إلى أطرف المدينة وأحرقت عن كاملها، واستمرت النار فيها مدة طويلة ((وأن ينهب البلد، فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة، وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفا أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما)) [1].

ويظهر لنا مما سبق أن الوزير شاور الذي أقدم على حرق مدينة الفسطاط، وهي في الأصل مدينته مع كافة المصريين، لم تكن نيته خدمة مصر ومن ورائها العالم الإسلامي بإجرائه هذا، فظاهر عمله هو أبعاد الصليبيين، لكن حقيقة الأمر هو انه كان قد تخوف من الوجود الصليبي بمصر الذي سيكون له أثر على مكانته كوزير في دولة العاضد، فلو وصل الصليبيون إلى القاهرة فإنه من المؤكد سينتهي وجود هذا الوزير.

---

[1] ابن الأثير: المصدر السابق، ج10، ص12.

المبحث الرابع: الآثار العسكرية

01- احتلال النصارى للبلاد الإسلامية

أدت السياسات العدائية للباطنية على العالم الإسلامي، إلى ضياع العديد من المدن الإسلامية، والتي كانت قبل وقت قريب تنعم في سلم وهدوء، وتدين بمعقداتها سواء كانت سنية أو شيعية، فاستولى عليها الأعداء من الصليبيين، ونتيجة لذلك أصبحت كل البلاد الشامية ترزح تحت حكم النصارى، وخرجت نتيجة لهذا التهور من الإسلام إلى الحكم النصراني[1]، وأصبح المسلمون فيها من أحرار يمارسون حياتهم بصفة عادية، إلى رعايا يتحكم النصارى في رقابهم، ويفرضون عليهم معتقداتهم، بل ويفرضون عليهم جزية سنوية يؤدونها لهم، والتي ستكون ربما دعما لهم في قتل إخوانهم المسلمين في مناطق أخرى.

أ- احتلال بلاد الأناضول

كان من نتائج الحملة الصليبية الأولى على البلاد الإسلامية، أن سقطت بلاد الأناضول بأيدي الصليبيين، وخرجت من فلك الإسلام، ويعود السبب في ذلك إلى أن السلاجقة الذين كانوا هم المتحكمين بها، لم تكن لديهم القوة الكافية لصد الزحف الصليبي لوحدهم، ولذلك توجب عليهم البحث عن قوى إسلامية أخرى تساندهم، لكنهم لم يجدوها، وعلى العكس من ذلك، فإنهم في الفترة التي كانوا فيها يجابهون الصليبيين لوحدهم تلقوا ضربة موجعة من وراء ظهورهم على يد الفاطميين، الذين استغلوا الفرصة لينتقموا من السلاجقة.

وتمثل التدخل الفاطمي في الصراع على جبهتين وهناك من يرى أنه كان على ثلاث جبهات، فالأولى وهي مستبعدة نوعا ما كون أن المصادر لم تتفق على ذلك، وجاء ذكرها على لسان ابن الأثير[2] والسيوطي[3]، فقد ذكر هذين المؤرخين أن الفاطميين هم من راسلوا الصليبيين للمجيء إلى البلاد الإسلامية، انتقاما من السلاجقة، لكن هذا الرأي لم يلق اتفاقا من المؤرخين ولذلك نستبعده.

---

[1] أنظر خريطة رقم (06).

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 09، ص 13.

[3] جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص336.

أما الجبهة الثانية التي دخلت بواسطتها الدولة الفاطمية في الصراع بين الصليبيين والسلاجقة، فهو إرسالهم سفارة إلى الصليبيين لما نزلوا على أنطاكية، وجاء في محتواها أن يساعد الفاطميون الصليبيين في حربهم على السلاجقة[1]، وكنا قد أشرنا إلى بنود الاتفاق الذي جرى بين الطرفين في الفصل الرابع في سياق حديثنا عن علاقة الفاطميين بالصليبيين، وكان من تبعات هذا الاتفاق أنهم ساهموا في سقوط شمال بلاد الشام وذلك بتقديمهم الدعم المادي[2] والمعنوي للصليبيين، كما أدى هذا الاتفاق إلى وقوفهم متفرجين على ضياع البلاد الإسلامية بأيدي الصليبيين، وحدث نتيجة لذلك مجازر كثيرة في حق سكان الجزء الشمالي لبلاد الشام وبلاد الأناضول.

أما الجبهة الثالثة وهي الأخطر من سابقاتها، وهو أن الفاطميين انتقموا من السلاجقة أثناء انهماكهم في مواجهة الصليبيين، بحيث وجه الفاطميون جيوشهم إلى القسم الجنوبي من أراضي السلاجقة من أجل السيطرة عليه، فسيطروا بذلك على مدن عدة كانت تحت حكم السلاجقة منها بيت المقدس وطرابلس وصور[3]، وقد كان من المفروض أن تكون قوتهم هذه إلى جانب السلاجقة من أجل مواجهة الخطر الصليبي، لكنهم لم يفكروا كذلك، وكان في اعتقادهم أن الصليبيين لن يتجاوزوا حدود أنطاكية، وهو المكان الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية أيام صحوتها[4]، لكنهم لم يستيقظوا إلا على واقع أن الصليبيين يريدون كل ما وصلت إليه أيديهم، وهدفهم الأول هو بيت المقدس الذي تملكه الفاطميون قبل قليل من السلاجقة، فلم يكن أمامهم إلا مقاومة الغزو الصليبي كما إخوانهم السلاجقة من قبل.

كان هذا عن دور الفاطميين في ضياع المدن الإسلامية، وسقوطها بأيدي الصليبيين، وكذلك فعل إخوانهم النصيريون الذين سهلوا للصليبيين السيطرة على أنطاكية، وكان ذلك عندما افتتح أحد المستحفظين يدعى فيروز البرج الذي كان عليه فدخل الصليبيون منه إلى المدينة[5]، وكانوا قد عجزوا طيلة سبعة أشهر على أخذها حتى أشرفوا على الهلاك، فسهل لهم هذا الرجل

---

[1] محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين، ص 428.

[2] المرجع نفسه.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 221.

[4] محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين، ص 428.

[5] ابن الأثير:نفس المصدر السابق، ج09، ص 13.

عملية الدخول إلى المدينة، وكان من نتيجة عمله أن استبيحت المدينة، وقتل وشرد بها عدد كبير من أهلها المسلمين، وجعلها مقرا ينطلق منه الصليبيون باتجاه الجنوب، فاتخذت مملكة صليبية[1]، شكلت قاعدة عسكرية يلجأ إليها الصليبيون عند الحاجة.

وكادت مدينة دمشق أن تدخل في حوزة الصليبيين بتدبير باطني بحت، فقد عمل أبو الوفا زعيم باطنية الشام بالاستعانة بوزير تاج الملوك بوري حاكم دمشق المدعو المزدقاني، لأجل تقديم مدينة دمشق للصليبيين، مقابل الحصول على مدينة صور، لكن فطنة تاج الملوك حالت دون ذلك، فقد أوقع هذا الأخير بالباطنية وقتل منهم خلقا كثيرا بما فيهم الوزير المزدقاني، ولما حضر الصليبيون من أجل تسلم المدينة عجزوا عن ذلك، فانصرفوا عنها وكان ذلك سنة (523هـ/1129م)[2].

هذا وسلم الباطنية النزارية ببلاد الشام مدينة بانياس للصليبيين مجانا، بعد أن تخوفوا من حاكم دمشق الذي فتك بإخوانهم من قبل[3]، فضاعت بذلك مدينة أخرى من مدن الشام، وخرجت من حكم الإسلام، إلى حكم النصرانية، نتيجة التهور الباطني.

ب- احتلال بلاد الشام

كان من نتيجة هذا التخاذل أن سقطت مدن عديدة بيد الصليبيين، ونذكر منهم على سبيل المثال، ففي بلاد الأناضول وآسيا الصغرى سقطت مدن كل من نيقية[4] سنة (490هـ/1097م)[5]، كما سقطت أيضا مدينة الرها سنة (491هـ/1098م)، ويؤسس بها أول إمارة صليبية في البلاد الإسلامية[6].

أما في بلاد الشام فقد سقطت مدن عدة بيد الصليبين نذكرها على الترتيب، وهي أنطاكية سنة (491هـ/1098م)، وأسسوا بها إمارة صليبية ثانية[7]، ثم استولوا في طريقهم إلى بيت

---

[1] ألبرت فون آخن: نفس المصدر السابق، ص 172.

[2] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج3، ص2-3. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 656-657.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 355-356.

[4] مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص 28-29.

[5] توديبو بطرس: المصدر السابق: ص 110-111. جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص 229.

[6] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 51-53.

[7] علي بن أحمد الحريري: المصدر السابق، ص 63.

المقدس على معرة النعمان وتعرض سكانها لأبشع المذابح[1]، ثم تملكوا كفرطاب[2]، وبعدها استولوا على قلعة مصياف، وبعدها سيطروا على كل من بارين رفنية والبقيعة وحصن الأكراد في شهر (صفر492هـ/ 1099م)، كما دخلت مدينة حمص في طاعتهم طوعا[3].

وفي طريقهم إلى بيت المقدس استولى الصليبيون على مدينة الرملة[4]، ثم استولوا على بيت المقدس يوم الجمعة في (23شعبان 492هـ /1099م)، بعد حصار فاق الأربعين يوما دخلوها عنوة وأحدثوا فيها مقتلة عظيمة[5] باعتراف من مؤرخيهم[6]، ولم تراع في هذه المعركة أدنى أعراف الحروب، الحروب، إذ لم يفرق فيها بين القوي ولا الضعيف، حتى أن المسجد امتلأ بأكوام القتلى على حد ذكر أحد المؤرخين ((فتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة))[7].

وبالنظر إلى هول هذه الجريمة، يحق لنا أن نلقي باللائمة على الصليبيين أولا ثم على الفاطميين ثانيا، والسلاجقة ثالثا، فالصليبيون لم يراعوا في حربهم بهذه أعراف الحروب وأجهزوا على الضعاف من الأطفال والنساء والشيوخ والمسالمين، وهذا ما لا تقبله النفس البشرية، أما الفاطميون فإنهم ملومون على أنهم لم يتخذوا بأسباب النصر، فكانوا قد عمدوا في بداية الحروب الصليبية على معاداة السلاجقة ومن ورائهم الخلافة العباسية، وبالتالي فإن قصر نظرتهم أدت إلى هذه المجزرة، فهم لم يقدروا على مجابهة الصليبيين لوحدهم، وحدث في الأخير ما حدث.

أما السلاجقة ومن ورائهم الخلافة العباسية فإنهم ملومون لأنهم لم يقفوا إلى جانب الفاطميين عندما كانوا يجابهون القوة الصليبية، وإذا كانوا قد تحججوا بسياسة الرد بالمثل على ما

---

[1] الجندي محمد سليم: تاريخ معرة النعمان، حققه وعلق عليه، ووضع فهارسه: عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة السورية (دمشق) 1994، ج1، ص 143. بطرس توديبو: المصدر السابق، ص 260-263. مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص ص 97-98-99-100.

[2] ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص 16. مؤرخ مجهول: المصدر السابق، ص 111-112.

[3] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص67-68. مجهول: المصدر السابق، ص 113.

[4] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 69-70.

[5] مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان) (1420هـ/1999م)، ج1، ص 307.

[6] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 47.

[7] المؤرخ المجهول: المصدر السابق، ص 118-119.

فعله بهم الفاطميون، فهذا خطأ، لأن المعتدى عليه في الأخير هو المسجد الأقصى وهو ملك للمسلمين عامة وليس للفاطميين، كما أن المضرورين من الغزو الصليبي هم رعايا مسلمون فيهم من كل المذاهب ولا يهم من يتحكم في رقابهم سواء كان على مذهب السنة أو غيره، ولذلك نقول كان من الواجب على السلاجقة أن يقفوا إلى جانب سكان بيت المقدس لا إلى جانب الفاطميين وكان بالإمكان أن نتجنب تلك المجزرة، ونتجنب من ورائها ضياع المسجد الأقصى لما يربو عن القرن من الزمن.

بعد سيطرة الصليبيين على مدينة بيت المقدس جاء الدور على مدن أخرى، فكان ابتداؤهم بمدينة نابلس[1]، التي استسلمت طواعية للصليبيين سنة (492هـ/1099م)[2]، ثم استولوا على إقليم الجليل[3] ومدينة طبرية وبيسان ويافا واللد وكل ذلك مع بداية سنة (493هـ/1101م)[4]، (493هـ/1101م)[4]، واستولوا بعده على مدينة حيفا سنة (494هـ/1100م)[5]، وأرسوف وعسقلان وقيسارية[6] سنة (495هـ/1101م)[7]، وفرضوا على سكانها جزية سنوية [8].

وكان من نتيجة احتلال قيسارية أن الصليبيين، استباحوا المدينة بعد أن رفض أهلها تسليمها، وقتلوا بها عددا كبيرا من الناس، ولم تثنهم على مجزرتهم هذه لا حرمة المسجد الذي التجأوا إليه هربا من القتل، ولا ضعف المقتولين من العجزة والأطفال والنساء[9].

ثم احتل الصليبيون مدينة عكا سنة (497هـ/1104م)[10]، بينما تأخر الصليبيون في السيطرة على عسقلان إلى سنة (548هـ/ 1153م) وكانت قد استعصت عليهم لقربها من مصر

---

[1] نابلس: هي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل أرضها حجر، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ...، أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج05، ص248.

[2] راغب السرجاني: قصة الحروب الصليبية، ص115.

[3] ستيفن رنسيمان: المرجع السابق، ج1، ص 304.

[4] راغب السرجاني: المرجع السابق، ص 117. قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص130.

[5] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 161.

[6] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 114.

[7] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 218-219.

[8] المصدر نفسه، ص 217-218.

[9] محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 35.

[10] ابن الوردي: المصدر السابق، ج2، ص 14.

فقد كانت تتلقى الدعم المادي دائما من هناك، وبالسيطرة على عسقلان أصبحت كامل فلسطين بأيدي الصليبيين وكانت إلى وقت قريب محل نزاع بين الفاطميين والسلاجقة، وقد أسهم التهور الفاطمي في أن تضيع كل هذه البلاد وتخرج من حوزة الإسلام مدة قرن من الزمن.

ومن المدن الضائعة من المسلمين أيضا نذكر كل من أنطرطوس التي استولى عليها الصليبيون سنة(495هـ/ 1102م) ، وجبيل سنة(497هـ/1104م) [1]، وطرابلس الشام سنة (502هـ/1109م)[2] ثم استولى الصليبيون على بيروت [3] إذ تذكر المصادر أن الصليبيين أحدثوا فيها فيها مجزرة مروعة قتل فيها ما يزيد عن العشرين ألفا بما فيهم حاكمها عضد الدولة التنوخي[4].

استولى الصليبيون بعدها على مدينة صيدا سنة (503هـ/1110م)[5]، ولم يتبق لهم من المدن الكبرى ببلاد الشام سوى مدينة صور فأكثروا عليها من الغارات والتي انتهت بتسليمها من طرف أهلها إلى الصليبيين سنة (518هـ/1125م)، حتى أن العديد من المؤرخين يذكرون أنها لم تكن لتسقط بيد الصليبيين لو لم يفرط فيها الفاطميون، وفي هذا الشأن يقول ابن تغري بردي: ((أن سبب سقوطها هو زيادة النكاية في المسلمين من صاحب مصر))[6].

ت- احتلال مصر

رغم أن مصر كانت مقر القيادة الفاطمية وهي أكثر أمانا من بقية المناطق، بحكم تمركز القوة العسكرية الفاطمية كاملة هناك، إلا أنها لم تسلم من الاحتلال الصليبي فقد خضعت عدة مدن منها للاحتلال، ولم يكن احتلالهم بضعف القوة المدافعة ولا بقوة الصليبيين الكبيرة، وإنما حدث بسبب سوء تخطيط الحكام هناك، فقد أدى الصراع بين الوزراء على كرسي الوزارة إلى الاستنجاد بالصليبيين عدة مرات، وهو يسر للصليبيين احتلال المدن المصرية.

---

[1] ويليام الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 493. ابن الأثير: المصدر السابق، ج9، ص72.

[2] فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 145. ويليام الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 532-533.

[3] الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عثمان: دول الإسلام، حققه وعلق عليه، حسن إسماعيل مروة قراءة وقدم له محمود الأرناؤوط، دار صادر (بيروت)، ط1(1999م)، ج2، ص08.

[4] المصدر نفسه، ص 268-269. فوشي الشارتري: ص 145-146، كان شاهد عيان.

[5] ابن القلانسي: المصدر السابق، ص171.

[6] المصدر نفسه، ص 181.

كما أن حقدهم على المسلمين السنة أيضا جعلهم يستسهلون الوجود الصليبي في مصر، فقد استنجد الوزير شاور بالصليبيين لأجل طرد قوات نور الدين محمود من مصر[1]، وكان من نتيجة ذلك أن جاء الصليبيون إلى مصر واحتلوا مدينة الإسكندرية[2]، ورغم أن سكانها كانوا قد رحبوا بقوات أسد الدين شيركوه، ثم احتضنوا صلاح الدين بداخلها[3]، إلا أن شاور كان له رأي آخر فقد رأى بأن وجود القوة النورية تهديدا له، والواجب عليه طردها من خلال الاستنجاد بالصليبيين.

وكان من نتيجة الوجود الصليبي في الإسكندرية أن فرضوا على سكانها شروطا صعبة أضرت بهم، وعجلت بذهاب قوات نور الدين[4]، وجعلت المدينة إقليما تابعا للصليبيين، ووضعت بها حامية صليبية، تتحكم في أوضاعها وتدافع عنها ضد المسلمين، واشترط على أهلها أن يدفعوا جزية سنوية للصليبيين، بعد أن كانوا في حماية دولتهم أحرارا [5].

لم يتوقف الصليبيون عند حد السيطرة على الإسكندرية التي تعد أعظم مدن مصر في ذلك الوقت كونها تمثل المنفذ الأكبر على البحر، فقاموا باحتلال بلبيس سنة (563هـ/1163م) وارتكبوا فيها مذبحة مروعة[6]، وكان الملك الصليبي عموري الأول قد تحجج عن سبب احتلاله لها، بتأديبه للوزير شاور الذي أخلف بدفع المستحقات المنجرّة على اتفاقهم السابق، ورغم أن هذه الحجة غير مقبولة عقلا إلا أنه يمكننا القول بأنه كان بالإمكان تجنبها، لو أن القيمين على السلطة في مصر عملوا بأسباب النصر على الصليبيين، سواء بتقوية دفاعاتهم أو بالاستنجاد بقوات نور الدين محمود، ولما لم يفعلوا ذلك فقد كلفهم احتلال مدينة بلبيس، ثم مدينة تنيس[7]، ولم تكن لتنجو بقية المدن لو لم تسرع القوات النورية بالتدخل لحماية مصر من شاور والصليبيين[8].

---

[1] ابن واصل: نفس المصدر السابق، ج01، ص158-159.

[2] محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 112.

[3] ابن الوردي: المصدر السابق، ج2، ص 70. محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص 112.

[4] سيد علي الحريري: المصدر السابق، ص 126.

[5] ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج05، ص 333.

[6] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص431. شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 67.

[7] أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص 229-230.

[8] محمد مؤنس أحمد عوض: المرجع السابق، ص 98.

من خلال دراستنا لمجريات الأحداث تبين لنا أن سبب ضياع البلاد الإسلامية كان في أغلبه بسبب سوء التفكير والتصرف الفاطمي تجاه الوجود الصليبي بالعالم الإسلامي، فلو أنهم استشرفوا الخطر منذ البداية لما آلت الأوضاع إلى تلك الحال، لكننا إحقاقا للحق نقول بأن سبب ضياع المدن الإسلامية مرده إلى الحقد الذي يكنه الفاطميون للعالم الإسلامي السني، فقد رأينا كيف أنهم اغتبطوا بمجرد علمهم بمجيء الصليبيين فتحالفوا معهم، وقدموا لهم الدعم المادي والمعنوي كما ذكرنا ذلك آنفا.

وعموما لم يكن التأثير الفاطمي على العالم الإسلامي سلبيا لوحده، بل إن جل ما قام به إخوانهم الباطنية لم يكن في صالح المسلمين وخاصة أهل السنة منهم، وكان أكثر من تضرر منهم المسلمون بعد الفاطميين هم الباطنية النزارية، لأن هؤلاء عملوا على إضعاف القوة الإسلامية المجاهدة على الخصوص بحيث قاموا بتصفيات كثيرة في حق زعماء الجهاد فتعطلت العملية الجهادية، كما أنهم فككوا الجبهة الاجتماعية بكثرة الاغتيالات والاختطافات، ثم يأتي التأثير النصيري والدرزي على العالم الإسلامي في درجة أقل رغم سوئه في بعض الأحيان، لكنه لا يرقى إلى درجة التأثير الفاطمي والنزاري.



بعد دراستنا لموضوع العلاقات العامة للحركات الباطنية في المشرق الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس هجريين الموافق للحادي عشر والثاني عشر ميلاديين، والتي تزامنت مع اندلاع الحروب الصليبية على العالم الإسلامي، توصلنا إلى مجموعة من الاستنتاجات، تعلق بعضها بالحركة التأريخية لهذه الحركات، بينما تعلق البعض الآخر بأهم نشاطات هذه الحركات وخاصة الجانب المتعلق منها بالعلاقات العامة، ويمكننا حصرها في النقاط التالية:

أولا– في الجانب التأريخي

- رغم ما كتب عن الحركات الباطنية في المشرق الإسلامي إلا أن الكتابات لا تزال إلى اليوم سطحية، ولم تسبر أغوارها كما ينبغي، إذ أن أغلب الكتابات ارتكزت على طائفتي المستعلية والنزارية، بينما لم تحظ طائفتي الدروز والنصيرية بالاهتمام الكبير من المؤرخين.
- ولعل السبب في اهتمام المؤرخين بالكتابة عن الطائفتين المذكورتين دون الأخريين، هو القوة التي كانت تتمتع بهما هاتين الطائفتين، وما تركتاه من نشاط على الساحة السياسية والعسكرية آنذاك، وهو ما استرعى أقلام المؤرخين، ليدونوا أهم نشاطاتهم.
- بينما لم تحظ الطائفتين المتبقيتين وهما الدروز والنصيرية باهتمام المؤرخين كثيرا، خاصة على الصعيدين العسكري والسياسي، وجل ما كتب عنهما كان عن الجانب العقائدي، فقد اهتم أغلب المؤرخين الذين كتبوا عنهم بهذا الجانب، وسبب إهمالهم للجانبين الآخرين، هو أن هاتين الطائفتين كانتا منعزلتين نوعا ما في الجبال ولم تعر اهتماما للحياة السياسية، وبالتالي تجنبوا النزاعات العسكرية، وخاصة طائفة النصيرية، فخلال بحثنا في تاريخهما لم نر لها سلطانا سياسيا إلا في حالات نادرة جدا، إذ لم يتعد سلطان الدروز إمارة بعض الأسر العربية لأقاليم محدودة داخل وادي التيم أو منطقة الغرب، كما لم يتعد سلطان النصيريين إمارة طرابلس على عصر بني عمار، وهذا هو سبب عدم اهتمام المؤرخين بالجانب السياسي والعسكري للطائفتين.

- ومن جانب آخر اهتم المؤرخون المسلمون خاصة أهل السنة بالجانب العقائدي للحركات الباطنية، وسبب ذلك على ما ذكروه في كتبهم، هو أن أكبر خطر على أمة الإسلام يكمن في معتقداتهم الفاسدة، فقد ينغمس الفرد المسلم في شراكهم، ويسلبونه دينه فيصبح على معتقدهم وهو على جهل، ولذلك حمل هؤلاء المؤرخين على عاتقهم مهمة الكشف عن المعتقد السيئ لهؤلاء، حتى يأمن العامة من المسلمين شرهم، وتبقى مهمة الحكام المسلمين لحماية رعاياهم من شرور هؤلاء الباطنية على الصعيدين السياسي والعسكري.
- وفي المقابل عمل هؤلاء الباطنيون على نشر معتقداتهم الفاسدة، بكل ما أوتوا من علم، فألفوا الكتب الكثيرة التي تشرح معتقداتهم، وتؤرخ لهم، رغم إدراك الكثير منهم بسوء معتقدهم، على غرار القاضي النعمان مؤرخ الدولة الفاطمية، الذي قيل عنه أنه كان على مذهب أهل السنة ثم زاغ عنه إلى مذهب الروافض، ونفس الأمر ينطبق على الكثير من فقهاء الحركات الباطنية، ونتيجة للسجال العلمي سواء بين الحركات الباطنية فيما بينهم، أو بين الحركات الباطنية وأهل السنة، فقد نشطت الحركة التأليفية من جانب الباطنية، فملأوا مكتباتهم بكتب تصوب أعمالهم وتدافع عن عقيدتهم.
- لكن الذي ينبغي الإشارة إليه، هو أن هذه المؤلفات لم تكن متاحة لعامة الناس، وللخصوم خاصة أهل السنة، فقد اجتهد الباطنية في إخفاء كتبهم، وخاصة من جانب النصيريين والدروز، وهم على هذا العهد إلى اليوم، وسبب ذلك على ما يبدو هو الاضطهاد الذي لاقوه من الخصوم سواء كان سياسيا أو دينيا، ولأنهم أيضا يعلمون جيدا أن معتقداتهم الفاسدة لا تصمد أمام حجة القرآن والسنة النبوية الصحيحة، ولذلك فهم يخفونها تجنبا للافتضاح، وفي مقابل ذلك يمارسون التقية، بحيث يظهرون وسطيتهم أمام المتعلمين من الخصوم، بينما يتفرسون ويجتهدون في سلخ العامّي من الناس لضمه إلى صفهم.
- ومصير الذي يعرف خبيئة دينهم ويرتد عنه، أو يكشفه إلى العامة، سيكون القتل بلا شك، وإن كتب عنهم شيئا فإنهم يجتهدون في سحب كل ما كتب، ولو كلفهم الأمر الأموال

الطائلة، فقد رأينا كيف فعل النصيريون بسليمان الأدني الذي ارتد عنهم وكتب عن دينهم الفاسد، فما كان منهم إلا أن استدرجوه حتى وقع في أيديهم وقتلوه بوحشية.

- وأما عن مؤلفاتهم التي وصلت إلى العالم، فإنها لم تكن بإرادتهم هم، وإنما أخرجها الأعداء إلى العلن، فقد رأينا كيف أن المغول عندما قضوا على الباطنية النزارية، في بلاد فارس، وسمحوا لمرافقهم عطا ملك جوين ليخرج من مكتبة آلموت ما شاء من الكتب الإسماعيلية، وله أن يتصرف كيفما شاء في باقي الكتب، فكان منه أن أخرج العديد من الكتب الإسماعيلية إلى العلن.

ثانيا– في جانب الحياة العامة

- أثرت الحكات الباطنية على بعضها البعض، بشكل متباين، وقد شمل هذا التأثير جميع المناحي وخاصة العقائدية منها، فعلى سبيل المثال، أدى انقسام الإسماعيلية إلى مستعلية نزارية إلى انسلاخ إقليم كبير عن سلطان الفاطميين فإلى وقت قريب كانت بعض من أجزاء فارس وكثير من أرض الشام تدين بالولاء لهم، وصارت بظهور النزارية ندا ونظيرا للمستعلية في مصر، ونفس الأمر حدث مع الدروز الذين أخذوا جزءا كبيرا من أرض الشام التي كانت تابعة للفاطميين، ونتيجة لذلك ضعفت القوة الفاطمية وانقسم الأتباع والمريديون بين هاته التيارات العقائدية المختلفة، ولم يعرف من هو على الصواب منهم ومن هو على الخطأ.
- أما طائفة النصيرية فإنها لم تؤثر كثيرا على الطوائف الثلاث الأخرى، في حين تأثرت هي من القوة التنافسية التي فرضوها عليها من حيث لا تبغي، إذ لم تستطع مجاراتهم، لأنها لا تملك سلطانا سياسيا يحميها، فاعتمدت السرية في نشر عقيدتها، واتخذت من المناطق العصية في أعالي الجبال موطنا لها حتى تنأى بنفسها عن هذا الصراع.
- ومن الناحية العسكرية، فإن الحركات الباطنية المذكورة لم تتأثر ببعضها كثيرا، إذ عملت كل طائفة منهم على تجنب الأخرى، لأنهم في جوار مع بعضهم، وكل اختلاف عسكري سيكون

أثره كبيرا عليهم، كما أنهم إخوة كلهم وهم على معتقد شبه موحد، ما داموا يدينون بالباطنية، ولذلك فإنه ليس من مصلحة أي منهم الاحتكاك بالآخر، غير أن التاريخ سجل بعضا من الاختلافات البسيطة، بين النزارية والمستعلية من جهة، والنزارية والدروز من جهة أخرى، ولعل السبب في ذلك هو العقيدة التي نشأت عليها طائفة النزارية المبنية على اعتماد القتل كوسيلة أولى للدفاع عن العقيدة.

- أما العالم الإسلامي ممثلا في أهل السنة، فإنه تأثر بالحركات الباطنية كثيرا، فعلى الصعيد العقائدي، تم فرض مذهب الباطنية على كل المناطق التي انتشرت بها هذه الحركات بحد السيف، فانحصر أهل السنة في أماكن ضيقة، واتخذوا مذهب الرفض معتقدا مرغمين، وخاصة في مصر وبلاد الشام، وأرض فارس، بينما سلمت بغداد وما جاورها من النفوذ الباطني نسبيا، لامتلاكها قوة عسكرية تستطيع حمايتها.
- وعلى الصعيد العسكري أيضا تركت الحركات الباطنية أثارا واضحة على العالم الإسلامي السني، وخاصة طائفتي النزارية والمستعلية، ففي المناطق التي خضعت لسلطان الفاطميين، فرض مذهب التشيع على أهلها عنوة، واضطهدوا أهل السنة، وأهل الذمة أيضا فقد فرض عليهم بعض الحكام الفاطميين شروطا قاسية لتمييزهم، وخاصة على عهد الحاكم بأمر الله.
- وفي عهد الحروب الصليبية ظهر التأثير الفاطمي واضحا على العالم الإسلامي وخاصة أهل السنة، فقد تركوهم عرضة للغزو الصليبي لأنهم لا يوافقونهم المذهب، وأكثر من ذلك تحالف الباطنية في بداية الأمر مع الصليبيين ضد أهل بالسنة، وكان من نتيجة هذا التخاذل أن استحوذ الصليبيون على كافة بلاد الشام وفلسطين، وكادت أن تدخل مصر في ملكهم، لو لم تتدخل القوة السنية (القوة النورية) وأنقذت الموقف.
- أما النزارية فهي الأخرى تركت أثارا واضحة على العالم الإسلامي، في الجانب العسكري، وكان من نتيجة ذلك أن ضاعت العديد من المدن الإسلامي التي كانت تدين بالإسلام الصحيح،

فصارت تعتقد مذهب الباطنية مرغمة، ومثال ذلك ما حدث لأهل فارس وبعض الأجزاء من بلاد الشام.

- كما أن النزارية أثرت أيضا على العالم الإسلامي، وخاصة عملية الجهاد الإسلامي، إذ ركز فدائيوها على اغتيال قادة الجهاد الإسلامي، فراح ضحيتهم خيرة القادة الذين رفعوا راية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، واستمروا على هذا الوضع مدة انتشارهم في فارس والشام.
- أما عن تأثير طائفتي الدروز والنصيرية على العالم الإسلامي من الناحية العسكرية، فإنه لم يكن كبيرا، وخاصة من جانب الدروز، فقد عرف عن هاتين الطائفتين أنهما ضعيفتين، ولم يكن لهم سلطان سياسي كبير ولذلك فإنهم لم يؤثروا بشكل كبير على العالم الإسلامي، ماعدا في بعض الحالات المعزولة، مثلما فعلت بعض الشخصيات النصيرية من مساندة للصليبيين في حروبهم على أهل السنة، مثلما حدث في أنطاكية عند مجيء الصليبين أول مرة.
- ومن جانب آخر فإننا وإنصافا للتاريخ، نقول بأن الدروز كانت لهم بعض المواقف الإيجابية في مواجهة الصليبيين، وخاصة على عهدي نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي، فقد رأينا كيف تصرفت بعض الأسر العربية الدرزية مع الصليبيين، بحيث وقفت لها ندا، وألحقت بها خسائر كثيرة، ونتيجة لذلك حصلت على رضا وثناء قادة الجهاد الإسلامي.
- لم يتأثر العالم المسيحي من الحركات الباطنية على نحو ما تأثر به العالم الإسلامي، فقد تعايشا معا، ولعل السبب في ذلك هو المصلحة المشتركة، فتدمير أهل السنة هو هدفهما معا، ولذلك تحالفا في كثير من المرات، وخاصة مع النزارية والفاطميين، وما سجل من خلاف بين الباطنية والعالم المسيحي، لم يكن سوى اختلافا حول مجالات نفوذ أحدها، مثلما حدث بين الفاطميين والصليبيين لما تجاوزوا حدود الاتفاق المبرم بينهما وهو مدينة أنطاكية في الشمال.

ثالثا– إسقاطات على الواقع

قد لا نؤمن بمقولة التاريخ يعيد نفسه، لأن الحوادث مهما تشابهت في زمانها ومكانها وتأثيراتها إلا أنها ليست هي نفسها التي حدثت في تاريخ سابق، فالاختلافات تبقى موجودة بوجود الاختلاف في المحيط العام للحادثة التاريخية، لكننا وجدنا كثيرا من نقاط التشابه بين فترة الدراسة وهي القرنين الخامس والسادس هجريين، والفترة الحالية، وإذا جاز لنا أن نقارن بين الفترتين فإننا سنتجنب الكثير من الأخطاء التي وقع فيها أسلافنا، وننطلق في بناء حاضر ومستقبل أفضل لنا ولأمة الإسلام جميعا، وفيما يلي سنحاول أن نقدم بعض الإسقاطات على واقعنا اليوم معتمدين معيارين هامين هما الموقع الجغرافي والتركيبة السكانية.

أ– في بلاد الشام

- اجتهد الباطنية خلال القرنين الخامس والسادس هجريين في الاستئثار بمنطقة الشام، فعمل الفاطميون على السيطرة على جنوبه، مستعملين بذلك كل الأساليب وخاصة العسكرية منها، ثم نافسهم إخوانهم الدروز في السيطرة على بعض الأجزاء من وسط الشام، بينما انعزل النصيريون بأقاصي الجبال في وسطه وشماله، كما عمل النزارية أيضا على تملك أي مكان تصل إليه أيديهم في أرض الشام، بينما لم يبق لأهل السنة إلا أجزاء يسيرة من أواسط وشمال الشام، وكان من نتيجة هذا التنافس، أن تداعت عليه أمم النصارى فاستولت على كثير من مدنه، وخاصة بيت المقدس.
- والأمر يكاد يكون اليوم مطابقا تماما لما كان في ذلك الزمان، إذ نرى أن وسط وشمال الشام يخضع لسلطة العلويين (النصيريين)، بينما تخضع منطقة لبنان وأجزاء من جنوب سوريا لسلطان الدروز، ورغم أنهم لا يظهرون دائما على مسرح الأحداث السياسية إلا أنهم يسيطرون على أغلب مفاصل الدولة هناك، ضف إلى ذلك وجود حزب الله في شمال لبنان، وهو الآخر على مذهب الإمامية، بينما تبقى منطقة فلسطين تخضع للقوة الصهيونية، وهو ما

يطابق السلطة الصليبية خلال فترة الدراسة، وأما أهل السنة فإننا نجدهم متفرقين في بعض الأجزاء من بلاد الشام، وأكبر تجمعاتهم نجدها في الأردن وفلسطين، فهنا يتبين لنا أن ما كان تعيشه بلاد الشام خلال العصور الوسطى يكاد يكون نفس ما تعيشه في الوقت الراهن، وما الصراع الدائر في سوريا ولبنان وفلسطين، وتدخل القوى الخارجية فيه اليوم، إلا تمثيلا للصراع الذي قاده الصليبيون سابقا من أجل الظفر بخيراته.

ب- في العراق

- اجتهد الباطنية خلال القرنين الخامس والسادس هجريين، في السيطرة على العراق وإخضاعه لسلطانهم، وبلغ أشده على عصر البويهيين الذين أعلنوا مذهب الرفض جهارا في نواحي بغداد وما جاورها، ثم تدخل الفاطميون وعملوا للقضاء على الخلافة العباسية، فقضوا عليها مدة من الزمن، إلى أن تدخل السلاجقة وأعادوا الهيبة للخلافة الصحيحة، فظلت على حالها رغم ضعفها، إلا أنها بقيت رمزا للسلطان السني.
- واليوم نرى العراق يخضع بشكل كلي للسلطان الشيعي الإمامي، فقد اجتهد الشيعة على القضاء على أهل السنة فابتدأوا بصدام حسين الذي كان يمثل رأس السلطان السني، فقضوا عليه بمساعدة من صليبيي اليوم، وهاهم يجتهدون في إثارة الفتنة بمنطقة كردستان السنية لتقسيمها، تمهيدا لفرض مذهب التشيع عليها.

ت- في بلاد فارس

- خضعت بلاد فارس لسلطة الباطنية النزارية منذ القرن الخامس الهجري، وصارت أغلبها تدين بمذهب الروافض مرغمة، ورغم وجود القوة السلجوقية إلا أنها لم تستطع الصمود أمام التنظيم المحكم للنزارية، فانتشرت هذه الأخيرة في سائر فارس وصارت لها هيبة وسلطان لا يقاوم آنذاك، وحتى أنها أرسلت دعاتها إلى أرض الشام لنشر الدعوة والتمكين لها هناك.
- واليوم نجد أرض فارس ممثلة في إيران تخضع لسلطان الشيعة الإمامية، وهي على قدر من القوة والهيبة في محيطها، حتى أنها تعمل جاهدة على نشر معتقدها في كل مكان يصل إليه دعاتها،

ولذلك نراها تدعم حزب الله في لبنان ليكون عينا لها تراقب به أرض الشام، كما تدعم أيضا قوات الحوثيين في اليمن، ويتحقق بذلك التطابق التاريخي، ففي السابق أرسل النزارية دعاتهم إلى أرض الشام لأجل هذه الغاية واليوم تفعل إيران نفس الأمر ولنفس الغاية.

ث- في اليمن

- كان اليمن خلال القرنين الخامس والسادس هجريين، خاضعا لسلطان الصليحيين وهم على مذهب الإسماعيلية، واستمروا عليه مدة حياة الدولة الصليحية، غير أن الذي ينبغي الإشارة إليه هو أنه ورغم فساد معتقد اليمنيين آنذاك إلا أن السكان لم يتعرضوا للاضطهاد بالشكل الذي تعرض له أهل المناطق الأخرى، غير أن فساد المعتقد يكفي أن يكون أكبر اضطهاد يتعرض له المرء، خاصة إن كان على إكراه.
- واليوم أهل اليمن يعانون من المد الشيعي الذي تبناه الحوثي وأتباعه، بدعم خارجي خاصة من إيران، ونتيجة للصراع حول السلطة دخل اليمن في دوامة العنف والتدمير الداخلي الذي فتك بالسكان.

ج- في مصر

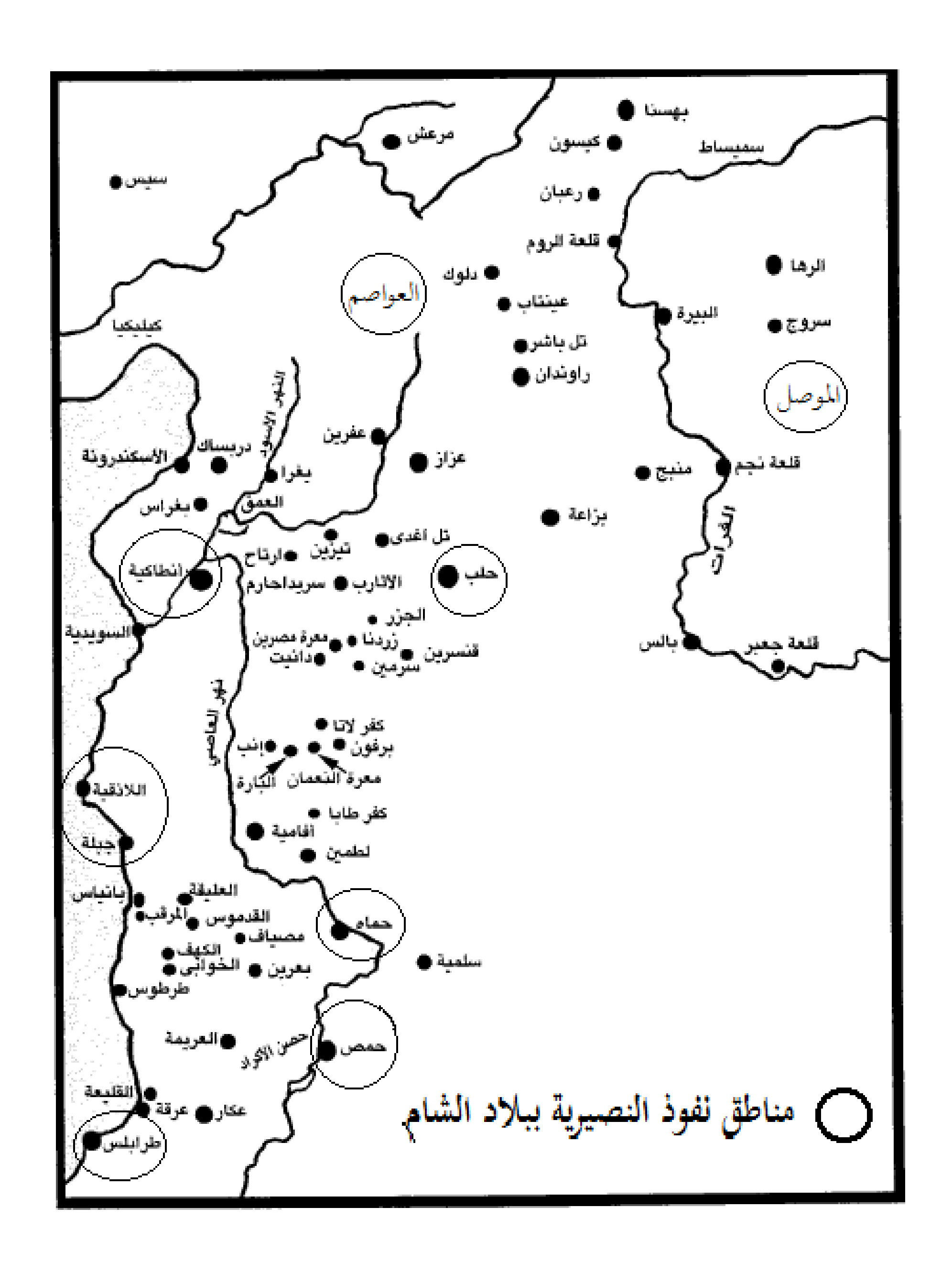
- تبقى مصر تشكل الاستثناء في الإسقاط التاريخي إذ أنها كانت تخضع لسلطان الفاطميين بشكل مطلق، ومنها كانت تنطلق الحملات العسكرية العقائدية إلى كل الوجهات الخارجية، واستمرت على ذلك طول حياتها، إلى انتهت على يد الأيوبيين.
- بينما يحاول الغربيون ممثلين في أوربا وأمريكا وإسرائيل إدخالها في دوامة العنف، تمهيدا لتدميرها، فاختلقوا لها ما يعرف بالربيع العربي، ثم ظاهرة الإرهاب الذي يحصد يوميا ضحايا جدد من شعبها، ونفس الأمر ينطبق على كثير من الدول العربية الأخرى.

قائمة الخرائط والملاحق

01- الخرائط

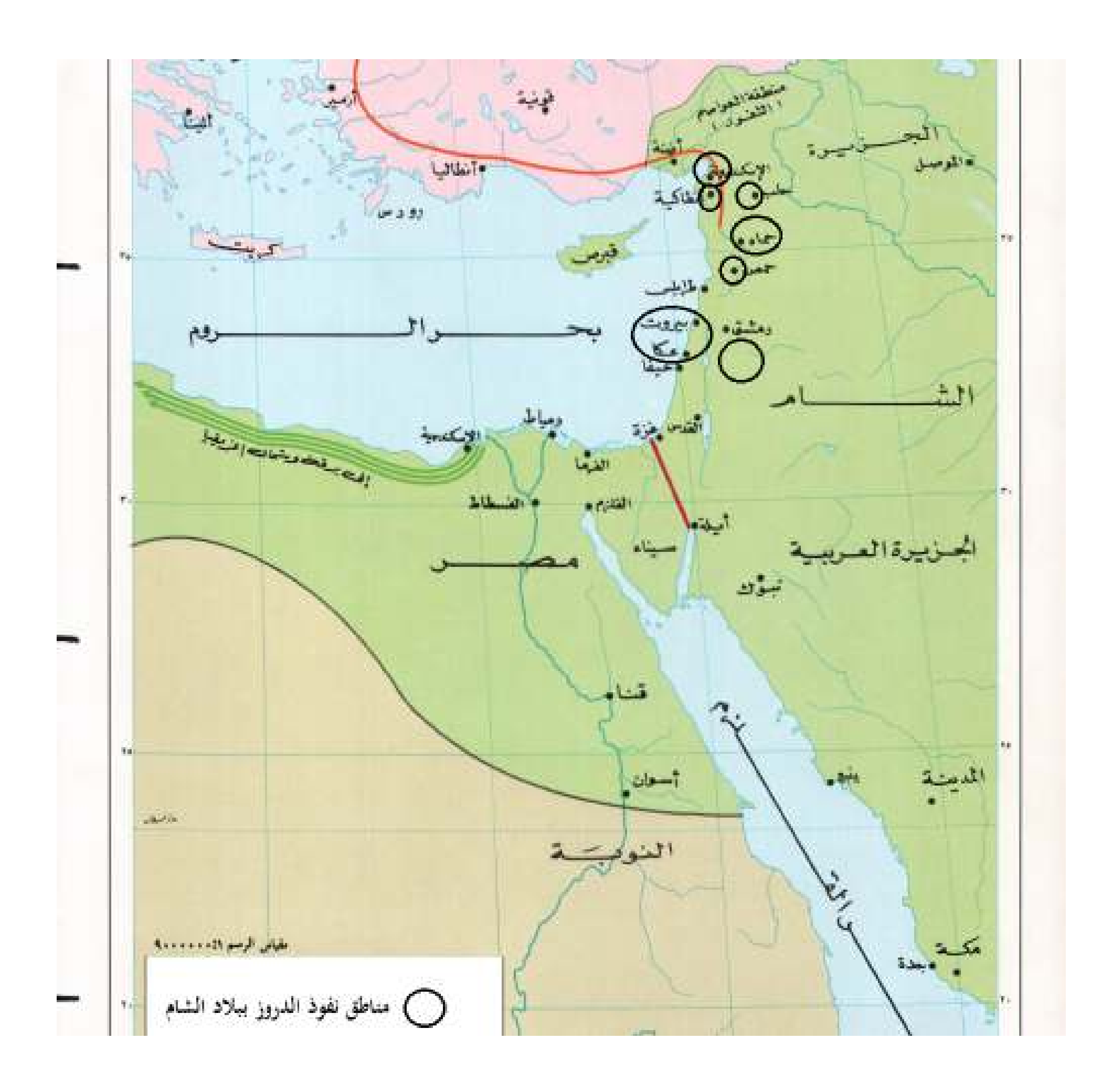
- خريطة رقم (01)[1]

- مناطق نفوذ النصيرية ببلاد الشام والعراق خلال القرنين (05-06هـ/11-12م).



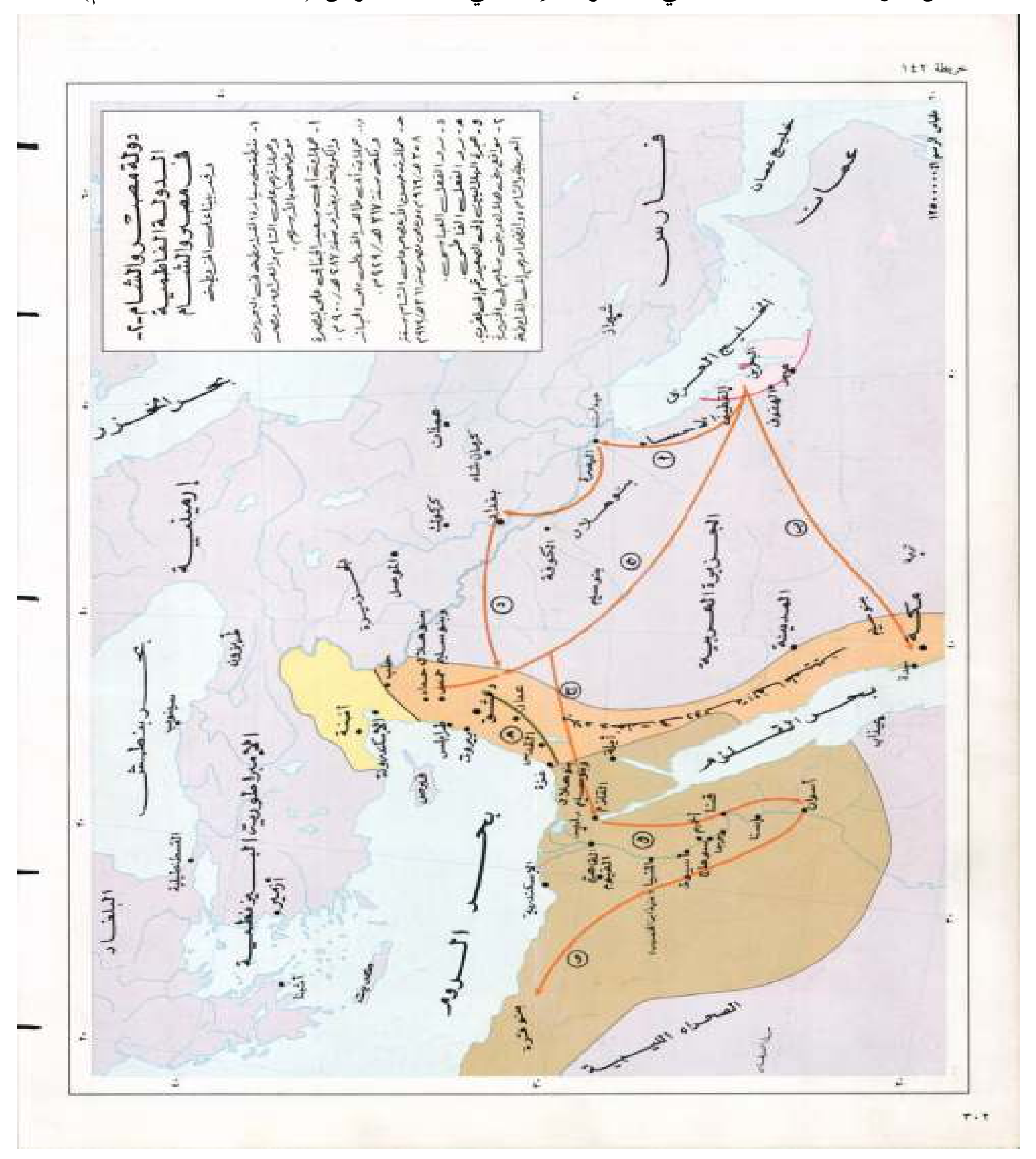
[1] محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، ص 531. (بتصرف).

- خريطة رقم (02)[1]
- مناطق نفوذ طائفة الدروز في بلاد الشام خلال القرنين (05-06هـ/11-12م).



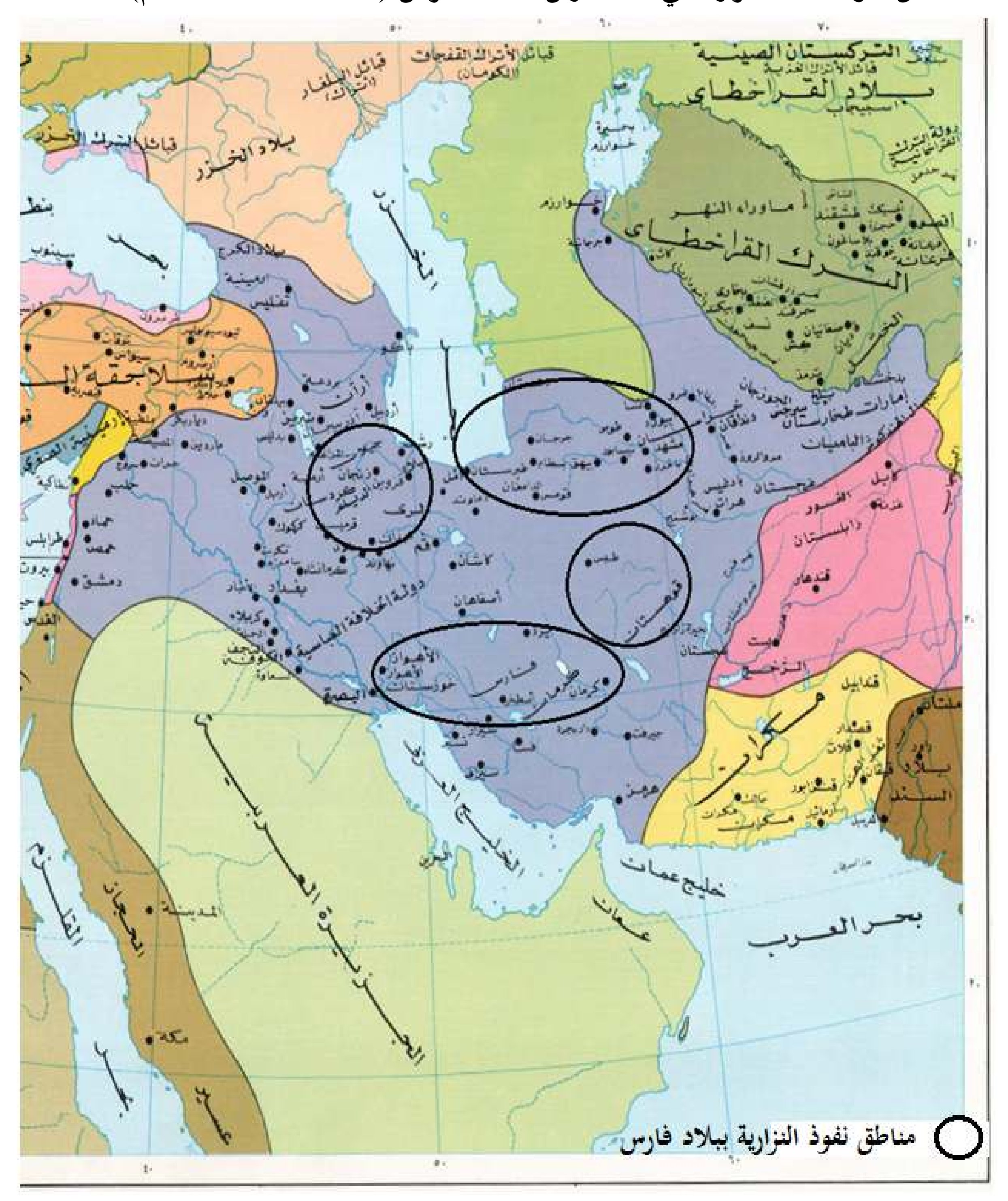
[1] حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي (القاهرة)، ط1 (1407هـ/1987م)، ص 301. (بتصرف)

- خريطة رقم (03)[1]
- مناطق نفوذ طائفة المستعلية في المشرق الإسلامي خلال القرنين (5-06هـ/11-12م)



[1] حسين مؤنس: المرجع السابق، ص 302.

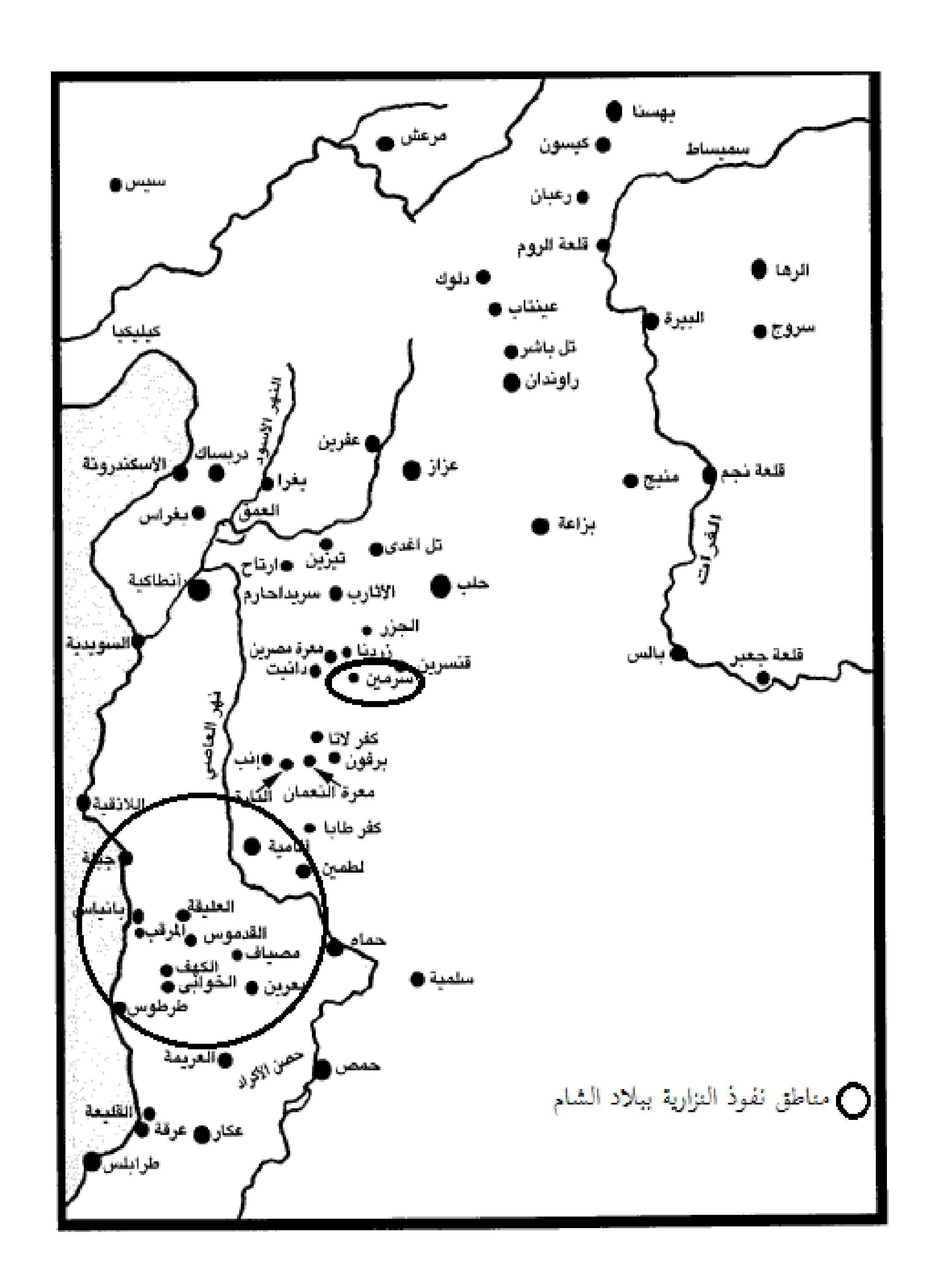
- خريطة رقم (**04**)[1]
- **مناطق نفوذ طائفة النزارية في بلاد فارس خلال القرنين (05-06هـ/11-12م)**



[1] حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي (القاهرة)، ط1 (1407هـ/1987م)، ص 221 (بتصرف).

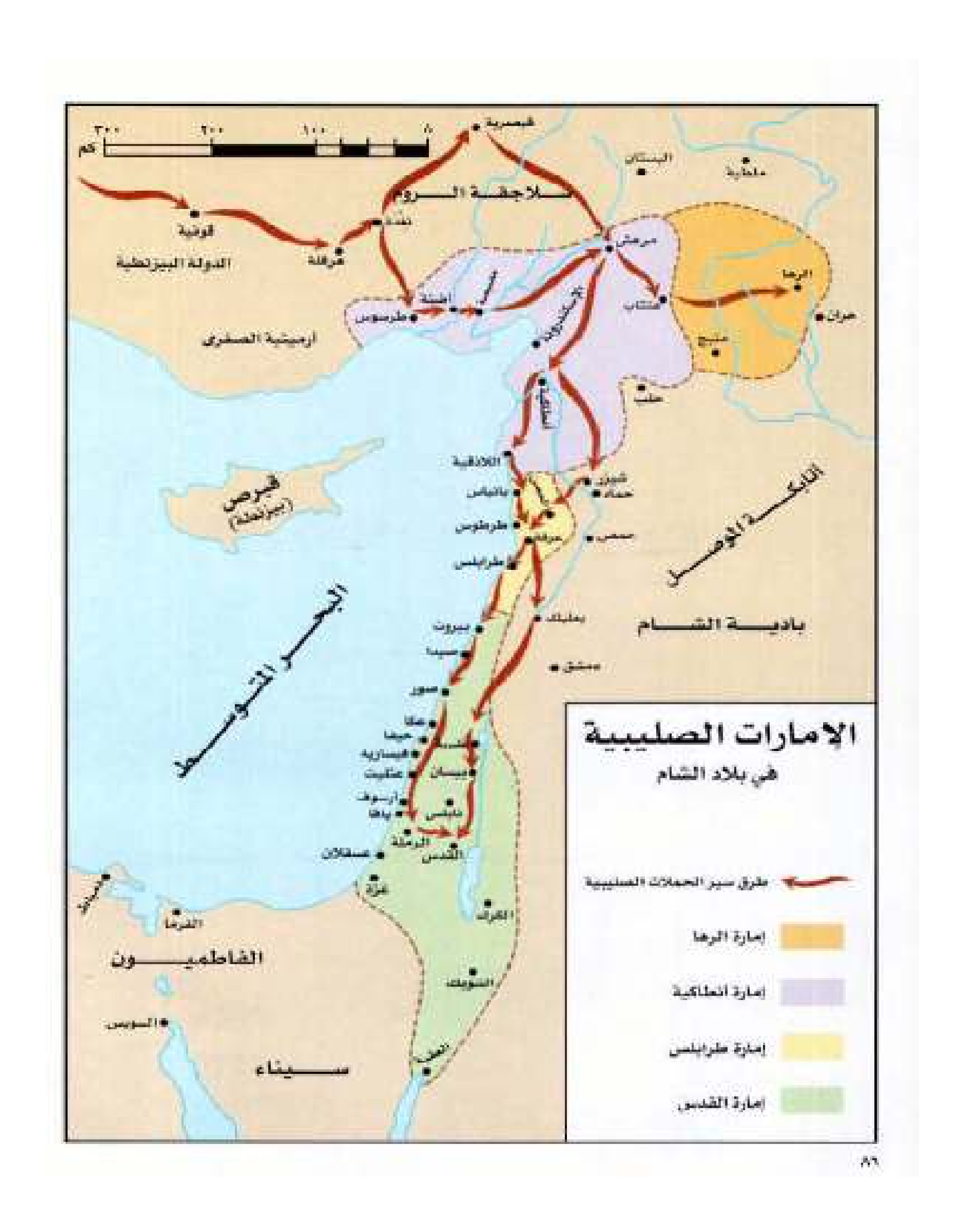
- خريطة رقم (05)[1]

- مناطق نفوذ طائفة النزارية ببلاد الشام خلال القرنين (05-06هـ/11-12م)



[1] محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 531. (بتصرف).

- **خريطة رقم (06)**[1]
- **الإمارات الصليبية ببلاد الشام خلال القرن (06هـ/12م)**



[1] شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر (دمشق)، ط12 (1425هـ/ 2005م)، ص 86.

2- الملاحق

ملحق 01: أبواب الأئمة النصيريين

01- الإمام علي بن أبي طالب وبابه سلمان الفارسي.

02- الحسن المجتبى وبابه هو قيس بن ورقة المعروف بالسفينة.

03- الحسين الشهيد وبابه رشيد الهجري.

04- علي زين العابدين: باباه عبد الله الغالب الكابلي المكنى بكنكر.

05- محمد الباقر بابه يحي بن معمر بن أم الطويل.

06- جعفر الصادق بابه جابر بن يزيد الجعفر.

07- موسى الكاظم بابه محمد بن أبي زينب الكاهلي.

08- علي الرضا بابه المفضل بن عمر.

09- محمد الجواد بابه محمد بن المفضل بن عمر.

10- علي الهادي بابه عمر بن الفرات المشهور بالكاتب.

11- حسن العسكري بابه أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري.

12- محمد المهدي بن الحسن العسكري بابه أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري (حسب معتقد النصيريين، بينما يرفض الشيعة الإمامية الآخرون أن يكون بابا له)[1].

[1] سليمان الحلبي: طائفة النصيرية، ص 38-39.

ملحق 02: عناوين الأعراف التي يتألف منها مصحف الدروز:

1. عَرفُ الفتح : فيه حديث عن هذا المصحف ، وتمجيد بما يحويه .
2. عَرفُ الأمر والتقديم : فيه دعوة إلى الإيمان ، بألوهية الحاكم ، والتهديد لمن لا يؤمن به بالعذاب والويل ، وفيه آيات من القرآن الكريم حُرفت بشكل واضح .
3. عَرفُ نداء الحضرة : فيه حديث عن نداء الإله في أدواره وظهوراته المختلفة للأيمان به ومشاهدته .
4. عَرفُ النزلة والتجلي .
5. عَرفُ التنبيه والهداية : وفيه توبيخ لمن أنكروا أن يروا الله جهرة كأمثالهم (أي أن يروا الحاكم) . وفيه أيضًا تحريف لآيات من القرآن الكريم .
6. عَرفُ الإنذار والحساب : وفيه تهديد بالعذاب لمن رفض دعوة الحاكم .
7. عَرفُ الجحود والتوبة .
8. عَرفُ المظاهر القدسية .
9. عَرفُ الإيمان والردة : وفيه تهديد للذين يرتدون عن هذا الدين .
10. عَرفُ النيزين .
11. عَرفُ الجيش العجيب المجر : وفيه عن مهاجمة جموع الناس لمقر حمزة أثناء اختفائه بعد ثورتهم ، وعن نصر الحاكم (الإله) له بعد ذلك وحمايته .
12. عَرفُ الزلزلة .
13. عَرفُ الأمثال : وفيه وصف لعذاب الذين كفروا بالحكم .
14. عَرفُ صلاة اللقاء : فيه دعاء موجه إلى الحاكم ، على أنه صلاة .
15. عَرفُ صلاة الرواح : فيه كذلك حدث عن العذاب الذي سَيحل بمن كفروا بالحاكم بعد أن رأوه جهرة .
16. عَرفُ كتاب أبي إسحق أو مراتب العباد : موجه إلى شخص اسمه : أبي إسحق محمد اللُّدي ، وفيه حديث عن ظهور المعبود ، وعن يوم القيامة وقوم يأجوج ومأجوج .
17. عَرفُ صلاة الفجر : وفيه دعاء ومناجاة للحاكم .
18. عَرفُ تجلي شمس الحقيقة وتغريد الحمامة الأزلية .

19. عَرفُ العهد والميثاق : وفيه نص العهد والميثاق .
20. عَرفُ صلاة الشكر والحمد على الإيمان .
21. عَرفُ الرحمة .
22. عَرفُ الوصية : وفيه عن أحكام الوصية في مذهبهم .
23. عَرفُ صلوات الشرائع : وفيه تحذير لأتباع المذهب من الاستماع إلى المسلمين ، ويتحدث فيه أيضًا عن فرائض الإسلام بشكل استهزائي ؟
24. عَرفُ أنباء الأولين والتجلي في بلاد السند والهند .
25. عَرفُ طلائع الموحدين .
26. عَرفُ مشارق التوحيد .
27. عَرفُ المحرمات : وفيه حديث عن المحرمات التي حرمها مولاهم الحاكم عليهم .
28. عَرفُ صلاة التسبيح .
29. عَرفُ فرائض الأحكام : وفيه عن تحريم الزنا على أتباع المذهب .
30. عَرفُ المشاهدة وكوثر التجليات .
31. عَرفُ خلائف العدل : وفيه عن تحريم الرشوة بينهم .
32. عَرفُ برازخ الكاف والنون أو الشفع والوتر : وفيه عن شكر مولاهم لأنه أخرجهم من عبادة العدم إلى أنوار المشاهدة .
33. عَرفُ حقيقة الصلاة والايمان .
34. عَرفُ الثِقلين .
35. عَرفُ الدعوة والعدل والتوكل والرحمة والفيض .
36. عَرفُ كتاب البيان إلى دولة الموحدين .
37. عَرفُ صلاة التجلي .
38. عَرفُ شمس المغيب
39. عَرفُ الأكسير .
40. عَرفُ الأمم في السموات والأرضين .
41. عَرفُ مائدة الكمال أو ألواح المقادير والإثبات والمحو والتنزيل .

42. عَرفُ عاقبة المكذبين : ويعتبر فيه القرآن صحف كتبت من قِبل آباء الجاحدين لحكمة التوحيد ، فهم لذلك في ضلال مبين .
43. عَرفُ الأعراف أو تسبيح مؤذني نواقيس الأختام .
44. بلاغ المحرمات وعَرفُ مسك الختام .

ملحق 03: تزويج أم كلثوم حسب الهفت الشريف

يقول الهفت الشريف: ((قال المفضل: قلت: سيدي أريد أن أسألك في شيء يتحدثون عنه أهل الكوفة، وإني يا مولاي أستحي أن أسألك عنه، قال: يا مفضل: قد علمت ما قد هممت به، وتريد أن تسألني عن تزويج أم كلثوم، قلت: نعم يا مولاي، فقال: اسمع يا مفضل ما أقول وافهم، إن أصل ذلك كان في الأظلة والأشباح على حسب ما أنا مفسره لك..

فقد كان هابيل يومئذ أمير المؤمنين ؟ وكان قابيل زافير وهو إبليس الأبالسة ؟ فأتى قابيل إلى هابيل فقال له: زوجني ابنتك، فامتنع عن تزويجه إياها، فقال عندئذ قابيل: والله لأقتلنك إن لم تزوجني بها، فلما هم بقتله زوجه جريرة بنت إبليس فظن قابيل أنها ابنة هابيل، والله أجل وأعظم من أن يفعل بأوليائه ذلك، فلما كان في تكرير السادس (حسب عقيدة النصيريين في التناسخ) وولى زاخر (أي عمر) أرسل إلى أمير المؤمنين (علي) يقول: زوجني ابنتك، فأرسل إليه علي سلمان الفارسي وقال له: قل له يا سلمان إنك عدت إلى ضلالك القديم، فأتى سلمان إلى زافر وأخبره بذلك، فلما علم أن سلمان قد اطلع على أمره اغتاظ وقال له: نعم قد عدت إلى ما ذكرت، فإما أن يزوجني وإما أن أغور ماء زمزم، وأرفع عن البيت الحرام رسم المقام، أو اقتله، فانصرف سلمان إلى أمير المؤمنين وأخبره، فقال علي: احمل إليه هذا الكتاب ، فحمل سلمان إليه الكتاب، فلما نظره (حبتر وأد لم)[1]، أي علم أنه أقبل في سبب، فقال ما وراءك؟ فقال سلمان أخبرني أمير المؤمنين أن أعرض عليك هذا الكتاب، فقال زافر: وما هو؟ فأخرج الكتاب وسلمه إياه، فلما فتحه وجد فيه صورة هابيل ونظر إلى نفسه يعني هو قابيل، فقال مخاطبا سلمان: إنما خطبت إليه ابنته لأنه يزعم أنني من نسل الشيطان، ولكن لابد أن يزوجني ابنته حتى يظهر كذبه عند الخلق، ولا ينجيه إلا التزويج أو القتل، فقال سلمان سأخبره بذلك، وأقبل على أمير المؤمنين وأخبره بكل ما جرى.

قال علي: قد علمت بكل ما قال، وأنا الآن أزوجه ابنته جريرة، كما زوجته قديما واشتبه عليه.

ثم إن سلمان انصرف إليه وأخبره بأن أمير المؤمنين قد أجابك إلى كل ما تريد ، فجمع أصحابه وعاهدهم على ذلك، ثم أمر أمير المؤمنين سلمان أن يحمل إليه ابنته جريرة، فأتى بها سلمان إليه

[1] حبتر: لقب يطلقه النصيريون على سيدنا أبي بكر، وأدلم: يطلقونه على سيدنا عمر، أنظر الهفت الشريف، ص 127. سليمان الحلبي، نفس المرجع السابق، ص 99.

فأعمى الله بصره، وجعل عليه غشاوة فلم يفهم، وتداخله السرور والفرح لذلك، ثم قال لسلمان: إني سأشكرك في قيامك في هذا الأمر، ولا أقدر على مكافأتك.

قال: ثم دخل فيها فوجدها على صورة أم كلثوم ؟ فلما أصبح أرسل إلى أصحابه وشياطينه ليحتج بذلك عندهم، فلما اجتمعوا إليه هنأوه بتزويجه، فقال زافر: كفانا أمر علي وأصحابه ؟ فإنهم لو كانوا بني أبي كبشة على حق ونحن على باطل، ما زوجونا كريمتهم، قالوا: صدقت، قال: والله إنهم سحرة كهنة كذابون وهذه حيلة بينهم، قال سلمان: وبينما هم كذلك دخلت عليهم فقالوا بأجمعهم نحن على باطل وصاحبك على حق ونحن عنده شياطين خونة، فلم زوجنا ابنته أم كلثوم ؟.

فقال لهم سلمان هذه الآية: { شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} فلما سمعوا ذلك من سلمان غضبوا عليه، وغضب الثاني غضبا شديدا، وهموا بي فقلت لهم: أتقتلوني في مجلسكم هذا ؟

ثم قال سلمان: لما هموا بي قال بعضهم لبعض فما نصنع بهذا العجمي وقد نلت حاجتك، فافترقوا، وبلغ ما تحدثوا به أمير المؤمنين عليا بن أبي طالب، فأمر سلمان ان يسير إليهم ويحدثهم بالحقيقة، وما لبس عليه من أمر ابنته، حتى يكف عن فجوره وتبجحه – (أخزاهم الله)- فيصغر في نفسه ويقل قدره، ويموت من العار والحزن[1].

قال سلمان: فأتيت في منزله ولم يكن أحد عنده فقلت له: كيف وجدت زوجتك؟ فقال: إنها موافقة لي تتجنب مخالفتي في السر والعلانية، وهي كأنها منا وفينا، فقال سلمان: نعم إنها منك وإليك وهي ابنتك جريرة فادخل عليها لعلك تعرفها الآن، فلما سمع هذا لم يتمالك عقله، فدخل عليها ونظر فيها، فإذا هي ابنته جريرة، لم ينكر منها شيئا، فصاح صيحة رجت لها الدار، واغتاظ غيظا شديدا، وقال قد فعلها الساحر بن أبي طالب، ليست هذه بأول أفعاله، والله لأفعلن وأفعلن، فقال له سلمان: لا تكشف عورتك وتبدي سيرتك، وتنفضح في عشيرتك، ومن رأيي ومشورتي لك أن تكتم ذلك، فإن كتمت قال الناس: زوجه ابنته، وإن أبديت انكشف للناس أمرك، فقال: كفاني يا سلمان أني مت غيضا، وسأقبل منك ما تقول، وليقل هذا الساحر ما يقول، فلا طاقة لي ولأصحابي بسحره، وكتم عن أصحابه قصته خوفا من العار، ومات حنقا وغيظا لا رحمه الله ولا رضي عته رب العالمين...تم[2].

---

[1] سليمان الحلبي، نفس المرجع السابق، ص 100.

[2] المفضل بن عمر الجعفي: نفس المصدر السابق، ص 84-88.

ملحق 04: حديث عماد الدين الأصفهاني عن خطر الباطنية النزارية

((فنابت النوائب، وظهرت العجائب، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا، وكالوا بصاعنا، وساح في العالم، وكانت صناعته الكتابة، فخفى أمره حتى ظهر وقام، فأقام من الفتنة كل قيامة، واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة، وبدا من القتل والفتك بأمور شنيعة، وخفيت عن الناس أحوالهم، ودامت حتى استتبت على استتار، بسبب أن لم يكن للدواة أصحاب أخبار، وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك أنهم لم يخلوا جانبا من صاحب خبر وبريد، فلم يخف عندهم أخبار الأقاصي والأداني، وحال الطائع والعاصي، حتى ولي في الدولة السلجوقية ألب أرسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك في الأمر فأجابه أنه لا حاجة لنا إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر وكان له غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق، فأسقط السلطان هذا الرسم، لأجل ما وقع له من الوهم، فلم يشعر إلا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم، واستوثقت معاقدهم، وأخافوا السبل، وأجالوا على الأكابر الأجل، وكان الواحد منهم يهجم على كثير، وهو يعلم أنه يقتل فيقتله غيلة، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة، فصار الناس فيهم فريقين، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة، فمن عاداهم خاف من فتكهم، ومن سالمهم نسب إلى شركهم في شركهم.

وكان الناس منهم على خطر عظيم على الجبهتين، فأول ما بدأوا بقتل نظام الملك، ثم اتسع الخرق وتفاقم الفتق، ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف، تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم، ودب إلى البرء السقم وتوفرت على التوقي الهمم، وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعا لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد، كما جرى لملك كرمان فإن الرعية اتهموه بالميل إلى القوم فبطشوا به وقتلوه وأقاموا ملكا آخر مكانه، وما كان سلطان يلي يثق بخواصه، وسعى ذووا الأغراض في ذوي اختصاصه، ولما عرفوا جد السلطان في إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض، وأحب وصمه بالإلحاد لسابق عداوة وبغضن ووسمه باسم لم يمحه عنه غير السيف، ولم يجد محيدا عن التزام الحيف، وبقى في هذه الاصطكاكات والاصطدامات خلق كثير، وجم غفير، ولم يبق للأكابر في دفع ما عرى رأي ولا تدبير[1].

[1] عماد الدين الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ص 61-62-63.

قائمة المصادر والمراجع

أولا– المصادر

- القرآن الكريم.

01- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ، تح: محمد إبراهيم ، دار الكتاب العربي (بغداد)، ط1 (1428هـ/2007م)، ج8.

02- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط4 (1423هـ/2004م).

03- ــــــــــــ: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار بن حزم (بيروت)، ط1 (1433هـ/2012م).

04- ــــــــــــ: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تح: عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة (بغداد)، د–س–ن.

05- ابن الأكفاني محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في العلوم، تح: عبد المنعم محمد عمر، مر: أحمد حلمي عبد الرحمن، دار الفكر العربي (القاهرة)، د–س–ن.

06- ابن إياس الحفني محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، دار الباز (مكة المكرمة)، د–س–ن.

07- ابن أيبك الدواداري أبو بكر بن عبد الله: كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)، تح: دوروتيا كراغوسكي، د–د–ن، (بيروت)، (1413هـ/1992م).

08- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تق: محمد حسين جمال الدين، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1413هـ/1992م).

09- ابن تيمية أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، تح: محمد رشاد سالم، ط1 (1406هـ/1986م)، د-د-ن، ج7.

10- ـــــــــــ: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم بمساعدة ابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (المدينة المنورة)، ط1 (1425هـ/2004م)، ج35.

11- ابن جبير: رحلة بن جبير، دار الشرق العربي (بيروت)، ط01 (1428هـ/2007م).

12- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، مر: نعيم زرزور، دار صادر (بيروت)، ط1 (1359هـ).

13- ـــــــــــ: تلبيس إبليس، دار القلم (بيروت)، ط1 (1403هـ/1983م).

14- ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح: عبد الرحمن خليفة، ط1 (1348هـ)، دار محمد علي صبيح (القاهرة)، ج04.

15- ابن حماد العقيلي المكي أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى: الضعفاء الكبير، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1، د-س-ن، ج3.

16- ابن حوقل النصيبي أبو القاسم: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة (بيروت)، ط1 (1992م)، ج1.

17- ابن الخطيب لسان الدين الوزير: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من أعمال الأعلام)، تح وتع: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب (الدار البيضاء- المغرب)، ط1 (1964).

18- ابن خلدون عبد الرحمن: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مر: سهيل زكار، دار الفكر (بيروت)، ط1 (1421هـ/2001م).

19- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، د-س-ن.

20- ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيد مر العلائي ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، المكتب التجاري للطباعة والنشر (بيروت).

21- ــــــــــــ: الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، مر: أحمد السيد دراج، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي (جامعة أم القرى)، د-س-ن.

22- ابن الزبير الرشيد: الذخائر والتحف، تح: محمد حميد الله، مر: صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر (الكويت)، ط1 (1959م).

23- ابن الصيرفي أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب: الإشارة لمن نال الوزارة، تح و تع: عبد الله مخلص، خزانة الكتب الخالدية (بيت المقدس)، د-س-ن.

24- ابن الطقطقا محمد بن علي بن طباطبا المدعو: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر(بيروت)، د-س-ن.

25- ابن العديم الصاحب: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح وتق: سهيل زكار، دار الفكر (بيروت)، د-س-ن.

26- ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي (دمشق)، ط1 (1418هـ/1997م)، ج01.

27- ابن العماد شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير (دمشق)، ط1 (1406هـ/1986م).

28- ابن القلانسي أبو يعلى بن أسد بن علي بن محمد التميمي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان دمشق، ط01 1403هـ/1983م.

29- ابن سباط الغربي حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار في تاريخ بن سباط، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار جروس برس (طرابلس-لبنان)، د-س-ن.

30- ابن عبد الظاهر المصري محي الدين أبو الفضل عبد الله: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تح: أيمن سيد فؤاد، مكتبة الدار العربية (القاهرة)، ط1(1417هـ/1996م).

31- ابن عبد الملك المكي عبد الملك بن حسين: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوّض، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1419هـ/1998م).

32- ابن عمر الجعفي المفضل: الهفت الشريف من فضائل مولانا جعفر الصادق، تح، مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت)، ط2 (1977).

33- ابن كثير القرشي الدمشقي عماد الدين أبو الفدا إسماعيل: البداية والنهاية، خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد ومحمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبو الصفا (القاهرة)، ط1 (1423هـ/2003م)، ج12.

34- ابن مسلم القشيري النيسابوري أبو الحسين مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، راجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط01(1424هـ/2004م).

35- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر (بيروت)، د-س-ن.

36- ابن منقذ أسامة الكناني الشيزري: الاعتبار (مذكرات أسامة بن منقذ في الحروب الصليبية)، تح: عبد الكريم الأشتر، دار المكتب الإسلام (بيروت)، ط2 (1424هـ/2003م).

37- ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب: أخبار مصر، تح: أيمن سيد فؤاد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، د-س-ن.

38- ابن هانئ الأندلسي: ديوان ابن هانئ الأندلسي، دار بيروت (بيروت)، ط1 (1400هـ/1980م).

39- ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال وآخرون، د-د-ن.

40- ابن يحي صالح: تاريخ بيروت وأخبار الأئمة البحتريين من بني الغرب، تع: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية (بيروت)، ط2 (1927م).

41- أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تق وتح وتع: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، ط1 (1415هـ/1995م).

42- ـــــــــــ: المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه، محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، (1417هـ/1997م)، ج2.

43- أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح وتع: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط1 (1418هـ/1997م).

44- الأدني سليمان أفندي: الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية، ب-د-ن.

45- الأزدي جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور بن ظافر: أخبار الدول المنقطعة، تح: عصام مصطفى هزايمة وآخرون، دار الكندي (إربد- الأردن)، ط 1 (1999م).

46- الإسفرائيني أبو المظفر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تح: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب (بيروت)، ط1 (1403هـ/1983م).

47- الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية (صيدا- بيروت)، ط1 (1411هـ/1990م)،

48- الأصفهاني عماد الدين محمد بن محمد بن حامد: تاريخ دولة آل سلجوق، شركة طبع الكتب العربية (القاهرة)، ط1 (1318هـ/1900م).

49- الأنطاكي يحي بن سعيد بن يحي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار جروس برس (طرابلس –لبنان)، ط1 (1990م).

50- البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري (كتاب الأحكام)، دار بن رجب، ط1 (1425هـ/2004م).

51- البطائحي جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون: نصوص من أخبار مصر، تح: أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي لآثار الشرقية (القاهرة)، د- س–ن.

52- البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر: الفرق بين الفرق، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع (القاهرة)، د–س–ن

53- ــــــــــــــ: كتاب الملل والنحل، تح وتع: ألبير نصيري نادر، دار المشرق (بيروت)، ط1 (1970م).

54- البغدادي صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تح وتع: على محمد البجاوي، دار المعرفة (بيروت)، ط1 (1373هـ/1954م).

55- البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مجلس دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد- الهند)، ط1 (1377هـ/1958م).

56- الجندي محمد سليم: تاريخ معرة النعمان، تح وتع: عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة السورية (دمشق) 1994، ج1.

57- الحجازي عبد الله بن إبراهيم وآخرون: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلى المغرب)، تح: حسين نصار، دار الكتب (القاهرة)، ط1 (1970م).

58- الحريري أحمد بن علي: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تح و تع: سهيل زكار، دار الملاح، ط1(1401هـ/1981م).

59- حمزة بن علي- إسماعيل التميمي- بهاء الدين السموقي: رسائل الحكمة، دار لأجل المعرفة، ديار عقل (بيروت) ط5(1986م).

60- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر (بيروت)، ط1 (1397هـ/1977م).

61- ـــــــــ: المشترك وضعا والمفترق صقعا، عالم الكتب، ط2 (1406هـ/1986م).

62- الدباغ أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، تح: محمد ماضور، المكتبة العتيقة (تونس)، ط2 (1388هـ/1968م)، ج3.

63- الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ومشاهير الوفيات الأعيان، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت- لبنان)، ط1 (1417هـ/1996م).

64- ـــــــــــ: سير أعلام النبلاء، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط11 (1417هـ/1996م).

65- ـــــــــــ: العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1405هـ/1985م).

66- ـــــــــ: دول الإسلام، تح وتع: حسن إسماعيل مروة، تق: محمود الأرناؤوط، دار صادر (بيروت)، ط1 (1999م).

67- ر. شتروطمان: أربعة كتب إسماعيلية (لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من له الحل والعقد)، دار التكوين (دمشق)، ط1 (2006م).

68- الرازي فخر الدين: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مر: علي سامي النشار، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، ط1 (1356هـ/1938م).

69- السبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي: طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناوي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1383هـ/1964م)، ج7.

70- سبط بن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: محمد بركات وعمار ريحاوي، دار الرسالة العالمية (دمشق)، ط1 (2013م/1434هـ)، ج04.

71- السنجاري المكزون: أدعية السبعة أيام، تح: رواء جمال علي، د-د-ن، (2013م).

72- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن: تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم (بيروت)، ط1(1424هـ/2003م).

73- ـــــــــ: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1 (1387هـ/1967م)، ج2.

74- الشدياق طنوس: أخبار الأعيان في جبل لبنان، مر: فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية (بيروت)، ط1 (1970م).

75- الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد: الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا- علي حسن فاعور، دار المعرفة (بيروت)، ط3 (1414هـ/1993م).

76- الشيرازي المؤيد في الدين هبة الله: سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (ترجمة حياته بقلمه)، تح وتق: محمد كامل حسين، دار الكتاب المصري(القاهرة)، ط1 (1949م).

77- الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الكبير، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة بن تيمية (القاهرة)، د-د-ن.

78- العاني منتجب الدين: ديوان المنتجب العاني، شر- تح: هاشم عثمان، مؤسسة النور (بيروت)، ط1 (1423هـ/2002م).

79- العجلوني إسماعيل بن محمد الجراحي: كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة القدس، (1351هـ).

80- العسقلاني ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط1 (1418هـ/1998م).

81- ـــــــــ: الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1415هـ/1995م)، ج4.

82- ـــــــــ: تهذيب التهذيب، ط1(1325هـ)، حيدر آباد الدكن (الهند)، ج9.

83- ـــــــــ: لسان الميزان، اعتنى به الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية (بيروت)، ط1 (1423هـ/2002م)، ج3.

84- محمد بن علي العظيمي الحلبي: تاريخ حلب، تح وتق: إبراهيم زعرور، د-د-ن، (دمشق)، د-ط 1984.

85- علي بن الوليد الداعي المطلق: دامغ الباطل وحتف المناضل، تح وتق: مصطفى غالب، مؤسسة عز الدين (بيروت)، ط1 (1403هـ/1982م)، ج1.

86- العليمي مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان)، (1420هـ/1999م)، ج1.

87- عماد الدين القرشي إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار (السبع السادس- أخبار الدولة الفاطمية)، تح: مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت)، ط2 (1404هـ/1984).

88- الغزالي أبو حامد: فضائح الباطنية، تح وتق: عبد الرحمن بدوي، المكتبة العربية (القاهرة)، ط1 (1383هـ/1964م).

89- الفارقي أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق: تاريخ الفارقي، تح: بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني (بيروت)، ط2 (1974م).

90- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط6 (1998م).

91- القاضي النعمان المغربي: دعائم الإسلام، تح: آصف بن علي أصغر فيضي، ط1، (1383هـ/1963م)، دار المعارف (القاهرة)، ج01.

92- ـــــــــــــــ: الهمة في إتباع آداب الأئمة، تح: محمد كامل حسين، دار الفكر العربي، د-س-ن.

93- القزويني زكريا بن محمد محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر (بيروت)، د-س-ن.

94- القلقشندي أبو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، ط1 (1340هـ/1922م).

95- الكرماني أحمد حميد الدين: راحة العقل، تح و تق، مصطفى غالب، دار الأندلس، (بيروت).

96- ـــــــــــــــ: مجموعة رسائل الكرماني، تق وتح: مصطفى غالب المؤسسة الجامعية، (بيروت)، ط2، (1407هـ/1987م).

97- الكندي أبو عمر محمد بن يوسف المصري، الولاة والقضاة، تص: رفن كست، دار الآباء اليسوعيين (بيروت)، ط1 (1908م).

98- ـــــــــــــ: تاريخ ولاة مصر، مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت)، ط1(1407هـ/1987م).

99- مجهول: النقط والدوائر، تح: كريستيان فريدرخ سيبلد، دار الوراق، ط1 (2012م).

100- المراكشي بن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج- س كولان وإليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت)، ط3 (1983م).

101- المستنصر بالله الفاطمي: السجلات المستنصرية، تح: عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي(مصر)، ط1 (1954).

102- المسعودي أبو الحسن بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، مر: كما حسن مرعي، المكتبة العصرية (صيدا)، ط1 (1425هـ/2005م).

103- مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية(بيروت)، ط1(1424هـ/2003م)، ج5.

104- المعافري أبو عبد الله محمد بن مالك بن أبي القبائل: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تح: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، مركز الدراسات والبحوث اليمني (صنعاء)، ط1 (1415هـ/1994م).

105- المقريزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (القاهرة)، ط1 (1427هـ/2007م).

106- ـــــــــــــ: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال، وزارة الأوقاف المصرية، ط2 (1416هـ/1996م).

107- ـــــــــــــ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1418هـ/1997م).

108- ــــــــــــ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي (القاهرة)، ط1 (1997م)، ج3.

109- ــــــــــــ: المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط1 (1411هـ/1991م).

110- الملطي ابن العبري غريغوريوس: مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة (1992م).

111- الملواني بن الوكيل يوسف: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية (القاهرة)، (1419هـ/1999م).

112- النوبختي الحسن بن موسى والقمي سعد بن عبد الله: فرق الشيعة، تحقيق: عبد المنعم الحفني، (دار الرشاد)، ط1 (1412هـ/1992م).

113- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1424هـ/2004م)، ج28.

114- النيسابوري أحمد بن إبراهيم: إثبات الإمامة، تح وتق: مصطفى غالب، دار الأندلس (بيروت)، ط1 (1996م/1416هـ).

115- النيسابوري أبو منصور عبد الملك الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط1 (1403هـ/1983م)، ج1.

116- يحي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، مر: محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي (القاهرة)، ط1 (1388هـ/1968م)، ج1.

117- اليماني تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد: تاريخ اليمن المعروف ببهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الكلمة (صنعاء)، ط02 (1985م).

118- اليماني عبد الواسع بن يحي الواسعي: تاريخ اليمن المسمى (فُرجة الهموم والحزَن في حوادث وتاريخ اليمن)، المطبعة السلفية (القاهرة)، ط1 (1346هـ).

المصادر المعربة:

119- ألبرت فون آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس (1095-1120م)، تر: محمد حمدان أحمد، دار الإعصار العلمي (دمشق)، ط1 (1437هـ/2016م).

120- توديبو بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، تر: حسين محمد عطية، تق: جوزيف نسيم، دار المعرفة الجامعية(الإسكندرية)، ط1 (1999).

121- الجويني علاء الدين عطا ملك: تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي)، تر: محمد السعيد جمال الدين، تح: محمد بن عبد الوهاب القزويني، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية (القاهرة)، ط1 (2015م)، ج3.

122- رنسيمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت(1968).

123- الشارتري فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس، تر: زياد جميل العسلي، دار الشروق (بيروت)، ط1(1990).

124- الصوري ويليام: الحروب الصليبية، تر وتع: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1(1992م).

125- ماكس فون أوبنهايم: الدروز، تر: محمود كبيبو، دار الوراق(لندن)، ط04 (2016).

126- مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه، د-حسن حبشي، دار الفكر العربي، ط1 (1958).

127- ناصر خسرو علوي: سفر نامة، تر: يحي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1 (1993م).

128- ماركوبولو (الرحالة): رحلات ماركوبولو (الينابيع)، ترجمة إلى الإنجليزية: ويليام مارسدن، ترجمة إلى العربية: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتب (القاهرة)، ط2 (1995م).

ثانيا- المراجع

01- إبراهيم الشيخ عيد يوسف: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، دار المعالي (عمان –الأردن)، ط1 (1419هـ/1998م).

02- ابن موسى تيسير: نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين محمود، الدار العربية للكتاب(تونس)، ط1 (2009م).

03- أبو إسماعيل سليم: الدروز (وجودهم، مذهبهم، توطنهم)، د- د-ن.

04- أبو النصر محمد عبد العظيمي: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (القاهرة)، ط1 (2001م).

05- أبو راشد حنا: جبل الدروز، مكتبة زيدان العمومية، ط01 (1925).

06- أبو زهرة محمد: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي (القاهرة)، د-س-ن.

07- أبو مصلح حافظ: تاريخ الدروز في بيروت(1017م/1975م)، دار الفنون (بيروت)، ط1 (1418هـ/1998م).

08- أحمد عوض محمد مؤنس: في الصراع الإسلامي الصليبي(السياسة الخارجية للدولة النورية)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (القاهرة)، ط1 (1998م).

09- الأسعد نسيب أسعد: كشف الستار (بحث موثق في مذهب التوحيد)، دار رسلان (دمشق) ، ط01 (2010م).

10- بدوي عبد الرحمن: مذاهب الإسلاميين (الإسماعيلية- القرامطة- النصيرية)، دار العلم للملايين (بيروت)، ط1(1997م).

11- آل معروف إيميل عباس: العلويون في بلاد الشام منذ فجر الإسلام إلى تاريخنا الحاضر، دار الأمل والسلام (لبنان)، ط1 (2013م)، ج1.

12- جلي أحمد محمد أحمد: دراسات عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)، شركة الطباعة العربية السعودية، ط1 (1406هـ/1986م).

13- حبشي حسن: نور الدين والصليبيون(حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري)، دار الفكر العربي (بيروت)، د-س-ن.

14- الحرازي حسين بن فيض الله اليماني اليعربي وحسن سليمان محمود الجهني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، منشورات المدينة (صنعاء)، ط3 (1407هـ/1986م).

15- الحريري أبو موسى: العلويون النصيريون (بحث في العقيدة والتاريخ)، دار لأجل المعرفة (ديار عقل-بيروت)، ط1 (1400هـ/1980م).

16- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل (بيروت)، ط14 (1416هـ/1996م)، ج4.

17- الحلبي سليمان: طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها، الدار السلفية، ط2 (1404هـ/1984م)، (الكويت).

18- رستم سعد: الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات (النشأة – التاريخ- العقيدة- التوزيع الجغرافي)، دار الأوائل (دمشق)، ط3 (2005م).

19- رضا محمد: أبو بكر الصديق، أول الخلفاء الراشدين، مر: أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط1 (1425هـ/2005م).

20- ـــــــــــ: الإمام علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين، مر: أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط1 (1425هـ/2005م).

21- ـــــــــــ: عثمان بن عفان ذو النورين ثالث الخلفاء الراشدين، مر: أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط1 (1425هـ/2005م)، ص 17-18.

22- ـــــــــــ: عمر بن الخطاب الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، مر: أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية (صيدا-بيروت)، ط1 (1425هـ/2005م).

23- عمر أنور الزبداني: الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (485/408هـ)، تق: محمد الزحيلي، دار العصماء (دمشق)، ط1 (1438هـ/2017م).
24- زكي زيد أسامة: الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، تق، جوزيف نسيم يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط01 (1980م).
25- السامر فيصل: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، مطبعة الجامعة (بغداد)، ط1 (1973م)، ج2.
26- سرور جمال الدين: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي (القاهرة)، د-س-ن.
27- ـــــــــ: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس هجريين، دار الفكر العربي (القاهرة)، د-ط.
28- سيد فؤاد أيمن: الدولة الفاطمية في مصر(تفسير جديد)، الدار المصرية اللبنانية(القاهرة)، ط1(1413هـ/1992م.
29- شرف الدين تقي: النصيرية دراسة تحليلية، د-د-ن.
30- الشريف منير: المسلمون العلويون من هم وأين هم، مؤسسة البلاغ (بيروت- لبنان)، ط1 (1415هـ/1994م).
31- مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، الدار المصرية اللبنانية، ط 11 (1416هـ/1996م).
32- الصلابي محمد علي: الدولة الفاطمية، ط1(1427هـ/2006م)، مؤسسة إقرأ للنشر (القاهرة).
33- طقوش محمد سهيل: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت(لبنان)، ط2 (1428هـ/2007م).
34- ـــــــــ: تاريخ الزنج والقرامطة والحشاشين، دار النفائس (بيروت)، ط1 (1435هـ/2014م).

35- ـــــــــــ: تاريخ السلاجقة في بلاد الشام (471-511هـ/1078-1117م)، دار النفائس(بيروت)، ط3 (1430هـ/2009م).

36- الطويل محمد أمين غالب: تاريخ العلويين، دار الترقي (اللاذقية)، (1343هـ/1924م).

37- ظهير إحسان إلهي: الإسماعيلية، تق: سيد بن حسين العفّاني، دار بن حزم (القاهرة)، ط1 (1429هـ/2008م).

38- عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف (القاهرة)، ط2، د-س-ن.

39- عاشور سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية(صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى)، مكتبة الأنجلو مصرية (القاهرة)، ط01 (1971)، ج01.

40- ـــــــــــ: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار الأحد (بيروت)، ط1 (1977م).

41- عبد الله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب، وانتقالها إلى مصر، إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة (القاهرة)، (1411هـ/1991م).

42- عبد الهادي السيد عبد اللطيف ، الحشاشون (دراسة في ظاهرة الإرهاب في الماضي والحاضر)، المكتب الجامعي الحديث، ط1 (2011م).

43- عشري عثمان عبد الحميد: الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية (491-691هـ/1097-1290م)، المكتبة التاريخية، د-س-ن.

44- عمران محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م)، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية)، ط1 (1995).

45- غالب مصطفى: الحركات الباطنية في الإسلام، دار الأندلس (بيروت)، د-س-ن.

46- الغامدي مسفر بن سالم عريج: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية (491-569هـ/1097-1170م)، دار المطبوعات الحديثة (جدة)، ط1 (1406هـ/1986م).

47- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ الفاطميين في مصر الإسلامية (منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الفاطمي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة)، ط1 (2000م)، ج1.

48- الفياض زيد بن عبد العزيز: حقيقة الدروز، دار الألوكة للنشر (الرياض)، ط2 (1437هـ).

49- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (الكويت)، ط1 (1978).

50- كرد علي محمد: خطط الشام، مكتبة النوري (دمشق)، ط3 (1403هـ/1983م)، ج2.

51- لقبال موسى: ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق، المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر)، ط1(1990).

52- محمد جمال الدين السعيد: دولة الإسماعيلية في إيران (بحث في تطور الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الدولة)، الدار الثقافية للنشر(بيروت)، ط1 (1419هـ/1999م).

53- كامل حسين محمد: طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، دار المعارف (مصر)، ط1 (1962)،

54- ــــــــــــ: طائفة الإسماعيلية (تاريخها- نظمها- عقائدها)، مكتبة النهضة المصرية، ط1 (1959م).

55- محمود السيد: تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، ط1 (2002م).

56- المطوي محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي(بيروت)، ط2 (1982).

57- المقدم محمد عبد الله: الاغتيالات في بلاد الشام والجزيرة زمن الحروب الصليبية، دار العالم العربي (القاهرة)، ط1 (2008م).

58- مكارم سامي نسيم: أضواء على مسلك التوحيد، تق: كمال جنبلاط، دار التقدمية، ط3، (2010)،

59- النجار عبد الله: مذهب الدروز والتوحيد، دار المعارف (مصر)، ط1 (1965).

60- نسيم يوسف جوزيف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية(بيروت)، ط3(1981).

المراجع المعربة:

61- باركر أرنست: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار النهضة(بيروت)، ط2، د-س-ن.

62- حتي فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، تر: جورج حداد وعبد الكريم رافق، مر: جبرائيل جبور، دار الثقافة (بيروت)، ط2 (1957).

63- دفتري فرهاد: الإسماعيليون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامية، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي، ط 01 (2008)، بيروت.

64- ـــــــــــ: معجم التاريخ الإسماعيلي، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي (بيروت)، ط1 (2016م).

65- سيمينوفا.ل.أ : تاريخ مصر الفاطمية، تر وتح: حسين بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1(2001م).

66- غروسّيه رينيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، تر وتع: أحمد إيبش، دار الكتب الوطنية (أبو ظبي)، ط1(2014م).

67- لويس برنارد: الحشاشون (فرقة ثورية في تاريخ الإسلام)، تر: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي (القاهرة)، ط2 (2006م).

68- ليسترنج كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ط2، (1405هـ/ 1985م).

69- ماير هانس إبرهارد: تاريخ الحروب الصليبية، تر وتع: عماد الدين غانم، د-د-ن.

70- معلوف أمين: الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر: عفيف دمشقية، دار الفارابي (بيروت)، ط2(1998م).

71- ميثا فاروق: الغزالي والإسماعيليون (العقل والسلطة في إسلام العصر الوسيط)، تر: سيف الدين القصير، دار الساقي (بيروت)، ط1 (2005م).

ثالثا- المراجع باللغة الأجنبية

01- Alan.v. Murray: from Clermont to Jerusalem, the crusades and crusader societies(1095-1500), turnhut, brepols, (1998).

02- David Nicolle. Ph. D: Saladin and the Saracens, color plates by angus McBride, copyright 1986 reed. International books. Ltd.

03- De lacy o'leary.d.d: A short history of the Fatimid khalifate, London, kegan paul, trench, trubener. Co. ltd, new York: e.p. Dutton.co. 1923.
enterd at stationers, hall(London), 1898.

04- Habib feki, les idées religieuses et philosophiques de l’ismaélisme fatimide (organisation et doctrine), publications de L’université de Tunis, (1978).

05- J.collin de plancy: Légendes des croisades depuis les premiers temps jusqu’ a nos jours, bibliothèque sant libère (2008), paris.

06- Joseph François Michaud, the history of the croisades, new York, vol 1.

07- King, William Laurence.m.a: cultural diffusion in the crusade states, 1098-1187, copyright, California state university , Fullerton, (1994).

08- Michel psellos, chronographie ou histoire d’un siècle de byzance (976-1077), les belles lettres (Paris).

09- Stanley lane- Poole. M.a : Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, copyright, G. P. Putnam’s sons,

10- Tood Patrick Upton: sacred topography western sermon perceptions of Jerusalem the holy sites and Jews during the crusade(1095-1193), proquest information andlerning company(usa), (2007).

11- Walter porges, the clergy and other noncombatants on the first crusade, A study based chiefly on the contemporary narrative and epistolary sources, Chicago, Illinois, (1942).

12- Yves gravelle, le problème des prisonniers de guerre pendant les croisades orientales(1095-1192) mémoire présente pour obtenir la maitrise Es arts en histoire, université de sherbooke (canada), 1999.

رابعا- قائمة الرسائل

01- محمد أحمد الخطيب: عقيدة الدروز (عرض ونقد)، رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض)، إشراف الأستاذ زيد بن عبد العزيز الفياض، د-س-ن.

قائمة الفهارس

قائمة الفهارس

أولا– فهرس الآيات

ثانيا- فهرس الأحاديث

ثالثا- فهرس الأعلام

-أ-

قائمة الفهارس

قائمة الفهارس

-ت-

-ث-

-ج-

-ح-

-ش-

-ص-

-ض-

-ط-

-ظ-

-ع-

-ف-

-ق-

-ك-

-ن-

رابعا- فهرس الأعياد

خامسا- فهرس الأماكن

-أ-

قائمة الفهارس

-ت-

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ذ-

-ر-

-ز-

-س-

-ش-

-ض-

-ط-

-ظ-

-ع-

-ك-

-ل-

-م-

سادسا- فهرس الشعوب والطوائف

-أ-

-ت-

-ج-

-ح-

-ك-

-ل-

-م-

ثامنا- فهرس المحتويات